باتريك سيل

الصراع على سورية

دراسة للسياسة العربية بعد الحرب ١٩٤٥ - ١٩٥٨





الصراع على سورية



للدراسات والترجمة والنشر
دمشق ـــ اوتوستراد المزة
هاتف ٢٤٤١٢٦ ـــ ٢٤٣٩٥١
تلكس ٤١٢٠٥٠
ص . ب : ١٦٠٣٥
العنوان البرقي
طلاسدار
TLASDAR

ريع الدار مخصص
لصالح مدارس ابناء الشهداء في القطر العربي السوري

باتريك سيل



دراسة للسياسة العربية بعد الحرب ١٩٤٥ - ١٩٥٨

ترجمة : سمير عبده
محمود فلاحة

هذه ترجمة لكتاب

The Struggle for Syria
A Study of Post - War Arab Politics
1945 – 1958

by

Patrick Seale

طبعة ١٩٨٦

تصدير

يبقى التاريخ السياسي لسورية ما بعد الاستقلال محصوراً ضمن ثلاث مراحل مهمة. اولها المرحلة التي يؤرخ بها باتريك سيل الصراع السياسي على سورية بين عامي ١٩٤٥ و١٩٥٨. وثانيها مرحلة الوحدة والانفصال بين عامي ١٩٥٨ – ١٩٦٣. والمرحلة الثالثة هي منذ قيام ثورة ٨ آذار ١٩٦٣ والى الآن.

وقد عالج الصحفي البريطاني المشهور باتريك سيل مشكلة الصراع على سورية مؤرخاً مراحل تاريخ هذا القطر، بعد ان تعاقبت الاحداث المثيرة، منذ نيل الاستقلال الى قيام الوحدة بين القطرين السوري والمصري، بشكل احتاجت به الى المؤرخ الصادق والمحلل السياسي القدير الذي يعطي صورة موضوعية عن خفايا الاحداث السياسي التي جرت.

وقام المؤلف بتسجيل هذه الاحداث بعد ان رشحته دائرة الشرق الأوسط بجامعة اكسفورد، حيث اتخذ لنفسه مكتباً في بيروت، فقام مع فريق من الباحثين بجمع وتنسيق وتحليل المعلومات التي توفرت له عن مرحلة ١٩٤٥ – ١٩٥٨. وكان في احيان كثيرة يقابل ساسة عربا كان لهم دور في تسيير دفة الحكم آنذاك لاجلاء غوامض ماخفي في الكتب والمراجع، وبهذه الصورة استطاع باتريك سيل ان يسجل تاريخاً سياسياً اقرب الى الموضوعية في مرحلة الصراع على سورية.

يبقى ان نشير الى أن المؤلف ليس غريبا عن سورية، فقد استوطن والده مدة في دمشق، وامضى باتريك مرحلة التعليم الابتدائي والثانوي في معهد الليسيه بدمشق، ولهذا اثره في نفسه. فالملاحظات التي أرخ بها تاريخ سورية تجعل المرء يظنه من سكانها، لما فيها من لمسات يضفيها بأسمائها لسير الاحداث، وفي هذه الفطنة كان عمله عظيماً.

لقد مضت الآن اكثر من خمسة عشر عاما حين صدرت طبعته الاولى بالعربية وثلاث سنوات على طبعته الثانية، وهاهو يعاد الآن طبعه للمرة الثالثة عن دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، بعد ان اعتُمدت مادته لأكثر من اطروحة ومرجع دراسي، كما ندر من لم يقتنيه من القادة والسياسيين، وقررت معاهد وجامعات تدريسة لطلابها.

ويقيني انه لو تُرجم الكتاب شخص بعيد عن المنطقة لكانت الأخطاء في ترجمة الاعلام كثيرة، حيث كنت ارجع الى الوثائق الرسمية حين يلتبس عليّ احد الاسماء، فأعيد التصحيح.

وكما اشرت في البدء ان تاريخ سورية الحديث يتمثل بثلاث مراحل أولها ماجاء في هذا الكتاب، والمرحلة الثانية وهي مرحلة الوحدة والانفصال، وقد انهيت كتابتها بشكل علمي وموضوعي استدعى مني وقتاً طويلا تجاوز الاثني عشر عاما، وستنشر قريباً.

آملاً أن أكون عند حسن ظن القارئ العربي ورضاه.

كانون الثاني ١٩٨٣

سمير عبده

تمهيد

يتناول هذا الكتاب فترة حديثة من التاريخ العربي طال النقاش حولها ، وهي فترة الاعوام الاثني عشر أو نحوها ، تلك التي تلت الحرب العالميـــة الثانية ، حين نال العرب مايقرب من الاستقلال الحقيقي ، وغدا في مقدورهم أن يمارسوا سياسة خارجية مستقلة ، لقد تم آنئذ غرس كثير من جذور مايجرى حاليا في الشرق الاوسط .

اني أود أن أقول للقراء العرب جادا : اني سعيت إلى أن أكون منصفا وموضوعيا ، رغم أني لم أفلح في ذلك دائما ، وهذا الكتاب ليس مع أى زعيم عربي أو ضده ، مع أى حزب أو دولة أو مبدأ أو ضدها ، فقد أردت أن أفسر وأكشف ماضي بعض المشكلات المعاصرة، لا أن أصب الزيت على النزاعات الحالية القائمة ، وسأكون مسرورا اذا قبل السوريون ، بوجه خاص، هذا العمل بجميع عيوبه ، هبة مني لبلد تشدني اليه أقوى الروابط .

اني شاكر جدا لعميد و مدرسي كلية سانت انطوني في اكسفورد المنحة الدراسية التي قدموها لي لوضع هذا الكتاب ، كما أنني مدين للسيد البرت حوراني مدير مركز الشرق الاوسط في كلية سانت انطوني لتدريسه وتوصياته وتشجيعاته الودودة في كل مرحلة ، وللآنسة اليزابيت مونرو أدين بصداقة حافزة طويلة امتدت سنوات عشرا ، وقد قرأ السيد حوراني والآنسة مونرو والاستاذ برنارد لويس مسودة الكتاب فنقدوها وكشفوا عن أخطاء عديدة .

اني أتوجه أيضا بشكري الجزيل إلى السيد بيتر كالفوكورسي وبعض

الاصدقاء الآخرين في الجامعة الاميركية في بيروت وهم : حنا بطاطو ، جوزيف مالون ، يوسف ايبش ، ديفيد جوردون وخلدون الحصري للآراء القيمة التي عرضوها ، كما أن ثمة دينا خاصا في عنقي لادارة مكتبة مطبعة شاتام هاوس ، وللآنسة جيل سانجستر لطباعتها مخطوط الكتاب ، وللآنسة هرميا اوليفر من ادارة التحرير في شاتام هاوس لعملها الانيق في تهيئة الكتاب للطبع وللسيد سي . ه . انج لجمعه الفهارس .

باتريك سيل   تموز ١٩٦٤

ملاحظات حول المصادر

تندر المصادر الاساسية حول تاريخ الشرق الاوسط المعاصر ، وتميل حين وجودها الى التحزب والتشيع بشكل مؤسف . وهناك في نهاية الكتاب ثبت دقيق منصف بأسماء هذه المصادر والمؤلفات المسجلة قدمت ، باستثناءات قليلة ، تنسيق الكتاب اكثر من تقديمها قصة السياسة السورية فيما بعد الحرب ، حتى لقد وجدت نفسي منساقاً نتيجة لذلك ، الى الاعتماد على كثير من التقارير الصحفية ، وعلى الاذاعات « الموجهة » الملتزمة والتي قد تكون لوحدها اثمن مرشد الى التقلبات الجارية على المسرح العربي . بيد اني كنت محظوظاً في أن كثيرين من العرب الذين ساهموا في الحياة العامة ، قد ساعدوا بكرم ، وبما استعادوه من ذاكراتهم ، على تصحيح واكمال الصورة التي كونتها من مصادر متفرقة اخرى ذلك ان المزية في كتابة تاريخ حديث ، هي أن المشتركين فيه قد يرضون أحياناً ان تؤخذ آراؤهم .. ولقد دونت الاتصالات التي تمت شفوياً بهم ، كما ترجمت حيث كان ضرورة الى ذلك . إن شكري العميق لموجه بصورة خاصة الى من يلي ، دون ان يتحمل احد منهم مسؤولية شرحي وتفسيري للاحداث ، وهم :

١ ــ من سورية :

ميشيل عفلق ، نجيب الارمنازي ، صبري العسلي ، حسن الاطرش ،

عصام العطار ، جمال الاتاسي ، المرحوم خالد العظم ، حسني البرازي ، صلاح البيطار ، لطفي الحفار ، حسن الحكيم ، اكرم الحوراني ، ادمون حمصي ، خالد العيسى ، رشاد جبري ، الاخوان خليل وبهيج الكلاس ، عبد الرحمن الكيالي ، رشدي الكيخيا ، المرحوم فارس الخوري ، صلاح المحايري ، فرزت المملوك ، المرحوم جورج فارس ، قدري قلعجي ، بديع الكسم ، ناظم القدسي ، المرحوم شكري القوتلي ، عبد الحميد السراج .

٢ - من العـــراق :

غازي الداغستاني ، يوسف الكيلاني ، خلدون الحصري ، حسين جميل ، هاشم جواد ، فؤاد الركابي ، فائـــق السامرائي ، صديق شنشل .

٣ - من مصر :

احمد بهاء الدين ، محمود رياض ، محمد صلاح الدين ، المرحوم صلاح سالم .

٤ - من لبنان :

جبران مجدلاني ، شارل مالك ، أدمون رباط ، غسان تويني ، عبد الله سعاده ، شوكت شقير .

اما المطبوعات والمنظمات التالية فقد كانت ذات قيمة خاصة ايضاً وهي :

• مجمل الاذاعات العالمية — اعداد هيئة الاذاعة البريطانية — القسم الرابع

(الملحقات اليومية لاذاعات العالم العربي واسرائيل واليونان و تركيا وايران) .

- مكتبة مطبعة شاتام هاوس .
- التقارير التي قام بجمعها المركز الوثائقي في باريس والتي وضعها تحت تصرفي المستر جين فينو .
- مجموعة النشرات السياسية السورية في الجامعة الاميركية – بيروت .
- مجلة دفاتر الشرق المعاصر – فصلية باريس .
- مجلة الشرق الحديث الشهرية – روما .
- مجلة الشرق – باريس – فصلية .
- مجلة الشرق الاوسط – واشنطن – فصلية .
- مجلة ميزان للانباء – عرض شهري لما تكتبه الصحافة السوفييتية عن الشرق الاوسط .
- العالم العربي – (ماخص يومي لما تكتبه الصحافة العربية ينشر في بيروت –) .
- مكتب الوثائق (السورية) العربية – دمشق .
(جرى تبديل الاسم منذ قيام الجمهورية العربية المتحدة) .

مقدمة

انصب اهتمام الوطنيين العرب ، مابين الحربين العالميتين ، على تخليص اقطارهم اولا من وجود الدولة الاجنبية المحتلة ، وهي فرنسا في سورية ولبنان ، وانجلترا في أى مكان عربي آخر ، ومن الممكن تعريف الوطنية كليا تقريبا في هذه الفترة بأنها رفض السيطرة الاجنبية ، فقد كان ثمة رجال مختلفون في نزعاتهم وماضيهم ، يتحدون تحت راية الاستقلال الوطني ، ولكن صحب التصفية التدريجية ، للاحتلال العسكري والادارة السياسية لكل من الفرنسيين والانجليز ، تغير في مضمون التطلعات العربية . فمنذ منتصف الجيل الذي تلا الحرب ، تحولت الطاقات العربية بصورة متزايدة ، من المساجلة مع الاجنبي إلى نوع آخر منها قلما يكون أقل عنف ويتم فيما بينها ، لقد لحق النضال من أجل الوحدة بالسباق من اجل الاستقلال ، وكان هذان الأمران ، الاستقلال والوحدة ، يبدوان كالسوائل في الاواني المستطرقة ، فحين تقطع الخيوط الغربية الموجهة يتخذ التوتر بين الدول العربية وفي داخلها اهمية غير متوقعة ، أما حين يتضاءل النفوذ الغربي فان المشكلات المحلية لكل من القيادة والتنظيمات السياسية للاسرة العربية تزدادان ظهوراً .

وفي وسط هذه التيارات المتعارضة تقع سورية ، مرآة للمصالح المتنافسة على المستوى الدولي ، مما يجعلها جديرة بعناية خاصة ، والحقيقة ان شؤون سورية الداخلية تبدو وكأنها فاقدة المعنى تقريباً ما لم تعز إلى القرينة الاوسع ، وهي جاراتها العربيات اولا ، والقوى الأخرى ذات المصالح ثانيا . وليس

من قبيل الصدفة ان تعكس سورية في تركيبها السياسي الداخلي منافسات جيرانها وخصوماتهم . واني لآمل ان استطيع تبيان ان من يقود الشرق الاوسط ، لا بد له من السيطرة على سورية ، ذلك ان هنالك اسبابا تدعوني إلى تبني هذه النظرة ، أحدها موقع سورية الاستراتيجي ، فهي تشرف على « الممرات » الشمالية الشرقية الموصلة إلى مصر ، وعلى الطريق البري ما بين العراق والبحر الابيض المتوسط ، وعلى شمال الجزيرة العربية والحدود الشمالية للعالم العربي ، وثانيها ، ان سورية تستطيع الادعاء بانها كانت رأس الحركة العربية القومية وقلبها منذ بدايتها في أوائل هذا القرن ، وكانت منبع الافكار السياسية والمولدة لها ، ومرتفع الاحلام والتصورات الوطنية التي لا تحصى .. ان جزءا من هذا التراث على الاقل يقع على من يحكمها .

ويرى بعضهم ، أن المنافسة القديمة ما بين سادة دجلة وسادة النيل هي مثال حتمي متكرر ، ومن الواضح ، دون ان نقع ضحايا نظريات الحتمية ، ان الصراع ما بين العراق ومصر كان سمة بارزة لفترة ما بعد الحرب . وان كل من طمح الى قيادة العرب نشد الاصدقاء من بين الجيران ، والحلفاء الاقوياء حيث هم ، ولكن النجاح بدا من حين لآخر منوطا بالسيطرة على سورية ، وهنالك فرض ضمني مفهوم يكمن وراء السياسة العربية لكل من مصر والعراق ، وهو أن سورية تمسك بمفتاح النضال من أجل التفوق المحلي ، كما تدركان أيضا ، أن من يسيطر على سورية ، أو يتمتع بصداقة خاصة معها ، يمكن له ان يعزل الآخر ، ولن يكون في حاجة آنئذ إلى الانحناء امام أي ترابط للدول العربية . ان مصر والعراق هما فقط المتنافستان ، أما سورية ، فما عليها الا أن تتحرك نحو هذه أو تلك حسب تقلب الميزان ، لذلك فلا مفر من أن يحمل نسق شؤونها الداخلية ، بصمات هاتين القوتين المتنافستين ، وقد رهن السياسيون والزمر والجماعات المؤثرة الفعالة في سورية نفوسهم لهذا الجانب أو ذاك ، ولكلا الجانبين احيانا .

لقد تمتعت سورية خلال الصراع من أجل التفوق العربي بموقع هام جدا في تلك الفترة حتى غدت كل دولة عربية ، تهدف إلى « سياسة عربية » في

فترة ما بعد الحرب ، مضطرة إلى وضع خطة تتعلق بسورية اولا ، فتعمل على توسيع نفوذها فيها ، اذا لم ترد ما هو أكثر من ذلك ، أو اذا فشلت في منع الدولة المنافسة من توطيد اقدامها هنالك . أما القضية الفلسطينية لوحدها فتظل ذات شأن قليل في السياسة العربية الداخلية لهذه الفترة ، اذا طرح جانبا همّ الهاشميين الدائب وتوقهم إلى ضم سورية وما يقابل ذلك ويساويه من تصميم مصر والعربية السعودية على منع أي انضمام كهذا . ان قصة النضال من أجل الوحدة العربية في العقدين الماضيين ، إذا نقلت إلى عبارات سياسة القوة ، لم تكن سوى مزايدات متنافسة للسيطرة على سورية ، فباسم الوحدة العربية سعت كل من مصر والعراق إلى فرض انماط متنافسة من العلاقات على زميلاتهما الدول العربية ، ولم يكن يجمع هذه العلاقات كلها سوى سورية ذات الدور المركزي المدعوة إلى القيام به ، وكان الصراع ذا أهمية خاصة ، لانه دفع بالمشتركين الرئيسيين إلى حوار عقائدي ، لا يزال مستمراً حتى اليوم ، حيث بدت متناقضة فيه جميع منازعات الحركة الوطنية العربية وبنيتها السياسية وانتساباتها الدولية ومناهجها الاقتصادية والاجتماعية .

ان سورية ، بالاضافة إلى ما نسبته وادعيته لها هي بوجه خاص مركز مراقبة جيد ، يمكن منه رصد سياسات الدول الكبرى في المنطقة ، فكما انها مركز المنافسات بين الدول العربية فهي ايضا المحور الذي تدور حوله اعظم التحركات الديبلوماسية التي يمارسها الغرب والاتحاد السوفييتي ، فعلى حقل السياسة الداخلية السورية جرت ، المعارك الحاسمة من أجل حلف بغداد ومبدأ ايزنهاور وعزم روسيا على ضم سورية إلى منطقة النفوذ السوفيتي عام ١٩٥٧ ، هذا هو المستوى الذي كان يقرر عليه اخيراً الفشل أو النجاح .

ان هذا لا يعني أن سورية هي فقط نقطة لقاء للمنافسات الدولية ، فسياستها الداخلية كانت جد معقدة ، ومساهمتها المحلية في الافكار السياسية العربية الرائدة كانت غنية ، لذا فلا يجب ان تؤخذ على أنها الضحية المستكينة لنزاعات الشعوب الاخرى ، ذلك ان العكس كان هو الصحيح احيانا ، فالخلاف والتنافر فيها كانا يصدّران احيانا إلى جيرانها الاقربين وإلى الابعدين ،

وهكذا ، فاننا حين نتقصى أسباب بعض الازمات الدولية الخطيرة نجد ان الطريق يقود إلى دمشق ، وان حركة المرور ذات الاتجاهين ، من دمشق واليها ، لتشكل موضوع هذه الدراسة . ان تدقيق النظر إلى سورية ليشبه تفحص نموذج شهير في الحوض السياسي للشرق الاوسط ، فمعظم المبادىء والتيارات السياسية في العالم العربي ، ولدت فيها او عملت فيها بوضوح خاص .

لقد كانت الهزيمة في فلسطين عام ١٩٤٨ درسا بليغاً للعرب في سياسة القوة ، وكان لا بد ان تؤثر في جميع ما تلاها من سلوك وعدم ثقة بـــالقيم السابقة والعلاقات الدولية ، وعلى حد سواء أيضاً بالرجال الذين القيت عليهم تبعة النكبة ومسؤوليتها ، لقد نجم عن الحرب القصيرة المفجعة من المرارة أكثر مما اوجدته عقود من الاحتلال شبه الاستعماري ، وكانت سورية الدولة العربية الأولى التي امكن ان يلحظ فيها وقع المأساة ، ففي اوائل سنة ١٩٤٩ اطاح الجيش بنظام الحكم القائم ، فأقام بذلك اسلوباً لتدخل العسكريين في السياسة احتذي في أقطار أخرى ، ولكن بروز الجيش كقوة قائدة اولى في السياسة السورية لم يفض إلى عزل جميع المدنيين المنافسين كما جرى في مصر ، ذلك ان الجيش حكم وحده فترات متقطعة متباعدة لعدم وثوقـــه من قوته ، وهكذا فان سورية تستطيع ان تفخر بانها كانت برجا للاحزاب خلال الاعوام التي سبقت الوحدة مع مصر عام ١٩٥٨ ، وبأنها كانت غنية في الحياة السياسية بصورة لا تجاريها فيها أية دولة عربية أخرى ، وهكذا فأن سورية تطرح نموذجا ناشطا لدراسة تداخل القوى والافكار من مختلف الالوان السياسية وصراعاتها .

ان انحلال الاحزاب الوطنية التقليدية قد تجلى هنا بوضوح تام بعد الحرب ، ذلك انها غدت عاجزة عن تشخيص المشكلات التي اوجدها الاستقلال ، فتخطاها الزمن بعد ان استكانت اثر فوزها على الدولة المنتدبة ، وخلفتهـــا مجموعات اصغر سنا واكثر راديكالية ، فسورية هي التي دفعت إلى المجلس النيابي بأول نائب شيوعي في العالم العربي ، وهي الدولة الاولى التي بدت وكأنها في خطر من أن تصبح دولة تابعة للسوفييت ، ان شعار الحياد قد سمع

منها قبل ان ترفع مصر هـــذا الصوت ، وأخيراً انهـــا هي التي قدمت أكبر مساهمة في هذه الفترة للفكر السياسي العربي كما هو مبين بشكل خاص في حزب البعث .

لقد سُلّم ، منذ زمن طويل ، بأن كثيرا من العرب يشتركون في لغة واحدة ودين واحد، ونماذج ثقافية، ومعاهد وذكريات تاريخية كلها مشتركة، ولكن هذه العوامل جميعها لم تحوّل بذاتها المسيرة نحو الوحدة العربية إلى قوة مؤثرة في السياسة المعاصرة ، فقد كان ينقصها التنظيم كما ان شروطها كانت غامضة ، ولكن البعث ، الحركة السياسية ذات المنشأ السوري ، هو الذي صهر هذه الفكرة وحولها إلى أداة سياسية قوية ، فأنجز ، بالتحالف مـــع عبد الناصر ، تنفيذ الوحدة السورية المصرية والتي ستظل ، مهما كان عمرها قصيراً ، أهم حدث كبير في التاريخ العربي لما بعد الحرب .

كثير من الدروب يقود إلى دمشق ، حيث العديد مما يعبر عن السياسة العربية عموما ، وعن تطور المجتمع العربي وقضاياه الكبرى ، مما دفع بمصر عام ١٩٥٨ إلى المغامرة في قلب آسيا العربية . ان الوحدة العربية لا تزال قضية عاطفة أكثر مما هي فكرة سياسية محددة تماماً ، وليس لدولة أو زعيم او حزب أن يدعي انه بطلها المطلق ، فالاحرى ان يوجد معناها في فحص السياسات المتنافسة للدول المتصارعة من أجل احراز زعامة العالم العربي ، كما يمكن ان يوجد في اسهام سورية الخاص في السجال ، فهي لا تقف مستسلمة حتى يفوز بها هذا او ذاك ، فهي ستظل عربية أو لا تكون (١) .

❀ ❀ ❀

---

(١) ادمون رباط – الوحدة السورية والصيرورة العربية باريز ١٩٣٧ ص ٣٤٦

٢

الهاشميون والهلال الخصيب

« ان هذا الفصل والذي يليه تمهيديان ، فهما يحاولان ، بايجاز شديد ، تبيان جذور اهتمام الهاشميين بسورية ، والاشتراك المصري المنافس لدول آسيا العربية ، أما بقية السياسة العربية ، كما ترى من دمشق ، فتبدأ في الفصل الرابع » .

* * *

في القرن التاسع عشر ، لم يكن يفصل آسيا العربية ما بين الاناضول ومصر أية حدود وطنية ، فمن الشمال إلى الجنوب لم تقم حدود لغوية او طبيعية أو عرقية ذات أهمية ، فكان الرجال والبضائع يتنقلون بحرية عبر سورية إلى جميع أطراف الامبراطورية العثمانية ، فلا تعيقهم رقابات جوازات السفر او الحواجز الجمركية ، وكانت الموانيء القائمة على البحر الابيض المتوسط كالاسكندرية وبيروت وطرابلس تلعب دوراً هاماً في خدمة . الموانيء «الصحراوية» ، وهذه بدورها تقدم الخدمات الجلى للمناطق الداخلية . ولقد مرت عبر دمشق قوافل شرقي الاردن وفلسطين ونجد والحجاز ، كما ادارت حلب الشؤون التجارية للاناضول وكيليكيا ومنطقة الموصل وبغداد وفارس ، أما المدن السورية الداخلية كحمص وحماه فقد أمدت القبائل البدوية وجبل شمر ومنطقة الحماد بالمؤن ، ولكن هذه البقعة الواسعة قد

جزئت عام ۹۲۲ من قبل الفرنسيين والانجليز إلى ما لا يقل عن ثماني وحدات ذات استقلال اداري داخلي ، فغدت سورية وقد فصلت عنها مناطقها الداخلية جذعاً بلا فروع ، واصبح تحرير هذه الاقاليم واعادة توحيدها الهدف الرئيسي لحركة القومية العربية .

لقد راقبت سورية التي قضت فترة ما بين الحربين تحت الحكم الفرنسي ببعض الحسد خطوة التطور الدستوري التي ادخلتها بريطانيا إلى العراق ، وفي الحقيقة فان الهدف الذي رنا اليه معظم الوطنيين السوريين كان معاهدة مع فرنسا على نسق المعاهدة البريطانية ــ العراقية المعقودة عام ۱۹۳۰ والتي انهي بموجبها الانتداب ، كما تتبع السياسيون العراقيون ، من جانبهم ، التاريخ العنيف الفاجع للانتداب الفرنسي في سورية ، تتبعوه بمشاعر أخوية لم تكن لتقل في سخطها عما أثارته اقامة المستعمرات الصهيونية في فلسطين ، فقد جمعت الصلات العديدة وربطت بين أقليّي البلدين المتعلمتين ، فكان الرجال البارزون في الحياة العامة السورية والعراقية زملاء في كلية حقوق استانبول أواخر عهد الامبراطورية طلابا للعلم ، أو في المؤتمر العربي الأول الذي عقد في باريس عام ۱۹۱۳ ، وقد اراد الضباط من الاقاليم « الناطقة » بالعربية ، الحركة الداعية إلى الاستقلال العربي الذاتي ضمن الامبراطورية ، كما ارسلوا مذكرة عام ۱۹۱٥ إلى الحسين شريف مكة ليرشدوه في مفاوضاته مع البريطانيين قبيل الثورة العربية . ولقد أمدّ العراق الثورة السورية عام ۱۹۲٥ بمعونات سرية ، وجعل من أرضه ملجأ للهاربين من القمع الفرنسي ، وسعى عام ۱۹۳٦ إلى الضغط على ارتباطه ببريطانيا ، لحملها على العمل بما يخدم الوفد السوري المفاوض في باريس آنئذ ، (وكانت الاموال العراقية تقدم حتّى لتسديد قوائم حساب الفنادق التي يقيم فيها السوريون) ، كما استقبل الغاء الدستور السوري قبل اندلاع الحرب العالمية الثانية بمنتهى السخط . بيد ان سقوط فرنسا عام ۱۹٤۰ انعش الآمال في أنهيار سريع للانتداب ، فكان العراق يتابع باهتمام بالغ المرحلة الاخيرة من النضال من أجل الاستقلال السوري ما بين ۱۹٤۳ ــ ۱۹٤٥ ، وحين نشب القتال ما بين الفرنسيين والسوريين كان قرار بريطانيا بالتدخل هو فقط ما منع العراقيين من التدخل . ان موضوع

أنشاء دولة عربية مستقلة موحدة قائمة في الهلال الخصيب مهما كان رسوخها في الطبيعة والتاريخ ، يدعمها نشاط الاسرة الهاشمية — امر لا يتطلب ايضاحات خاصة ، ولكن ما يتطلب الايضاح هو : لم لم تظهر هذه الدولة قط إلى حيز الوجود .. ؟

أرتباطات الاسرة الهاشميـــة :

سيطر الشريف حسين ، رأس البيت الهاشمي ، على الحركة الوطنيـــة للشباب العربي عام ١٩١٦ ، ولن يكون سهلا منذ الآن فصل حظوظ الحركة عن حظوظ الاسرة الهاشمية ، لاسيما عن سيرة فيصل ، الابن الثالث للحسين. لقد كان الشريف حسين يرى ان تقوم امبراطورية عربية يرئسها هو نفسه ، ولكن رؤيته هذه تلاشت حين جابهتها حقائق المصالح الفرنسية — الانجليزية ، فاتضح له سريعا ان التطلع الى إقامة دولة موحدة بعد الحرب العالمية الاولى لايمكن تحقيقه حالا ، فأقر هو وابناؤه منهاجا للاسرة بالرغم من أنه لم ينفذ كلياً ، الا ان فيه الدليل على الكثير مما كان للهاشميين فيما بعد من سلوك ، ويصف السير الك كيركبرايد ، احد موظفي الحكومة البريطانية وقد عرف الهاشميين جيداً آنئذ ، يصف ميثاق الاسرة بما يلي (١) .

((وافق « الحسين » وابناؤه على ان يخلف « علي » الابن الاكبر اباه على الحجاز ، وان يصبح « عبد الله » الابن الثاني ملكاً على العراق ، وان يصبح « فيصل »الابن الثالث ملكا على سورية » وعندما انتهى القتال عام ١٩١٨ ووجد فيصل في دمشق ، أعلن نفسه ملكا على سورية بعد اشهر ، فكان بذلك ينفذ ما يتعلق به من منهاج الاسرة ، واصبح الأب ملكا على الحجاز والامير علي ولي عهده ، أما الامير عبد الله فقد اضحى وزير خارجية أبيه ،لان مستقبل العراق لما يتضح بعد ، على أمل ان تظهر مملكته إلى الوجود قريباً . ولكـــن الخطة هذه سرعان ما تمزقت ، « ففيصل » لم يتوصل إلى أتفاق مع فرنسا ذات

---

(١) السير الك كيركبرايد — تقصف الأشواك ص ١٨ . لندن ١٩٥٦

المطامع في سورية ، فطرده جيشها من مملكته في تموز عام ١٩٢٠ . فلم يذهب إلى موطنه في الحجاز رجـلا مهزوماً وانمـا توجه بدهاء الى مؤتمر السلام المعقود في باريس ، حيث بزغ نجمه بعد مناورات مختلفة مرشحا للعرش في في العراق ، تدعمه في ذلك حكومة صاحب الجلالة (البريطانية) ، وقد نجح في الفوز بدعم العراقيين ، فتوج ملكاً في بغداد في تشرين الاول ١٩٢١

كان من الطبيعي ، وقد اصبح فيصل المختار لعرش العراق ، أن يثور الأمير عبد الله ، دون ان يستطيع عمل شيء كثير ذلك انه كان خارج الصورة دوليا فأخفق في إقامة أية درجة من الاتصال مع السياسيين العراقيين الذين يستطيعون هم ، وهم فقط ، ان يمنحوه الوسائل التي تساعده على ادراك ما يطمح اليه .

وبينما كان هذا كله يجري ، منحت بريطانيا في حزيران ١٩٢٠ الانتداب على فلسطين بحدود جغرافية تشمل شرقي الاردن ايضاً .

ان عبد الله ، وقد رأى انه لن يستطيع الوصول إلى عرش العراق ، جمع جيشاً خاصاً ، واعلن عزمه على الزحف إلى سورية لطرد الفرنسيين ، فدخل اثناء مسيره شمالا في كانون الثاني عام ١٩٢١ المنطقة الخاضعة للانتداب البريطاني شرقي نهر الاردن ، واقام ادارة مركزية في عمان ، واضطلع بمسؤولية المنطقة بكاملها في آذار ١٩٢١ .

وحتى حزيران التالي جاء قرار حكومة صاحب الجلالة الذي يتفـق وسياستها القائمة على قبول الأمر الواقع ،فاعلنت انها على استعداد للاعتراف بحكم الامير عبد الله لذلك الجزء من المنطقة التي يشملها الانتداب شرقي نهر الاردن شريطة ان :

آ ــ يعترف الامير عبد الله بصلاحية الانتداب المشار اليه .

ب ــ يتخلى عن عزمه الذي جاهر به في محاولة فتح سورية .

وقد قبل الامير بهذين الشرطين دونما نقاش ، بعد ان أصبح على قناعة تامة بالشكل الذي جرت فيه الامور ، حيث تم آنئذ الكشف الشهير عن آن

نصوص الانتداب الخاصة باقامة وطن قومي لليهود لم يقصد بها ان تطبق على الاقليم الذي يشمله الانتداب شرقي النهر .

وحين برهن الاردن وفاءه وحفاظه على الصداقة خلال السنوات السيئة من الحرب العالمية الثانية ، حظي السياسيون في بريطانيا بالفخر للطريقة التي عالجوا بها مستقبل البلد خلال ايامه الاولى (٢) .

ان النقطة الجديرة بالملاحظة ، هي ان عاقبة اخفاق الهاشميين في تنفيذ منهاج الاسرة قد اتخذت شكل تيارين قويين من المطامح الخائبة .

اولهما ان فيصلا لم يستطع ان ينسى سريعا عاصمته القديمة دمشق حيث طرده منها الفرنسيون دون اكتراث ، فكان التصميم على العودة وتحرير سورية مدمراً لورثته والمادة الرئيسية في المنهاج العربي الشامل ، وقد ذكر المؤرخ العراقي ، مجيد خضوري ، أن فيصلا حين غادر دمشق إلى بغداد حمل معه مركز القومية العربية ، فغدا العراق ما بين ١٩٢١ – ١٩٤١ البلد العربي الاول المرجو لقيادة العرب في سبيل تحقيق امانيهم القومية (٣) ، ومهما كان الامر فان مطالب الهاشميين في سورية ، والقائمة على حكم فيصل لدمشق ، ومدته عشرون شهراً ما بين عامي ١٩١٨ – ١٩٢٠ ، اسهمت في تبرير مشروع وحدة الهلال الخصيب الذي طرحه خلال الحرب العالمية الثانية السياسي العراقي نوري السعيد .

أما ثاني تياري السخط ، فقد ولّده عبد الله ، الابن الثاني للحسين ، فهو لم يغتفر لاخيه الاصغر فيصل قبوله عرش العراق الذي كان مقررا له (في منهاج الاسرة) ، فقام ينشد هو أيضاً العزاء في سورية ، زاعماً ان المملكة السورية التي فقدها فيصل يجب ان تكون له ، ذلك ان ورثة فيصل قد خلفوه في عرش العراق . وكان هذا هو اصل حملة عبد الله المديدة

---

(٢) المصدر السابق ص ٢٧ – ٢٨

(٣) مجيد خضوري ، مشروع الهلال الخصيب – دراسة في العلاقات العربية الداخلية ، طبعة ر . ن فرى ، (الشرق الادنى والدول الكبرى ١٩٥١) ، ص ١٣٧

من أجل « سورية الكبرى » ، أي إعادة توحيد اقاليم سورية ولبنان وشرقي الاردن وفلسطين تحت تاجه .

عام ١٩٤١ هو عام التحول :

هنالك معنى لفشل كل من مشروع نوري السعيد للهلال الخصيب ومخطط عبد الله من أجل سورية الكبرى قبل اكتمالهما في نهاية الحرب العالمية الثانية ، ذلك ان الاثنين ولدا ميتين ، بسبب فقد الاسرة الهاشمية نفوذها في الحركة القومية العربية ، فاذا ما أريد وضع تاريخ محدد للبينونة المطلقة بين الهاشميين والقوميين ، فقد يكون عام ١٩٤١ ، حين اعادت حراب الانجليز الحكم الهاشمي إلى العراق على حطام الثورة القصيرة التي قام بها رشيد عالي الكيلاني.

وكانت التطلعات العربية المشتركة آنئذ هي تحرير سورية من الفرنسيين ، وتصفية الوطن القومي اليهودي في فلسطين ، ثم توحيد الهلال الخصيب تحت حكم عربي مستقل ، ولكن هذه الامور الثلاثة كانت ضد المصالح الكبرى البريطانية والفرنسية ، مما جعل التسلط الغربي على شرق المتوسط الهدف الاول للهجوم العربي الشامل ، وجاء اثر محاولة الزعماء العرب القوميين استغلال الحرب كوسيلة للسير بقضيتهم قدما ، وقد نشدت العناصر الفعالة منهم امثال مفتي القدس ، وعلي ماهر في مصر ، ورشيد عالي الكيلاني دعم المحور لها خلال تلك الآونة .. فقامت بريطانيا المشتركة في صراع حياتي ابانئذ برمي هذه الحركات بالخيانة والذبذبة ، ولكن الوحدويين العرب اذا كانوا قد اخفقوا زمن الحرب في تقدير القضايا الكبرى الراهنة فلأن انظارهم كانت مثبتة فقط على موضوعات محلية أكثر حدة .

ان رشيد عالي ، رأس انقلاب ١ نيسان ١٩٤١ في العراق ، رجل وطني اولا وقبل كل شي ، ولم تكن له ميول نازية مخلصة ولا دور في خطة المانية كبرى تستهدف السيطرة على شرق البحر المتوسط ، ولم يكن ما دفعه الى الثورة سوى اخفاقه في انتزاع اقرار من بريطانيا لصالح العرب

الفلسطينيين (٤) ، ان حركته تهمنا هنا بسبب الكيفية التي سحقت فيهـا مما دمر نهائياً مستقبل العلاقات ما بين الهاشميين والوطنيين العرب في كل من العراق وسورية . ولقـد ذكرت بأني لا أستطيـع تمييز عمل فيصل وسيرته عن مجرى الحركة الوطنية العربية ، انه جسّد في معظم حياته الاماني العربية ، وقد كان لابنه غازي ، الذي خلفه حين وفاته عام ١٩٣٣ ، بعض اندفاعه حين سحر بحماسته وتهوره اتباعه الشباب ، بيد انه لم يكن مرشحاً ترفعه الجماهير لقيادة العرب ، وحين مقتله عام ١٩٣٩ كان ابنه فيصل طفلا فعين عبد الاله ابن الامير علي وصيا ، ليظل الحاكم النافذ للعراق حتى مقتله على أيدي الجيش في تموز ١٩٥٨ (لقد فقد لقب « الوصي » حين اعتلى فيصل الثاني العرش في ١ — آذار ٩٥٣ ، ولكنه لم يفقد حقيقة نفوذه) ، وما بين ١٩٣٩ — ١٩٥٨ كان عبد الاله هو الهاشمي الذي تحتم على القوميين تصفية الحساب معه ، وحتى أيامه الاخيرة ظلت نظرته مركزة على الحجاز مملكة جده والتي انتقلت إلى ابن سعود ، وعلى سورية مملكة عمه الضائعـة ، وزاد من اهتمامه بها انتهاء وصايته عام ١٩٥٣ ، فاتخذ طموحه سبيل إحياء عرش دمشق ليعتليه .

ومنذ البداية تقريبا اتخذ عبد الاله موقف المعارض للفكرة القوميـة المتطرفة ، وحين دخلت ايطاليا الحرب رفضت الحكومة العراقية ان تقطع علاقاتها بها رغم المذكرات الواردة إلى السفارة البريطانية ، ان رشيد عالي الكيلاني الذي خلف نوري السعيد رئيساً للوزراء في ٣١ — ٣ — ١٩٤٠ تقدم على اية حال بعرض شبه رسمي لبريطانيا وهو ان يعلن العراق الحرب على ايطاليا اذا رضيت بريطانيا بالمقابل ان تعجل في تنفيذ ماورد في الكتاب الابيض الفلسطيني الصادر عام ١٩٣٩ بوضع فلسطين حالا في طريق الاستقلال (٥) ، وحين رفضت الحكومة البريطانية ذلك تدمّر وضع جميع المعتدلين الذين أختاروا التعاون مع بريطانيا ، فرضخوا امام المطالب العربية الملحة ، أمـا

---

(٤) انظر ج . ى . كيرك « الشرق الاوسط زمن الحرب » ص ٧٧ — ٧٨ ، ملاحظة رقم (١)

(٥) للاطلاع على تفصيل هذه الحوادث انظر المصدر السابق ص ٦٣ — ٦٤

ولاء الوصي ونوري فقد كان في نظر القوميين المتطرفين مكرسا لبريطانيا وليس للقضية العربية .

ان انقلاب رشيد عالي في الاول من نيسان وبدء اعمال العراق المعادية ضد القوات البريطانية بعد شهر قد هيجا الأوساط الوطنية ، فقدّر ان يكون هذا الانفجار مقدمة لهب لحريق كبير ، سيحرر سورية من الفرنسيين ، وفلسطين من الانجليز . ففي دمشق الف الرئيس شكري القوتلي بطل الوطنيين الشباب لجنة سورية لجمع المال لرشيد عالي ، على حين جمع شاب من مثيري القلاقل السياسية ، يدعى أكرم الحوراني من حماه — في سورية الوسطى — جمع عددا قليلا من صغار الضباط ، واندفع بهم إلى نجدة رشيد عالي (٦) ، وهكذا وضعت الاسس الاولى لصداقات الحوراني العديدة في الجيش السوري ، مما كان له الكثير من العواقب . وفي دمشق نفسها ، وجد حزب البعث الناشىء فرصة في الاحداث العراقية الدائرة ليظهر ولاءه المطلق لقضية العرب الكبرى ، فشكل لجانا طلابية تأييدا لرشيد عالي ، وابتدأ حركة « نصرة العراق » .

وفيما بعد ، قال ميشيل عفلق مؤسس الحزب موضحاً :

« لقد كانت لنا فرصة كي نثبت لتلامذتنا الشباب معنى (٧) الوحدة العربية مبدأ الحزب الأساسي وخطورتها » .

ان هؤلاء الرجال الذين قدر لهم ان يتسلموا السلطة في سورية في الفترة التي تلت الحرب لم يكن ليتوقع منهم قط ان يتوصلوا يوما إلى اتفاق مع الوصي ونوري السعيد واصدقائهما الانجليز ، وستظل مواقفهم الجذرية المعادية للانجليز ثابتة ، وحتى القوميون العراقيون انفسهم الذين حلموا في

---

(٦) حين انهارت ثورة رشيد عالي عادت حفنة من المؤيدين السوريين الى سورية ، حيث احتجزوا في معسكر فرنسي في دير الزور ، وكان بينهم الحوراني ، وعفيف البزري الذي أصبح فيما بعد رئيسا للأركان السورية ، وجمال الا تاسي أحد مؤسسي حزب البعث (من حديث للدكتور جمال الاتاسي مع المؤلف) .

(٧) ميشيل عفلق للمؤلف في بيروت في ٣ / ١ / ١٩٦١

حماسة بالغة ، بوحـــدة الهلال الخصيب قـــد اصبحوا يفضلون استقلال سورية على ربطها بعراق يحكمه نوري السعيد ، ويرتبط بمعاهـــدة مـــع بريطانيا .

وفي ليلة انقلاب رشيد عالي ، هرب الوصي من قصره متخفياً ، وانتقل في اليوم التالي جوا الى البصرة حيث حاول عبثاً تنظيم حركة مقاومـــة ، ثم أرتحل إلى فلسطين وإلى حمى عمه عبد الله في الاردن ، وبعد اسابيع ثلاثة عاد إلى العراق خلف البنادق البريطانية وبنادق الجيش العربي الاردني ، لقد هزم رشيد عالي ، ولكن الهاشميين فقدوا ثقة الرأى العام القومي ، وتم الصدع الذي لا يمكن لهوله ان يرأب حين أعدم شنقاً عدد من كبار الضباط الذين اشتركوا في الثورة .

الهلال الخصيب وسورية الكبرى :

عرض مشروعا الهلال الخصيب الذي تبناه نوري السعيد وسوريـــة الكبرى الذي حمل لواءه الامير عبد الله علانية ولاول مرة أثناء الحرب العالمية الثانية ، والمشروع الاول وهو الاكثر طموحاً ، منح فيه نوري السعيد مضموناً ، وبوثيقة رسمية ، للاماني الغائمة غير الواضحة في وحدة دول الهلال الخصيب العربية ، والتي مضت سنوات على ظهورها .

وقد شجع سقوط فرنسا نوري السعيد على الاعتقاد بان بريطانيا لا بد لها ان تؤيد الآن العرب في تحقيق اهدافهم القومية ، فعرض رأيه هذا أمام رتشارد كاسي وزير الدولة البريطاني لشؤون الشرق الاوسط حين قابله في القاهرة اوائل عام ١٩٤٢ ، فطلب كاسي مقترحات السعيد كتابة ، وكانت النتيجة وضعه « مذكرة حول القضية العربية مع اشارة خاصة إلى فلسطين واقتراحات تسوية دائمة» قدمت إلى الوزير ووزعت سراً على الجهات المختصة.(٨)

(٨) نوري السعيد : (استقلال العرب والوحدة) بغداد – مطبعة الحكومة ١٩٤٣ . أنظر أيضا ج . سي . هورويتز (معضلات السياسة في الشرقين الادنى والاوسط) ١٩٥٦ برنستون ص ٧ – ٢٣٦ – ٢٣٧ .

اقترح السعيد خطة على مرحلتين.. الاولى توحيد سورية ولبنان وفلسطين والاردن في دولة واحدة ، أما شكل حكومتها وكونها « ملكية أم جمهورية ، وحدوية أم اتحادية » فيجب ان يقرره الشعب بنفسه مع منح الاقلية اليهودية في فلسطين ، شبه استقلال ذاتي بضمانات دولية ، وتوفير الحمايات اللازمة للمسيحيين في لبنان ، أما الثانية فهي أن تربط سورية الكبرى بعد قيامها ، بالعراق في جامعة عربية ، تنضم اليها دول عربية أخرى وفق مشيئتها ، وعلى رأس هذه الجامعة يقوم مجلس دائم يسمي افراده الدول العربية الاعضاء، ويرئسه احد الحكام العرب المنتخب بأسلوب ترضى به الدول المعنية . وسيكون المجلس مسؤولا عن الدفاع والشؤون الخارجية ، وامور النقد والمواصلات والجمارك وحماية الاقليات ، لقد كان حلم نوري السعيد آنئذ تحقيق سورية كبرى مرتبطة بالعراق في اتحاد يمكن ان تنضم اليه طوعا دول عربية اخرى.

هنالك ما يدعو إلى الشك في ان يكون عبد الله « قد تعدى في نظرته المرحلة الاولى من هذا المنهاج ، فنظرته إلى الوحدة العربية كانت اعادة توحيد « الاقطار الاربعة » من سورية الكبرى تحت قيادته ، وحل مشكلة اليهود في فلسطين بمنحهم استقلالا ذاتيا اداريا ، واذا لم يتحقق توحيد الاقطار الاربعة حالا ، فليكن البدء بتوحيد سورية وشرقي الاردن مع التهيئة لضم فلسطين ولبنان ، لتشكيل اتحاد على نمط الولايات المتحدة الاميركية ، او الاتحاد السويسري الكونفدرالي . وكما رأينا ، فان لب اقتراحات عبد الله وصفتها العملية الوحيدة هو دمج سورية والاردن حالا ، وهذه هي الخطة التي طرحها ، باختلافات طفيفة ، في احاديثه ومذكراته ومراسلاته الخاصة للسياسيين السوريين ، وفي تعليماته لممثليه اثناء المجابهة الكبرى حول الوحدة العربية والتي دعا لها مصطفى النحاس ، رئيس وزراء مصر ، الدول العربية عام ١٩٤٣ ، وكانت النتيجة ميثاق الجامعة العربية لعام ١٩٤٥ (٩) .

(٩) انظر شرقي الاردن ، (الكتاب الاردني الابيض : الوثائق القومية في وحدة سورية الطبيعية) ، عمان ١٩٤٧ ، وأنظر ايضا : مذكرات الملك عبد الله ملك شرقي الاردن ، تأليف عبد الله بن الحسين . طبع ب . ب جريفز ١٩٥٠ صفحات ٢٥٤ — ٢٥٧

حاز عبد الله على تشجيع ضئيل من الحكومة البريطانية التي تقدم لها باقتراحات اولا ، ولدى أثارة القضية ثانية .

وقد أثيرت القضية ثانية حين سقطت فرنسا وحين زار المستر اوليفر ليتلتون ، وزير الدولة البريطاني لشؤون الشرق ، عمان في عام ١٩٤١ ، كما طرحت في عدد من المناسبات الاخرى التالية ، وكان اهتمام عبد الله في سنوات الحرب منصباً على التأكد من أن الحكومة البريطانية لم تستغل الحقوق التي تمنحها لها المعاهدة في شرقي الاردن لمنعه من بحث الموضوع مع الحكومة السورية وغيرها من الحكومات العربية . ولقد بدا موقف الحكومة البريطانية آنئذ يدعو إلى ارجاء محاولة تنفيذ مخططات سورية الكبرى إلى ما بعد الحرب ، فلا شيء ينجم عن طرح قضية متعارضة دستوريا كهذه سوى الفوضى ، في وقت يسود فيه التردد واللاثبات . كما يجب ايضاً ألا يتم ما قد يزيد العلاقات بالفرنسيين في سورية سوءا ، حيث سبب لهم ضعفهم المحسوس المزيد من اليقظة والحرص على الدفاع عن « حقوقهم التاريخية » .

لقد حافظ عبد الله على الاتفاقية مع بريطانيا باعتبار ان ضررا ما لن يقع اذا درس المشروع ، ليجري تنفيذه حين تحل الفرصة الملائمة .

وفي ٢٨ آذار ١٩٤٨ نال عبد الله استقلالا كاملا عن بريطانيا ، فشعر بالحرية لاثارة مطامحه التوسعية التي طال عليها الزمن ، وفي حفل افتتاح البرلمان الاردني في ١١ — تشرين الثاني اعلنت « سورية الكبرى » رسميا مبدأ في السياسة الخارجية الاردنية ، ولم يدع مناسبة تمر من غير ان يؤكد على هذه القضية ، فقد ذكر لصحيفة الاهرام المصرية : « ليس هنالك من سورية كبرى أو صغرى ، فهناك فقط بلد واحد يحده البحر المتوسط غربا ، وتركيا شمالا ، والعراق شرقا ، والحجاز جنوبا ، وهذا البلد يشكل سورية كبرى(١٠) .

وقال أيضاً لصحيفة كل شيء اللبنانية في آذار ١٩٤٧ :

« ان والدي لم يقاتل من أجل استقلال لبنان أو سورية او شرق الاردن

---

(١٠) الأهرام القاهرة — ٣١ آب ١٩٤٦ .

انما حارب ومات من أجل الاقطار العربية جميعها ، ان سياستي واضحة : فأنا لا اريد دولة تشمل سورية وشرقي الاردن وفلسطين ولبنان ، نعم ولبنان »

لقد كان طبيعياً ، ان عليه (عبد الله) ان يهاجم في الوقت ذاته مصر والجامعة العربية ، لانهما اعترضتا سبيل آماله ، كما سيرى في الفصل التالي ، ولقد صرخ بأعلى صوته : كل امرىء يدرك ان الجامعة العربية لم تكن أكثر من لعبة نظمها النحاس باشا لغاياته هو (١١) »

وفي آب عام ١٩٤٧ أراد ان ينقل الامور إلى الذروة بالدعوة إلى اجتماع « للحكومات السورية القطرية » لبحث خططه الخاصة بالاتحاد ، ولاداعي إلى القول بان هذه التصريحات ومحاولات التدخل قد جوبهت بعداء مكشوف من القاهرة والرياض وبيروت ودمشق ، واعادت كل عاصمة تأكيد ارتباطها بميثاق الجامعة الذي يكفل استقلال الدول الاعضاء ، وعبرت عن دهشتها لالحاح عبد الله واصراره ، كما شجب القوتلي الرئيس السوري علانية مشروع سورية الكبرى حين اعيد انتخابه عام ١٩٤٧ ، على حين عقدت الوزارة السورية التي تشكلت اثر انتخابات تموز ١٩٤٧ جلسة خاصة « للاحتجاج بالاجماع على المشروع الذي يخفي وراءه المطامع الفردية والمخططات الصهيونية والارتباطات التي تهدد استقلال سورية وسيادتها ونظامها الجمهوري» ، ان عبد الله لم يظفر قط باية مبادأة في سورية ، وكان مؤيدوه النادرون يوجدون بين السياسيين القدامى الذي عرفوا فيصلا الاول وظلوا على ولائهم للاسرة (١٢) .

لم يكن عبد الله أكثر نجاحاً مع العراق جارته الهاشمية ، فقد بحث خلال عامي ١٩٤٥ — ١٩٤٦ مع عبد الاله ابن أخيه والوصي على عرش العراق احتمال قيام وحدة ما بين العراق وشرقي الاردن ، وعرض عدة اقتراحات

---

(١١) صحيفة « لوريان » (بيروت) ٢٨ آذار ١٩٤٥

(١٢) ذكر حسن الاطرش للمؤلف (بيروت في ٢١ تشرين اول ١٩٦٠) انه دعا في عام ١٩٤٧ عبد الله لدخول الجبل واحتلاله ، فاستشار غلوب باشا لندن ، ولكنه تلقى اجابة غير مشجعة .

اهمها ان يرتقي هو عرش العراق وشرقي الاردن ، بعد توحيدهما ، أمـا خلافته فتنتقل إلى الملك فيصل وليس إلى ابنائه ، كما عرض مشروعا آخر وهو ان يرتقي عبد الاله عرش شرقي الاردن وفلسطين ، ويرتقي عبد الله عرش العراق طوال حياته ثم ينتقل العرش إلى الملك فيصل بعده ، لقد ولد المشروعان وكلاهما ميت ، حيث قوبلا بالصراخ المألوف المنبعث من سورية ولبنان اللتين رأتا فيهما الخطوة الاولى نحو سورية الكبرى، ومن المملكة العربية السعودية ومصر اللتين تعارضان اي توسع للقوة الهاشمية ، ومن العرب القوميين في كل مكان والذين يرتابون في روابط عبد الله ببريطانيا ، ومن السياسيين العراقيين الذين لم يستسيغوا أمنية عبد الله في التدخل في شؤونهم الداخلية ، كما ان بريطانيا لم تشجع قيام اتحاد بين العراق وشرقي الاردن ، رغبة في الحفاظ على موقعها القوي في الاردن ، بعيدا عن تسرب النفوذ العراقي . ومهما كان الامر فان انشقاق الهاشميين قد اسهم في أخفاق مساعيهم وعدم فعاليتها في سورية حيث تساءل السوريون ، وفي هذا بعض الصدق ، لمَ لم توحّد عمان وبغداد نفسيهما اولا ، قبل أن تعملا على مضايقتنا ؟ .

لم يكن امام عبد الله غير الرضا عن معاهدة تحالف واخاء مائعة مع العراق في ١٥ نيسان ١٩٤٧ وضعت موضـع التنفيـذ في ١٠ حزيران . وفي الحقيقة أثار عبد الله من المعارضات والخصومات العنيفة ما جعلته يبدو وكأنه عبء على القضية الهاشمية وليس رصيداً لها ، كما غدا محط ريبة الرأى العام القومي بسبب صلاته الوثقى ببريطانيا وما قيل عن تخاذله امام الصهيونيين ، ثم ان قضيته لم تجد الدعم الكافي لما ساد من اعتقاد بأن طموحه الشخصي كان هو الدافع له حين نشد العرش السوري .

ان اهتمام العراق وشرقي الاردن الحاد بسورية لم يتطور إلى وحدة سياسية للهلال الخصيب ، وقد لخص بعض الاسباب الاولى لهذا الاخفاق ، ومـن بينها « الطلاق » الذي تم ما بين الهاشميين والقوميين ، وظهور نموذج منافس في عام ١٩٤٥ للعلاقات العربية الداخلية على شكل الجامعة العربية التي يسيطر عليها المصريون ، كما كان هنالك ، بالاضافة إلى ذلك ، عوائق اخرى ذات

اهمية كبرى كاستمرار النفوذ الفرنسي في سورية والذي رضخت فرنسا لاستمراره ، ولمعارضة العربية السعودية ، ثم ان القتال العربي ودام ٢٥ عاماً ضد الحكم الفرنسي قد ولد عند الوطنيين السوريين التصاقا بالمؤسسات الجمهورية وبعاصمتهم دمشق التي ميزت سورية عن الممالك المجاورة في بغداد وعمان ، لقد كان وقع هذه التطورات جميعها على الآمال الهاشمية في سورية غير واضح لعدت سنوات قادمة ، فقد استمر اهتمام عبد الله بسورية متأججا حتى اغتياله في عام ١٩٥١ ، على حين ظلت التدخلات العراقية ، كما سيرى ، سمة دائمة للسياسة السورية حتى الوحدة مع مصر عام ١٩٥٨ .

❀ ❀ ❀

٣

مصر والوحدة العربية

كانت مصر متأخرة في ايمانها بقضية الوحدة العربية ، فالافكار القومية لم يصبح لها تأثير هام في تفكيرها واتجاهها السياسيين الا في اواخر الثلاثينيات ، واوائل الاربعينيات من هذا القرن ، أما في العقود الاولى منه فكانت متخلفة عن حركة القومية العربية في آسيا التي ظهرت بعد عام ١٩٠٨ كرد على « القومية التركية » ، ثم تحولت ، إلى حركة ثورية عام ١٩١٦ ضد الحكم التركي .

لم تؤثر هذه التطورات في مصر ، لأنها كانت قد انتزعت منذ أمد طويل كل شيء من الامبراطورية العثمانية ماعدا استقلالها الرسمي ، ولان الحدود الطبيعية الصارمة لوادي النيل والتاريخ الطويل لحكومة مركزية قد دفعا بها إلى تطوير هوية قومية ذاتية واضحة ، ثم انها بعد عام ١٨٨٢ شغلت كليا بالاحتلال البريطاني ، الا ان السلطان العثماني ، على رغم الوجود البريطاني ، ظل السيد الاسمي لمصر حتى اندلاع الحرب العالمية الاولى . وهكذا بينما كان العرب القوميون في الحجاز وسورية والعراق يتآمرون في السنوات الاولى من هذا القرن على تحطيم الامبراطورية العثمانية وتحرير انفسهم منها ، كان الوطنيون المصريون يميلون بالمقابل إلى ان يروا في بقائها وفي صلاتهم الواهية بالاستانة الواقي الرئيسي من الحاق بريطانيا رسميا بلادهم بامبراطوريتها . ولكن اعلان الحماية عام ١٩١٤ وضع حدا لتفكير كهذا ، ومنذئذ وحتى اواسط الثلاثينيات ظل الاحتلال البريطاني الشاغل الكبير الوحيد للسياسة

المصرية، وهذا مازاد من الاسهام في عزلها عن تيارات الفكر في العالم العربي ..

كان الاسلام احـد الوسائط التي حملت مصر نحو علاقـات اوثق مع شقيقاتها الدول العربية حين شعرت بحريتها في اتباع سياسة خارجيـة أكثر أستقلالا ، بعد أن أبرمت معاهدة ١٩٣٦ مع بريطانيا . وكان التقارب مع العرب آنئذ واحدا من عدد من المسالك البديلة المتعددة المنفتحة أمامها .

فهناك من لم يعتبر مصر أدنى مرتبة أمة أوروبية مكتملة ، أما مستقبلها ففي الغرب أكثر مما هو في الشرق ، وهنالك من اتجه بنظره نحو الجنوب ، لا إلى السودان فقط ، بل إلى اتحاد دول وادي النيل بما فيها الحبشة وأريتريا واوغندة ، وهي مدرسة للفكر زاد من انتعاشها وازدهارها هزيمة الايطاليين عام ١٩٤١ ، كما اراد بعضهم الآخر من مصر ان تغدو حلقة وصل بين الشرق والغرب ،ودافع آخرون عن قيادتها للشرق أمام المستعمرين والماديين ، أما الاكثر اهمية من هؤلاء جميعاً فهم الداعون إلى الوحدة الاسلامية ، وهم يتفاوتون ما بين مؤيدين تماما للخلافة الاسلامية إلى مؤمنين حذرين بتضامن المسلمين (١)

كانت مصر تتمتع ولا ريب بشعور ثابت من الهوية الذاتية الوطنية ، غير أن هذا الشعور كان يطرح ضمن إطار ثقافي اسلامي ، وله التأثير البارز على حياتها الوطنية ، رغم المسالك التي صنعتها الافكار الغربية . والحقيقة ، ان الاسلام طرح في اوائل هذا القرن ، ومن خلال مدرسة من المصلحين بعثها محمد عبده ، المحاولة الاولى المنسقة للاجابة على سؤال « كيف يمكن لمصر الاسلامية أن تنقل نفسها من وضع التخلف إلى حال العصر الحديث دون ان تدمّر الاسس الاخلاقية التي يقوم عليها مجتمعها (٢) ؟ .

---

(١) ج . و . د . جراي (قصر عابدين ضد الوفد) ، ندوة الشرق الاوسط – شباط ١٩٦٢ ص ١٧ .. انني مدين ايضا المستر جراي بمادة غير منشورة عن هذه الفترة من التاريخ المصري .

(٢) انظر ا . ح . حوراني في تقديم ج . م . احمد أصول فكرة القومية المصرية ١٩٦٠ ص ١٨ .

فالشعب بكافة فئاته قد آمن بأن دور مصر في العالم هو دور اسلامي ، وهذا ما فصل مصر عن البعض وربطها بآخرين ، ان الاسلام كان في عظام المصريين كما كان في لب مقاومتهم للغرب . ان هذه العاطفة حين ترجمت إلى سياسة خارجية ، عنت تضامن جميع الفئات الاسلامية المضطهدة ، وحين قصف الفرنسيون دمشق عام ٩٢٥ ، وسحق الايطاليون ثورة برقة عام ١٩٣٠ كانت احتجاجات المصريين ومعارضاتهم دفاعاً عن الاسلام وليس حتى باسم القومية العربية (٣) .

لقد كانت فلسطين هي العامل الحاسم الذي حول السياسيين المصريين نحو سياسة عربية شاملة ، فالاستعمار الصهيوني والسياسة البريطانية واضطرابات العرب وثوراتهم المتكررة ما بين عامي ١٩٣٦ — ١٩٣٩ كان لها كلها الاثر الكبير الحاسم في الرأي العام المصري ، الذي أسهم في نمو المنظمات السياسية الاسلامية وتزايد قوتها ، وقدم لها موضوعاتها الدعاوية الرئيسية ، ومع ان الشعور الذي استثير كان اسلاميا أكثر منه عربياً الا ان قوة العواطف الثائره بلغت حداً جعلت زعماء الاحزاب المصرية يرون ان سياسة تأييد العرب المضطهدين قد تعود عليهم بالربح في مصر .

ومن بين الجماعات الثلاث التي جندت الرأي العام ، وبصورة خاصة الرأي الطلابي ، لصالح القضية الفلسطينية ، كانت جماعة الاخوان المسلمين أكثرها نشاطاً وبروليتارية ، وكان مؤسسها ، حسن البنا ، يدعو إلى العودة إلى طهارة صدر الاسلام وصفائه ، ويطالب بالعمل على انقاذ فلسطين الاسلامية من الصهيونية المادية ، فأحيا الاسلام كقوة سياسية يحسب حسابها واعاد شباب مصر إلى ديانتهم ، وحين اغتيل عام ١٩٤٩ كان قد بنى حركته ، وجعلها أقوى قوة ضاغطة تقريباً في الشرق الادنى العربي ، واعضاؤها يتجاوزون نصف المليون عضو (٤) عددا ، وكانت جمعية الشبان المسلمين

---

(٣) انظر مارسيل كولمب (تطور مصر)، ١٩٢٤ — ١٩٥٠ بارني (١٩٥١) ص ١٦٩ .

(٤) انظر ، لمزيد من التفاصيل ، دون ج هيوورث (الاتجاهات السياسية والدينية في مصر الحديثة) واشنطن (١٩٥٠) ، واسحاق موسى الحسيني « الاخوان المسلمون » (١٩٥٦) .

تتكون من أفراد أكثر بورجوازية واقل اهتماماً بالوعظ ولكنها تساوي الجمعية الاولى في اعتقادها بأن العمل العربي الموحد هو سبيل انقاذ الاسلام من الصهيونية ومفاسد الغرب ، وقد شارك حزب مصر الفتاة ، رغم كونه فاشيا في فكره الاجتماعي ، شارك في الحملة من اجل تحالف العرب ، فعمل بذلك إلى جانب منافسيه القويين على توجيه عواطف المصريين في التضامن الاسلامي نحو منطقة أكثر ضيقاً من الوعي الذاتي العربي ، وكان كل من حزب مصر الفتاة ، والاخوان المسلمين يجاهر بدفاعه عن تغيير ثوري في مصر.

بيد أن هذه الجماعات الاسلامية ، مع بدء الحرب العالمية الثانية قامت بما هو أكثر من توجيه السياسة المصرية نحو الشرق ، فعلى الجانب الرسمي كان هنالك القليل مما يمكن وصفه « بالنظرة الملازمة الثابتة » الى مكانة مصر في العالم العربي حيث القى قادة الاحزاب المصرية خطباً حول فلسطين ، ودفعوا بالقضية إلى عصبة الامم ، كما ارسل المعلمون والمهندسون إلى الاقطار العربية ، وافتتحت هنالك أيضا مراكز للبعثات التجارية ، لقد هاجت مصر وثارت ووقفت إلى جانب الوطنيين في سورية ، الذين كانوا يخوضون المرحلة النهائية من كفاحهم ضد الانتداب الافرنسي ، ولكن فكرة أي شكل من الاتحاد السياسي مع العرب ، لم تنضج حتى اوائل سنوات الحرب العالمية الثانية ، وكان في مقدور فئة قليلة من المصريين التمييز ما بين الشعورين العربي والاسلامي ، ولكن الحقيقة هي ان البلبلة ما بين الاثنين قد تكون الصفة الخاصة بمصر أكثر منها في أي بلد عربي آخر . فالقاهرة كانت آنئذ ، وكما هي الآن ، المدينة الثقافية الاولى في العالم العربي ، وهي ملجأ للمنفيين العرب ، ومركز استقطاب اهتمام الرأي العام العربي في كل مكان ، ولكن هذا الاهتمام كان في الاصل ذا جانب واحد ، فمصر لم تقم بأي نوع من الاختيار الواعي لصالح الوحدة العربية ، وكان ما عندها وفي معظمه شعورا أخوياً تجاه العرب الآخرين ، وبعضاً من الاهتمام بروابط وثيقة معهم ، والمصريون « القلائل » النادرون الذين تفهموا القضية العربية بمضمونها القومي لا الديني كانوا في معظمهم من اولئك الذين رحلوا إلى خارج وادي النيل أو ممن كانوا

على صلة بالقادة القوميين العرب المنفيين او الزائرين .

ان الانفجار العربي في فلسطين عام ١٩٣٦ قد شهد بذور آراء علي ماهر ، وربما كان هو رئيس الوزراء المصري الاول الذي رأى جعل مصر بطلة العالم العربي (٥) ، فقد اصبح بالتدريج وبخاصة منذ وفاة الملك فؤاد في نيسان ١٩٣٦ « الرجل القوى» في مصر متنقلا ما بين رئاسة الوزارة ورئاسة الديوان الملكي حتى انسحب من الحكومة في حزيران ١٩٤٠ ، وكان هو وعبد الرحمن عزام ، أول أمين عام للجامعة العربية ، يحاولان في اواخر الثلاثينيات خلق سياسة مصرية تجاه فلسطين ، وقد حضرا المؤتمر الذي عقد في لندن بشأن فلسطين عام ١٩٣٩ ، حيث غدا مؤكداً ولأول مرة ان زعامة مصر للعرب سترضى بها بريطانيا والعرب أنفسهم .

ولكن القادة السياسيين لم يكونوا البادئين الحقيقيين بسياسة مصر العربية ، فقد استجابوا فقط للضغوط التي اصبح تجاهلها متعذرا ، ومن الممكن اقتفاء أصول التيار حتى المثقفين والحركات الدينية التي نشرت الآراء شعبيا والتي اقتنع بها السياسيون فيما بعد او ارغموا على تأييدها ، وكان اولئك الذين اشغلوا انفسهم بالثقافة هم أوائل من أدركوا على الاقل ذلك الجزء من الظلم الغربي الكامن في سيطرته على اللغة والتعليم التقنيين ، لذلك فقد أكدوا على ضرورة احياء اللغة العربية وتطويرها إلى مايتلاءم وحضارة العصر الحديث ، كما كان اولئك الذين اهتموا بالدين هم الذين احسوا بأزمات جيرانهم ممن يدين معظمهم ايضا بالاسلام ، وهم مرغمون على مجابهة الضغوط الامبريالية الصهيونية الشرسة ، حتى ولوكان هؤلاء في بدء مسيرتهم يمثلون حركات صغيرة ، الا ان القوى في مصر جعلت من قضاياها امراً شعبيا ، وصورت امكان شفاء وعلاج قلق الطلاب وبطالة المتخرجين والفقر والمرض اذا تسلم الاسلام زمام الحكومة وطرد الكافر الاجنبي .و حين ووجه الزعماء بالهيجان الواسع الذي تلا امتزاج هذه الحماسة الثقافية ، والغيرة الدينية والثورية الكامنة عملوا على تبني هذه الامور كلها من اجل بقائهم ، حيث تم فكرة

(٥) دون هيوورث ص ٢٣ .

الوحدة العربية اخيراً البروز عبر المجمات حول فلسطين والقلق الاجتماعي المحلي وبواسطة حزب الوفد في اوائل الحرب وفاروق نفسه عام ١٩٤٣ .

لقد أمدت الحرب هذا الاتجاه القومي البدائي في السياسة المصرية بالدعم الحاسم ، وساعدت بوجه خاص على تحويل التفكير المصري حول القضية إلى وجهة دنيوية وذلك لتحويل الرأى العام بعيداً عن التطلعات الوحدوية الاسلامية الشاملة إلى سبيل أكثر واقعية يقوم على الروابط الاوثق بالعالم العربي المشرقي ، وهذا التحويل تم بصورة رئيسية ، لان الحرب كمّت الجماعات الاسلامية المتطرفة التي لعبت في الثلاثينيات دوراً بارزاً جداً في تعبئة الرأى العام المصري دفاعاً عن الاخوة المسلمين المضطهدين ، لقد قمع حزب مصر الفتاة بسبب ميوله الفاشية ، وعلّق الاخوان المسلمون نشاطاتهم السياسية وسجن حسن البنا وعذب ، وفقدت جمعية الشبان المسلمين كثيراً من فعالياتها بموت رئيسها عبد الحميد سعيد ، وانتقل الدفاع عن القضية العربية إلى فئات أكثر اعتدالا تحبذ التقارب البطيء التدريجي بدءا من التعاون الثقافي مع الدول العربية الشقيقة ، واتخذ نفس الخط بعض قادة الاحزاب الذين ادركوا أن السياسة العربية ستكون ذات اثر شعبي في مصر وأن مصلحة مصر الوطنية تكمن في الاشتراك وحتى في قيادة الحركة نحو وحدة اقليمية بدت خطوة في تجميع آسيا العربية ، وكانت بيانات انطوني ايدن في عامي ١٩٤١ ، ١٩٤٣ ، وفيها تعهد بدعم بريطانيا للوحدة العربية ، اعترافا صريحاً من الدولة الكبرى الحاكمة في المنطقة بهذا التيار الذي لا يمكن لمصر تجاهله ، وقد أسهم ، ولا ريب ، تشجيع الاستقلالات الاقليمية الذي أقر في ميثاق الاطلسي وفي (دمبارتون اوكس) ، أسهم في أسلوب هذا التفكير .

وكانت القاهرة أيضا المركز الرئيسي الذي وجه منه المجهود الحربي للحلفاء ، حيث اقيمت خلال الحرب منظمة « مركز تموين الشرق الاوسط » ، فرأى بعضهم فيها انها قد تفيد كنواة للتعاون فيما بين الدول العربية ، ان هذه المنظمة كانت ادارة مركزية للشؤون الاقتصادية وقد أدارتها بريطانيا لوحدها أولا ، ثم بريطانيا والولايات المتحدة معاً ، وكانت مسؤولة منذ عام

١٩٤١ أمام وزير الدولة البريطاني في القاهرة ، كما سيرت بالاشتراك مع الحكومات المحلية امور الشحن والتموين ، وكان لها القول الحاسم في الانتاج الزراعي والصناعي في المنطقة . وقد غدت القاهرة أكثر عاصمة عربية صعوداً واهمية دولية خلال الحرب العالمية الثانية ، فلم يتبق أمامها سوى خطوة قصيرة فقط لتصبح عاصمة العالم العربي الموحد فيما بعد الحرب .

لقد كان الاساس مهيأ تماماً لدخول مصر كعضو قائد في اسرة الدول العربية ، وقد تبنت مصر القومية العربية سياسة رسمية عام ١٩٤٠ بدافع قناعتها العميقة الذي قد يقل اهمية عن دافع العداء الشخصي المستحكم بين الملك فاروق ومصطفى النحاس زعيم الوفد الحركة الوطنية الكبرى ، وقد تقبل كل من القصر والوفد هذا الاتجاه الجديد الذي ظهر وكأن الاحداث تفرضه على مصر ، ولكن جرى في الحال وضعه موضع الاستغلال في الصراع المحلي القائم بينهما من أجل السلطة ، ان هذا النزاع كان ذا جذور قديمة بسبب معاملة النحاس الفظة لفاروق الشاب عام ١٩٣٦ — ١٩٣٧ حين غمرت الصحافة زعيم الوفد بالمديح الرخيص ، ورفع المطلب الوفدي المتكرر بأن يكون النحاس الممثل الوحيد للامة ، وهو مطلب حمل تهديدامبطنا لسلطة الملك ، ثم وصل الخلاف إلى ذروته في شباط ١٩٤٢ حين أحاط البريطانيون في حدث مشهود ، بقصر عابدين بدباباتهم ، وفرضوا على فاروق المتمنع النحاس بالقوة رئيساً للوزراء يستطيعون التعاون معه .

وبدا للنحاس آنئذ ان التأييد المطلق للقضية العربية ومحاولة الوصول إلى لقب زعيم العرب من الوسائل التي تدعم مركزه في وجه اعداء فاروق ، فبدأ سلسلة من المحادثات حول الوحدة العربية ، مابين تموز وتشرين اول ١٩٤٣ ، مع زعماء العراق والاردن والعربية السعودية وسورية ولبنان واليمن ، نجم عنها بروتوكول الاسكندرية في تشرين أول ١٩٤٤ ثم ميثاق الجامعة العربية في آذار ١٩٤٥ (٦) ، ولكن فاروق طرد النحاس نهائيا في اليوم الذي

---

(٦) للاطلاع على محاضر هذه المفاوضات ، انظر الحياة — بيروت ٢١ آذار — ١٤ نيسان ١٩٦٠ ، والترجمة الفرنسية موجودة في « لوريان » رقم ١٤ الصفحات ١٧٧ — ٢١٦ .

تلا توقيع البرتوكول ، وشرع هو بنفسه ، عن طريق الخطب والرحلات الخارجية والحملات الصحفية المدفوعة ، يعمل ليكون بديلا عنه ، كبطل معترف به لمصر والوحدة العربية .

كان واضحا ان كلا من القصر والوفد قد اعتنق قضية القومية العربية ونشد زعامتها بغية الشهرة الواسعة أولا ، حتى لقد قال احد اعضاء الوفد السوري إلى المباحثات فيما بعد : « لقد لحظنا باهتمام ودهشة الصراع ما بين فاروق والنحاس . وقد أدركنا ان همهما الوحيد من انشاء الجامعة كان من أجل وضعهم داخل مصر وليس من أجل العرب ، ولكننا اغمضنا عيوننا على ما رأينا ، فقد كنا سعداء بأن مصر ، مهما كان الدافع ، أخذت تعتبر نفسها جزءاً من العالم العربي (٧) .

ولكن على افتراض هذه المنافسات الشخصية ، فان السخط الشعبي في مصر وفي الدول العربية الاخرى على مصير العرب الفلسطينيين ظل الضاغط الرئيسي على المتفاوضين ، واحدى نتائج بروتوكول الاسكندرية كانت في جعل المشكلة الفلسطينية للمرة الاولى وإلى الابد مسؤولية العالم العربي كله ، وهكذا ضمت سابقة مؤتمر لندن عام ١٩٣٩ إلى صورة أكبر دواما ورسمية(٨) ، وكان استقلال معظم الدول الموقعة على البروتوكول آنئذ جزئياً وغير ثابت وكان في اراضي كثير منها قوات أجنبية ، وفي سورية ولبنان ، بصفة خاصة ، كانت فرنسا تابى التنازل عن حقوقها في الانتداب من غير عقد معاهدة جديدة تكفل لها « مركزا خاصاً » هناك ، وكان احد اهداف المتفاوضين الهامة الحيلولة دون عقد معاهدة كهذه مع فرنسا ، حيث أدى هذا الامر الراهن إلى جعل البروتوكول اتجاهاً عربياً عاماً نحو العالم الخارجي ، حتى لقد اثارت هذه الناحية ، أكثر مما فعله غيرها ، الشكوك الفرنسية في ان حركة الجامعة

---

(٧) هذا ما قاله المؤلف في دمشق يوم ٩ / ٧ / ١٩٦١ الدكتور نجيب الارمنازي وهو موظف سوري بارز وسفير سابق ، كان يشغل عام ١٩٤٣ منصب الامين العام للقصر الجمهوري .

(٨) لمزيد من التفاصيل حول هذه الفقرة وما يتلوها من فقرات انظر « الجامعة العربية وتطلعاتها » في مجلة الميدل ايست — نيسان ١٩٤٧ ص ١٢٥ » .

العربية بكاملها هي « خدعة » بريطانية لطرد فرنسا من المشرق .

صحيح أن بريطانيا كفلت استقلال سورية ولبنان عام ١٩٤١ ، ولكنها في عام ١٩٤٥ قدمت للزعماء الوطنيين السوريين دعما حاسما في معركتهم الاخيرة مع الفرنسيين ، ولم تكن في أعلانها عن تعاطفها مع الوحدة العربية — كما جاء في خطاب ايدن الشهير في مقر بلدية لندن في أيار ١٩٤١ ، سوى انها تسبح مع التيار محاولة استرضاء الرأى العام العربي في تلك الفترة الحرجة من الحرب ! فهي لم تخلق حركة الوحدة العربية ، ولكنها حاولت فقط ، باعتبارها أكبرقوة في المنطقة ، توجيهها نحو دروب لا تتعارض ومصالحها ، انها لم تخترع الجامعة العربية ولكن الشكل الذي اتخذته اخيراً مدين بعض الشيء إلى نفوذها ، وقد يقال ان زعماء سورية والعراق ، قد حملوا على تسليم مصر زعامة المنظمة (٩) ، بسبب من الضغط البريطاني ، وهذا كان ثمن دخولها فيها . ونتيجة لذلك فقد وضع الرئيس العراقي نوري السعيد والرئيس السوري سعد الله الجابري قواهما إلى جانب غرور النحاس وطموحه الشخصي و عقدا العزم على اختبار قوة عاطفة مصر العربية والتي كان تكتنفها شكوك قوية آنئذ (١) .

لقد ابتغت بريطانيا أن تكون مصر مشمولة بمنظمة عربية اقليمية على أساس افتراض ان المنطقة ستكون آنئذ اسلس قيادا ، ولكن اضفاء الزعامة

(٩) أقر نوري السعيد بالكثير من ذلك الى موسى العلمي ، ممثل فلسطين في المحادثات (موسى العلمي للمؤلف في ١٩ ايلول ١٩٦٠) .

(١٠) روى مسؤول عراقي للمؤلف ، كيف ان نوري السعيد وكان ينتظر النحاس ليقوم برد الزيارة له في السفارة العراقية في القاهرة بعد واحدة من الدورات ، قد درب لجنة استقبال على كيفية استقبال السياسي المصري ، وسيكون نوري نفسه في أسفل الدرج على استعداد لتحية النحاس حين يترجل من عربته بهذه الكلمات : «مرحبا يا زعيم زعماء العرب» ، ثم يصعد النحاس الدرج الى القائم بالأعمال الذي علمه نوري أن يقول في صوت مرتفع جملة أخرى منمقة ، وحين يكون على بوابة السفارة نفسها ، يقف فرد آخر من هيئة السفارة ليقدم ترحيبا آخر أعده نوري السعيد بنفسه ، وحينئذ قال احد الموظفين « من المؤكد ان النحاس سيعتقد اننا نضحك عليه » ، ولكن نوري كان مصيبا ، اذ وصلت السيارة ، و العلم يرفرف فوقها ، فاستقبل النحاس كما هو مرسوم ، فمر بشوشا راضيا من يد لاخرى .. ، ان نوري لم يرد ان يقول : « تملق المصري فتدير له رأسه »

على مصر قد أدى آلى بنائها ، وجعلها منافسة للقوة البريطانية في المنطقة ، حتى أن التحديات المصرية العنيفة كانت في السنوات العشر الاخيرة من عمر التفوق البريطاني في الشرق الاوسط ، أى ما بين ١٩٤٥ — ١٩٥٤ مثيراً رئيسيا في المنطقة واضحت الجامعة العربية عربة النفوذ المصري وليست أداة للسيطرة البريطانية .

بيد أن النتيجة الرئيسية لقيام الجامعة قد تكون في توجيه ضربة مميتة إلى مخططات الاتحاد المقصورة على آسيا العربية ، حيث حكم بالموت على سورية الكبرى ، مشروع عبد الله ، وعلى اتحاد الهلال الخصيب مشروع نوري السعيد اللذين بحثا في الفصل الماضي ، كما حكم عليهما حين قبل دستور الجامعة العربية الذي يحول بين أية محاولة قد تقوم بها العراق او الاردن للاندماج مع سورية ، او ان تسعى واحدة منهما إلى تغيير شكل حكومتها من الجمهوريةالى الملكية. وفي عام ١٩٤٤ واجه السعيد ضغطاً سيئاً في مصر ،حين سرت همهمة حول « الاماني الاقليمية » للعراق لا بالاشارة إلى مشروع الهلال الخصيب فحسب ، بل إلى رغبة العراق المزعومة في منفذ على البحر الابيض المتوسط . حقاً ان مصر ، وقد اختارت عضوية الاسرة العربية ، ادركت سريعاً ان مصلحتها الوطنية تكمن في احتواء الهاشميين ، ومنع ظهور أية قوة قادرة على تحديها في المشرق العربي ، وفي الحفاظ على الوضع القائم بشكل دول صغيرة مستقلة تابعة لها ، وكان يلزمها لبلوغ تفوقها منع سورية بالذات من الوقوع فريسة نفوذ أى من عمان أو بغداد ، فقد عارض منذ العصور الوسطى حكام وادي النيل قيام حكومة قوية في بغداد أو دمشق قد تهدد أمنهم أو تفوقهم نفوذا في شرق البحر المتوسط ، وقد تكتسب هذه المبادىء ، حين جمعها وتصنيفها ، دقة واحكاما هما الان أكبر مما كانا آنذاك في أذهان الرجال ، الا انها غدت — كما سنرى — المبادىء الثابتة في سياسة مصر العربية ، والتي ورثها عبد الناصر نفسه حين اخذ هو أيضا يقلب النظر في دور مصر في العالم العربي .

٤

اسقاط الوطنيين القدامى

لا تدور قصة سنوات الاستقلال السوري الاولى حول السياسييت العظام أو المبادىء السياسية القوية ، فهي قصة رجال عاديين دعوا للتصرف ازاء وضع متمدد ، فأنهكوا أنفسهم في مهمة الاحتفاظ بالسلطة ، فغرقوا لقلة المؤسسات ذات الخبرة الجيدة والتقاليد الدبلوماسية المعترف بها في دوامة من المنافسات الشخصية التي لا تليق بأعمال رجال دولة نالت استقلالها حديثاً .

ففي ٣٠ آذار ١٩٤٩ قبض الزعيم حسني الزعيم ، رئيس الاركان العامة للجيش ، على زمام السلطة ، وأطاح بالحكم القائم يسانده في ذلك حفنة من الضباط القوميين والسياسيين الراديكاليين ، وقد لاقى هذا العمل رضى عاما من الشعب ، وبذلك زج بالجيش الفتي في السياسة وبالبلاد في عقد من الفوضى والمتاعب قبل أن تقوم الوحدة مع مصر . ولكن قبل رواية تفصيلات الانقلاب وحوافز مرتكبيه ، لابد من وصف الحكم الذي قلبه الزعيم .

الكتلة الوطنية :

كانت الكتلة الوطنية مجموعة من الوطنيين القدامى « المتمرسين » الذين أثاروا معركة النضال من أجل الاستقلال السوري ضد فرنسا ما بين الحربين

العالميتين (١) ولكنها مع مطلع عام ١٩٤٥ فقدت كل تماسكها ، فقد بلغت قمة نفوذها في الثلاثينيات حين وافق قادتها ، وهم رجال لامعون يتمتعون بأخلاق متينة ومن جميع اجزاء سورية ، وافقوا على طمس خلافاتهم والاتحاد لمجابهة الفرنسيين ، وكانت قمة مجهوداتهم هي المفاوضات مع حكومة بلوم عام ١٩٣٦ من أجل ابرام معاهدة ، تلاها تشكيل حكومة « كتلوية » تماما منتصرة في دمشق برئاسة جميل مردم بك ، حيث ضمت اشخاصا بارزين من اعضاء الكتلة أمثال سعد الله الجابري الزعيم الحلبي وشكري القوتلي الدمشقي المرموق الذي يعود تاريخ سجله الوطني إلى الحرب العالمية الاولى ، وقد أصبح هاشم الاتاسي ، من الرعيل الاول ورئيس وزراء حكومة فيصل في دمشق عام ١٩٢٠ ، رئيسا للجمهورية ، وفارس الخوري المحامي البروتستانتي رئيساً للمجلس التشريعي ، ان بعض هؤلاء الرجال قد عانى من السجن على يد الاتراك الشيء الكثير ، ولكنهم جميعاً تعرضوا للسجن أو للنفي من قبل الفرنسيين .

ولكن البرلمان الفرنسي ، بعد تأجيلات عديدة لم يصادق على المعاهدة ، فتقوضت بذلك شعبية الكتلة ونفوذها .. ، وقد تكون نذر اقتراب الحرب هي التي منعت اختلال النظام وقيام انتفاضة وطنية ، الا أنه قبيل الحرب كانت الكتلة قد غدت عاجزة في تجربتها الحكومية الاولى ، ولم تنته مفاوضات المعاهدة التي اجرتها بانهيار الآمال الوطنية فحسب ، وانما انتهت أيضا إلى الاخفاق في منع ضياع لواء الاسكندرون والحاقه بتركيا عام ١٩٣٩ ، أما سلطتها في الداخل فقد تقوضت بسبب وجود عدد كبير من الضباط والمستشارين الفرنسيين ، وكانت سورية المستقلة لا تزال بالنسبة اليهم أمراً شاذاً لا يقبلون به ، على حين حولت اعمال الشغب ومظاهرات الجماهير وقذف حركات الشباب شبه العسكرية المتنافسة للاحجار ، حولت الشوارع إلى جحيم .

(١) للاطلاع على تاريخ سورية ما بين الحربين انظرا . ح . حوراني ، (سورية ولبنان) لندن ١٩٤٦ ، و س . ه . لونجريج (سورية ولبنان تحت الانتداب الفرنسي) ، لندن ١٩٥٨ .

لقد اعترف رسمياً باستقلال لبنان وسورية عام ١٩٤١ ، ولكن امتيازات السيادة الجوهرية — وهي السلطتان التشريعية والتنفيذية الكاملتان والسيطرة على القوات المسلحة — كان لا بد من انتزاعها شيئاً فشيئاً من الفرنسيين خلال السنوات الاربع القادمة ، وعندما طلبت الحكومتان السورية واللبنانية بصورة خاصة ترحيل « القوات الخاصة بالشرق » — وهي قوات مؤلفة من بضعة آلاف شكلها الفرنسيون من الاقطار التابعة لهم — حالا وسريعا ، وهي الخطوة الوحيدة التي تجعل الحكم الذاتي فعالا اذا سمح بتشكيل جيوش وطنية — أصر الفرنسيون على تعليق ترحيل هذه القوات بعقد معاهدة تربط سورية بالفرنسيين ، وهذا خلاف حسم بشكل دموي حين قامت القوات الفرنسية باعتداءاتها العلنية على المدنيين السوريين الذين دعم موقفهم وقواه الضباط والجنود الهاربون من « القوات الخاصة بالشرق » والدرك ، وقد ركن الزعماء الوطنيون إلى التدخل البريطاني لفصل المتحاربين ، وربما يكونون قد تسلموا تأكيدات بهذا المعنى من ممثل بريطانيا الجنرال سبيرز ، لقد بدا ان السوريين كانوا يودون دفع الامور مع الفرنسيين الى الذروة بوجود الانجليز ، وكانت تتملكهم ذكرى عام ١٩١٩ حين انسحب الانجليز تاركين الفرنسيين ليقضوا عليهم كما يلذ لهم ، ولكن التدخل البريطاني،وكما توقع السوريون،قد انهى على اية حال الاضطربات ، وبعد وفي نيسان ابريل ١٩٤٦ تم انسحاب جميع القوات الاجنبية من القطر السوري

ولقد ظلت الكتلة الوطنية ، على كل عجزها ، المرشح الوحيد لاستلام السلطة ما بقيت العلاقات بفرنسا تغلب على الدبلوماسية السورية وما بقي الجنود الفرنسيون يحتلون البلاد ، حتى لقد ارتكزت على ادعاءاتها باحتكار الوطنية فعادت إلى السلطة أثر انتخابات تموز ١٩٤٣ ، فانتخب شكري القوتلي رئيساً للجمهورية ، على حين ألف زميله سعد الله الجابري حكومة مثل فيها الحرس الوطني القديم تمثيلا قويا .

وعلى أثر اغتيال الدكتور عبد الرحمن الشهبندر المفاجىء في ٧ تموز ١٩٤٠ جاءت فرصة القوتلي لقيادة الكتلة الوطنية ، وكان الشهبندر رجل

خلق وعقل وهو أحد منتقدي الكتلة الخطرين ، مما أدى إلى اتجاه الشكوك نحو زعماء الكتلة في قضية الاغتيال ، وكان ثلاثة منهم – هم جميل مردم ولطفي الحفار وسعد الله الجابري – قد هربوا إلى العراق (٢) ، تاركين القوتلي وحيداً في الميدان ، فبرز كزعيم للحركة الوطنية في الاشهر المضطربة المليئة بالمتاعب ما بين سقوط فرنسا واحتلال الحلفاء لسورية في حزيران ١٩٤١ . وكان يدعم مطالبه في تشكيل حكومة وطنية باضرابات تشمل كافة انحاء القطر ، ولم يكن مستغرباً ان تجري آنئذ اتصالات بلجنة الهدنة الايطالية وبالزائرين العديدين من الالمان الذي قدموا إلى سورية وعملوا على تهديم سمعة الفرنسيين وشجعوا علانية المطامح القومية العربية ، وقد أحس القوميون المتطرفون في كل من بغداد ودمشق بأن هنالك الكثير مما يمكن لهم ان يجنوه اذ تم للمحور النصر ، ولكن حين غزا الحلفاء سورية وجد القوتلي الفرصة الملائمة كي يغادر الى العربية السعودية ليعود في ربيع ١٩٤٢ بعد ان بذل الملك ابن سعود مساعي حميدة نيابة عن القوتلي ولدى ادارة فرنسا الحرة في دمشق .

وكانت صداقة القوتلي مع البيت المالك السعودي ذات اثر حاسم في عمله وفي انحيازات سورية الخارجية ، وكان افراد اسرته قد عملوا سنوات طويلة وكلاء تجاريين للسعوديين في دمشق ، وهي صلة ازدادت قوة بالدعم السياسي المتبادل ، حيث ثبت أن القوتلي كان ذا فائدة لابن سعود منذ اوائل العشرينيات ، حين ارسل له عددا من السوريين الموهوبين ليكونوا مساعدين له مثل يوسف ياسين ، الذي أصبح فيما بعد المستشار الرئيسي للملك في الشؤون الخارجية ، أما القوتلي نفسه فلم يكن أقدر رجال الكتلة الوطنية ، ولكنه كان رصينا يوثق به . وبعد انتخابه رئيسا للجمهورية في ١٩٤٣ كان سجله الوطني وصيته الذائع ومنصبه الحكومي واجهة جليلة مجيدة يستطيع زملاؤه المراوغون متابعة دسائسهم من خلفها والمشاركة في اقتسام الغنائم ، وقد اعتاد هؤلاء أن يتذكروا كيف أطلق عليه اسم « الجمل » حين

---

(٢) عادوا الى سورية في عام ١٩٤١ حين برأ القضاء ساحتهم رسميا .

كانوا في المدرسة في استانبول قبل الحرب العالمية الاولى ، والجمل حيوان بليد ولكنه بالغ السوء حين يستشار ، ان عاطفته الوطنية لهي فوق الشبهات وتسامحه مع زلات زملائه يمكن ان يعتمد عليه .

لقد أبان الفرنسي جاك بيرك ، عالم الاجتماع ، أن الاندفاعة الوطنية في أي قطر عربي تميل إلى ايجاد تجمع عريض غير متجانس ، مثل « الكتلة الوطنية » في سورية ، و« الوفد » في مصر ، و« الاستقلال » في الجزائر ، و « الدستوري الجديد » في تونس ، فقد تآلف رجال بماض ومشارب متباينة وراء هدف وحيد هو الاستقلال ، ولكن النجاحات الاولى ، سواء أتت عن طريق التفاوض مع الدولة المحتلة أو الكفاح المسلح ضدها ، كانت تشق هذه التجمعات ، لقد كانت الانشقاقات الايديولوجية والشخصية تثور ، وتحل التمييزات الحادة مكان الوطنية الاصلية الطوعية (٣) .

ان معارضة الفئة الحاكمة اخذت تنمو داخل الكتلة ذاتها منذ ان رفضت فرنسا ابرام معاهدة ١٩٣٦ ، وفي عام ١٩٣٩ لاحت في الحركة الوطنية امارات الانشقاق إلى فئتين كانت احداهما تبـــدو أكثر احساساً بالقضايا الاجتماعية والاقتصادية حيث تكلمت عن توسيع القاعدة النضالية ضـــد الفرنسيين ، بيد أن هذه الخلافات لا ينبغي لهـــا أن تجسّم أو يبالغ فيها ، فالحاكمون والمنشقون كانوا من المحافظين الاغنياء المرفهين ، ويعملون على مقاومة أي تغيير والحيلولة دون تشجيعه ودفعه نحو التحقيق ، ولقد كنت بذور الانشقاق في سياسيي مدينة حلب ، حيث انفصل شابان صاعدان هما رشدي الكيخيا وناظم القدسي عن سعد الله الجابري ، أحد زعماء الكتلـــة الوطنية ، وتحولت النزاعات الشخصية إلى خلافات عميقة فيما بعد ، ولكن رغم ذلك لم تفهم أية واحـــدة من الفئتين « التنظيم الحزبي » بالمعنى العصري لهاتين الكلمتين ، ولكنها فهمته على أنه تحالف سياسي بين الوجهاء والرجال المتنفذين، ليسهم كل منهم بمن لديه من اصدقاء، ويقدم رعايته وحمايته للتنظيم.

---

(٣) جاك بيرك – عالم العرب السياسي المجلد الحادي عشر – دائرة المعارف الفرنسية باريـــس (١٩٥٧)

وفي عهد رئاسة القوتلي تناوب على رئاسة الحكومة ثلاثة من اعضاء الكتلة البارزين وهم سعد الله الجابري ، جميل مردم ، وفارس الخوري وذلك ما بين ايلول عام ١٩٤٣ وعام ١٩٤٧ ، ولكن حكوماتهم كافحت ضد ثلاثة امور شاذة كبرى ، فالفرنسيون كانوا لا يزالون يأبون التخلي عن البقية الباقية من السلطة دون ان ينتزعوا من السوريين معاهدة تصون مالهم من مصالح ثقافية وغيرها ،بينما لم تجرؤ الكتلة على الالتجاء إلى الشعب الذي فقدت ثقته ، وكانت النتيجة ضعفاً وتردداً . ولم يكن بمقدورها حتى الاعتماد على تلك الحماسة الشعبية، بعد أن غدت الكتلة قاتمة الصورة في عيون الجماهير ، والتي قد تكون استبقيت للمرحلة الجديدة من الاستقلال الوطني . أما الذين رحبوا بالكتلة فقط فهم اولئك الذين أملوا في نيل المكاسب بسبب تسلمها السلطة ، ولقد عانت الكتلة بموت سعد الله الجابري في ٢٠ حزيران ١٩٤٧ ضربة أخرى ، لانه كان أكثر رجالها شجاعة واستقامة ، وربما كان هو الرجل الوحيد الذي بقيت له سمعته ونفوذه رغم تجارب السنوات التي سلفت فقد اضعفت وفاته الكتلة وقوّت بالمقابل مكانة القوتلي ، ذلك ان الجابري كان المعارض الدائم لرغبة زميله في تعديل الدستور بشكل يمكن معه تجديد انتخابه رئيساً للجمهورية خمس سنوات اخرى ، وهكذا ففي الانتخابات التي تلت وفاة الجابري مباشرة ظهر للملأ تحطم الكتلة وظهور القوى المناوئة لها .

الحزب الوطني :

في ربيع عام ١٩٤٧ ، وقبل الانتخابات العامة ببضعة شهور ، توحّد شتات الجناح الحاكم من الكتلة في « الحزب الوطني » ، وكان معقله دمشق ، حيث يوجد لرجال امثال القوتلي وفارس الخوري ولطفي الحفار وصبري العسلي أتباع شخصيون ، حتى لقد عكس الحزب السياسة الدمشقية بأضيق

صورها ، فلم يطرح أي منهاج مفصل ، ولم يمارس أي نظام على أفراده ، كما أنه لا يستطيع الادعاء بأن له قيادة ذات بنية تنظيمية واضحة ، وكانت قوته الانتخابية لا تعتمد على الخصائص الفردية التي يتحلى بها قادته على رغم قدرات بعضهم ، بمقدار اعتمادها على سحر سجلهم الوطني ، وتدعمها بالأحوال العائلية والارتباطات بالاحياء البلدية المختلفة . ولقد كانت الصلات العائلية ولا تزال أكثر أهمية من الفرد في دمشق ، وكانت الصلات التي اوجدتها الاقامة في شارع واحد ، والانتساب إلى الطائفة ذاتها ، وإلى حد ما في رابطة النسب أقوى من الولاء لقضية سياسية عامة .

ولقد حظر آنئذ نشر الافكار والآراء في الانتخابات لضمان دعم الرجال الاقوياء « القبضايات » (٤) في مختلف احياء المدينة والتي تقطنها وفرة من الطبقة الوسطى الدنيا كالتجار والمهنيين المجزأة إلى مجموعات دينية وعرقية ومهنية متنوعة . وكان « القبضايات » زعماء محليين ، يحمون الضعيف من القوي ، ويتلقون الرشاوي من الاثرياء ، ويقيمون نوعا من العدالة السريعة القاسية في شبكة الشوارع التي يفرضون سلطانهم عليها . وكان مرشحوا الانتخابات المتنافسون يزايدون على كسب تأييدهم ، كما أكتراهم الفرنسيون انفسهم خلال فترة الانتداب ، ولكن وضعهم تهدّم مع الزمن ، لا سيما بعد عام ١٩٥٠ لأنهم خرجوا من أحيائهم القديمة وقطنوا المناطق السكنية الحديثة ، ولأن الاحزاب العصرية الايديولوجية ضبطت افرادها من الشباب ، واقترن هذا الضبط بنمو النوادي السياسية ، حيث اعتاد الشباب ان يقضوا أمسياتهم كما اقترن بالدور الانطلاقي والتعليمي الذي مارسته المقاهي السياسية كمقهى « البرازيل » في دمشق حيث يلتقي رجال ، يختلفون في ماضيهم ، للتحدث وقراءة الصحف .

حزب الشعب :

في فترة انتخابات عام ١٩٤٧ لم يكن الجناح المنشق عن الكتلة ، والذي

(٤) من الكلمة التركية «قبضاي» بمعنى عربيد وجلف ورئيس وفتوة (المعنى الحرفي : «والعم الفظ »)

وحدت معارضته للقوتلي بين افراده قد نمىّ تلك الدرجة الدنيا من الترابط الداخلي ، التي قد تحيله إلى حزب سياسي . فقد تألف هذا الجناح من كتل برلمانية مفككة كالكتلة البرلمانية الدستورية والكتلة البرلمانية الشعبية ، حيث قادها في البدء زعماء حلبيون أمثال رشدي الكيخيا وناظم القدسي ومصطفى برمدا ، فكان هؤلاء يتمتعون لنزاهتهم الشخصية بسمعة جيدة تفوق ما يتمتع به منافسوهم زعماء الحزب الوطني ، وقد استقالوا ، على الاغلب ، من الكتلة في عام ١٩٣٩ دون ان يستمتعوا بثمار المناصب في الدولة ، ولكن هذه المعارضة اتحدت في آب – ١٩٤٨ وشكلت « حزب الشعب » ، الذي كان يمثل المصالح التجارية في حلب والمنطقة الشمالية (٥) ، حيث أكتسب تأييد عائلة الاتاسي الاقطاعية ذات الاملاك الشاسعة ، وحيث تركزت اقطاعاتهم في حمص وقاومت ، على حد سواء ، حكم القوتلي والساسة الدمشقيين .

ولقد بدا تجار حلب والموصل وبغداد وصيارفتها وثيقي الصلة احيانا ، كتجار دمشق وصيارفتها ، فمدينة حلب كانت تسيطر لعدة أجيال على الطريق التجاري العظيم من اوروبا والاناضول إلى بلاد الرافدين وايران والهند ، حيث ازدهرت اثناء وحدة الامبراطورية العثمانية ، وكانت الحدود التي اقيمت بين ١٩٢٠–١٩٢٣ أكثر جورا على حلب منها على دمشق ، اذ ان سورية منطقة داخلية جد صغيرة بالنسبة لحلب ، ولطالما حلمت بامكانيات جغرافية أخرى أكثر أتساعاً (٦) ، ان حزب الشعب لم يكن حزبا هاشميا ولا ملكيا ، فقد كان يرتبط كمنافسه الدمشقي بالمؤسسات الجمهورية ، ولكنه حزب حلبي أولا ، ولذلك فقد القى بثقله السياسي كي يزيل الحدود السورية العراقية ويحطم الحواجز التجارية (٧) والحدود السياسية التي خنقت سورية ، وفي ٢٣ – تشرين ثاني ١٩٤٨ ، أى بعد أربعة أشهر من تشكيله ، خرج على

---

(٥) لوجور – بيروت ٧ / ٨ / ١٩٤٨

(٦) انظر بييروندو : « الميول الاقليمية والوحدوية في سورية » لوريان رقم ٥ – ٨ – ١٩٥٨ صفحة ١٣٥ .

(٧) رباط ص ٢٨٨

الناس بمذكرة رفعها الى الرئيس القوتلي داعيا إلى اتحاد عربي - هو في الحقيقة وحدة مع العراق - كوسيلة وحيدة قادرة على مجابهة التهديد الاسرائيلي ، وقد حظي الحزب في فترة انتخابات ١٩٤٧ وقبل ان تنفضح ميوله العراقية ، حظي بتأييد حزب البعث الحركة العربية النامية ، والتي كانت تستند في مطالبها إلى السيطرة على الهيئة الطلابية باستمرار .

حلل ميشيل عفلق ، زعيم البعث ، الوضع القائم آنئذ بما يلي (٨) :

« كان حزب الشعب آنئذ أكثر من كتلة برلمانية معارضة للقوتلي ، فقد بدا مخلصاً ومرتبطاً بالاجراءات الدستورية والديمقراطية ، ولم يكن وجهه الرجعي بينا بعد ، فضم البعث قواه اليه لمعارضة الحكومة .

« الا ان البعث نفسه اخذ يكشف عن وجهه الثوري حين هاجم الطبقة الحاكمة الاقطاعية والبورجوازية ، متهما اياها بتبني انصاف الحلول وبالاتفاق مع الفرنسيين وبالاخفاق في تفهم معنى الكفاح حتى النهاية من أجل الاستقلال ، لقد علّم الشعب ان تفسير تردد الحكومة يوجد في مصالحها وعقليتها الطبقية .

« ولفهم افلاس « الكتلة الوطنية » لا بد للمرء من ان يأخذ بعين الاعتبار ان الرجال الذين تألفت منهم كانوا لا يملكون النظرة الشاملة ، وكان طموحهم محصورا في صيانة وجودهم السياسي ، وفي الحفاظ على قدر محدود من استقلال البلد ، فلقد تخلفوا عن الرأى العام ، ولا سيما رأى الشباب الذين كانوا منذ سنوات عديدة عرضة للافكار البعثية والشيوعية ، حيث منح البعث الشعب طموحا أوسع في الميدانين الوطني والاجتماعي .

« ان « الكتلة » لم تعن بالوحـــدة ولا باستقلال الدول العربية الاخرى ، فقد بدت راضية باستقلال محدود وغير حقيقي ، يتطابق ومفهوماتها ، حتى ان القوتلي فكر عام ١٩٤٥ في عقد معاهدة مع فرنسا ، وهذا هدف مجيد قبل سنوات عشر ، ولكنه يعتبر خيانة فيما بعد الحرب .

« كان الشباب السوريون قد بدؤوا يطالبون باستقلال حقيقي كامـــل كنقطة انطلاق للاصلاح في كافة قطاعات الحياة الوطنية ، كما نشدوا استقلال

---

(٨) ميشيل عفلق للمؤلف في بيروت ٧ كانون الثاني ١٩٦١

بلدهم ليكون نقطة وثوب تندفع منها حركة تحرر الدول العربية الاخرى وتوحدها ، ولكن هذه المطامح كانت بعيدة عن اذهان الطبقات الحاكمة ، ولقد تحدث البعث لغة لم يفهمها الحكام وانما فهمها الشعب ، ولكن الرجال الحاكمين رموا البعث بالمثالية والطوباوية ، لأنهم لم يجدوا ما هو أسوأ من ذلك ليرموه به » .

انتخابات ١٩٤٧ :

في انتخابات تموز شكل حزبا البعث والشعب جبهة مشتركة لشن حملة اصلاح انتخابي وبعض الاجراءات التقدمية الطفيفة .

« (٩) لقد حاولنا ان نكسب الناخبين إلى جانب منهاجنا ، فالقينا الخطب عن الحاجة إلى مزيد من الطرقات ، ومد انابيب المياه إلى القرى وغير ذلك من الاصلاحات على حين كان الحزب الوطني يسهب في الحديث عن نجاحاته الماضية ، وكأنه غير عالم بما أصاب بنية البلد الاجتماعية من تغييرات . فلقد كان ينشد احتكار الامتياز له لانه حارب الفرنسيين .

ثم أظهرت الانتخابات نجاح حملة المعارضة من أجل انتخابات مباشرة على مرحلة واحدة ، ففازت بثلاثة وثلاثين مقعداً جديداً ، مما رفع تمثيلها في المجلس إلى ٥٣ نائباً مقابل ٢٤ نائباً للحزب الوطني ، يضاف اليهم كتلة مائعة كبيرة من المستقلين لا ينتسبون إلى حزب او ينتمون إلى عقيدة ويزيد عددهم عن الخمسين ، وقد ظلوا من ظواهر الحياة البرلمانية السورية ويمسكون بزمام التوازن ما بين الكتلتين المتنافستين ويشكلون أرضاً صالحة للانتهازيين السياسيين حتى اختفاء البرلمان السوري عام ١٩٥٨ ، لقد كان هؤلاء من ملاك الاراضي ورجال الاعمال وزعماء القبائل والاقليات ورؤساء العائلات الكبرى البالغة القوة ، وهم بعددهم الكبير في جميع الانتخابات السورية يشهدون على

---

(٩) ناظم القدسي للمؤلف – حلب / ٣ تشرين ثاني / ١٩٦٠

(١٠) رالف كرو : « دراسة عن القوى السياسية في سورية بالاعتماد على انتخابات عام ١٩٥٤ أيار ١٩٥٥ ». (غير منشور وباذن من المؤلف) .

قوة اشكال الولاء المحلية والتقليدية وضعف التنظيمات الحزبية (١٠) ففي حلب عاد جميع زعماء المعارضة وهم رشدي الكيخيا وناظم القدسي ومصطفى برمدا ووهبي الحريري واحمد الرفاعي ، وفي دمشق اخفق في الدورة الاولى معظم كبار الحزب الوطني في نيل نسبة ٤٠ ٪ من الاصوات الضرورية للنجاح ، ولكنهم عادوا في الدورة الثانية ، حين غدت الاغلبية القليلة كافية ، باغلبية ساحقة مريبة أثارت الاقاويل عن تدخل الحكومة بواسطة وزارة الداخلية (١١) . ولقد انتخب المجلس الجديد فارس الخوري رئيساً له في جلسته الاولى المعقودة يوم ٢٧ أيلول ١٩٤٧ ، وفي اليوم التالي تقدم جميل مردم باستقالة حكومتة ، ولكنه كلف ثانية بتشكيل حكومة أخرى .

ان المفردات السياسية الرصينة من أمثال كلمات « نائب » و « معارضة » و « رئيس المجلس » ، و « لجنة الشؤون الخارجية » لم تفلح في ستر الفوضى الفاجعة التي حكمت البرلمان السوري ، وفي « ذكريات نائب »(١٢) كتب حبيب كحالة ما يلي :

« نظرت حوالي ، وكان ما رأيته فقط .. رجالا لا يوحد بينهم شيء ، ولا يشتركون في أية مبادىء ، ولا يربطهم تنظيم حزبي ، وقد وصلوا إلى البرلمان بأساليب خادعة مقنعة من انتخابات فوضوية تحت ستار الحرية ، فكان بعضهم أمياً ، وآخرون أدباء مرموقون ، وكانت لغة بعضهم الكردية أو الارمنية ، ولم يعرف آخرون سوى اللغة التركية فقط ، ان بعضهم ارتدى الطربوش وآخرون اعتمروا الكوفية ، وكان بينهم رجال من البادية أو المدينة ، ولم يزد الامر عن مسرحية وتمثيل ادوار .

(١١) لقد ادعي (ربما على سبيل السخرية) أن صبري العسلي ولطفي الحفار سمحا بان يكون اسماهما في الأحياء الفقيرة الشيخ صبري والحاج لطفي ، وهذان لقبان دينيان وضعا لاجتذاب أصوات المسلمين .

(١٢) ذكريات نائب ص ٤٣ الملاحظة رقم ١٩٣ ، وقد نشرته صحيفة المضحك المبكي ، وهي صحيفة ساخرة كان رئيس تحريرها المرحوم السيد كحالة .

وفي تشرين الثاني ١٩٤٧ دفع القوتلي الحكومة إلى التقدم بمشروع قانون لاصلاح المادة ٦٨ من الدستور ، كي تمّ اعادة انتخابه خمس سنوات اخرى في يوم ١٨ نيسان ١٩٤٨ (١٣) ، فابتهج « المنتفعون » وتدافعوا لاخذ حصصهم من الغنيمة، فقد تسلمت الزمرة القديمة الحكم فترة أخرى قادمة..، وكثر الكلام عن الاتجار غير المشروع باجازات الاستيراد وبوكالات المواد المستوردة ، أما القوتلي نفسه ، وهو قوى الثقة بزملائه وشركائه او شديد الضعف وعاجز عن اخضاعهم إلى النظام ، فقد جلس على قمة صرح المحاباة وتقديم الاقارب ، بينما كانت الفوضى وسوء الادارة تنخر في القاعدة بسبب ارتفاع الاسعار وسوء المحصول نتيجة للجفاف ، والاصوات الساخطة تنبعث من نقابات العمال حديثة الظهور .

وكان لابد للسياسيين المتعبين الذين صرفوا طاقاتهم في جدال منهمك مع الفرنسيين ، وللمؤسسات القليلة التجربة ، ولتداعي الولاءات العائلية والرشوات الحكومية ، وللجيش السيء التدريب والتجهيز – كان لا بد لهذه كلها ، من أن تصاب بجراح ثخينة في حرب فلسطين ، الا ان التعديل الدستوري الذي اجراه القوتلي لتمديد حكمه أعاق حركة الاصلاح حين كان ذلك ممكنا ، واسهم في أنهيار النظام البرلماني السوري بعد أربعة عشر شهراً .

حرب فلسطين :

تكشف ضعف الجيش السوري في الايام العشرة الاولى من تدخل الجامعة العربية في فلسطين في شهر أيار عام ١٩٤٨ ، فاستقال وزير الدفاع ، أحمد الشرباتي في ٢٤ – أيار ، وتولى جميل مردم ، رئيس الوزراء ، وزارة الدفاع بنفسه ، وقد اقتضت الانتكاسات الاولى تغييرات في القيادة ، فتقاعد

(١٣) محمد كرد علي ، « المذكرات » دمشق ١٩٤٨ ، ص ٥٣٠ ، القسم الثاني
وجيه الحفار (الدستور والحكم) (١٩٤٨) الصفحات ١٢٣ – ١٣٠

عبد الله عطفه ، رئيس الاركان ، واستبدل به الزعيم حسني الزعيم مدير الامن العام . وكان السياسيون العرب قد ألقوا كلمات منمقة ضللوا بها الشعب ووعدوه بنصر قريب ، الا ان الحرب كشفت عن افتقارهم إلى الاستعداد وعدم تهيئتهم هم ، فليس ثمة قيادة عربية موحدة ، ولم يكن هنالك سوى الفقر في القيادات المشرفة والمواصلات والنقص في السلاح والذخيرة والخدمات الطبية ، وربما كانت الخطيئة الرئيسية حينذاك تكمن في عدم تقدير قوة الخصم . وكانت هذه التجربة بالنسبة للضباط السوريين الشباب نقطة انعطاف ، فقد اعتقدوا ومعهم بعض الحق ان زعماءهم السياسيين كانوا مهملين إلى حد الاجرام ، فلم يكن التوصل إلى تضامن عربي أكبر امرا متعذرا ، كما كان ممكنا ابتياع مزيد من السلاح او انتزاعه من الفرنسيين قبل رحيلهم في عام ١٩٤٦ ، فقد ذهبت القوات السورية إلى المعركة بعتاد لا يتجاوز بضع مئات من الطلقات لقطعة السلاح الواحدة ، فوجهت اتهامات بالرشوة والربح الفاحش لا سيما في قضية الضابط فؤاد مردم الذي أرسل في مهمة عسكرية إلى ايطالية فابتاع سلاحا ، وتسبب بالاهمال او الخيانة في عدم وصوله لاعتراض اسرائيل له (١٤)، ان ضحايا سوء الادارة هذه وهم الضباط الشباب قد اصبحوا يرون في أنفسهم الابطال الوحيدين لتحقيق رفاه البلاد بحمايتها من الاعداء على الحدود وحمايتها من عجز زمرة السياسيين في الداخل اذا لم يكن من خيانتهم .

ان جميع الجهود التي بذلها مردم لم توقف موجة السخط المتزايدة ، فألقي القبض على ميشيل عفلق ، زعيم البعث ، في أيلول – ١٩٤٨ لتوزيع منشورات تشجب اخفاق الحكومة وتطالب بحل المجلس ، وفي تشرين الثاني تخلى عن مردم ثلاثة وزراء من حزبه هم صبري العسلي ولطفي الحفار وميخائيل اليان ، بينما كان حزب الشعب ينتقل عن جدارة الى المعارضة وأعلن انه سيشترك في حكومة ائتلافية اذا قدم المسؤولون عن كارثة فلسطين إلى المحاكمة ، وفي الذكرى السنوية الاولى لتصويت الامم المتحدة عام ١٩٤٧ على قرار التقسيم اخرج البعث الطلاب إلى الاضراب ، واغلقت الاسواق وطالب

(١٤) لقد أشار إلى هذه الفضيحة الشاعر والدبلوماسي السوري عمر ابو ريشة في قصيدة شهيرة .

المتظاهرون الحكومة باستئناف القتال حالا في فلسطين، ورفض جميع الاحلاف مع الدول الاجنبية ، والغاء مرسوم صدر مؤخرا بزيادة اسعار الخبز ، وكان المجلس نفسه في هيجان ، حيث تضارب احمد الشرباني ، وزير الدفاع السابق ، مع احد النواب الاخرين بينما سمع رئيس الوزراء وهو يصرخ مقدما استقالته ، وخارج المجلس استعمل رجال الشرطة يعززهم رجال الدرك قنابل الغاز المسيل للدموع لتفريق الجماهير التي هددت باحتلال المجلس بالقوة .

انتشرت الاضرابات في المدن الكبرى وتحولت الى قلاقل فأطلق رجال الشرطة النار على الجماهير وقتلوا أربعة افراد في دمشق ، فأعلنت حالة الطوارىء في جميع انحاء البلاد وتحرك الجيش نحو العاصمة بعرباته المدرعة ليفرض منع التجول ما بين السادسة مساء والسادسة صباحا ويحظر اجتماع ما يزيد على ثلاثة أشخاص الأمر الذي جعل الجيش ولأول مرة يحس بطعم السلطة وأصبح لضباطه قريبي العهد بالهزائم المهينة في الجبهة الرأي الاول في الاوضاع السياسية المتردية .

وبعد ان استقال جميل مردم في اليوم الاول من كانون الاول عام ١٩٤٨ أخذ القوتلي يبحث يائسا عن خليفة له يتولى الوزارة ، فرفض الكيخيا والقدسي زعيما حزب الشعب الاشتراك في تأليف حكومة ، فقدم الطلب الى الرئيس السابق هاشم الاتاسي العجوز الوقور فسافر . وهو منهك الى العاصمة من مدينة حمص ليعود اليها بعد ثلاثة أيام فقط ، وقد أخفق في تشكيل الحكومة ، ثم حاول ذلك مستقل آخر هو الوجيه الدرزي عادل ارسلان ولكنه أخفق ايضا ، فاستدعى القوتلي على عجل خالد العظم الوزير في باريس ، وهو مليونير وخبير في الشؤون المالية كان اجداده حكام دمشق في القرن الثامن عشر .

وزارة خالد العظم :

كان العظم أحد أقدر الرجال في الحياة العامة السورية ، وقد منحه ماضيه

وثراؤه ونزعاته الطبيعية فرصا للسفر ، ففاق أقرانه في نموه الفكري وربما أصبح يحتقر السياسة الضيقة القائمة على المدينة ، والتي انغمس فيها معظم الزعماء السوريين ، وكان يتمتع بذوق رفيع مهذب ومثقف ، مع فهم عميق لمؤلفات السياسة الدولية والمالية الدولية يفوق ايا من زملائه ، ولكنه اذا قيس بمقياس وطني يبدو اقل منهم ، ذلك أن أباه كان أحد أؤلئك الوجهاء الذين يرون بأنهم أتراك أكثر مما هم عرب ، لذلك فقد دافع عن الوضع الراهن للامبراطورية ضد الوطنيين العرب ، وخالد العظم نفسه لم يشترك في الكتلة الوطنية ولم يشارك في كفاحها ضد الفرنسيين ، والاسوأ من ذلك انه شكل وزارة حيادية لتضع حدا للاضطرابات والفوضى القائمة حين كانت فرنسا في الحضيض في نيسان ١٩٤١ ، وحين أخفق الجنرال دنتز ، المندوب السامي الفرنسي الفيشي ، في التوصل الى اتفاق مع الوطنيين ، ولقد دامت وزارته طيلة فترة احتلال الحلفاء القصيرة لسورية ، واخراج الفيشيين وانهاء احتلال « فرنسا الحرة » ، ولكن طلب منها في أيلول ١٩٤١ ان تفسح المجال لحكومة أخرى يعلن في ظلها الاستقلال ، ثم تبوأ مراكز في حكومات فترة الحرب ، وكانت دائما في الوزارات شبه – التقنية كوزارة المالية والتموين ، ان سيرته التالية قد طرحت احد ألغاز السياسة السورية ، فهو على غناه وثقافته وتمثيله كبار المصالح وتلقيه تعليما غربيا قد تحالف مع الشيوعيين عام ١٩٥٧ فأخاف العالم حين أدخل في روعه ان سوريا في خطر السقوط تحت التسلط السوفييتي .

الا ان احدا لم يتنبأ له بهذا ، حين هرع من باريس عام ١٩٤٨ لينهي ازمة تركت سورية بلا حكومة اكثر من اسبوعين ، فشكل وزارة من خارج البرلمان في ١٦ كانون الاول ، ثم واجه بعد عشرة ايام مجلسا نيابيا ثائرا . ولقد شغلت الحكومة حينذاك بمشكلتين ، اذا بحث عن ماضيهما ظهرتا وكأن حرب فلسطين قد خيمت عليهما ، اولاهما الحاجة الى عقد اتفاق نقدي مع فرنسا ، الأمر الذي لقي استنكارا من قبل المعارضة فاعتبرته « مقدمة لأحياء النفوذ الفرنسي في سورية » . وثانيهما ، قضية منح شركة الانابيب الاميركية – التابلاين – تسهيلات عبور من العربية السعودية الى البحر المتوسط ، ففي عام

١٩٤٧ بدأت شركة الانابيب هذه ببناء خط من الانابيب يصل حقول الزيت التابعة لشركة « أرامكو » بميناء صيدا على الساحل اللبناني ، وقد قدّر للعمل ان ينتهي عام ١٩٥٠ لولا أنه تعطل بسبب الحرب الفلسطينية وصعوبة التوصل الى اتفاقية مرور عبر الاقطار العربية الأربعة ، وهي السعودية والاردن ولبنان وسورية فقد صور معارضو الحكومة الأمر بأنه طليعة الاستعمار الاميركي.

كانت مخططات خالد العظم في تدعيم الليرة السورية المهتزة وسد النقص في خزانة الدولة عن طريق التفاوض مع فرنسا والولايات المتحدة لتوقيع اتفاقيات خاصة تواجه هجوما مريرا داخل المجلس النيابي من قبل حزب الشعب والاخوان المسلمين ، وخارجه من حزب البعث والطلاب ، ولكن كل ذلك لم يعقه على أية حال عن توقيع اتفاقية فرنسية — سورية (١٥) في دمشق بتاريخ ٧ شباط ١٩٤٩ تمت بموجبها تسوية جميع المشكلات المالية المعلقة التي وجدت نتيجة انتهاء الانتداب ، ثم أشفعت في ١٦ شباط باتفاقية مع التابلاين (١٦) ، وكان لا بد من تصديق البرلمان على الاتفاقيتين ، ولكن قبل أن يتم ذلك قام الزعيم حسني الزعيم بقلب حكم القوتلي وقبض على زمام السلطة .

وقد أوضح خالد العظم الوضع فيما يلي (١٧)

«كان واضحا لي أن المجلس لم يرغب في تصديق أي من الاتفاقيتين ، أي الاتفاقية مع فرنسا واتفاق التابلاين ، اللتين اثارتا عداء مميّزا ، فبعض النواب خشوا من التدخل الاميركي الذي قد يرافقها في سورية ، وآخرون اقل اخلاصا ربما أملوا وهم يظهرون المعارضة في نيل رشوات مقابل أصواتهم ، كما ان فئة ثالثة ، تعرضت لضغط وترغيب من قبل هذه المصالح ، كانت ترتاب بالغرب وقد تملكها الغضب للدعم الغربي الذي تلقته اسرائيل .

« ان الولايات المتحدة قد اعتقدت ، خطأ أم صوابا ، ان هنالك املا

---

(١٥) النص في « لوريان » (بيروت) ٢٠ شباط / ١٩٤٩ .

(١٦) النص في الصحيفة السابقة تاريخ / ١٨ / شباط ١٩٤٩ .

(١٧) خالد العظم للمؤلف — دمشق في ٨ / تشرين ثاني / ١٩٦٠ .

ضئيلاً في نيل التصديق البرلماني ، لذا فربما نظرت بتعاطف الى أي فرد يتعهد بزوال هذه العقبة ، وان الحقائق تتحدث عن نفسها ، فسرعان ما صدقت الاتفاقيتان كلتاهما بعد أن تسلم الزعيم السلطة (١٨) .

---

(١٨) صدقت الاتفاقية النقدية مع فرنسا في ٢١ / نيسان / واتفاق التابلاين في ١٦ / أيار ، ويرى خالد العظم ان الولايات المتحدة قد شجعت الزعيم على تنفيذ انقلابه ، وهي وجهة نظر لم يستطع المؤلف اثباتها وتأكيدها ، وقد ذكرت المصادر الاميركية الموثوقة ان المخابرات الاميركية والبريطانية علمت بقرب وقوع الانقلاب ولكنها لم تفعل شيئاً لمؤازرته ودفعه ، كما ان احتمال دعم فرنسا للزعيم لا يمكن التغاضي عنه بهذه الثقة ، اذ ان الفرنسيين قدموا له مساندة كبرى ولا ريب بعد استلامه السلطة ، ووفق ما يراه اللواء شوكت شقير ، الضابط الدرزي ذو الاصل اللبناني الذي عينه الزعيم رئيساً لمكتبه العسكري وأصبح فيما بعد رئيساً للاركان العامة السورية ، ان تصديق الزعيم على الاتفاقيتين يجب أن يؤخذ على انه انعكاس عن حاجته الى كسب الاصدقاء اثر الانقلاب أكثر مما هو دعم اميركي أو فرنسي له قبل القيام به .

٥

الإنقلاب الأول

بدأ الجيش السوري بجيل الشباب الوطنيين الذين ايفعوا في السنوات الأخيرة من الحرب العالمية الثانية — اثر رحيل الفرنسيين في نيسان عام ٩٤٦ رمزوا للاستقلال وأعظم المؤسسات الوطنية قاطبة ، فتقاطر الطلاب الثانويون على الانتساب الى الكلية العسكرية في حمص ، فغدت مدرسة يتخرج منها الضباط الوطنيون المثقفون سياسيا . وكان لدفعة متخرجي ١٩٤٦ — ١٩٤٧ أهمية خاصة ، فقد ضمت الجيل الاول من الضباط « الوطنيين » وهم الرجال الذين قاموا بمهمة تحويل « القوات الخاصة » الى جيش وطني ، وألقي على اكتافهم مباشرة عبء القيام بدور سياسي ، لقد قطعت الحرب الفلسطينية عليهم دراستهم العسكرية ومدتها سنتان فأنهيت سريعا وألحقوا بالقوات السورية السيئة التدريب والتجهيز والمرابطة في وادي الأردن .

كان معظم الضباط القدامى في الجيش السوري من أفراد العائلات الكبيرة المتنفذة الذين أدرجهم الفرنسيون في سلك « القوات الخاصة » كي يحفظوا بذلك ولاء الاقليات التي استقدموا منها ، ولكن الاغلبية الساحقة من طلاب الكلية العسكرية أصبحت بعد عام ١٩٤٦ من الطبقة الوسطى الدنيا التي تربت فكريا وهي على مقاعد الدراسة بوسيلة أو بأخرى في مدارس حركات الشباب النظرية التي ظهرت للوجود في الثلاثينيات والاربعينيات . وكانت العائلات المسلمة مالكة الأراضي تحتقر الجندية كمهنة بسبب سيطرة العاطفة الوطنية عليها ،

وتعتبر الانتساب اليها في فترة ما بين الحربين العالميتين خدمة للفرنسيين ، ولم تكن الكلية العسكرية تعني بالنسبة لهم سوى مكان يتجمع فيه الكسالى المتمردون المتأخرون دراسيا او المغمورون اجتماعيا ، وهناك قلة من الشباب دار في خلدها الانتساب الى الكلية دون أن تكون مخفقة في الدراسة أو أن يكون أفرادها مفصولين من المعاهد . لقد غفل « اليمين » المحافظ في سورية عن الجيش كقوة سياسية في ظروف نكبة مهلكة يشكل أداة مندفعة مثقفة وموجهة دمرت فيما بعد نفوذ العائلات الاقطاعية وتجار المدينة حتى أن ساسة الاربعينيات السوريين القدامى قد يجدون على المسرح السياسي بعد (١٥) عاما القليل مما قد يقرونه أو يوافقون عليه .

أكرم الحوراني والجيش :

كان أكرم الحوراني ، الزعيم الحموي ، احد الأوائل ممن عرفوا كم هي قوية مجموعة الضباط الواعين سياسيا ، وكم هي خصبة « أرض » طلبة الكلية العسكرية بما قدمته لمبادئه ، وكما رأينا كانت اتصالاته الاولى بالجيش حين جمع حوله زمرة من صغار الضباط عام ١٩٤١ واندفع بها تملؤه الآمال السامية للالتحاق بثورة رشيد عالي في العراق ، وحين برز الى الحياة السياسية في حماه في الثلاثينيات كانت العائلات الاقطاعية الكبرى تقبض بحزم على السلطة السياسية والاقتصادية الفعالة فيها ، وفي عام ١٩٣٩ تسلم زعامة حركة الشباب التي كان ابن عم له قد اوجدها قبل سنتين ، ولم يكن لهذه الحركة أية ايديولوجية محدودة فقد كانت مجرد ثورة شباب على الانتداب والنظام القائم ، حيث قواها الحوراني بربطها سرا بأحد أكثر الحركات المعادية للانتداب نشاطا وفعالية آنئذ وهي التشكيل شبه العسكري المتين التنظيم المدعو بالحزب السوري القومي الذي استطاع من بيروت قاعدته ومع نشوب الحرب العالمية الثانية أن يتوسع ممتدا الى الاقطار العربية المجاورة . ومن المشكوك فيه أن يكون الحوراني ، وهو رجل عمل لا فكر ، قد اعتنق تماما النظرية السورية القومية التي بشر بها سعادة زعيم الحزب

أو مارس نظامه ، ولكنه كان في ثورة على الفرنسيين ووجد في الحزب السوري القومي الضالة المناسبة لما تأصل في نفسه من مشاكسة ، ذلك ان الحزب السوري القومي هو كحركة الحوراني المحلية ، يتطابق وتشكيلات الشباب شبه العسكرية العديدة التي ظهرت في الشرق الاوسط في النصف الثاني من الثلاثينيات والاربعينيات متخذة لها الطابع الفاشي ، في تنظيم اتباعها واستعراضات الشوارع في صفوف رياضية ، مبشرة بفضيلة العمل والتضحية . ولقد اضحى اطفال المدارس وطلاب الجامعة والشباب المكافح عموما وقد عبئوا جميعا على هذه الصورة - مجموعات قاهرة ضاغطة غير برلمانية ، لا ينافسها سوى الجيش في قوتها السياسية .

وفي عام ١٩٤٤ وحين أخذت تتوتر العلاقات بفرنسا انضم الحوراني الى مجموعات الضباط الشباب في غارات فدائية على الحاميات الفرنسية في منطقة حماه ، حتى بلغت هذه المحاولات حدا من القوة والتأثير على « التحرير المحلي » مما حدا بالحكومة السورية الى الطلب منه برقيا تجنب تدمير المنشآت العسكرية التي ستؤول ولا ريب الى سورية حين يرحل الفرنسيون . وفي ربيع ١٩٤٥ اقتحم الحوراني وضابطان أخوان هما أديب وصلاح الكشيشلي وبعض رجال الحزب السوري القومي قلعة حماه وطردوا الحامية الفرنسية ، ثم تهيؤوا بطيش للزحف الى دمشق حيث نشب القتال بين الفرنسيين وجيش مختلط من المدنيين ورجال الدرك ، ولكن تدخل الانجليز أحبط هذه الخطط ، وفي أيار ١٩٤٥ أسس الحوراني حزبه العربي الاشتراكي كواجهة لانتماءاته القومية السورية السرية (١) ، ولكنه قبل مضي وقت طويل أخذ يبتعد عن الحزب السوري القومي بنظرته الضيقة القائمة على القومية السورية ، نحو المبادىء القومية العربية والاشتراكية الأكثر شمولا والتي نادى بها حزب البعث الناشيء ، وفي

---

(١) هذا ما ذكره للمؤلف يوم ٤ / تموز ١٩٦١ غسان تويني وهو صاحب ورئيس تحرير صحيفة النهار اليومية وأحد قادة الحزب السوري القومي السابقين ، وقد أرسلت قيادة الحزب السوري القومي في بيروت غسان تويني في ايار / ١٩٤٥ الى حماه لاجراء اتصالات فيها مع الحوراني والكادرات المحلية .

نهاية الحرب كان الحوراني قد أبرز نفسه كأحد أعظم الزعماء الشعبيين المأمولين في شمالي سورية .

وفي الفترة التي تلت الحرب مباشرة وسّع الحوراني نفوذه في الجيش باقامة اتصالات بطلاب الكلية العسكرية في حمص عن طريق عدد من الوسطاء أشهرهم مدرس للتاريخ اسمه نخله كلاس ، أصبح خليل كلاس أحد أشقائه أول وزير بعثي للاقتصاد عام ١٩٥٥ في حين كان شقيقه الاكبر الضابط بهيج كلاس على تحالف وثيق بالحوراني ، ولقد متنت هذه الصداقات ووسعت كثيرا خلال الحرب الفلسطينية ، حيث كان الحوراني واديب الشيشكلي ، دكتاتور سورية الراحل ، من الاوائل الذين قادوا جماعات المناضلين عبر الحدود الفلسطينية في كانون ثاني ١٩٤٨ وهي تهاجم المستعمرات اليهودية (٢) . ان الكثير من قوته التالية قد نجم عن هذه الروابط بالضباط القوميين الشباب الذين بدا لهم مرشدا ومناورا سياسيا وقائدا جماهيريا ومصدرا ايديولوجيا .

وكان الجناح الثاني المؤازر للحوراني يتمثل بالاتباع الفلاحين الذين أوجدهم في القرى المحيطة بحماة معقل الاقطاع ،وفي السهل العظيم الممتد بين دمشق وحلب تقوم بلدتا حمص وحماة كمراكز للمناطق الريفية الكثيفة السكان حيث شملت الاملاك الواسعة معظم الأراضي الجيدة قبل الاصلاح الزراعي عام ١٩٥٨ ، وكان شركاء المحصول « أكثر سوءا هنا من أية بقعة أخرى في البلاد ، كما أن الملكيات الصغيرة كانت مجهولة تماما ، وفي اواخر الخمسينيات كانت شروط الفقر المدقع واضحة في قرى الملكيات الواسعة في تلك المنطقة ، ولقد أقامت العائلات المالكة العريقة القنوات ونصبت المضخات ، وأتت بالجرارات

---

(٢) كان كلاهما ، الشيشكلي والحوراني يعمل تحت قيادة فوزي القاوقجي ، وهو مسلم لبناني من طرابلس خدم في الجيش العثماني أثناء الحرب العالمية الاولى ثم تسلم اعمالا مختلفة فكان ضابط استخبارات تحت القيادة الفرنسية في سورية ، ومستشارا عسكريا لابن سعود ، وضابطا في الجيش العراقي ، وقائدا عاما للثوار العرب الفلسطينيين . لقد حارب القاوقجي ايضا في الانقلاب العراقي الفاشل ضد بريطانيا عام ١٩٤١ ، وهرب الى المانيا ، ثم احتجزه الروس ، وأخيرا وجد له ملجأ في فرنسا قبل عودته الى الشرق الاوسط عام ١٩٤٧ ج. ى. كيرك ١٩٤ — ١٥٠ : الشرق الاوسط ما بين ١٩٤٥—١٩٥٠ (طبع عام١٩٥٤) ص٢٥٣

ولكنها ظلت « مؤجرة » في عقليتها ودخلها تعيش على عمل « شركاء المحصول» وهي تقدم البذور للمزارعين او تقرضهم الأموال مقابل ثلاثة ارباع مجمل المحصول ، ان عقليتهم لهي عقلية « السلطان » (٣) .

لم يكن هنالك ما يمكن بحق تسميته بالصراع الطبقي قبل وضوح المعركة ما بين الفلاحين والوجهاء ، بل وقبل ظهور الحوراني على المسرح . فقد كره عائلات « العظم » و « البرازي » و « الكيلاني » التي حكمت حماه وظللت طفولته وعاشت في قصور ضخمة يقوم على حراستها اتباع مسلحون ، لقد امتطى افرادها خيولا مطهمة ، وامتلكوا العديد من القرى وقطعان الماشية ، وكان ابناؤها يشاهدون في ملاهي بيروت . كما كان جهاز الدولة ورجال الترك وموظفو الادارات الحكومية المحلية مرغمين جميعا على خدمتهم ، لقد حازوا على كل ما يثير غيرة المعدمين وعداء الواعين سياسيا ، وكان والد الحوراني نفسه ملاكا ومرشحا فاشلا للبرلمان العثماني ، ولكن ثروته كلها بددها احد الاعمام والحوراني نفسه حين احاط نفسه بجماعة من الشبان الناقمين . وربما لم ير الحوراني ما رآه تروتسكي الشاب في الثمانينيات من القرن التاسع عشر حين ابصر مجموعة من العمال « قادمين من الحقول في ضوء الشفق يسيرون مترنحين وقد مدوا ايديهم الى الامام يتلمسون دربهم ، لقد كانوا جميعا مصابين بالعشي (٤) لسوء التغذية . ولكنه رأى وفرة من صلات « الملاكين » بشركاء المحصول » جعلته يتمنى تحطيم احتكارات الاملاك والسلطة التي تسيطر عليها حفنة من العائلات ، فحث الفلاحين أواخر الاربعينيات على اللجوء الى العنف وحرق محاصيلهم ورفض العمل ، او كما قال احد الملاكين « لو كان في مقدوره ان يشرب دمائنا ويأكل لحومنا لفعل ذلك (٥) » .

وحين بدأ الحوراني عمله السياسي كانت القوة السياسية المنظمة في أيدي

---

(٣) دورين واينر : الاصلاح الزراعي والتنمية في الشرق الاوسط (١٩٥٧) صفحة ٩٦ .

(٤) اسحاق ديتشر : النبي المسلح (١٩٥٤) ص ١٠

(٥) حسني البرازي المؤلف ، بيروت ٢١ / ١٠ / ١٩٦٠ ، وهو احد الملاكين ورئيس وزراء سابق .

الكتلة الوطنية التي عادت في انتخابات ١٩٤٣ الى الحكم وهي الاولى التي جرت بعد اعلان استقلال سورية رسميا في ١٩٤١ ، فخاض الحوراني المعركة الانتخابية الى جانب الكتلة الوطنية ، لم يكن امام شاب طامح بديل آخر وانتخب ممثلا الجيل الجديد في حماه . حيث التقى ، بعد قليل من وصوله الى دمشق كنائب جديد في البرلمان عام ١٩٤٣ ، بمدرسين شابين تلازما منذ أيام دراستهما في باريس في الثلاثينات وبدأ حديثا بين الشباب حركة يسارية عربية قومية سميت « حزب البعث العربي » ، انهما ميشيل عفلق المسيحي وصلاح البيطار المسلم . ولم يقم الحوراني آنئذ بأية اتصالات بهذه المجموعة ولكنه أثار في المجلس قضايا نيابية عنها وكان دائم الزيارة لمقر الحزب ، ثم توثقت روابطهم أثناء الاحداث المؤلمة للثورة المسلحة ضد الفرنسيين في أيار ١٩٤٥ التي لعب فيها قادة البعث دورا فعالا ، داعين الضباط القوميين الى الهرب من « القوات الخاصة » التي يقودها الفرنسيون .

ولقد أنتج تحالف الحوراني مع عفلق والبيطار فيما بعد أكبر قوة ديناميكية في السياسة السورية ، الا ان اشتراكيتهم الثورية قد استقت من مصادر جد متباينة ، فزعيما البعث كانا مثقفين يرنوان إلى تطبيق الافكار الماركسية التي تلقياها في السوربون على وطنهما ، بينما كانت خصومه الحوراني متسببة عن سخطه الشخصي وليس عن نظرية مجردة ، فكان لها حد قاطع قائم على ضغينة لم تكن عند عفلق والبيطار . ولكن رجلا كعفلق ، بالرغم من أنه أقل عنفاً من الحوراني – لم يكن بالشاعر الضعيف المطموس الشخصية أو بالنظري الذي بدا أحياناً وبحسب أعراف التمثيل النيابي الدمشقي ودودا لينا تجاه سيده التركي ، فقد كان هو أيضاً يتأجج بالافكار الثورية .

فضيحة السمن :

وللبحث عن ضحية ، أثر الكارثة الفلسطينية ، وجه الجيش اللوم إلى الساسة . وبعض الساسة وجهوه إلى القيادة العليا ، ولكن تعيين الزعيم حسني الزعيم

رئيساً للاركان العامة اوقف لفترة سيل السباب والمهاترة المتبادلة دون أن يضع حداً نهائياً له . وسرعان ما أخذ الجيش يتبرم ثانية ، بعد ان زاد اتضاحاً يوماً بعد يوم ان الحكومة لم تقم بأية استعدادات للحرب ، فقوات الخطوط الامامية قد زودت بالفاسد وبالقليل من السلاح والعتاد ، وكان الاخفاق المأساة لبعثة فؤاد مردم المرسلة لشراء السلاح لا يزال ماثلا في أذهان الشعب ، واقتطعت العلاوات . كما ان أيصال المخصصات الغذائية إلى الجبهة لم يكن منتظماً . وفي الوقت نفسه تعرضت مناقب الجيش وطاقاته القتالية لهجوم مهين في المجلس النيابي شنه فيصل العسلي نائب منطقة الزبداني وزعيم فئة يمينية صغيرة لكنها كثيرة الصخب أطلقت على نفسها « الحزب التعاوني الاشتراكي » ، وقلما تستحق شخصية العسلي الثانوية هذه الذكر لو أن هجومه على الجيش لم ينقلب إلى خصام شخصي مرير بينه وبين الزعيم ، فالجيش لم يتلق قط اهانة مماثلة من أي نائب برلماني ، وقد أخذت كثير من المصادر هجومات العسلي على انها عامل فجّر نار الازمة وقادت الزعيم إلى الثورة (٦).

وفي أوائل ١٩٤٩ ، وقع حادث غريب آخر يمكن أن يعزي اليه توقيت انقلاب الزعيم أكثر مباشرة من هجومات فيصل العسلي ، فحين تسلم الزعيم القيادة العامة في أيار ١٩٤٨ كان من الطبيعي ان يجري تعديلات في عدد من المناصب الكبرى ، وكان الزعيم انطون البستاني ، الذي عرفه الزعيم في المدرسة ، قد شمله التعديل وعين مديراً لتموين الجيش . وبعد أشهر قليلة ، وكان

---

(٦) ذكر اللواء شوكت شقير هذا للمؤلف في بيروت يوم ١٨ / كانون اول / ١٩٦٠ ، أنظر ايضا قصة احد المدبرين ، وهو بهيج كلاس ، في صحيفة « الف باء » الدمشقية في ٢٧ / حزيران ١٩٤٩ :

« لقد فكر الجيش بانقلابه عشية شن فيصل العسلي الهجوم عليه في البرلمان ، فجمع القائد العام كبار الضباط في قيادته في القنيطرة وحدثهم عن خطورة الوضع ... ، لقد كان العسلي احد الاوائل الذين قبض عليهم بعد الانقلاب ، وحسب أوامر الزعيم حلق له شعره الغزير الطويل الذي يعتز به . انظر أيضا البلاغ العسكري التاسع الذي أصدره الزعيم بعد الانقلاب (صحيفة النصر ٣١ اذار ١٩٤٩) : ان الدافع الى الحركة التي قام بها الجيش هو الهجمات المتكررة على الجيش والاهانات الموجهة اليه خارج المجلس النيابي وداخله ، ثم سوء المعاملة التي لقيها .

خالد العظم قد تولى رئاسة الوزارة منذ فترة وجيزة ، قام الرئيس شكري القوتلي يرافقه رئيس الوزراء بجولة على المواقع الامامية ونقاط التموين فيها ، فلحظ السياسيان ان رائحة نفاذة تنبعث من مطبخ ميدان ، وحين استفهما عن ذلك أخبرا أنها رائحة سمن يحترق ، فطلب القوتلي أن تفتح أمامه صفيحة سمن جديدة وتقلى بيضة بسمنها أمامه ، فانبعث ثانية من السمن رائحة تزكم الانوف ، فتذوق الرئيس السمن وحكم عليه برداءة النوع ، ثم أرسلت عينات منه للفحص وتبين ان السمن مأخوذة من بقايا العظام ، ولتقدير طبيعة هذا الكشف المرعبة لا بد من القول ان السمن المستخرج من الحليب هو الاساس الثابت الذي تقوم عليه المآكل العربية ، ولا يمكن لعربي يحترم ذاته ان يستعمل في الطبخ أي شيء آخر ، وليس للمآكل العربية طعم جيد بدونه ، كما تعزى اليه جميع المزايا الصحية الجيدة (٧) ، وكان غش ابطال الجبهة في هذه المادة الاساسية جريمة نكراء لذلك فقد أمر القوتلي بالقبض حالا على الزعيم البستاني بتهمة الاثراء على حساب الجيش ، ولكن الزعيم بدل ان ينفذ الامر قام باحتجاز البستاني في غرفة علوية من مبنى وزارة الدفاع ، يدفعه إلى ذلك كما سيظهر اخلاصه لصديقه القديم أو رغبة في الاطمئنان إلى ان البستاني لن يكون في موقف يرغم فيه على الكلام وقد يفضح الشركاء الآخرين في القضية .

غضب الضباط ، وهم ليسوا بالموالين للقوتلي ، من المعاملة المهينة التي لقيها أحدهم ، ورأوا في الحادث تدخلا اجرامياً آخر يقوم به الساسة العجزة المرتشون في القضايا العسكرية ، كما ان اتهام ضباط الجيش باللصوصية ليس بالامر السهل الذي يمكن احتماله ، ان صبية الشوارع امسكوا انوفهم حين كان يمر الضباط على الارصفة وكأنهم يقولون : كم هي سيئة رائحة السمنة . لقد كبرت القضية فغدت اختباراً للقوة ما بين الجيش والساسة ، وحين علم القوتلي ان البستاني يتوارى في وزارة الدفاع طلب نقله الى سجن المزة ، ولكن الرئيس حين شدد على اتهاماته اغفل صداقة الزعيم الحميمة بالبستاني ، واخطأ

---

(٧) هذا ما تؤكده اية ربة بيت اذ تقول : السمنة الاصلية هي السمنة الحديدية .

في الحكم على حال الضباط المهزومين في فلسطين ، المهزوء بهم في البرلمان الذي يواجهون فوضى المدنيين السياسية ، اذن فهذه هي القشة الاخيرة .

ان الزعيم نفسه ربما شملته فضيحة السمنة . فقد بعث اليه البستاني من السجن رسولاً يقول له (٨) : « أخبر الزعيم انه اذا كان هنالك استجواب فسأرغم على قول كل شيء » ، واستناداً الى وجهة النظر هذه قام الزعيم بانقلابه لينقذ نفسه لا البلاد ، ان سجل اعماله السابقة ليس بالنظيف عديم النقائص . فحين تقدمت القوات الامبراطورية والفرنسية الحرة نحو سورية عام ١٩٤١ لتضع حداً للتسلل الالماني عهدت السلطات الفيشية الى الزعيم ، وكان آنئذ ضابطاً في القوات الخاصة ، بمهمة تنظيم عمليات فدائية ضد الغزاة ، ووضعت تحت تصرفه مبلغ ٣٠٠ الف ليرة سورية ، ولكن حين اضطربت الاحوال وبدت قضية الفيشيين ميئوساً منها توارى الزعيم والاموال معه ، وبعد انتهاء الحملة القصيرة الأجل فضح الفيشيون هرب الزعيم وكشفوه في نداء اذاعي الى خصومهم قوات « فرنسا الحرة » (والى المواطنين) ، فقبض عليه وقدم للمحاكمة وحكم عليه عام ١٩٤٢ ، بالاشغال الشاقة لمدة عشر سنوات ، ولكن القوتلي اطلق سراحه في اواخر الحرب حين اعيد الى الجندية ضابطاً في الجيش الوطني السوري المشكل حديثاً .

كان الزعيم متين البنية له وجنتان عريضتان ونظرة حادة ووجه نضر يشا به وجود طغاة اميركا اللاتينية ، ولد في حلب اواخر القرن الماضي في اسرة غنية من التجار تعود في اصولها الى الاكراد ، وعاش حتى نهاية أيامه حياة صاخبة ماجنة ، لقد بدأ عمله في الجيش العثماني ، واسره الانجليز في الحرب العالمية الاولى ثم انضم الى « القوات الخاصة » اثناء الانتداب ، وهذه القوات تشكل جزءاً من الجيش الفرنسي في المشرق .

---

(٨) فرزت المملوك ، نائب مستقل في المجلس النيابي السوري ، يدين له المؤلف بكثير من تفاصيل فضيحة السمنة ، وقد أكد أهمية الحدث ايضا شوكت شقير وادمون حمصي ، وهو مصرفي لامع ووزير سابق ، وخالد العظم نفسه الذي اضاف ربما دس للقوتلي امر السمن ثم رأى المشهد بنفسه في مطبخ الميدان ، وكان هذا ضربا من الاخراج المسرحي .

ان الرجال الذين يعرفون الزعيم يقرون أنه مغامر قليل المثل العليا ، وأنه كان غير مستقر عاطفياً وسهل الاستثارة وشجاعاً الى حد التهور ولكنه قليل المواهب في رسم الخطط الحربية الاستراتيجية ، ان سجله العسكري في فلسطين لم يكن شائناً ، وطموحه الذي غالى في تفتحه قد وجد أداة جاهزة في قواة الضباط الوطنيين في الجيش السوري الذين آمنوا بعد حملة فلسطين بدورهـــم كحراس لرفاه البلاد وكان نفوذ أكرم الحوراني فيهم قد اصبح واضحاً الآن .

الانقلاب :

ان الحوراني نفسه لم يخطط الانقلاب ولكن اثنين من اكثر مساندية العسكريين حماسة هما اللذان فعلا ذلك ، انهما بهيج الكلاس وأديب الشيشكلي اللذان اصبحا اقرب الزملاء المتآمرين الى الزعيم . كما انضم الحوراني الى نظام الحكم الجديد في ايامه الاولى ، وكان الكلاس نائب الزعيم في القيادة بينما قاد الشيشكلي وحدات المشاة والمدرعات التي نفذت الانقلاب ، لقد نظـــم قواته في قطنا التي تبعد عشرين ميلا عن دمشق حيث تلقى الامر بالزحف الى العاصمة في الثانية والنصف صباح الثلاثين من آذار (٩) .

لقد جرى مشهد طالما تكرر بعد ذلك : فاحدى الفصائل ألقت القبض على رئيس الجمهورية في المستشفى حيث كان يعالج من قرحة في المعدة ومرض في القلب ، وقبضت اخرى على رئيس الوزراء ، وثالثة تسلمت محطة الاذاعة واحتلت رابعة قيادة الشرطة والامن العام وخامسة قيادة الدرك وسادسة بناء الهاتف الآلي ، وتسللت وحدات اخرى ، والمدينة نائمة ، الى اهدافها المرسومة لها لتقبض على مدير الشرطة وقائد الدرك وعدد من الوزراء والنواب بينهم فيصل العسلي الذي استقبح القادة العسكريين هجوماته على الجيش في المجلس النيابي (١٠) ، وقطعت الاتصالات السلكية واللاسلكية مع العالم الخارجي

(٩) فضل الله أبو منصور ، اسير دمشق (١٩٥٠) ص ٤٧ .

(١٠) احمد عيسى الفيل – سورية الجديدة في الانقلابين الاول والثاني (١٩٤٩) صفحة ٣٣ .

واغلقت الحدود ، وفي ضحى ذلك اليوم اطلق سراح الزعيم انطون البستاني واعيد الى منصبه مديراً لتموين الجيش ، أما التجار الذين قدموا السمن الرديء فألقي القبض عليهم واعتبروا مسؤولين ، لقد ذكرت صحيفة « التايمز » اللندنية ان الانقلاب كان « ناجحاً وتاماً ولم ترق فيه قطرة دم » ، أما الشعب الذي صحا على النبأ فقد حيّاه بفورة من فرح وابتهاج ، ومع ذلك فسوف يتجلى ثانية ان ضلالا دائماً يقع فيه المدنيون حين يضعون ثقتهم في كبار الضباط

لقد مضى العهد القديم غير مأسوف عليه ، وكان قائماً على رجال إكتسبوا الخبرة السياسية من خلال مقاومة الانتداب ومقارعته ، فهم ليسوا بالخونة كما اطلق عليهم خلفاؤهم احياناً ، ولكن الظروف لم تتح لهم كي يتعلموا حرفة « بناء الدولة » ، فكانوا مجموعة من الساسة لا جذور عميقة لها بين الشعب حرمتها سياسة دولة الانتداب من التمرس في الشؤون الحكومية ، وتقاسمت بعد الاستقلال السلطة بالاسلوب التقليدي ، مع ادراك وفهم قليلين لما تعنيه حكومة نيابية شعبية الأسس ، ولم يفق أحد القوتلي دهشة بالانقلاب ، وقد قيل ، والرواية غير محققة ، إن الزعيم أمر بأن يطاف في المدينة برئيس الجمهورية ورئيس الوزراء في عربة مدرعة مغلقة ليريا بنفسيهما الشعب وهو يرقص في الشوارع .

كان انقلاب الزعيم الناجح أول تدخل للجيش في السياسة في منطقة الشرق الاوسط ، فأقام بذلك مثالا لطالما احتذي فيما بعد ، انه لم يكشف تماماً حماسة الجيش الاصلاحية ، فقد رأينا ان دوافع الزعيم ذاته كانت موضع تساؤل ولكنه كشف عن وهن وسهولة تحطم الشكل الدستوري الغربي الذي يشبه في امتداده وتوسعه قشرة جديدة تغطي تصدعات مجتمع تقليدي قديم . كما بينت تجربة فلسطين قصور النظام القديم وعجزه ، وحدّة سخط الجيش ، الا ان الحركة التي حملت الزعيم الى قصر الرئاسة اشتد ازرها بنشوء مجموعات رأديكالية ضاغطة ومحرضين سياسيين يساريين اضطلعوا بمهمة تثقيف الشباب سياسياً ، داخل الجيش وخارجه ، ومنحوهم نظرة للسياسة جديدة وتطلعات أوسع لصالح العرب عموماً .

٦

تنافس في المزايدات على سورية

كان اكتشاف الزعيم الاول ، بعد تسلمه السلطة ، أن توترات سورية الداخلية التي ملك موقتاً ناصيتها لا يمكن لها أن تحتوي داخل حدودها ، اذ أنها سرعان ما تصدر الى جاراتها ، لذا فان انقلاب الزعيم لا بد وان ينظر اليه ضمن قرينة عربية أكثر اتساعاً ، أي أن مصر والعربية السعودية والعراق والاردن ولبنان اهتمت حالا به وكان السؤال على كل شفة : من يسند الزعيم ؟ وأي سبيل سيسلكه ؟ .

ان الاسابيع الاولى الثلاثة المحمومة للحكم الجديد قد صورت جيداً وجهة النظر هذه وهي أن سورية ، في فترات الازمات والحكومات الضعيفة المترددة كرة تتقاذفها جاراتها المتنافسات ، وخلال ساعات من اذاعة نبأ الانقلاب بدأ الرسل القلقون من الاقطار العربية المجاورة يتدفقون على دمشق في مهـام استكشافية ، ان مصر ، كما شوهد ، قد ربحت معركة الجامعة العربية عـام ١٩٤٥ غير مبالية بأية اندماجات في آسيا العربية وفارضة على الدول العربية نمطاً من العلاقات استبقى لها الدور الرئيسي فيها ، لقد منح تركيب الجامعة الزعامة إلى مصر وقضى على مشروعي سورية الكبرى والهلال الخصيب اللذين كانا في الحقيقة خطتين لتوحيد آسيا العربية ، مع استثناء مصر وشبه الجزيرة العربية . ولكن الثقة بالجامعة العربية نزعت اثر اخفاق تدخلها في فلسطين حيث كانت اسطورة التضامن العربي واضحة تماماً ، كما ولدت الهزيمة حالة

من الانعزالية في مصر ، وأما في الاقطار العربية الآسيوية التي تهددها مباشرة القوة الاسرائيلية فكان الخطر المشترك دافعاً لها نحو الوحدة ، انها عاطفة عبر عنها الزعيم الفلسطيني الراحل موسى العلمي حين حلّل الكارثة العربية في كتابه « عبرة فلسطين » الصادر عام ١٩٤٩ ، لذلك فقد كان في اواخر الاربعينيات أسباب قوية للاعتقاد ان فرص قيام وحدة سورية – عراقية ليست ميئوساً منها .

وفي سورية نفسها رأى حزب الشعب ، الذي تشكل اصلا لتمثيل مصالح مدينة حلب والشمال السوري ، في العراق منفذاً وفي الاتحاد معه خير ضمان للاستقرار والازدهار المقبلين ، وحالما مال حزب الشعب نحو العراق تعلق القوتلي والحزب الوطني بمصر والعربية السعودية ، وكان الملك ابن سعود سيصاب بكابوس وهو يرى اعداءه القدامى الهاشميين يحكمون سورية والاردن والعراق ، فيسيطرون على المنطقة التي تصل البحر الابيض المتوسط بالخليج العربي ، لذلك فحين بدأ حزب الشعب مع عدد من المستقلين في اقامة اتصالات مع العراق في اواخر الاربعينيات تدخل ابن سعود لكبح هذا الاتجاه ، وقد شهد العام الذي سبق انقلاب الزعيم عام ١٩٤٩ بروز العراق والعربية السعودية كبلدين يتسابقان في مساندتهما للزمر السياسية السورية وأخذت الرشوات المالية تتدفق منهما الى سورية ، وفي السنوات العشر التي تلت وجه كل ثقل الموارد السعودية لدق اسفين ما بين العراق وسورية (١) ، وكانت خطوة الزعيم الاولى ، حين عزل القوتلي وثيق الصلات بالعربية السعودية ، ان استدار نحو العراق للحصول على التأييد .

طلبات الزعيم من العراق :

كان الزعيم ، باعتباره جندياً ، سبب خاص يدعوه الى ضمان عون

---

(١) ان تقلبات الاسعار في سوق الذهب بدمشق كانت تعلن عن وصول طائرة من المملكة العربية السعودية .

بغداد ، فمحادثات الهدنة التي ستجرى مع اسرائيل كانت قريبة ، اذ كان مقرراً لها ان تبدأ في الاسبوع الاخير من آذار ولكنها ارجئت الى اوائل نيسان بسبب الانقلاب ، وكان الزعيم يعتقد ان اعلان اتفاقية عسكرية سورية — عراقية ستشد أزره في هذه المفاوضات ، لذلك فقد رحب ترحيباً وديـاً بالمبعوثين العراقيين اللذين وصلا في يوم الانقلاب الاول الى دمشق وهمـا جميل بابان السفير العراقي المعين حديثاً في لبنان وعوني الخالدي المندوب العراقي في محادثات الهدنة مع اسرائيل ، لقد حمل بابان معه رسالة من نوري السعيد ، رئيس الوزراء العراقي ، الى فارس الخوري رئيس المجلس النيابي السوري ، وهو احد اصدقاء العراق القدامى ، وقد بدا في الشروط الجديدة المرعبة التي خلقها الانقلاب جزيرة واضحة المعالم .

وفي الاول من نيسان أرسل بابان تقريراً الى بغداد ذكر فيه أنه رأى سيد دمشق الجديد ، ونقل اليه استعداد العراق لمده بالمعونة التي قد تعوزه (٢) : وقد سأل الزعيم هل يعتزم اقامة نظام ملكي او جمهوري — وهذا أمر بالـغ الاهمية للوصي في بغداد — ولكن الجواب الذي تلقاه كان غير جازم ولا ملزم ، وقال الزعيم ، حول السياسة الخارجية ، إنه قد انبأ وزراء بريطانيا واميركا استعداده للتوصل الى اتفاقيات مع دولتيهما والافادة من معونـات « مارشال » ثم قابل بابان فارس الخوري المحامي العجوز وشيخ الساسة وكان يلازم فراشه لاراحة أعصابه فأكد له دعم العراق ومساندته اذا شكل هـو حكومة « وانقذ الوضع » ، ولكن فارس الخوري اعترض على ذلك متعللا بكبر سنه وبالتباس الصورة ، وقد اعترف لعوني الخالدي ، المبعوث العراقي الآخر ، أن الانقلاب في نظره اعظم كارثة حلت بسورية منذ تصفية جماعة تركيا الفتاة ، وهو لا يستطيع الآن ، بعد نصف قرن من الحياة العامة الكريمة ، التعاون مع حـكومة غير شرعية ، وأضاف ان لا خطة لدى الزعيم السوري

(٢) المصدر الرئيسي للرواية التالية عن النشاط الدبلوماسي العراقي خلال الاسابيع الثلاثة الاولى من نيسان ١٩٤٩ هو تقرير رسمي عراقي مؤشر عليه بـ « سري جدا » ومعنون بـ « مجـرى الحوادث المتأتية ... بالحكومة العراقية (١٩٤٩) .

ما عدا « كنس » الساسة القدامى وطرح مشروع دستور جديد ، ولكنه أشار على العراق ألاّ يلجأ الى القوة في مقاومته للزعيم . لقد التقى بابان ايضاً بزعيم حزب الشعب ولكنه ، كما ذكر في تقريره لوزراة خارجيته ، « كان بالغ الخوف حتى انني لم أستطع اخذ أي رأي منه » ، (ربما كانت هذه هي الاشارة الاولى الى ذلك الوجل الذي سيتلف مستقبلا مجرى حياة حزب الشعب وعمل رشدي الكخيا وناظم القدسي) .

لقد بدا الزعيم منذ البدء وكأن الشكوك قد سيطرت عليه بخصوص « شرعية » عمله فاتصل لتشكيل حكومة بفارس الخوري والامير عادل أرسلان بعد الانقلاب مباشرة ولكن لمس أن عليه اولا ان يضمن استقالة الرئيس القوتلي لذلك فقد بعث فارس « بك » لزيارة الرئيس المعزول في المستشفى العسكري حيث كان محتجزاً فأبى القوتلي أن يستسلم (مادامت في عروقي دماء) وردّ بحث فارس الخوري على دعوة المجلس النيابي لعقد دورة خاصة واعلان عدم شرعية الانقلاب الا ان القوات العسكرية كانت تحيط بمبنى البرلمان ومنع النواب من الدخول ، فعقد (٧٦) نائبا (من أصل ١٣٦ نائبا يشكلون مجموع اعضاء المجلس) دورة في مبنى وزارة الخارجية استمرت طيلة ليلة ٣١ – آذار – وقرروا تأييد الزعيم ، الذي اعتبر هذا الدعم غير كاف فأصدر في الاول من نيسان امراً ، بحل المجلس النيابي بعد أن انهكته المماحكات الدستورية ، وعين الامير عادل أرسلان رئيسا للمعاونين السياسيين بينما أخذ أكرم الحوراني على عاتقه المهام الغامضة « كمستشار قانوني » للحكم واتخذ لهما مكاتب في وزارة الدفاع ، لقد كان الحوراني موجودا منذ ساعة الانقلاب الاولى في قيادة الزعيم التي اتخذ لها دائرة الامن العام مقراً موقتاً ويعتقد أنه وضع البلاغات الاولى للحركة الثورية .

وفي ٣ نيسان بلغ الوزير العراقي في دمشق حكومته في بغداد أن الامير عادل ارسلان انبأه ان الوحدة مع العراق على اساس الاستقلال الذاتي الداخلي لكل اقليم واستثناء شرقي الاردن لهي رغبة « الرأى العام المتعلّم » في سورية ،

وقد رحبت الحكومة العراقية حذرة بهذه الدعوة مجيبة بأن هذا المشروع يتطلب دراسة دقيقة ولا يمكن ان ينفذ الا بأساليب شرعية ، ان هذا يتفق وبرقية ارسلها وزير الخارجية العراقية إلى السفارة في القاهرة يوم ٣ - نيسان - يقول فيها ان العراق يتخذ من دمشق موقف « التريث » ويوصي السفير بجس الرأى العام المصري وتحذير « الاشخاص غير المسؤولين » في الجامعة العربية من التدخل ، وكانت هذه اشارة واضحة « إلى عزام باشا الامين العامللجامعة » ، لقد قابل السفير العراقي رئيس الوزراء المصري ثم انبأ حكومته ان الرئيس المصري يرغب في التأكيد لنوري السعيد ان امانة الجامعة العربية لن يسمح لها ان تكون « حكومة فوق الحكومات » وان الامين العام لن يسافر إلى دمشق

ان الصحافة المصرية ، وقد صعقها خلع القوتلي حليف مصر ، لم تعلق على الانقلاب حتى الثاني من نيسان ، ثم بحرارة رحبت بتأكيدات الزعيم انه سيدافع بقوة عن الاستقلال السوري ، لقـد أرسل الملك فاروق مبعوثين اثنين إلى الزعيم يحملان رسائل شفوية ، كما انضم إلى الملك ابن السعود في ندائـه لانقاذ القوتلي ، ان الملك ابن سعود أحس بضرورة تحـذير الملك عبدالله، الذي بارك نبأ الانقلاب بلهفة، من أنه يعتبر أي اعتداء على سورية اعتداء موجها اليه ، ان الزعيم لازالة مخاوف الملكين المصري والسعودي بعث بمهمة مستعجلة اثنين من معاونيه ، احدهما عديله نزيه فنصة ، إلى الرياض في ١٢ نيسان والقاهرة في ١٣ - نيسان وهما يحملان احتراماتـه وتأكيداته وتطميناته .

وفي ٩ نيسان ارسلت بغداد برقية مستعجلة إلى سفارتها في القاهرة مستفهمة وعلى عجل عن صحة التقارير التي تقول بان القاهرة تعتزم الاعتراف بالحكم الجديد القائم في دمشق ، وكان جواب السفارة ان رئيس وزراء مصر وعد باعلام الحكومات الاخرى حين يقرر الاعتراف بالزعيم واقترح عقد اجتماع للدول العربية لتدارس الوضع في دمشق ، فردت بغداد انها ترحب في العاصمة العراقية باى مسؤول مصري قادم لاجراء محادثات ، ولكن الرئيس المصري رجا أن يعذر معبرا عن امله في أن تظل الحكومتان مع ذلك على اتصال .

وبينما كانت هذه الاتصالات قائمة تابع الزعيم سبر غور النيات العراقية ، اذ كان من المقرر بدء محادثات الهدنة مع اسرائيل يوم ١٢ نيسان وأحس بحاجته إلى الدعم ، لذلك ففي ٩ نيسان ذكرت السفارة العراقية في دمشق ان الزعيم يود ان تعقد حالا معاهدة عسكرية دفاعية ، وعرض ان يرسل إلى بغداد متفاوضين من أجل هذه القضية ..

المفاوضات :

قررت الحكومة العراقية أن ترسل هي الى دمشق فريقها المفاوض ، وبعد ثلاثة أيام وفي ١٢ نيسان وصل الى العاصمة السورية الزعيم عبد المطلب الامين وفي اليوم ذاته ابرق الى حكومته باقتراح الزعيم فذكر ان الزعيم يريد إذاعة بيان مشترك يعلن فيه عقد ميثاق سوري – عراقي فاعترض الزعيم الامين محتجا بأن اعلان كهذا سيكون قليل الأهمية ما لم يدعّم بالقوات العسكرية وشرح الحاجة الى قواعد وخطوات مواصلات تستعملها القوات العراقية في سورية ، ثم طلب الزعيم بيانا عن المساعدة العراقية القصوى التي ستمنح له مع اشارة خاصة الى المدفعية والمدرعات والاسلحة المقاومة للدرع والطائرات فطلب الزعيم الامين من حكومته تعليمات مفصلة حتى يستطيع مواجهة السوريين باقتراحات ثابتة ، وألح على أهمية قرار سريع نظرا للفرصة الملائمة لعقد اتفاقية والتي أتاحتها محادثات الهدنة مع « اسرائيل » ، ثم عقد اجتماع آخر في اليوم التالي حدد فيه السوريون متطلباتهم المفصلة وقبلوا بمنح القوات العراقية أية تسهيلات قد تعوزها على الأرض السورية .

ولكن ، وبينما كانت هذه المداولات تأخذ مجراها ، انبأ ممثل العراق في جدة بغداد بوصول مبعوث الزعيم الى ابن سعود ، الذي يعتبران عقد اتفاقية سورية – عراقية عسكرية او اقتصادية عملا عدوانيا موجها الى المملكة العربية السعودية ، وأن هذا ، حسب اعتقاده ، هو شعور الحكومة المصرية أيضاً .

أبرقت بغداد ، وقد ايقظتها هذه الانباء ، الى سفارتها في دمشق تستفهم

عما سيكون موقف الزعيم اذا عارضت مصر والعربية السعودية منح سورية مساعدة عراقية ، وفي ١٣ نيسان أرسل الزعيم بعثة الى بغداد لتضع أمام الحكومة العراقية مشروع اتفاقية عسكرية . وقد ورد فيها من أجل الدفاع المشترك ضد أي عدوان مهما كان مصدره : اقامة تعاون فوري في حال عدوان اسرائيلي ، وقيادة موحدة زمن الحرب يرئسها ضابط من البلد الذي وقع عليه العدوان أولا ، وهيئة تخطيط موحدة زمن السلم وغير ذلك ، وقد دعا الزعيم في رسالة شخصية الى نوري السعيد لعقد اتفاقية سريعة هي لخير الامة العربية

لقد امسكت سورية حتى الان بزمام المبادرة ، فالهلال الخصيب كان منذ زمن شعارا في العراق ولكنه حين دعي الى العمل بدت حكومته وكأن نوعا من الشلل قد أصابها ، فهي مرتبطة مع بريطانيا بمعاهدة كما انها لا ترغب في اثارة عداء مصر والعربية السعودية ، ونوري السعيد نفسه لم يستحسن اجراءات الزعيم الفظة اللادستورية ، كما استنكر اقلاقه العنيف لمسرح الشرق الاوسط وربما أحس ان الزعيم رجل بالغ الخطورة ويصعب التعامل معه ، وقد اوضحت هذه التحفظات في رد للسعيد على المقترحات السورية القاه في اجتماع مع المبعوثين السوريين في ١٤ نيسان ، فبدأ بقصة الروابط التاريخية ما بين العراق وسورية بالمساعدات التي قدمها العراق لسورية منذ الحرب العالمية الاولى ، وذكر انه بحث عام ١٩٤٦ مع رئيس الوزراء السوري الراحل المرحوم سعد الله الجابري امكانية تعاون سري – عراقي وثيق ولكن الموضوع أهمل لان سعد الله لم يرد آنئذ اغضاب مصر أو ابن سعود ، ثم تساءل الزعيم مرتابا : لم أرسل الزعيم بعثتين الى القاهرة والرياض ؟ انه لا يستطيع النظر في عقد اتفاقية مع سورية الا بعد عودة الحياة الدستورية اليها ، وأثناء هذه الفترة لن يكون ثمة ضرر من تفحص محضر اجتماعه بسعد الله ودراسته ويستطيع السوريون ايجاده في محفوظات وزارة خارجية بلدهم ، أما الميثاق العسكري فيستلزم سياسة خارجية ثابتة ، ولم يكن لسورية ، حتى الماضي القريب ، سياسة خارجية مستقلة كما انها لم تحدد موقفها من الشرق والغرب ، وربما تحاول الاتفاق مع الاثنين أو معاداتهما معا ، ثم أعلن « أما نحن فلنا سياسة خارجية واضحة وقد ترتبط

بمعاهدة مع بريطانيا ، وعلينا أعلامها اذا اردنا الدخول في أي ميثاق عسكري

فأجاب فريد زين الدين ، المبعوث السوري ، مؤكدا ان وجوب تبني البلدين سياسة خارجية واحدة لهو وجهة نظر حكومته ، ولكن كان من الصعب استثارة نوري السعيد ودفعه ، ولعقد اي ميثاق عسكري كان لا بد من اتضاح الموقف في سورية ، غير أنه تعهد في الوقت نفسه بارسال الجيش العراقي لمساعدة سورية في حال تعرضها لهجوم صهيوني بدون الحاجة الى اتفاقية عسكرية مسبقة او طلب صريح سوري ، لقد اوضح نوري السعيد أن العراق أما أنه لا يستطيع الدخول في اتفاقية رسمية مع الزعيم أو يأبى ذلك ، كما انه لا يستطيع الموافقة على اذاعة بيان عام مشترك ، وهو ما طالب به الزعيم كي يقوي موقفه في محادثات الهدنة مع الاسرائيليين .

وفي ذلك اليوم نفسه ، أي ١٤ نيسان ، عاد الى دمشق مبعوثو الزعيم الى مصر والعربية والسعودية ، لينقلوا اليه بعبارات واضحة ان الملكين ينتظران منه حماية الاستقلال السوري من التعديات الهاشمية ، وفي الصحافة المصرية نبه الزعيم الى « انك تسلمت من القوتلي سورية مستقلة ، فحافظ على استقلالها »

إعاقة من فرنسا

دخلت فرنسا المعترك في الايام الاولى للحكم الجديد فرمت بثقلها ضد اقامة صلات بالهاشميين ، وكان لمعارضتها أهمية كبرى ليس فقط للقوى التي تستطيع حشدها ولكن لان بريطانيا استمرت بعد الحرب تعترف بسيادة فرنسا وتحترم رغباتها في سورية ، وظلت السياسة الفرنسية على شكها العميق ببريطانيا وعدائها للقومية العربية رغم التأكيدات البريطانية المتكررة أن لا غرض أو مصلحة لها . أن أي ارتباط لسورية بدولة عربية مجاورة سيعني الخروج من منطقة النفوذ الفرنسي والدخول في منطقة النفوذ البريطاني ، لذا قاومت فرنسا الوحدة العربية عموما والوحدة ما بين سورية والعراق او الاردن بصورة خاصة ، ان بريطانيا مراعاة للشعور الفرنسي لم تشجع المطامح الوحدوية لكل من الملك عبد الله او الوصي على عرش العراق ، ولم تستطع المزيد من علناء

الوطنيين العرب بمقاومتها صراحة جميع الخطط الوحدوية ، فتنحت جانبا وأخذت تقاسي من سياستها الغامضة التي يساء فهمها من جميع الجهات ، فشكوك فرنسا بالدوافع البريطانية لم تتبدد ، وآمن الرأي العام السوري بأن مشروعي الهلال الخصيب وسورية الكبرى ليسا سوى ستار للامبريالية البريطانية لذلك فقد رفضتهما ، كما توجه أولئك الزعماء ، الذين فهموا التوازن الذي تحاول اقامته ، باتهام لبريطانيا بأنها تنحني أمام المطامع الفرنسية وتحيي روح الانتداب .

ان بريطانيا في اليوم الذي تلا غزو الحلفاء لسورية حرصت على الاعتراف بأسبقية مكانة فرنسا على أية دولة اوربية اخرى ، وفي الرسائل المتبادلة يوم ١٥ آب ١٩٤١ بين السيد أوليفر ليتلتون ، وزير الدولة البريطاني في الشرق الاوسط ، والجنرال ديجول — والمعروفة باتفاقية ديجول — ليتلتون — كتب الوزير البريطاني ما يلي :

« يسعدني أن أكرر لكم تأكيدات بريطانيا العظمى ان لا مصالح لها في سورية او لبنان ما عدا كسب الحرب ، كما ان لا رغبة لدينا في تعدي وضع فرنسا أو تجاوزه بأية وسيلة ، ان فرنسا الحرة وبريطانيا العظمى لتقطعان عهدا باستقلال سورية ولبنان ، وحين تتخذ هذه الخطوة الأساسية ، وبدون مساس بها ، فنحن نقر بملء حريتنا أن لفرنسا المكانة الاولى المتقدمة على أية دولة اخرى اوربية في سورية ولبنان ، ان تصرفاتنا كانت تنبثق دائما عن هذه الروح (٤) ».

وقد عاد المستر تشرشل فأكد هذه الضمانات في مجلس العموم يوم ٩ — ايلول — ١٩٤١ :

« لا مطامع لنا في سورية ، ونحن لا نسعى لنخلف فرنسا او نزيحها لنحل مكانها ، أو نستبدل المصالح البريطانية بالمصالح الفرنسية في أي جزء من سورية ، فنحن هناك فقط لنكسب الحرب ، ونحن نعترف ان مكانة فرنسا في سورية من بين جميع الدول الاوروبية ، ذات امتياز خاص ، ومهما كان الحد

---

(٤) انظر الحوراني : سورية ولبنان صفحتا ٢٤٤ — ٢٤٥ .

الذي وصل اليه نفوذ أي بلد اوروبي في سورية ، فان نفوذ فرنسا ستبقى له المرتبة الاولى (٥) » .

ولكن هذه التصريحات الصادرة عن الحكومة البريطانية أبت السلطات الفرنسية تصديقها فورا والتي حاولت ، رغم اعلان كاترو الاستقلال في ٨ – حزيران ١٩٤١ ، في السنوات الاخيرة من الحرب اعادة توكيد سيطرتها التامة على سورية ولبنان في وجه سياسة بريطانية أكثر تقدمية تجاه العرب عموما . وقد بدت المخاوف الفرنسية ثابتة أكيدة حين تدخلت بريطانيا في سورية في شهر أيار ١٩٤٥ لفصل المتحاربين السوريين والفرنسيين لتنهي الى الابد بذلك السلطة الفرنسية العسكرية الموجودة في سورية ، ومع ذلك فان الاتفاقية الانجليزية الفرنسية حول الجلاء العسكري الموقعة في ١٣ كانون اول اوردت مجددا اشارة الى مناطق النفوذ المتفرقة ، وقد جاء فيها :

« تؤكد كل حكومة نيتها في تجنب القيام بما يضر مصالح الاخرى أو مسؤولياتها في الشرق الاوسط (٦) » .

وسواء أقدمت بريطانيا تعهدا آخر (لم ينشر) أم لا لكي تعترف بمصالح فرنسا الخاصة في سورية المستقلة الا انها بدت ملزمة بعد الحرب بتقديم الدعم الفعال لكل من بغداد وعمان في السعي للوحدة مع سورية . ان الحكومة البريطانية قد أحست انها مرغمة ، أكثر من مرة ، على اصدار نفي رسمي لموافقتها على مشروع سورية الكبرى وتحبيذها له كالبيان الذي ألقاه وزير الدولة يوم ١٤ تموز ١٩٤٧ في مجلس العموم من ان موقف الحكومة من الموضوع هو الحياد التام (٧) ، ولا بد ان التحرق الى معاهدة مع مصر والرغبة في عدم اغضاب ابن سعود قد لعبا دورا في توجيه الرسميين البريطانيين هذه الوجهة .

لقد كانت فرنسا أيضا مهتمة بالحد الذي وصل اليه انتشار فكرة الوحدة العربية وشيوعها في سورية ، ففي المحادثات الاولية التي جرت في القاهرة

(٥) المصدر السابق صفحتا ٢٤٥ – ٢٤٦

(٦) هيوروبتز – المجلد الثاني ٢٥٨

(٧) كيرك : الشرق الاوسط في فترة الحرب – ص ٣٤

عامي ١٩٤٣ – ١٩٤٤ ونجم عنها بروتوكول الاسكندرية وقفت سورية وحدها تطالب بوحدة عربية تامة ، وكانت فرنسا تعلم أن القوتلي يعادي مشروعي الهلال الخصيب وسورية الكبرى ، ولكنها لم تكن واثقة بصموده ، اذ كانت له اتصالات وثيقة بالعراق خلال فترة النضال الطويلة ضد الانتداب ، فهو لا يمكن ان يعد قط صديقا لفرنسا ، بينما تلقى الزعيم تدريباته على أيدي الفرنسيين وخدم نصف عمره مع القوات الفرنسية ، وقد ألقى الامير عادل ارسلان مزيدا من الضوء على علاقات الزعيم بفرنسا في المقابلة التي اجرتها معه صحيفة الحياة (٨) البيروتية بعد اسقاط الزعيم ، لقد قال ان الفرنسيين ظلوا على اعتقادهم ان سورية ولبنان تقعان ضمن منطقة نفوذهم باتفاق ضمني مع انجلترا والولايات المتحدة الاميركية ، فضلا عن أن النفوذ الفرنسي بقي قويا في بعض الاوساط العسكرية في سورية بين اولئك الذين تولى الفرنسيون تنشئتهم ، والزعيم نفسه ظل متعلقا بالارتباط مع فرنسا رغم انها سجنته زمن الحرب ويفضل التكلم بالفرنسية عن العربية ، كما ان الجيش السوري نفسه قد جهز أصلا بالسلاح الفرنسي وليس في مقدوره طلب قطع غيار لآلياته او ان يستبدل بالتالف منها قطعا جديدة من مكان آخر ، وقد حاولت فرنسا ، حسب ما قاله ارسلان ، تحسين علاقاتها بسورية في الأيام الأخيرة من حكم القوتلي الا انها بذلت جهودا أكبر في هذا السبيل حين تسلم الزعيم السلطة ، فكان السفير الفرنسي يتصل به يوميا وبذلت فرنسا كل جهد لحث البلدان الاخرى على الاعتراف بحكمه ، كما برز كثير من الرجال الذين أيدوا السلطات الفرنسية زمن الانتداب مرة أخرى ، بل ان الزعيم ، كما يؤكد أرسلان ، دخل في مفاوضات سرية مع فرنسا لعقد معاهدة بينهما .

نقطة الانعطاف :

في نهاية الاسبوع الثاني من نيسان عام ١٩٤٩ تضاءل اهتمام الزعيم بعقد

---

(٨) الحياة – بيروت – ٢٠ آب ١٩٤٩ .

اتفاقية مع العراق ، بعد أن تلقى من فرنسا تأكيدات بالدعم وتأثر بالحجج والأدلة السعودية والمصرية ، لذلك فحين قرر نوري السعيد السفر بنفسه الى دمشق في ١٦ نيسان ، على رأس وفد عراقي على مستوى عال من بين افراده وزيرا الدفاع والخارجية ورئيس الاركان العامة ، وجد الزعيم اقل حماسة واندفاعا مما كان يتوقع ، وفي صباح ذلك اليوم شكل الزعيم وزارته الاولى وشغل فيها ايضا منصبي نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية ، وفي الاجتماع الذي تم بين الوفدين بالملابس الرسمية (كان نوري يرتدي بزة لواء (جنرال) ويتمنطق بحزام مسدس) نزعت لهجة نوري السعيد لأن تبدو لهجة النصير الحامي ، فمصالح سورية الشقيقة لم تغب قط عن ذهنه ، وهو يرغب في طمأنة الزعيم والتأكيد له انه يستطيع الاعتماد على المساعدة العراقية في حال هجوم صهيوني ، ولكنه أضاف فورا اذا كانت أهداف الزعيم ومآربه أوسع في مداها من مجرد تلقي العون العسكري فالعراق يود معرفة الوجهة التي سيقوده اليها ذلك ، اذ أنه لا يزال مرتبطا بمعاهدة تحالف مع بريطانيا رغم انها ستنتهي في بضع سنين ، فاذا رغب الزعيم في عقد ميثاق دفاع مشترك فلا بد من استشارة بريطانيا (٩) .

ثم ابتدأ نوري السعيد بحثه النظري فقال : ان العالم يتغير سريعا ، وهم يدنون من زمن قد يتم فيه عقد ميثاق دفاع يشمل جميع اقطار الشرق الاوسط او معظمها لا اتفاقية بين قطرين فقط ، وميثاق كهذا سيقدم الضمانات التي ينشدها الزعيم ، ثم استعرض ثانية تاريخ العلاقات السورية — العراقية وأشار الى محادثاته عام ١٩٤٦ مع سعد الله الجابري وأنهى حديثه بقوله : اذا بادر العراق الى توثيق صلاته بسورية فقد يساء فهم نياته ، لذلك فهو ينتظر سورية الشقيقة لتقرر الوقت المناسب فتتقدم باقتراحات للبحث ، والعراق بدوره سيتفحص كل اقتراح منها ، أما الدفاع المشترك ضد اليهود فلا داعي لمزيد من القلق حوله ، ولكن من الافضل ارجاء جميع القضايا الاخرى الى فرصة قادمة .

كان رد الزعيم على هذا الحديث الحذر الحكيم موجزا قاطعا ، فقد كان

(٩) العراق ، مجرى الحوادث .

جاهلا تماما بالاقتراحات التي عرضها نوري السعيد على سعد الله الجابري ، ولكن اذا كانت في ملفات وزارة الخارجية فسيلقي نظرة عليها ، واليهود قد أوقفوا هجوماتهم على المواقع السورية ، « ونحن لا نخشاهم بعد الآن » ثم أضاف : « لاأكتمك ... أننا قد تسلمنا اسلحة وسنستلم المزيد منها لذلك فان أي هجوم يقوم به اليهود سيكلفهم غالياً » ثم ذكر الحاجة إلى سلاح جوى وأهمية بناء خط حديدي ما بين حمص ودير الزور لاغراض ستراتيجية، وأمكانية جر تركيا لتشترك في الدفاع عن المنطقة كلها وضرورة التعاون ضد الشيوعية ، الا أنه لم يصر على موضوع ميثاق الدفاع .

لقد روى أحد أعضاء الوفد العراقي الذي صحب نوري السعيد إلى دمشق أنهم حين دخلوا إلى قاعة المؤتمر أمسك نوري السعيد برسغ الزعيم واقتاده إلى غرفة جانبيه ، وحين ظهر الرجلان ثانية بدا الزعيم شاحباً ساخطاً فسرى في روع الجميع أن نوري السعيد قد لجأ إلى استعمال لهجة التهديد ، اذ أن الزعيم في نظره مغامر خطر فتح الباب على مصراعيه أمام الثورة في الشرق الاوسط ، لذلك فلم يكن رجوعه إلى بغداد في ١٧ نيسان خالي اليدين بالامر المفاجيء ، وفي اليوم التالي وصل عزام باشا ، الامين العام للجامعة العربية، وأبغض الناس لبغداد ، إلى دمشق لاتمام ابعاد الزعيم عن الهاشميين على رغم التأكيدات المصرية للعراق بعدم التدخل .

وقد جاءت نقطة الانعطاف الحاسمة في « لعبة شد الحبل » بين العراق ومصر يوم ٢١ نيسان حين قام الزعيم بزيارته السرية للملك فاروق في حدائق انشاص بدعوة غير رسمية للافطار ، وكان الملك سخيا باسطا يديه على خلاف نوري السعيد غامض الحذر مبهمه ، وبعد عدة ساعات من المحادثات ، وفي وقت الغداء ، كان الزعيم قد استسلم تماماً وأعلن انه معجب بكل ما هو مصري ، ثم طاف الاثنان ، الملك والزعيم ، بالمزارع الملكية يدا بيد ، وحين طار الزعيم عائدا إلى سورية رافقته للحماية طائرات مصرية من طراز سبتفاير ، وفي ذلك المساء قطع راديو دمشق براجه ليعلن نبأ الزيارة . ولقد ابتهج الرأى العام المصري اذ غدا واضحاً ان سورية قد

عادت سالمة إلى الجامعة العربية يحتضنها النفوذ المصري . وما كاد الزعيم يطأ أرض دمشق مزهوا لاتصاله بأسرة ملكية حتى ابرق معربا عن شكره العميق « على الاهتمام الذي تفضلتم جلالتكم باظهاره نحو مستقبل سورية . » لقد عاد من مصر كما صرح (١٠) فيما بعد وزير خارجيته عادل أرسلان رجلا آخر يعتقد ان العالم في قبضته ، حسب ما ذكر ، وما أن مضت أيام على هذه الزيارة حتى اعترفت مصر والعربية والسعودية ولبنان بنظام حكم الزعيم ، فأخلى سبيل القوتلي (وقد آلمه سرعة أتفاق مصر مع الزعيم).وعاد إلى أسرته قبل ان يغادر سورية إلى منفاه ، وبذلك هزمت الاردن والعراق ، وهرع توفيق أبو الهدى — رئيس الوزراء الاردني — إلى بغداد للتباحث مع نوري السعيد ، ولكنهما كانا قد خسرا جولة حاسمة ووجه الواحد منهما اللوم إلى الآخر .

أما الزعيم فكان يزداد ابان ذلك اندفاعا فأعلن في ٢٦ نيسان ما يلي

« كانت رحلتي إلى القاهرة مفاجأة غير سارة للاردن ، فقد اعتقد سادة بغداد وعمان أنني أكاد ان أقدم اليهم تاج سورية على طبق من فضة ولكن خاب فألهم ، فالجمهورية السورية لا تريد سورية كبرى ولا هلالا خصيبا ، وسوف نوجه قواتنا ضد هذين المشروعين اللذين أوحى بهما الاجنبي ، وقد ركزنا قواتنا على الجبهة الجنوبية لمجابهة الاجراءات العسكرية التي اتخذتها حكومة عمان (١١) ، وقررنا تقديم الاشخاص ، الذين يجرون اتصالات بالحكومة الاردنية، او يسافرون إلى ذلك البلد ، إلى محكمة عسكرية بجريمة الخيانة العظمى وحكمهم بالاعدام . وقد قررنا استدعاء عشرين الف مجند جديد ونحن ننتظر ان تصلنا فورا كميات كبرى من الاسلحة والذخائر والتجهيزات من جميع الاصناف ، ان جيشنا البري سيكون قريبا الثاني في الشرق الأوسط يتقدم عليه فقط الجيش التركي ، أما سلاحنا الجوى فسوف

---

(١٠) الحياة (بيروت) ٢٢ / آب ١٩٤٩

(١١) قال الامير عادل ارسلان فيما بعد ان المصدر الوحيد للاتهامات الخطيرة بخصوص تمركز القوات الاردنية والعراقية كان خيال الزعيم الخصب .

يتفوق على مجموع ما عند تركيا واسرائيل من قوات جوية ، ولن تصبر على تهديد او ضغط سواء من العراق او الاردن أو أي بلد آخر ، أما الاردن والذي كان وسيظل « ولاية » سورية فسوف ينضم عاجلا او آجلا إلى وطنه الام ويصبح المحافظة العاشرة في الجمهورية العربية السورية . ويجب ألا يتبادر إلى الذهن أن هنالك دولا أجنبية خاصة تساند مشروعي سورية الكبرى أو الهلال الخصيب ، فقد تلقينا تأكيدات ان بريطانيا العظمى مع الحالة الراهنة ، وان الولايات المتحدة وفرنسا لن تقبلا قط تغييرا في الوضع» (١٢) .

أغلق الزعيم في اليوم ذاته الحدود مع الاردن أربعا وعشرين ساعة احتجاجا على « عداء » الملك عبد الله ، بينما نقل الامير عادل ارسلان عنه قوله : « سأشنق كل من يذكر العراق في هذه البلاد » .

وهناك اسطورة أثارتها الحملات السورية — العراقية المتبادلة — ويؤمن بها حتى الان في الشرق الاوسط على نطاق واسع ، وهي ان نوري السعيد وحلفاءه قد عملوا دون كلل لاقامة وحدة مع سورية ، ولكن ما دوّن عن الفترة ليدل ان نوري السعيد، وقد واجهه وضع كان عامل السرعة فيه قد ينتج دمجا ، أخذ يتحامل على نفسه بينما لم تحضه بريطانيا على عمل شي ، كما ان الادعاءات الفرنسية كانت من العقبات الرئيسية ، لقد كبح ابن سعود جماح منافسيه الهاشميين حين اتيحت له الفرصة ، على حين تدخلت مصر بحزم وهي تحت حكم فاروق ، كما فعلت فيما بعد تحت حكم عبد الناصر ، حين كانت تهدد بنية الجامعة العربية التي تكفل لها الدور القائد في الشؤون العربية .

---

(١٢) جورنال ديجيبت (القاهرة) ٢٧ نيسان ١٩٤٩ .

٧



دام حكم الزعيم نحو أربعة أشهر ونصف الشهر ، خلف فيها على سورية علامة ثابتة ، وكان نموذجاً للطغاة العسكريين احتذى فيما بعد ، لقد عزز الجيش وأعاد تسليحه ورفع من معنوياته ، والحق الشرطة والدرك به ، مما لم يعد بمقدور هذا الجيش التخلص من دوره السياسي ، كما طهر الجهاز الحكومي وطلب من الموظفين ان يختاروا خلال عشرة أيام بين الخدمة العامة والاعمال والمصالح الخاصة ، أما جامعة دمشق فقد أُدخل على مناهجها ونظامها الاساسي كل ما هو عصري وحديث ، وقد جُلد اثنا عشر خبازا أدينوا ببيع خبز فاسد أمام أفرانهم ، وخططت مشروعات عامة عديدة ، وعقدت اتفاقيات لمرور انابيب النفط عبر سورية ، ولاول مرة منحت المرأة المتعلمة حق الانتخاب ، وحظر استعمال ألقاب باشا وبك وأمثالهما ، ثم بدئت عمليات ازالة الاوقاف الذرية واحلال قوانين مدنية وجنائية وتجارية عصرية محل قانون الشريعة الاسلامية ، كما عين محافظون جدد يتمتعون بالسلطتين المدنية والعسكرية كلتيهما .

« وقد بعث بهؤلاء الرجال إلى أماكن عملهم في طائرات عسكرية ، فاستقبلتهم ثلل من حرس الشرف ، وكانوا يذهبون إلى اعمالهم تحف بهم رجال الشرطة العسكرية على دراجاتهم النارية ، لقد اعتز الجمهور بهذه

التغييرات، واعتبرها تأكيداً على بدء المرحلة الجديدة الحاسمة في الحياة الوطنية(٦)».

لقد هز الزعيم المجتمع الدمشقي وأخرجه من تعصبه الشديد الصارم للتقاليد الدينية وأعلن على الملأ سخطه على اللباس العربي التقليدي والكوفية والعقال، فامتلأت الشوارع بمجموعات غريبة وقديمة من القبعات الاوربية، وبرزت النساء أكثر حرية في الحياة العامة ورقصن على الانغام الاميركية في النوادي الليلية التي هي في حال سورية آنئذ كما في حال بلدان الستار الحديدي، مفتاح لنزعات الحياة العامة ودليل على طبيعة الحكم.

الا أن الزعيم كان أقل نجاحاً كمناور سياسي، فقد أطارت السلطة بلبه، وأصبح همه، بعد ان قلق منذ البداية بسبب لا شرعية حكمه، ان يصبح رئيس جمهورية يتساوى والملوك ورؤساء الدول الذين عليه الان ان يتعامل معهم، ان طموحه هذا ومزاجه العصبي المندفع قد قاداه إلى إبعاد كبار مؤيديه واحداً بعد آخر، وذكر الامير عادل أرسلان انه كان عرضة لنوبات تفقده كل منطق (٢) وقد عزى إلى تعطشه للسلطة كل من حله الاحزاب في أيار ١٩٤٩ وتوقه إلى عقد هدنة مع اسرائيل تتيح له سحب جيشه من الجبهة لتقوية وضعه في داخل البلاد، ويظن أنه السبب نفسه الذي كمن وراء اتهاماته الاردن والعراق بتهديدهما الحدود السورية، ثم أخذ الزعيم يزحف تدريجيا نحو الابهة التي تفرضها السلطة الفردية المطلقة، فتخاصم وأنشط الضباط وأكثرهم فعالية ممن خطط ونفذ واياهم الانقلاب.

ان حزب الشعب الذي هلل لتسلم الزعيم السلطة شرع يتخذ موقف المعارضة حين اتضح عداءه للعراق، فاستقال فيضي الاتاسي من الحكومة بعد ثلاثة ايام من تشكيلها في ١٦ نيسان، وهو وزير حزب الشعب فيها، كما عارض حزب البعث بدوره القيود التي فرضت على الصحافة ونمو جيش المخبرين في جهاز المخابرات، وقد حذر حزب البعث الزعيم، في مذكرة

---

(١) الفورد كارلتون، الانقلاب السوري عام ١٩٤٩، ميدل ايست جورنال العدد الرابع (١٩٥٠) صفحة ٥.

(٢) الحياة (بيروت) ٢٣ آب ١٩٤٩

قدمها اليه يوم ٢٤ أيار ١٩٤٩ ، من الوقوع في أخطاء نظم الحكم السابقة بالتزام هذا الجانب او ذاك في الخلافات ما بين الدول العربية ، وطلب اجتماعا به لعرض وجهة نظره في القضايا الدستورية وحقوق العمال ، وكان رد الزعيم أن سجن ميشيل عفلق وزعماء حزب الشعب رشدي الكيخيا وناظم القدسي وفيضي الاتاسي . ثم جدد الاردن والعراق حملاتهما الاعلامية الصحفية والاذاعية على حكم الزعيم باقتراب ٢٥ حزيران اليوم المحدود للاستفتاء وانتخابات رئاسة الجمهورية، وأرسل نوري السعيد مزاحم الباجه جي ، وهو رئيس وزراء سابق ، إلى القاهرة في محاولة فاشلة « لازالة سوء التفاهم » ولحض المصريين على عدم الاعتراف بالرئيس المنتخب السوري ، وقد حملت هذه المناورات الزعيم على الطيران ثانية إلى ذراعي فاروق وابن سعود ، و في ١٦ حزيران أعلن أنه يعتمد من أجل العون والمساندة على مثلث القاهرة — دمشق — الرياض ، وصرح ابن سعود من ناحيته أن « الملك فاروق وأنا لن نقف مكتوفي الايدي في حال الهجوم على سوريا (٣) » .

كان الزعيم هو المرشح الوحيد لرئاسة الجمهورية لذلك فقد انتخب بأغلبية ساحقة (٤) ، وفي اليوم نفسه ، أي في ٢٥ حزيران ، تخلى عن رئاسة الوزارة واستدعى محسن البرازي لتشكيل حكومة ، وهو محام فرنسي الثقافة والتعليم ، كان قبل الانقلاب مدير مكتب القوتلي الموثوق وكاتب خطاباته وموضع سره وكبير معاونيه في قصر الرئاسة ، وقد سرت شائعة فيما بعد ان البرازي كان في الوقت ذاته يتصل سراً بالزعيم . ان الرجلين قد عملا معا في الاشهر القلقة التي سبقت الحرب الفلسطينية ، فكان البرازي وزيراً للداخلية والزعيم مديراً للامن العام ، والاثنان من أصل كردي ويزعم أعداؤهما ان البرازي قد اندفع لخيانة القوتلي بحكم استغلال الزعيم لاقامة دولة كردية

---

(٣) جورنال ديجبيت — (القاهرة) ، ١٩ / حزيران ١٩٤٩ .

(٤) عدد الذين يحق لهم الانتخاب : ٨١٦,٣٢١ ، عدد المقترعين : ٧٣٠,٧٣١ ، عدد الاصوات التي نالها الزعيم ٧٢٦ ، ١١٦ (النصر — دمشق — ٢٧ حزيران ١٩٤٩) وكانت البطاقة الانتخابية بمثابة اختبار قراءة وكتابة اذ ان المقترعين كان عليهم أن يكتبوا اسم الرئيس فقط .

مستقلة ، ولكن من المؤكد ان هذه الخيالات ، اذا دارت في مخيلته قد بددها واقع وظيفته .

ان البرازي هو الذي صاغ الاسئلة الاربعة الموجودة على البطاقة الانتخابية الموجهة في الاستفتاء إلى الناخبين (٥) ودافع عن شرعيتها الدستورية ، لقد اطلق عليه خصومه اسم (مفتي الجمهورية) لان دوره زمن الزعيم كما كان زمن القوتلي تقديم « الطلاء » الشرعي (٦) ، وارتبط اسمه أيضا ببعض الصفات المريبة ، وفي الاسابيع الاخيرة من الحكم ذكران اموالا حكومية حولت الى حساب الزعيم الخاص . ومن احدى النتائج الطبيعية لتقديم الزعيم محسن البرازي اقصاء الحوراني بالمقابل وهو العدو اللدود لاسرة البرازي في حماه .

وبعد انتهاء عمليات الانتخاب ، أخذ الزعيم يكشف عن انحيازاته الدولية ، فاذا لم يكن ممكنا تقوية الجامعة العربية كي تجابه اسرائيل — كما قال لأحد المراسلين الضيوف (٧) — « فانني سأقيم حلفا مع مصر والعربية السعودية ولبنان » .

« كانت علاقتي بفاروق منذ اليوم الأول أكثر من ممتازة ، أما بالنسبة للعراق فأنا حتما أعارض قيام سورية الكبرى وسأظل أعارض ذلك . لقد

---

(٥) الاسئلة الأربعة هي :

آ — هل تريدون ان ينتخب رئيس الجمهورية لاول مرة من الشعب بالاقتراع السري العام من بين السوريين المتمتعين بحقوقهم المدنية والذين أكملوا عند ترشيحهم سن الاربعين ويعلن انتخابه من لدن مجلس الوزراء وان تحدد مدة الرئاسة بالدستور

ب — هل تريدون ان يخول رئيس الجمهورية بمرسوم تشريعي يتخذ في مجلس الوزراء وضع دستور جديد خلال مدة لا تتجاوز الاربعة أشهر من تاريخ انتخابه على ان يصدق من الشعب بطريقة الاستفتاء المباشر او من قبل مجلس النواب

جـ — هل تريدون ان يخول رئيس الجمهورية ريثما يتم وضع الدستور وتصديقه صلاحية اصدار المراسيم التشريعية بما فيها ذات الصفة الدستورية المتخذة في مجلس الوزراء .

د — هل تريدون اعتبار السلطة الممنوحة لرئيس الجمهورية المبينة في السؤال الثالث ذات مفعول يشمل المراسيم التشريعية الصادرة منذ ٣٠ آذار ٩٤٩

(٦) الامير عادل ارسلان في (الحياة — بيروت — ٢٤ آب / ١٩٤٩) .

(٧) رتشارد ديدييه من « جازيت دي لوزان » ١ حزيران ١٩٤٩ .

ظن نوري باشا ان بمقدوره ارهابي بتركيز قواته على الحدود السورية ، وها هوذا قد أرغم على سحبها . ان عليه ان يدرك ، اذا فكر مرة أخرى في ذلك ، ان قلوب جيش العراق وشعبه مع سورية وليست معه » .

كما صرح ان فرنسا دولة صديقة ويتنبأ بقيام عهد جديد من التفاهم بين باريس ودمشق ، وتمنى ان تساعد الولايات المتحدة سورية على اعادة بناء نفسها ، أما بريطانيا فينبغي عليها اتخاذ موقف واضح من سورية ، « لا نستطيع ان نخفي عليها أننا سنرفض تماما خلق سورية الكبرى ، كما سنحارب كل ما سيدبر في الشرق الاوسط لتنفيذ مشروع الهلال الخصيب » ، ثم فصل ما بين الاتحاد السوفييتي والحزب الشيوعي السوري ، وحذر الشيوعيين من أنه لن يكون رحيما بهم .

ولكن اهواء الرجل سرعان ما قوضت تماسك هذا المنهاج ، فقد صدر مرسوم في اليوم التالي للاستفتاء نص على ان رئيس الدولة يجب ان يحمل رتبة مشير اذا كان رجلا عسكريا ، وقد اضاع الزعيم لبه حين ارتدى بزته العسكرية الفخمة وحمل عصا المارشالية (٨) ، وثمنها ثلاثة آلاف دولار ، وقد شوهد يختال مزهوا بنفسه امام المرايا في مسكنه وسمع وهو يقول لزوجته : « ستكونين ذات يوم ملكة » ، ثم أرسل رئيس الوزراء إلى مصر ليهدي إلى فاروق في مقره الصيفي في الاسكندرية ، أرفع وسام سوري وهو جوهرة ثمينة صنعها خصيصا للمناسبة الصائغون المهرة في باريس ، بينما أمر رئيس مكتبه العسكري بوضع الخطط لتنظيم حرس خاص من المسلمين اليوغوسلافيين يقسمون على الولاء له فقط (٩) .

وقد استثار الزعيم ، كي يمسك تماما بالسلطة ، حمية مجموعة من الضباط القوميين ، فأدخل في روعهم ان حكومة عسكرية لهي القادرة فقط على شن الحرب على اليهود، وان فلسطين هي الشعار السحري الذي ربح به الجيش

---

(٨) وهي على شكل مرقاق – شوبك – كبير من الذهب والقطيفة الخضراء ويمكن ان تشاهد في المتحف العسكري بدمشق .

(٩) اللواء شوكت شقير المؤلف – بيروت كانون اول ١٩٦٠

المنقسم على نفسه إلى جانب قضيته ، لكن اللهفة التي نشد فيها عقد اتفاقية للهدنة أتت صدمة لاتباعه ، فقد بدأت المحادثات الرسمية مع اسرائيل يوم ١٢ نيسان ، وقد كادت ان تنتهي باتفاقية في الشهر ذاته ، كما يقول الامير عادل ارسلان لو لم يصمد فوزي سلو رئيس الوفد السوري المفاوض مطالباً بشروط افضل من تلك التي كان الزعيم على استعداد للقبول بها ، (١٠) ، كانت القوات السورية قد احتلت ثلاث مناطق صغيرة في الجانب الفلسطيني من خط الحدود وفي منطقة منحت لاسرائيل بمقتضى قرار الجمعية العامة في تشرين الثاني ١٩٤٧ ، وكانت أهم هذه المناطق والتي اصرت سورية على الاحتفاظ بها تلك المنطقة الواقعة على ضفتي نهر الاردن إلى الجنوب من بحيرة الحولة ، فاقترح الوسيط الدولي لحل هذه القضية المستعصية جعل هذه المنطقة مع بعض الاراضي المحاذية لها والتي تسيطر عليها « اسرائيل » منطقة مجردة تشرف عليها لجنة هدنة مشتركة يرئسها موظف تعينه الامم المتحدة ، وضمّن هذا الحل في اتفاقية الهدنة الموقعة في ٢٠ تموز ١٩٤٩ ، وقد ناور الزعيم سرا طيلة المفاوضات لعقد اجتماع على مستوى عال مع زعيم اسرائيلي وهذا اقتراح أرعب معاونيه ، اذ بدا لهم ذلك اعترافا رسميا باسرائيل ، ووفقاً لما يقوله ارسلان فقد اقترح الزعيم الاجتماع ببن جوريون نفسه الا ان الاسرائيليين ردوا بأن يكون الاجتماع على مستوى وزراء الخارجية (١١) ، ان اتفاقية الهدنة وقّعت على أية حال دون الالتجاء إلى ذلك السبيل .

أخذ الزعيم يفصم صلاته بالقوى التي أتت به إلى السلطة ، وكان تحالفه مع فرنسا واضحا صارخا والسفير الفرنسي دائم الزيارة له في قصر الرئاسة ، كل هذا في بلد تحرر حديثا من الاستعمار الفرنسي ، كما ان الرأى العام المسلم وقد عبـأه فرع الاخوان المسلمين في سورية الذي تزايد نفوذه في أواخر الاربعينيات ، شجب اصلاحاته على انها علمانية اوحت بها الاوساط الاجنبية ، أما مهام الحاميات في المدن الرئيسية فتجلى اعتماده فيها على الوحدات الشركسية

(١٠) الحياة – بيروت ١٨ آب ١٩٤٩ .

(١١) المصدر السابق ١٩ تموز / ١٩٤٩

والكردية ، مبعدا القوات العربية الصرفة إلى الجبهة ، لقد أعيد هنا ذكر أصله الكردي فساعد ذلك الصحف العربية في خارج سورية على ان تهاجم بعنف باسم العروبة والاسلام « الجمهورية الكردية العسكرية » القائمة في سورية وتتنبأ لها بمصير شبيه لما حل بهتلر في اوروبا (١٢) ، كما ان تقارب الزعيم مع تركيا لم يكن ليقبله كليا الرأى العام الذي لا يزال ساخطاً على فقد لواء الاسكندرون وسقوطه في أيدي الاتراك قبل عشر سنوات ، ولم يرحب الضباط الشباب بوصول بعثة عسكرية تركية في ٢٠ تموز يرئسها رئيس الاركان العامة التركية السابق كان الزعيم قد استدعاها لاعادة تنظيم الجيش السوري .

لقد نبه حكم الزعيم الرأى العام إلى أخطار الديكتاتورية العسكرية ، ولكن الجيش غدا آنئذ بالغ القوة وملتزما جدا بدور سياسي لا يتيح له الوقوع ثانية تحت امرة المدنيين كليا ، بيد انه أزال على أية حال كثيراً من « الاعشاب الميتة » من الحياة العامة السورية ، فقد تكلم بلغة الاصلاح واعطى وعودا ، ولو انها لم تتحقق ، نزعت إلى تغيير طبيعة المساندة التي كان على أي حكم سوري ان يعتمد عليها ، لقد اعجب بأتاتورك ولكنه كان أقل ، -لفوضاه المطلقة ونقص حوافزه وسذاجته-،من ان يكون سياسيا يشيد ويبني متناسقاً مع قوة الزخم الاصيل الذي حمله إلى السلطة ، وفي اسابيع قليلة خلق لنفسه اعداء كثيرين : القوتلي واصدقاءه الذين اقصاهم ، وأكرم الحوراني واصدقاءه الضباط ، والبعث وأتباعه من الطلاب ، وحزب الشعب وافراده البورجوازيين ، وهؤلاء جميعا اصدقاء للهاشميين او لبريطانيا ، او ابتاعهم الذهب العراقي ، أو ملأت الشكوك نفوسهم لتزايد النفوذين الفرنسي والمصري أو عمّ جوانحهم السخط لاحتكار الزعيم السلطة وغنائم المنصب .. ان هؤلاء جميعا تمنوا له السقوط .

- كان للزعيم نوايا طيبة خيّرة ولكن جهازه كان فقيراً ، أو كما قال بسمارك عن الايطاليين : « لهم شهية قوية ولكن اسنانهم نخرة » ، فقد رأى نفسه

(١٢) النهضة - عمان ٢٧ حزيران ١٩٤٩ .

كعسكري مصلح يحقن مواطنيه الخائرين بعزيمته وعنفوانه ، ويعمل على بناء مجتمع جديد مشع على أنقاض الحكم القديم ، ولكنه بدا للآخرين عيّنة ونموذجا جيدا لما أطلق عليه الاستاذ دينيس بروجان « السياسي غير المزود بالمثل » ، ومتعقبا للسلطة من أجل السلطة فقط او من أجل ثمراتها ومنافعها ، وهو نمط غير محصور فقط في السياسة العربية ، ان بعض أهمية سيرته يكمن في أن هذا الدكتاتور الصاخب غير الكفء الذي تنقصه النظرة الواضحة للتنظيم السياسي أو الاجتماعي قد تحالف في أسابيعه الأخيرة مع أحد «المفكرين» القلة في السياسة العربية ، وهو نظري وثوري لبناني يدعى انطون سعاده ، ولكن هذه العلاقة كانت مميتة لكليهما .

❀ ❀ ❀

٨

انطون سعاده وحزبه

كان والد انطون سعادة ، الدكتور خليل سعادة أحد أفراد الطائفة اليونانية الارثوذكسية في لبنان ، وقد ذهب الى مصر في أواخر القرن التاسع عشر حيث يذكر كمؤلف لمعجم انكليزي عربي مؤلف من مجلدين ، وهاجر الى اميركا اللاتينية في نهاية ذلك القرن مصطحبا معه ايمانا بالقومية السورية التي كانت فكرة سياسية رائدة في بيروت في الثمانينيات من ذلك القرن ، وفي البرازيل أصدر مجلة قام فيها ابنه الذي ولد في عام ١٩٠٤ باولى محاولاته الصحفية .

وأتى انطون الى الشرق الادنى كشاب يافع في أواخر ١٩٢٠ وعمل في الصحيفة الدمشقية « الأيام » ، ولكن سورية كانت في ظل الانتداب الفرنسي تختنق وتعاني من فقر فكري . وهكذا فسرعان ما انتقل الى بيروت الى بيئة أكثر ملائمة ولم يكن لديه أي مال او مهنة فكان بصعوبة يعيل نفسه من اعطاء دروس خاصة في الالمانية . وكانت جامعة بيروت الاميركية مركزا فكريا لذلك البلد ومع انه لم يكن لسعادة أي ارتباط سابق بالكلية فأنه غالبا ما وجد طريقه الى غرفة الادارة العامة حيث كان يقدم الشاي في الساعة الرابعة من بعد الظهر ، كان يرخي لحية كبيرة كلحية القس وكان محط قدر وافر من السخرية بسبب مظهره والاصرار العنيد الذي دافع به عن آرائه ، وفي تلك الغرفة كان يتحدث لساعات ويذهب للسباحة مع الطلاب وبهذا جمع اتباعه الاول .

أسس سعادة في تشرين الثاني من عام ١٩٣٢ هيئة سرية من خمسة اعضاء

ملتزمة بقسم الاخلاص له ودعاه بالحزب القومي السوري ، وبعد عدة شهور لمس بوادر نشاط معادٍ للحزب بين حلفائه فقام بحل هذا الجمع وقام في قفس اليوم باصلاحه بابقاء عضوين فقط ، وفي عام ١٩٣٥ كان رحاب الجامعة ممتلئا بالاتباع الملتزمين وجند عدة آلاف منهم في سورية ولبنان في تنظيم قطري متسلسل وتحت سلطة سعادة المطلقة ، وفي ذلك العام خرج من السرية إلى العلن وعقد مؤتمره الاول بكامل اعضائه ، وأثار في الحال اهتمام السلطات الانتدابية الفرنسية ، وفي العاشر من كانون الاول من عام ١٩٣٥ قبض على سعادة وبعض القادة الحزبيين الاخرين وأودعوا السجن .

ماذا كانت آراء سعادة ؟

لقد كتب فيما بعد :

« في بدء شعوري القومي عندما بدأت أولي اهتماما فكريا جديا الى احياء امتنا في وجه اطار من الحركات السياسية غير المسؤولة والموجودة في وسطها اتضح لي فورا ان مشكلتنا الملحة هي تقرير هويتنا القومية وحقيقتنا الاجتماعية ... وأصبحت مقتنعا بان نقطة البدء في المسعى الوطني يجب ان تكون اثارة هذا السؤال الجوهري : من نحن ؟ وكان هذا هو السؤال الذي شغل فكري من أول بداية تفكيري الاجتماعي القومي ..

وبعد أبحاث واسعة توصلت الى النتيجة التالية : نحن سوريون ونشكل وجودا قوميا متميزا .

وصيغ المبدأ الاول للحزب كما يلي :

« سورية للسوريين ، والسوريون أمة تامة » (١) .

ولكن مذهب القومية السورية هذا زخرف بكثير من الغيبيات ، وتحدث سعادة عن « الارادة العامة للامة السورية » التي تبحث عن الحرية والواجب والنظام والقوة . وقد بشر بوجود « ارتباط عضوي » بين الامة وحدودها

---

(١) مبادىء الحزب القومي السوري الاجتماعي ، بقلم الزعيم ، غير مؤرخ ، ص ٧

الجغرافية الوطنية . وبالوحدة العضوية للمجتمع السوري التي لا تستند على العرق او الدم بل هي نتيجة : « التاريخ الطويل لكل الناس الذين استقروا في هذه الارض وسكنوها وتفاعلوا مع بعضهم وأخيرا انصهروا في شعب واحد ،

لقد بدأت هذه العملية بشعوب العصر الحجري واستمرت مع الاكاديين والكنعانيين والكلدانيين والاشوريين والاراميين والعموريين والحيثيين (٢) »

ويحدد المبدأ الخامس للحزب حدود الارض التي قام فيها هذا المجتمع :

ان الوطن السوري هو تلك البيئة الجغرافية التي انتشرت فيها الامة السورية . ان لها حدودا طبيعية تفصلها عن بلاد أخرى ممتدة من سلسلة طوروس في الشمال الغربي وجبال زاغروس في الشمال الشرقي الى قنال السويس والبحر الاحمر في الجنوب ويشمل شبه جزيرة سيناء وخليج العقبة ومن البحر السوري (الابيض المتوسط) في الغرب بما فيها جزيرة قبرص الى قوس الصحراء العربية والخليج الفارسي في الشرق وتدعى هذه المنطقة ايضاً الهلال السوري الخصيب على ان تكون جزيرة قبرص نجمته (٣) .

وقد قيل بأن الوطن وساكنيه مرتبطون برباط لا يتفكك .

« ان الاصول المشتركة للكنعانيين والكلدانيين والاراميين والآشوريين والعموريين والميتانيين والاكاديين الذين يُشكل واقع وجودهم وامتزاجهم حقيقة تاريخية وعلمية لا تنازع يشكلون الاساس العضوي التاريخي والثقافي ، بينما تشكل مناطق سورية الطبيعية (الهلال الخصيب) الاساس الجغرافي والزراعي والاقتصادي والستراتيجي لوحدة سورية ،وبالاختصار موطنا عجيبا لامة عجيبة (٤) » .

وفسر سعادة نظرياته باسهاب في كتاب نشوء الامم الذي بدأه في السجن

---

(٢) المصدر السابق ، ص ١٤ .

(٣) ص ٢٢ ان الوطن الجغرافي كما حدده الحزب في سنة ١٩٣٠ لم يذكر قبرص وجعل من دجلة الحد الشرقي وتوسع في عام ١٩٤٧ ليضم قبرص وجميع العراق (أنظر انطون سعادة ، التعاليم السورية القومية الاجتماعية)الطبعة الرابعة ١٩٤٧ ص ١٨

(٤) المبادىء ص ١٧ و ٢٢

ونشره في بيروت عام ١٩٣٨ (٥) ، وفيه يتفحص فكرة الارادة الجماعيـة للامة ويستبعد اللغة والعرق او الدين كأساس صحيح للقومية . ويكرر قوله بأن « الارض هي الامة » ويدعم حجته باستطراد مسهب في التاريخ القديم وبعدة استشهادات من كتابات مبهمة في علم الاجتماع . فالاسلوب المهتز ، واللهجة الاقناعية والمراجع العلمية وربط الاسماء المجردة ولجوؤه الى الحقائق الاجتماعية وادعاء معرفته لحقائق يجهلها الاخرون كل ذلك كان صورة طبق الاصل عن ذلك الرجل ، وهكذا كان هنالك ايضا تصلب عنيف ازاء المعارضين .

« ان جميع الذين ينكرون بأن سورية للسوريين وان السوريين امة تامـة بحد ذاتها ، مذنبون بجريمة تجريد السوريين من حقهم في السيادة على وطنهم ، ويعلن الحزب السوري الاجتماعي القومي باسم ملايين السوريين المتلهفـين للحرية والمناضلين من اجل الحياة والتقدم ان هؤلاء الناس هم مجرمون »(٦).

ويلخص سامي الخوري وهو أحد أتباعه وجهة نظره فيما يلي :

لقد قسمت الارض اثر تغيرات جيولوجية معينة حدثت ما قبل التاريخ الى عدد من المناطق الجغرافية المتميزة ، سكنتها طوائف متميزة مستقلة جغرافيا عن بعضها ، وبمرور الزمن أصبحت علاقة الانسان بالارض لا مجرد اعمار ولكن أصبحت تفاعلا مع البيئة الطبيعية ، بدأ الانسان يترك آثاره على الطبيعة وكذلك بدأت هي بتكييفه ، فكل منطقة جغرافية كانت تتميز بملامح مميزة ، وقد حدث ان التفاعل بين الانسان والطبيعة والذي تم في كل منطقة قد اختلف من طائفة الى اخرى ، فزادت الحضارات المختلفة التي انتشرت من حدة هذه الاختلافات وكانت النتيجة نمو ملامح خاصة في كل مجتمع ، ومع مرور الزمن توسعت هذه الملامح الخاصة وتطورت وأصبحت تمثل ما يدعوه سعادة روح المجتمع او الامة . لقد شكلت الحدود الطبيعية حدودا سياسية منعت سكان كل منطقة من التوسع وبهذا رسمت أمامهم طريقا واحدا للحياة فيها ، وبهذه الطريقة راحوا يشكلون مجتمعا واحدا تسوده نفس الروح ، وتشكل وحدة الروح القومية

---

(٥) نشوء الامم لسعادة ١٩٣٨

(٦) المبادىء ص ٩

هذه ومظاهرها الثابتة الوحدة الاجتماعية (٧) » ، « فالمجتمع في روحه وميز اته يشكل وحدة لا نستطيع معها ان نميز بين العنصر البشري – قوام البنية – والأرض هي القاعدة التي اجتمعت عليها هذه البنية . ان تمييز الديناميكية العاملة للمجتمع واستمرارها في العمل هو لب معتقد سعادة (٨) » .

قد يُستبعد التحديد الجغرافي لسعادة كمثال على ذلك الافتتان غير الناضج بالافكار العامة التي يتميز بها المفكرون الشباب في بلاد بعيدة عن مراكز الحضارة (٩) . ان علمه المزعوم هذا لا يمكن ان يقيم عدة تحولات ولقد قرأ قلة من أفراد حزبه كتابه الطويل والغامض جدا ، ولكنه اعتمد على التنظيم اكثر من اعتماده على الحجة ، وما كان يلفت الانتباه هو لهجة الشباب والنظام الصارم والمفهوم الفاشستي للدور القائد والفرضية البسيطة بان سورية الطبيعية كانت امة عظيمة لميت وستلعب دورا عظيما في التاريخ ...

لربما كان سعادة اول عربي يأتي بصورة محلية تماماً عن تشكيلات الشباب التي انتشرت في ايطاليا والمانيا في الثلاثينيات من هذا القرن ، وكان للجانب شبه العسكري في الحزب في البدء أهمية كبرى ، ولما كان الحكم الفرنسي في اوج تكيله بالمواطنين ، فقد ساد شعور بأن الحرية لا يمكن ان تنال الا بقوة السلاح ،وقدم سعادة منفذا لاستياء الشباب من الانتداب ومساوىء من قبله وذلك بتأكيده على النظام والكفاح والخدمة وتشدد في تكريسها للمثل الوطنية .

وفي مجالات السياسة العملية فقد وقف الحزب يطالب بفصل الكنيسة عن الدولة وبالغاء كل اشكال الانفصالية المحلية بما فيها انفصال لبنان « ان الرابط القومي السوري الاجتماعي لن يتحقق ما لم تتحقق الوحدة السورية » (١٠)

وقام فخالف الفرضية التي تقول بأن اللغة العربية يمكن ان تكون أساسا للقومية « ان عالم اللغة العربية ليس امة واحدة تماما كما ان عالم اللغة الانكليزية أو

---

(٧) سامي الكوري ، رد على ساطع الحصري ، الصفحتان ٥١ – ٥٢

(٨) المصدر السابق ص ٥٧

(٩) يشيا بيرلين . القنفذ والثعلب ١٩٥٤ ص ٧

(١٠) النيلاصه ص ٢٤

اللغة الاسبانية ليس أمة واحدة » (١١) . او ان الاسلام يمكن ان يقوم بهـذه الوظيفة « ان الدين ليس قوميا بل انه ضد القومية فالمؤمنون في المسيحية او الاسلام اخوة دون تفريق في العرق او القومية » (١٢) .

ووقف ايضا يطالب بالغاء الاقطاع والقيام بتنظيم الاقتصاد الوطني عـلى أساس القدرة على الانتاج ، ولكنه عارض في قيام الاتحادات التجارية وفكرة الصراع الطبقي ، ولم يكن امرا غير طبيعي ان تواجه هذه المبادىء بعـداوة الشيوعيين والحركات اليسارية كالبعث وقد وجدها « الوطنيون اللبنانيون » واسعة جداً لأنما وجدها القوميون العرب ضيقة جدا ، اما بالنسبة للانتداب فقد وجد انها تمثل تهديدا منظما لسلطته ، ووجدها آخرون تشبه كثيرا الفاشية الاوروبية. ويجملها ميشيل عفلق زعيم البعث بما يلي :

« لقد كانت الحركة كلها خليطا عجيبا من العصرية والعلمية مع شيء ممعن في القدم بل أثرى ، مع بعث الماضي المحلي وأحقاد تبلغ ألف عام سناً ، فبين الحركات العديدة التي تعمل لبعث العرب من جديد كانت هذه واحدة اجهضت وأضاعت نفسها في رومانتيكية عليلة ولربما كان ذلك لان عقل سعادة اتجه نحو الماضي وكانت ايضا حركة يمينية متطرفة تبشر بفلسفة نظام شريرة تتناقـض ومصالح المستخدمين والمستخدَمين مستهينة وعن قصـد بحقوق الطبقة العاملة متعللة بأن معالجتها سوف يؤدي الى الفوضى » (١٣) .

وقد أدت محاكمة سعادة عام ١٩٣٦ الى ازدياد شهرة الحزب ، وكان بالغ البعد من التوبة ، فعندما دعي في المحكمة باسم انطوان سعادة لم يجب حـتى استبدل الاسم بأنطون وعندما اتهم بالتآمر على الدولة جابه المدعي بقولـه الافرنسيون أنفسهم هم المتآمرون ما داموا قد وقعوا اتفاقية سايكس–بيكو (١٤)

---

(١١) نشوء الامم لسعادة ص ١٧٣

(١٢) المصدر السابق ، ص ٣٧٤ .

(١٣) ميشيل عفلق للمؤلف – بيروت في ٧ كانون الثاني عام ١٩٦١ .

(١٤) الدكتور عبد الله سعاده (ليس قريبا لانطون) رئيس الحزب القومي الاجتماعي السوري – للمؤلف – بيروت في ١ كانون الاول ١٩٦٠ .

وفيما بعد استعطف المندوب السامي لاقامة الوحدة السورية ـ اللبنانية وهذا ما أدى الى تنكيل بالحزب جديد قبل من السلطات الحاكمة .

وفي حوالي نهايـة سنة ١٩٣٨ غادر لبنان وزار ايطاليا والمانيا بشكل عابر ووصل الى اميركا الجنوبية قبيل اندلاع الحرب ، وقد اتهمه الافرنسيون بالاذاعة من راديو برلين خلال الحرب وباستلام رشوات المانية ، ولكن التهمة بقيت بلا دليل . وبعد تسع سنوات وفي الثالث من آذار من عام ١٩٤٧ عاد الى بيروت من البرازيل ليجدد تحريضه من اجل وطن سوري ، ولم تضعف الحزب من حماسته ، بل على العكس فقد اقنعته بمزيد من البحث ، في التاريخ القديم ، بأن قبرص وكل العراق يجب ان يشملهما الوطن وكان بنتيجة ذلك ان عدل المبدأ الخامس للحزب .

وحث سعادة على الاخلاص والتكريس بشكل لم يسبقه اليه أى قائد آخر في السياسة العربية ، ويصفه الرجال الذين عرفوه في هذه الفترة بأنـه ديكتاتور فكري متسلط ذو قدرة على جذب الآخرين طلق اللسان ، يتمتع بمعرفة سطحية ساطعة بمواضيع عديدة جداً ، وكانت له آراء قوية وعرف أين يقف في كل قضية ، لم يكن لجماعته أية حرية فكرية او امكانية لاقناعه عن طريق الحجة ، فهو لم يعط اتباعه أى حق في أختيار التحول عن الحزب أو الانسحاب منه ، بل لم يسمح حتى بالاستقالة ففي تلك الحال يصدر سعادة قراراً بتاريخ مسبق بطرد الخاطيء ويختلق لذلك سببا بشعا ثم تشن حملـة صحفية لتلطيخ اسمه ، ومع ان ضحايا سعادة يستمرون في احترامه فانـه اذا ما حكم على حركته من خلال النتائج فقد كانت تمنى بفشل ذريع ويبدو حكمه السياسي اقل شأنا من فكره .

وفي بداية حزيران من عام ١٩٤٩ حدثت اصطدامات في بيروت بين رجال سعادة ومنافسهم المحلي الاول ، وهو تنظيم شبه عسكري آخر معروف باسم الكتائب اللبنانية أسسها في عام ١٩٣٦ ماروني شاب مقتدر هو بيير الجميل ، وقد أقام الكتائبيون من انفسهم أبطالا للاستقلال اللبناني ازاء تهديد « سورية الطبيعية » التي جـاء بها سعادة . وكانت في قوة سعادة المتزايدة

واستعداداته العسكرية داعيا لاهتمام الحكومة ، ومن المحتمل ان السلطات ، وكما يدعي الحزب القومي السوري ، قد دفعت عن قصد الكتائب لتشن هجوما مسلحا على مكاتب صحفه ونشراته المطبوعة في محاولة لتدمير سعادة . ولكنه فر سليما من البناء واختفى ، فأستولت الشرطة على مكاتب حزبه وادعت الحكومة انها قد امسكت بمخططات لمعسكرات وابنية عامة وبوثائق تثبت أنه كان يتآمر للاستيلاء على السلطة بدعم من الصهيونية ، وجرت اعتقالات عديدة ولكن سعادة هرب عبر الحدود إلى سورية ولم يعد أمامه الان من أختيار سوى العصيان المسلح .

ولربما دفعه انقلاب الزعيم الناجح الذي تم في دمشق عام ١٩٤٩ إلى التفكير احيانا بالاستيلاء هو نفسه على السلطة في لبنان كخطوة اولى نحو الاتحاد السوري القومي . كانت المعارضة السياسية في لبنان تجد في دمشق دعما لها ازاء حكومتها وقد أرتكب سعادة نفس الخطيئة بسيره في نفس الطريق ، إذ قابل الديكتاتور السوري فرحب به وشجعه وتدارسا سوية خططا لانقلاب في لبنان كان كل واحد منهما يفكر بانه يستطيع ان يسخر الآخر للعمل ، فرأى الزعيم في سعادة اداة لتحطيم رئيس وزراء لبنان والرائد القومي رياض الصلح الذي كان صديقاً حميماً لشكري القوتلي والذي كان يشك في أنه يتآمر لاسقاطه ، فقيام اضطرابات في لبنان ستكون ذريعة له للتدخل ، وبناء على ذلك فقد قدم لسعادة الرجال والاسلحة واهداه مسدسا فضيا كرمز لصداقته ، ورأى سعادة في الزعيم أداة لايديولوجيته الخاصة يمكن ان يستغني عنها حالما يحين وقت الاستيلاء على سورية ، وقبل السلاح وهو من مخلفات الدرك السوري ورفض الرجال حتى لا يعطي الزعيم فرصة املاء الاوامر عليه في لبنان (١) .

وفي الاسبوع الاول من تموز شن رجاله عدداً من الهجمات الصغيرة على مخافر بوليس منعزلة في الجبال اللبنانية بينما أعلن هو الحرب على حكومة بيروت من « مراكز الثورة الاجتماعية العامة الاولى » وكان مشروعا خياليا ،

---

(١٥) المصدر السابق .

فقد أدعت قيادة الحزب (١٦) فيما بعد بأن هذا لم يكن الا تكتيكا تحويليا لجلب القوات اللبنانية للقيام بهجوم كبير في مكان آخر ولكن وقبل ان يتم تنفيذ هذا التظاهر كانت الحركة قد سحقت .

في ليلة السادس من تموز قامت السلطات السورية بتسليم سعادة إلى مبعوثين لبنانيين هما مدير الامن العام الامير فريد شهاب ونور الدين الرفاعي ، وقد اعتقد وقتئذ بانه كانت لديهما تعليمات بنقله إلى الحدود السورية اللبنانية وقتله « لمحاولته الهرب » ولكنهما وقد ترددا في تلويث أيديهما بدم سعادة قروا ان يجابها الحكومة اللبنانية بمسؤولياتها فأخذاه إلى بيروت مقبوضا عليه ، وتقرر وقتئذ استجوابه ومحاكمته والحكم عليه في الحال ، وهذا ما حدث في فترة ٢٤ ساعة ، فأدانته محكمة عسكرية عقدت سرا بالخيانة العظمى وأعدم رميا بالرصاص في فجر الثامن من تموز عام ١٩٤٩ ، وخرجت كل الصحف الدمشقية وعلى صفحاتها بيان الحكومة السورية بأن سعادة قد أوقف في أرض لبنانية ، ولكن هذا لم يصدق .

لقد قامر سعادة وخسر ، ان أى قضاء مستقل سيحكم عليه ، ولكنه لم يحاكم محاكمة حرة أو يسمح له بالدفاع عن نفسه ، وقد أذعنت الحكومة للاجراءات — القانونية المعتادة وقضت عليه في لحظة من الرعب ، وحل الحزب في السادس عشر من تموز وطارد البوليس اعضاءه ، ولا تزال حقيقة الصفقة التي على أساسها غدر الزعيم بسعادة غير معروفة ، فقد قال بعضهم بان رئيس الوزراء رياض الصلح قد « اشتراه » من حسني الزعيم وان مصر قد حثت لكي تضغط على الدكتاتور السوري فيقوم بتسليمه . ولعله ليس من قبيل الصدفة انه وبعد ذلك بأمد قصير وقع الزعيم مع لبنان اتفاقية اقتصادية أنهت فترة نزاع طويلة .

ولو ان الزعيم ساند سعادة حتى النهاية فانه سيجد نفسه مضطرا لان يتدخل مباشرة في لبنان مع امكانية حدوث دمار أكيد لبنيان البلد السياسي الهش ، وهذا احتمال لا يمكن ان تستسيغه « الدول الكبرى » ذات

---

(١٦) المصدر السابق .

المصلحة ، التي قد تزعم بأنها لم تبتئس لتدمير حركة يمينية متعصبة هددت مصالحها واستقرار المنطقة .

وأنّه سعادةبعد أن كان يعبد وهو حي فقد أدى به الغدر ووحشية الحكم الذي نفذ به إلى جعله شهيداً ، كان مستعدا دوما لان يجابه الموت من أجل افكاره وقد ترك هذا انطباعا عظيما .

وتوارد الشباب السوريون إلى الحزب وقد حركتهم ظروف موته وازدراء شديد « للزعيم » وعداوة للحكومة اللبنانية ، وازدحمت صفوفه بلاجئين من اضطهاد الشرطة اللبنانية وقد لقوا أيضا تأييدا كبيرا بين ضباط الجيش . ولكن ومع ان الحركة كانت في تعاليمها دنيوية وضد الانفصالية فانها اعتمدت في قاعدتها على دعم الاقليات الطائفية :

ولعب الحزب القومي السوري دوراً هاما وعنيفاً في السياسة السورية في السنوات التي تلت ذلك ، ولكن غالبا ما بالغ المراقبون الغربيون الموجودون داخل البلاد وخارجها في تقدير قوته ، فهو قلما تجرأ على أن يعبر جهارا عن مبدئه الاصلي في « الامة السوريـــة » . فما من حـــكومة أو زعيم سوري يستطيع ان يعتنق أي مبدأ غير القومية العربية : فالرأى العام لن يسمح بشيء غير ذلك ، ومع ان الحزب القومي السوري كان له شعوره المضاد للمشاعر العامة فانه استمر في بقائه في الظلال وذلك عائد إلى حسن تنظيمـــه كحزب غني في كوادره ، لينتعش فقط عندما يكون العقل السياسي للجماهير في حالة قلق او منشغلا بموضوعات أخرى .

ولعل الحزب وفي لحظة موت سعادة قد أحرز أفضل تيار حقيقي مؤات في الرأى العام وطيلة تاريخه كله ، فيما لو قورن بالسنوات التسع التي تلت انتعاشه خلال الحرب الاهلية اللبنانية . وبعد موت سعادة منح لقب الامينة الاولى الفخري لارملته جولييت المير بينما اعطيت القيادة الفعلية لواحد من مريديه وهو جورج عبد المسيح الذي جمع المخلصين واقسم على ان ينتقم له .

٩

انقلاب الحناوي المضاد

نبع انقلاب حسني الزعيم ، على الرغم من مساوىء القائم به ، من آلام شعبية متراكمة منذ أمد بعيد ، ليحول وبشكل جذري اسلوب ومبادىء الحياة السياسية السورية ، لقد أتى أقرب ما يكون تعبيراً عن ادانة الرأى العام للوضع بقدر ما سمح به فقر الفكر السياسي السوري والمؤسسات الموجودة ولا يمكن ان يقوم مثل هذا الادعاء بالنسبة لذلك التآمر المصمم بذكاء والذي أطاح « بالزعيم » بعد خمسة اسابيع من تنفيذ الحكم بسعادة .

وتتفق معظم المصادر على ان الحكومة العراقية ، وقد امتعضت من اتجاه الزعيم وسياسته الممالئة لمصر ، وتاقت لان ترى في دمشق حكومة على صلة ودية معها ، كانت مستعدة لان تدفع مقابل ازاحته . كان العراق على اتصال مع مجموعة من الضباط والسياسيين السوريين الذين كان من بينهم قائد اللواء الاول الزعيم سامي الحناوي وصهره أسعد طلس ومساعده العقيد علم الدين القواص ، وكذلك الرئيس محمد معروف من مخابرات الجيش وطيارا من القوى الجوية السورية هو الرئيس عصام مريود الذي كانت لديه طائرة تقف على أهبة الاستعداد لنقل المتآمرين إلى بغداد في حالة الفشل ، واذا كان الحناوي هو من وقع عليه اختيار العراق للاطاحة بالزعيم فقد كان اختيارا فاشلا ، انه قائد القوة المسلحة الرئيسية في جنوب سورية وبذلك كانت لديه الوسائل المادية للقيام بانقلاب ، ولكنه لم يتمتع بأي من المؤهلات المطلوبة التي تساعده

على البقاء في السلطة ، ولم يمارس أية قيادة سياسية فعالة في تمرده ولربما كان العميل الغبي لمطامع العراق ولاعداء الزعيم الاخرين داخل سورية .

وكان للزعيم الاشتراكي أكرم الحوراني اسبابه الخاصة للتخطيط والاطاحة « بالزعيم » ، فقد كان هو واصدقاؤه من أقوى واقدم المساندين للزعيم ، لكن تحالف الدكتاتور مع عشيرة البرازي ، الاعداء التقليديين للحوراني في حماه اوقع الخلاف بينهما ، وساور الزعيم شك في اخلاص اصدقاء الحوراني العسكريين وخاصة الزعيم بهيج الكلاس والمقدم أديب الشيشكلي فسرحهما من الجيش في أوائل آب من عام ١٩٤٩ .

ان المتآمر الوحيد الذي ترك تقريرا مكتوبا عن الحوادث ، هو الملازم الاول فضل الله أبو منصور (١)، اذ يزعم أن هناك تواطؤاً عراقياً مباشراً، لكن دوره هو في المؤامرة كان فقط دور المنفذ وفي نهاية سلسلة طويلة من القادة لذلك فإن لروايته أهمية في كشف الانقلاب تفوق الاعداد له وقد اختير للضغط على الزناد لأن له هو أيضا أسبابه الخاصة لقتل « الزعيم » ، فقد كان عضوا في الحزب القومي السوري وكان تابعا مخلصا لسعادة ، وعلاوة على ذلك فقد كان لديه مؤهلات للقيام بالعملية : فقد كان على رأس جماعة من مصفحات اللواء الاول السوري الذي يرابط على خط الدفاع السوري — الاسرائيلي وبامكانه ان يصل بسهولة إلى العاصمة .

عندما كان الزعيم يعد لانقلابه وقبل حدوثه بعدة اشهر أجتمع سرا بالوجيه الدرزي حسن الاطرش الذي وعده بدعم الدروز له ضد القوتلي (٢). ولكن عندما تملك الزعيم السلطة تحول إلى مصر والمملكة العربية السعودية وأضاع ولاء الدروز ،وغالبا ما تساور الزعيم الريبة في أن الدروز يتآمرون عليه مع الهاشميين وحزب الشعب، فيرسل قوى كبيرة إلى حامية جبل الدروز ويلقي الرعب في نفوس سكانه ، ويرى كل من فضل الله أبو منصور ورئيسه المقدم أمين أبو عساف ، قائد الكتيبة المسلحة والذي كان بدوره درزيا ، يريان في هذا

(١) ابو منصور ص ٨٣ .
(٢) حسن الاطرش للمؤلف — بيروت ٢١ تشرين الاول ١٩٦٠ .

التحرك تهديداً لبيوتهم وعائلاتهم ، وازدادا رعبا عندما أمر الزعيم كتيبة مدرعة بأن تتوجه إلى جبل الدروز وتضع نفسها تحت تصرف قائد الحامية المحلية المقدم حسني جرّاس ، وفسرا ... على انه تهديد لقيادتيهما .

وروى حسن الاطرش بعدئذ أنه قابل آنئذ الحوراني الذي رأي وجوب ازاحة الزعيم ، وان الضباط الدروز يجب ان يسهموا في ذلك .

« ولم أوافق قائلا – يكفي ان يقبض عليه ويودع السجن ، ولكن الحوراني قام ومن وراء ظهري بعقد اتفاق مع عدد من الضباط الدروز الذين كان لمعظمهم صلات بالحزب القومي السوري ، ولما كانوا دروزا قوميين سوريين متحمسين فقد كان لديهم بذلك سببان للسعي إلى الانتقام » (٣) .

وبعيدا عن هؤلاء الاعداء الالداء كان هنالك تيار خالص آخر من مشاعر مختلفة ضد الزعيم منتشرة بين الضباط القوميين وذلك لانحرافه عن الاهداف الاصلاحية للانقلاب ، وضد رئيس وزرائه محسن البرازي الذي وجه اليه اللوم لتضليله الزعيم .

وقد دفعت اوامر الزعيم إلى الكتيبة المدرعة بالتوجه إلى جبل الدروز المتآمرين إلى العمل ، فهم ، اذا سمحوا للسلاح بالخروج من نطاق مراقبتهم لا محالة هالكون .

ونقل الحناوي القوة إلى قطنا وتبعد عن دمشق حوالي عشرين ميلا رغبة منه في كسب الوقت وبحجة ان المصفحات التي سحبت مؤخرا من الخطوط الامامية بحاجة إلى بعض الاصلاحات ، وبعد اسبوع وقبيل فجر الرابع عشر من آب ١٩٤٩ تحركت القوة إلى العاصمة لتعيد من جديد شريعة « الانقلاب بالقوة » الذي أتى بالزعيم إلى السلطة قبل ٤ أشهر ونصف ، واتجهت مفارز صغيرة يتألف كل منها من سيارتين او ثلاث إلى منزل رئيس الوزراء ، ورئيس الشرطة العسكرية المقدم ابراهيم الحسيني ومراكز الدرك والشرطة والهاتف الالي ، ومحطة الاذاعة والبنك المركزي ، وتولى الملازم الاول فضل الله أبو منصور قيادة قوة مؤلفة من ست مصفحات اخترقت

(٣) حسن الاطرش للمؤلف – بيروت في ٢١ تشرين الاول ١٩٦٠

شوارع المدينة الصامتة إلى قصر الرئاسة وبعـد ان جرد دورية من راكبي الدراجات النارية من اسلحتها نشر جنوده حول البناء وكان رئيس الحرس الشركسي قد رشي لضمان غيابه فاستسلم رجاله دون اية مقاومة ، وشق فضل الله طريقه إلى الداخل وواجه الزعيم في القاعة مرتديا بيجامته وصفعه على وجهه ووجه اليه تهمة الغدر بانطون سعادة . واوثق الزعيم ووضعه على مصفحة واخذه إلى موقع سبق تحديده حيث الحق به بعد وقت قصير محسن البرازي الذي قبض عليه في نفس الوقت .

ثم أبلغ الرئيس مريود ، فضل الله بان القيادة العليا قد حكمت عـلى الزعيم والبرازي بالموت وامره بتنفيذ الحكم فورا ، عندهـا اعدما رميا بالرصاص واعلنت انباء الانقلاب الى الجماهير في الساعة السابعة من صباح ذلك اليوم .

التقارب مع العراق :

كان التأثير الفوري لانقلاب الحناوي العودة بسورية لتقوم بدور في « اللعبة » العربية وفتح باب مناقشة اتفاقاتها الدولية التي أغلقها الزعيم بعداوته للاردن والعراق وتفاهمه مع مصر وفرنسا .

وشهد صيف وخريف عام ١٩٤٩ تطوراً أبعد في الاتجاه العام الذي ظهر في الاسابيع الاولى من حكم الزعيم واوضح دوافع واهتمامات الاحزاب الرئيسية المعنية ، فقد أنكشف بعضهم برد الفعل الفوري للانقلاب : اذ أرسل كل من الملك عبد الله ونوري السعيد تهانيهم ووفودهم إلى الزعيم الجديد في دمشق ، وتلقت مصر أخبار اغتيال الرئيس بوجوم شديد وعاش البلاط في حداد لثلاثة أيام واعلنت تاس وراديو موسكو ان « المجلس الحربي الذي حاكم وحكم على الزعيم كان يضم ضباطا بريطانيين » بينما نسبت صحيفة « لوموند » الانقلاب إلى زمرة ستيرلنغ – فرير – سبيرز – وجلوب

وفئة تعتبر أن أي نهج قومي سليم في سورية أمر شاذ ويجب ان يزاح (٤) ، وجميعهم من الرسميين البريطانيين المهتمين بالمنطقة .

في صباح الرابع عشر من آب اصدر المجلس الحربي الاعلى للزعيم الحناوي بلاغا اتهم فيه الطاغية الزعيم وعصبته الاجيرة بجر البلاد إلى الفوضى والاضطراب وباتباع سياسة خارجية مسيئة لبعض الدول العربية المجاورة وبتشجيع عودة المؤيدين للانتداب وبتزوير نتائج الاستفتاء وباقامة حكم بوليسي وبنهب خزانة الدولة ، كان الحناوي جنديا بسيطا قليل المطامح السياسية ، خدم دون ان يلمع ، في الجيش العثماني وفي القوات الخاصة . وكانت خطوته الاول رفع الحظر عن الاحزاب السياسية (باستثناء الشيوعيين والحزب الاشتراكي التعاوني اليميني) وتسليم السلطة إلى « الوطنيين المخلصين المستقلين » .

ان الجيش الذي استطاع وبمساعدة الزعيم ان يخلص من اشراف المدنيين قد عرف كيف يقلب الحكومات ولكنه لم يكن قد أكتسب الثقة بالنفس والمهارة السياسية لتمكناه من أن يحتل مكانه في الحلبة السياسية كقوة مستقلة قادرة ، وعندما لم يكن أداة طيعة في يد قوى في داخل البلد وخارجها فقد بدا وكأنه قد فهم دوره على أنه وصي سياسي اعلى على مصالح الامة الحيوية ، ولم يطل به الامد على هذه الحال من التواضع ، فقد كان أحد الموضوعات الطاغية في السنوات القليلة التي تلت هو الصراع على السلطة بين الجيش والسياسيين المنقسمين الذين راحوا يبحثون عن صداقات في الجيش ليستعملوها ضد منافسيهم المدنيين ، وكان بنتيجة ذلك ان عجلوا بخضوعهم يوما بعد يوم كصائغي قرارات لاشد الضباط سيطرة واكثرهم طموحا .

ولم تكن هذه هي الحال مع الحناوي فقد أعلن عن ابتعاد الجيش عن السياسة ودعا المناضل المحنك هاشم الاتاسي ، وهو اروع نموذج لكفاح سورية ضد الأنتداب الفرنسي ، لتشكيل حكومة (٥) ، نال فيها حزب الشعب

---

(٤) لوموند ١٦ آب عام ١٩٤٩ .

(٥) هاشم الاتاسي رئيس الوزراء – ناظم القدسي (حزب الشعب) الشؤون الخارجية فيضي =

• خيرة المناصب : رشدي الكيخيا في وزارة الداخلية ، ناظم القدسي في وزارة الخارجية وفيضي الاتاسي في وزارة الاقتصاد الوطني ، واعطي زعيم البعث ميشيل عفلق وزارة التربية اعترافا بتأثيره المتزايد في الوسط الطلابي ، أما أكرم الحوراني الذي جعلته تعبئته للوسط الفلاحي المتبرم رجلا قويا في وسط سورية الشمالية فقد اصبح وزيرا للزراعة ، واعيد بعض من اصدقاء الحناوي العسكريين الذين اقالهم الزعيم بالقوة إلى مراكزهم أمثال أديب الشيشكلي الذي أعطي قيادة اللواء الاول الهامة ، واصبح خالد العظم المستقل وزيرا للمالية ، أما الحزب الوطني الذي مثل بشكل ضعيف جدا في الوزارة بشخص وزير الدولة عادل العظمة ، فلم يكن مستعدا للعودة فزعيماه : القوتلي ومردم نزع اعتبارهما وهما في خارج البلاد ، أما اؤلئك الذين بقوا في سورية أمثال عبد الرحمن الكيالي وصبري العسلي فلم يكن لهم أتباع . وعلاوة على ذلك فان الحزب ككل كان على صلة وثيقة بانصار التقارب المصري والاتجاه المضاد للهاشميين الذي ثار عليه مخططو انقلاب الحناوي . وفي اوائل أيلول ١٩٤٩ نشر قانون انتخابي (٦) يعطي حق الانتخاب لكل الرجال والنساء فوق سن الثامنة عشرة . (مع انه كان على النساء ان يحملن الشهادة الابتدائية لينلن هذا الحق) واعلن عن اجراء انتخابات لجمعية تأسيسية في منتصف تشرين الثاني ، واعلنت وزارة الاتاسي نفسها حكومة مؤقتة لتقوم بمهمة اعادة الحياة الدستورية

وتذوق الان حزب الشعب السلطة ولاول مرة فهو قد وضع الرئاسة تحت اشرافه وسيطر على الوزارة . وقد قدم له الانقلابيون المؤيدون علانية من العراق هذا المنصب وأصبح اسعد طلس صهر الحناوي المتنفذ امينا عاما

الاتاسي (حزب الشعب) للاقتصاد الوطني – رشدي الكيخيا (حزب الشعب) داخلية – خالد العظم (مستقل) مالية – سامي كباره (مستقل) العدل اكرم الحوراني (غير حزبي) الزراعة – ميشيل عفلق (البعث) التربية – الجنرال عبد الله عطفة دفاع – مجد الدين الجابري (مستقل) اشغال عامة – عادل العظمة (الحزب الوطني) وزير دولة – فتح الله اسيون (حزب الشعب) وزير دولة .

(٦) حدد القانون عدد النواب بـ ١٠٨ ، يمثل الواحد منهم ٣٠,٠٠٠ مواطن ، وهم موزعون على الشكل التالي : ٨٦ للمسلمين ، ١٥ للمسيحيين ، يهودي واحد و ٦ لممثلي العشائر .

مساعدا لوزارة الخارجية وراح يسعى بهم لاحلال الوفاق مع بغداد ، ووضع دعاة الوحدة في كل من العراق وسورية للقيام بعمل سريع محدد نصب اعينهم النتائج الوخيمة للتأجيل والحذر الزائد الذي ابدته المفاوضات السورية العراقية في الاسابيع الاولى من حكم الزعيم ، وعلاوة على ذلك كان من الضروري تقوية الاتجاه نحو العراق باتجاه غير مباشر : ففي التاسع والعشرين من أيلول أصدر الحزب الوطني — مع ما يكنه من عداوة شرسة لمشروعي الهلال الخصيب وسورية الكبرى — بيانا يدعو فيه للوحدة مع العراق وهو تغير مفاجىء في الموقف بدا وكأنه جزء من سخرية محسوبة من جانب صبري العسلي هدف منه إلى سرقة مسوح حزب الشعب والافادة من حركة بدت فيما بعد مستحوذة على دعم شعبي .

ووصلت الامور إلى اوجها بعد ان اصبحت الارض ممهدة واصبح الرأى العام متيقظا بتلك المناقشة الكبيرة التي جرت في الصحف بشأن امكانية التقارب مع العراق ، وقد تم ذلك عن طريق الوصي العراقي نفسه الامير عبد الاله ، ذلك الرجل الذي كان طموحه إلى إحياء عرش سورية الدافع الاكبر لاثارة موضوع الوحدة من الجانب العراقي .. وفي طريق عودته من لندن إلى بغداد في الخامس من تشرين الاول حطت طائرته في دمشق وامضى ساعة ونصف الساعة في المطار الذي كان مزدانا باعلام سورية والعراق ويضج بالنشيدين الوطنيين ، وبالاضافة إلى رئيس الوزراء الاتاسي واعضاء وزارته والزعيم الحناوي قام باستقباله أيضا كل من فارس الخوري وصبري العسلي الذي قدم له بيانا عن السياسة الجديدة للحزب الوطني والتي تقف إلى جانب العراق . ولم يدل عبد الاله بأى تصريح رسمي ولكن الاعتقاد السائد هو ان القصد من هذه الزيارة كان اختبار الرأى العام في موضوع الوحدة . لقد آمن الوصي وكما اشار ناظم القدسي رئيس حزب الشعب فيما بعد وبحرارة — بسياسة المظاهر — لقد ظن أن بامكانه ان يجمع السوريين بمجرد ظهوره في وسطهم (٧)

واستمرت مناقشة العلاقات مع العراق تسيطر على القضايا الاخرى وذلك

---

(٧) ناظم القدسي للمؤلف — حلب في ١٩٦٠/١١/٣

قبل انتخابات الخامس عشر من شهر تشرين الثاني بشهر كامل ، ولم تصل الوزارة إلى أي قرار بسبب انقسامها الداخلي وكونها هدفا لضغوط خارجية متصارعة ، وردد رئيس الوزراء العجوز « ان حكومتي هي محض انتقالية » ولا يمكنها ان تلزم البلد بسياسة طويلة الامد قد يكون لها تأثير حاسم على مستقبلها » . ولا يمكن ان يقرر الامور سوى برلمان منتخب يمثل ارادة الشعب .

وعبأ آنئذ معارضو الوحدة قواهم ، وشكل الحوراني وعفلق ، وقد جوبها داخل الوزارة باتجاهات الاغلبية الشعبية الموالية للعراق ، معارضة من رجلين وقال عفلق فيما بعد :

« لقد هاجمنا رشدي الكيخيا بوجوده في وزارة الداخلية حينما كان بمقدوره ذلك ، وانا متأكد بانه قد دبر انتخابات تشرين الثاني ، فأنا لم انتخب مباشرة بل كان انتخابي نتيجة لـ (بالوتاج) (٨) بعد ان كنت قد قررت وبعد الجولة الاولى انه من الخير لي ان أنسحب ، وفاز الحوراني في حماه بمساعدة اصدقائه الضباط فقط ، وقد وضعت المجموعة المعادية للحكم العراقي والتي ظهرت في الجيش نصب اعينها سحب الثقة من حزب الشعب باذلة كل الوسائل للاطاحة به ، وكانت تضم ضباطاً تبنوا هذا الاتجاه عن قناعة فكرية ، وآخرين اشترتهم قوى اخرى كالعربية السعودية التي كانت لديها اسبابها الخاصة للتخوف من أي تقارب سوري عراقي ، كما كان هنالك أيضا ضباط اشتراهم العراق . ولكن الجيش ككل كان معارضا للوحدة مع العراق (٩) . وقام الفرع السوري لحزب الاخوان المسلمين وقد انتظم في جبهة اشتراكية اسلامية في اوائل عام ١٩٤٩ بالدفاع بدوره عن الجمهورية ازاء المطامح العراقية ، فقام مرشحوها بدور حسن في دمشق في انتخبات ١٩٤٧

---

(٨) ان المرشح الذي لم يحصل على نسبة الاصوات المطلوبة في الجولة الاولى كان ينتخب في الاقتراع الثاني الذي تحدده أقلية بسيطة وبين الاقتراعين كان المرشح يوصف على انه منتخب بطريقة (البالوتاج) .

(٩) ميشيل عفلق للمؤلف – بيروت ١٣ كانون الثاني ١٩٦١ .

وبرزت كقوة سياسية يحسب حسابها ومعارضة « للزعيم » وفي الحادي عشر من تشرين الثاني نشرت صحيفة الحزب الناشئة (المنار الجديد) بيانا انتخابيا دعت فيه إلى قيام روابط أمتن بين الدول العربية وحماية استقلالها من التدخل الاجنبي وقيام جبهة متحدة في وجه « المؤامرات الامبريالية » . وقرر الحزب الوطني مقاطعة الانتخابات ، واستنكفت نسبة كبيرة من الناخبين ، كان النظام الحزبي معدوما ومظاهر تعاون عدة مرشحين امرا غامضا، لذلك كله حملت كل صحيفة نتائج انتخابية مختلفة وفقا لمصدر تمويلها (١٠) ، واجتمعت الجمعية التأسيسية ولأول مرة في الثاني عشر من كانون الاول وانتخب زعيم حزب الشعب رشدي الكيخيا رئيسا لها واستقال عفلق من وزارة الاتاسي بعد فترة قصيرة من الانتخابات وتبعه الحوراني في اوائل كانون الاول .

عقبات امام الوحدة السورية – العراقية :

بعد ان حصل حزب الشعب على ٥١ مقعدا من أصل ١١٤ مقعدا ، أصبح بامكانه تماما ان يفسر سيادته الواضحة على كل معارضة على انها أمر شرعي للضغط من أجل قيام اتفاق مع العراق ، ولكن لمَ لم ينتج عن ذلك أي شيء ؟ ان قسما من الايضاح يكمن في حزب الشعب نفسه ، لقد كان يؤيد الوحدة مع العراق وتطلع مؤيدوه من التجار الحلبيين نحو الموصل وبغداد أكثر من تطلعهم نحو دمشق ولكن وقد جابهته الحاجة إلى القيام بعمل نهائي بدا وضعه كأنه أقل وضوحا وتحديدا ، فهنالك تحفظان رئيسيان وقفا في طريق رغبته في الوحدة مع العراق : كان الاول هو عدم الرغبة في التضحية بالنظام السوري الجمهوري على مذبح عرش يقوم عليه عبد الاله . والثاني الخشية من

---

(١٠) انتخب في الجولة الاولى ١٠٠ مرشح ، وأجل سبع للانتخاب بطريق (البالوتاج) ، وسبع آخرون اعلن عن عدم شرعية انتخابهم ، وقد قدمت الصحيفة البيروتية المستقلة « لوريان » في عددها الصادر في ١٨ تشرين الثاني ١٩٤٩ النتائج التالية : حزب الشعب ٤٣ مرشحا . مستقلون قريبون من حزب الشعب ٢٠، مستقلون ٢٢ ، البعث ١، الحزب الوطني وبعض اصدقائه (مع ان الحزب قد قاطع الانتخابات رسميا) ١٣ ، الحزب القومي السوري ١ . وقد اضافت الصحف الدمشقية مثل الالف باء في عددها الصادر في ٢٢ تشرين الثاني ١٩٤٩ الجبهة الاسلامية الاجتماعية ٤ مرشحين ، وممثلي العشائر ٩ ...

ان تتسع المعاهدة العراقية البريطانية فتشمل سورية في سياق عملية الوحدة ، ولم تكن هذه أيضا الا اعتراضات المعارضين لقيام الوحدة الذين شجبوا « مقايضة استقلال سورية بعرش مقيد ببريطانيا بمعاهدة » وقر رأي جميع الجهات أن سورية وقد تحررت حديثا من الحكم الفرنسي يجب ان لا تقع تحت حماية دولة استعمارية أخرى ، وبلغ وجل وتردد قادة حزب الشعب حداً لم يكن واضحاً معه قط اذا كان أفراده سيشاركون بشكل خالص في هذه الاعتراضات وإلى أي حد اعتبروا أنفسهم عرضة للاتهامات ، ولكن لو وجدت الارادة السياسية الخالصة في كل من العراق وسورية لاقامة هذه الوحدة فان أيا من هذه الصعوبات يمكن قهره .

وقد صرح ناظم القدسي فيما بعد (١١) : لقد وقفنا إلى جانب الوحدة العربية ولكننا لم نكن أبدا في صف الهاشميين ، كان هذا من اختلاق اعدائنا الذي اقتنع به الرأى العام والملك سعود ، اننا لم نكن نريد ملكا عراقيا ، ولقد وصمنا بكوننا دعاة تقارب مع الهاشميين بينما جمع الآخرون مساعدات العراق ، لربما كانت هذه هي الحقيقة ، ولكن كل ما يمكن قوله هو ان الرأى العام جعل الحزب في ذلك الوقت مرتبطا بالعراق وهذا معناه ارتباط ببريطانيا لقد اراد الحزب وحدة مع العراق ولكن هنالك تحفظات تراوده لم تخطر حتى على بال خصومه والرأى العام ، وجرت في هذه الفترة مفاوضات سرية مع بغداد قامت بها لجنة وزارية تضم كلا من ناظم القدسي وأكرم الحوراني وخالد العظم وعادل العظمة ورأسها رئيس الوزراء هاشم الاتاسي ، وفي الاشهر التالية نشرت الصحف المصرية تفاصيل مزعومة من المباحثات (١٢) ولكن القصة الكاملة لها لا بد ان تنتظر حتى تفتح محفوظات الدولة ، وشرح صديق شنشل زعيم حزب الاستقلال العراقي ، وكان قد لعب دورا فعالا في هذه المباحثات ، الموقف كما يلي ،

---

(١١) ناظم القدسي للمؤلف — ٣ تشرين الثاني ١٩٦٠ .

(١٢) انظر صحيفة الاهرام (القاهرة) الاعداد الصادرة في الثلاثين من كانون الاول ١٩٤٩ والرابع من شباط ١٩٥٠ والتي ذكرها خضورى في (الشرق الادنى والدول الكبرى) .

« لقد تبنى المبعوثون العراقيون وبناء على تعليمات الوصي وحدة القطرين في ظل عرش واحد ، ولكن السوريين ارادوا وحدة الشعبين ، وكانت وجهة نظرهم أنه يجب ان يكون هنالك برلمان موحد يمثل فيه الشعبان العراقي والسوري ، أما أمور الدفاع والخارجية والاقتصاد فيجب ان تعالج بشكل عام بينما يجب ان تتمتع كل الموضوعات الأخرى في كل بلد بتصريف محلي ذاتي . وهذه هي الخطة التي اتفقت عليها لجنة الاتاسي الوزارية والتي وافقت عليها الحكومة العراقية اخيراً بعد تردد كبير . ولكن السوريين بعد ذلك طلبوا تأكيدات بشأن نقطة جوهرية « لقد ارادوا التأكد من أنه وفي حال قيام الوحدة لن تمتد اليهم المعاهدة مع بريطانيا فتشملهم ، وقد طرح ناظم القدسي وزير الخارجية السؤال رسميا على القائم بالاعمال البريطاني في دمشق ولكنه لم يتلق أي رد ، وكان واضحا للحكومة السورية أن أي اتفاق قد يتم التوصل اليه مع العراق يستطيع الجيش ان يطيح به بين ليلة وضحاها ، وقد اخبروني ببساطة بأنه مالم تقدم بريطانيا التأكيدات المطلوبة فان الجيش سيطيح بالحكومة باسم الاستقلال الوطني (١٣) » .

وهذا يعطي عددا من الاسباب لانهيار آمال الوحدة ، فقد كانت العناصر القوية في الجيش السوري ، وبشكل خاص اصدقاء الحوراني امثال العقيد أديب الشيشكلي الذي قوى مركزه واصبح قائدا للواء الاول ، كانت عناصر معارضة لهذه الوحدة ، كانوا جمهوريين ولم يرغبوا في ارتباط مع البريطانيين وعلاوة على ذلك كانوا خائفين من احتلال المكانة الثانية في جيش عراقي أقوى منهم ، ويمكننا ان نفترض أيضا ان فرنسا والعربية السعودية العدوتين التقليديتين للوحدة السورية العراقية قد استعملتا نفوذهما في داخل الجيش وخارجه لمنع خطوة في ذات الاتجاه . ولم ترغب الولايات المتحدة بأى تغيير في الخارطة العربية التي يعارضها اصدقاؤها في العربية السعودية وكانت اسرائيل بدورها معادية لكل تمركز في القوة العربية .

بقي هنالك مسألة وضع بريطانيا ، لقد كان الرأى العام السوري مقتنعا بأن البريطانيين يخططون لاقامة الوحدة، ومما لا شك فيه ان هـذا الاعتقاد

(١٣) صديق شنشل للمؤلف بغداد — الخامس عشر من تموز ١٩٦٠ و ٢٥ نيسان ١٩٦١ .

كان واحدا من أسباب معارضته بهذه الشراسة ، ولكن هل كان لوجهة النظر هذه أساس متين ؟ ان القسط الاوفر من البرهان يدل على أنها لم تكن كذلك على الاقل في هذا الوقت ، ويكمن تناقض هذا الموقف في ان هذا الاعتقاد مع انتشاره الواسع لم يجد في الواقع من يتمسك به في الداخل .

وفي ذلك قال ميشيل عفلق : « لم تكن بريطانيا تريد بحق الوحدة بين سورية والعراق ، لقد كرهت الزعيم لانه بدا لها اداة السياسة الفرنسية ولربما كان لها يد مع العراقيين في الاحاطة به ، ولكن يصعب علينا ان نصدق أن دولة استعمارية يمكن ان تعمل على توحيد بلدين عربيين ، ولربما كانت اقامة حكومة صديقة في دمشق وسيلة لجر سورية إلى نطاق النفوذ البريطاني بدون تسليم أي شيء بالمقابل ، ولكن وحدة القطرين يمكن ان تعني تبديلات معينة في العراق ، فستكون بريطانيا تحت ضغط دول أخرى لمشاركتها في امتيازاتها وعندها ستكون تلك المصالح السياسية والاقتصادية التي اصبحت معروفة باسم الوضع الراهن مهددة ، وهذا الدليل يوحي بان السياسة البريطانية هدفت إلى تأمين سورية صديقة لها وللعراق على ان تتوقف دون وحدة . ولم يكن بالامكان المجاهرة بهذه السياسة اذ انها ستجرح كثيرا من الاماني القومية ويفقد حامليها دعما قيما » (١٤) .

وقد تبنى خالد العظم نفس النظرة : « ان البريطانيين لم يرغبوا حقا في إقامة وحدة ، فهم لم يكونوا واثقين من مقدرتهم على تعبئة الجانب الثائر من الشخصية السورية ، لقد تظاهر نوري بانه يعمل من أجلها ولكنه في اعماقه كان يفكر كرجل انكليزي » (١٥) .

وفي رأى الدكتور نجيب الارمنازي سفير سوريا في لندن عام ١٩٤٨ — ١٩٤٩ وعام ١٩٥٥—١٩٥٦ ان بريطانيا عارضت الوحدة بسبب ارتباطها السابق مع فرنسا مما أبقى سورية مجال نفوذ لفرنسا ، ولانها لم ترغب في افساد علاقاتها

---

(١٤) ميشيل عفلق للمؤلف — ١٣ حزيران ١٩٦١

(١٥) خالد العظم للمؤلف ، دمشق — ٨ تشرين الثاني ١٩٦٠ .

الطبيعية بالعربية السعودية (١٦) ، وروى زعيم الحزب الوطني صبري العسلي ما يلي : « كان لعديد من السياسيين عام ١٩٤٩ مناقشات خاصة مع العراق حول موضوع الوحدة وقد اتفقوا على السير في طريقها ، ولكن السياسيين العراقيين كانوا دمى في أيدي البريطانيين الذين لم يكونوا بحق يرغبون في الوحدة ، وأذكر أن ديبلوماسيا بريطانيا يعمل في سفارة بلاده في بغداد كان في طريقه عبرسورية ، زارني في دمشق عام ١٩٤٩ وقال لي : « الوحدة العربية كقطار لن نحاول دفعه أو ايقافه ، ولكن لربما قفزنا إلى ظهره اذا ما رأينا وقد بدأ يزيد من سرعته »(١٧) .

ما هو مقدار قوة الرغبة في الوحدة في بغداد نفسها ؟ ان الدليل يشير إلى أن السياسيين العراقيين الذين حملوا موضوع الوحدة محمل الجد هم قلة ، فعبد الاله وحده وخاصة باقتراب بلوغ الملك فيصل سن الرشد كان يضطرم برغبة شديدة في الحصول على سورية ولكنه بدا عاجزا عن الوصول إلى خطوة فعالة لتحقيق مطامحه ، لقد شغلت القضية السورية الجزء الاكبر من تفكيره ولعل نوري السعيد واتباعه قد استحسنوا الموضوع إلى حد خلق شاغلا خارجيا كبيرا لهم ، ولربما اعتبر نوري السعيد أن اموال الرشوة المصروفة في سورية لم تضع بل صرفت في محلها اذ كان انتباه الوصي قد تحول بذلك عن الشؤون الداخلية ، وقد صرح رسميون عراقيون كبار للمؤلف فيما بعد بان نوري والوصي كانت لهما خلافاتهما على سورية وان نفوذ نوري الكابح هو الذي كانت له اليد الطولى في موقف العراق المتردد ، وفي زمن حكم الحناوي بشكل خاص انتظر العراق مبادهة من سورية ، وبدا السياسيون العراقيون أمثال فاضل الجمالي أكثر تحمسا من نوري بالنسبة للمطامع الهاشمية في سورية مستغلين احيانا شكوك نوري السعيد ليتآمروا مع الوصي ضده ، وفي الحقيقة تأثرت حماستهم لاقامة الوحدة مع سورية برغبتهم في كسب مساندة الوصي لهم على مسرح السياسة الداخلية . ولكن تفهم نوري للسياسة

(١٦) الدكتور نجيب الارمنازي للمؤلف دمشق ، ٩ تشرين الثاني ١٩٦٠

(١٧) صبري العسلي للمؤلف ، دمشق ، ٩ تشرين الثاني ١٩٦٠ .

السورية كان أكثر عمقا من تفهم الوصي او الجمالي ، فبامكانه ان يحدد بشكل أدق مدى الدعم السوري للمشروع ، وعلى العكس فان عبد الاله كان لا يجد صبرا في الاصغاء لاناس آخرين وكانت معلوماته محدودة جدا .

ويوضح تغيير الحكومة في العراق في كانون الاول من عام ١٩٤٩ ، أي بعد فترة وجيزة من الانتخابات السورية ، المدى الذي وصلته القضية السورية كحجر في شطرنج السياسة العراقية ، فلم يكن نوري السعيد رئيس الوزارة العراقية محبوبا في سورية حيث اعتقد بانه أكثر اخلاصا لانكلترا منه للعرب ، وقد اعتقد زعماء حزب الشعب بأن فترة حكمه كانت عقبة في طريق الوحدة لان السوريين الذين يهمهم أن يواجهوا المستقبل في ظل حكمه كانوا قلة . إن رجل الدولة العراقي حسين جميل شرح كيف انه في أوائل تشرين الثاني عام ١٩٤٩ قدم ناظم القدسي اقتراحا إلى الوصي العراقي بأن من الحكمة ، لكي تخرج خطط وحدتهم إلى طور النضج استبدال شخصية مقبولة مثل علي جودت وجميل المدفعي بنوري السعيد (١٨) . وفي منتصف تشرين الثاني جرت مشاورات بين الوصي وعلي جودت حول امكانية تأليف وزارة ، وبعد مناقشات مع الوطنيين الديمقراطيين : كامل جادرجي ، محمد حديد ، وحسين جميل ، ومع زعماء حزب الاستقلال نجح علي جودت في تأليف وزارة ضمت حسين جميل وذلك في العاشر من كانون الاول أي قبل يومين من انعقاد الجلسة الاولى للجمعية التأسيسية السورية ، وبعد اجراء مراسيم تشكيل الوزارة ذهب الوزراء معا إلى القصر لاجراء المقابلة التقليدية مع الوصي . ويورد حسين جميل بان الموضوع الاول الذي تطرق اليه عبد الاله كان طلبه اليهم ان يدعوا ناظم القدسي لزيارة بغداد ، وبعد ذلك بتسعة أيام في التاسع عشر من كانون الاول أمسك العقيد أديب الشيشكلي بالسلطة في دمشق وبالتالي فقد الوصي بين ليلة وضحاها كل اهتمامه بحكومة علي جودت .

ولو تطلعنا إلى الوراء لوجدنا ان الوحدة العراقية السورية قد قضي عليها قبل فترة طويلة من حدوث هذا الانقلاب الثالث بسبب القوى المتصدية لها ، ولكن قادة الجيش السوري شعروا بان عليهم أن يؤكدوا ذلك .

---

(١٨) حسين جميل للمؤلف – بغداد ٢٨ نيسان ١٩٦١

١٠

الشيشكلي يقوم بالانقلاب الثالث

كان العقيد اديب الشيشكلي الذي قام بالانقلاب الثالث في سورية أكثر دهاء وصلابة ومهارة سياسية من اللذين سبقاه، وكان ايضا اطول مدة ، فقد سيطر على السياسة السورية طيلة الأربع سنوات التالية . قام بتحريك دباباته نحو دمشق في التاسع عشر من كانون الاول عام ١٩٤٩ ليدافع عن نظام الحكم الجمهوري في سورية وينقذها من النفوذ البريطاني والوحدة مع العراق الملكي ، انه من الصعب استطلاع أي محتوى ايديولوجي من انقلاب ابيض نفذ بسهولة كبيرة بعد اسبوع فقط من الجلسة الاولى للجمعية التأسيسية التي انبثقت عن انتخابات منتصف تشرين الثاني . لقد هيمن على الاشهر التي سبقته ، وكما لوحظ ، موضوع الوحدة العراقية السورية المطروحة ، فكانت حكومة هاشم الاتاسي الانتقالية تنتظر نتائج الانتخابات قبل ان تلزم الوطن بقرار ذي تبعات ، وقد دفع النصر الذي احرزه حزب الشعب الناس ، الى توقع خطوة فورية باتجاه العراق ، وهي وجهة نظر قواها انتخاب زعيم الحزب رشدي الكيخيا لرئاسة المجلس النيابي الجديد في الثاني عشر من كانون الاول وبعد ذلك بيومين انتخب الرئيس الاول السابق هاشم الاتاسي رئيسا مؤقتا للدولة بسلطات تشريعية وتنفيذية خاصة تعلق اعلان الدستور ، ولكن ومرة أخرى لم تتجسد آمال الوحدة

وكان الخلاف على نص القسم الذي سيؤديه رئيس الدولة وأعضاء الجمعية التأسيسية بمثابة تورية للخلاف بين المؤيدين للوحدة ومعارضيها ، وكان فرصة

لقيام الصدام الاول بينهم ، اذ قام ثلاثة نواب معروفين تماما بتعاطفهم مع الهاشميين وهم : حسني البرازي وحسن الحكيم وزكي الخطيب باعداد مسودة القسم يتعهد المحلفون أمام الله « بان يحترموا القوانين ويصونوا استقلال الوطن وسيادته ووحدته وان يحافظوا على الخزينة العامة ويعملوا لتحقيق وحدة البلاد العربية » . ولكن هذا النص لم يشر ابدا إلى النظام الجمهوري في سورية وهو حذف سرعان ما أمسك به معارضو الوحدة واستمدوا منه ملابسات تشاؤمية ، وقاد كل من اكرم الحوراني وعبد الباقي نظام الدين المعارضة في المجلس النيابي يدعمهم زعيم الجبهة الاسلامية الاشتراكية مصطفى السباعي وبعض المعارضين للوحدة مع العراق والمنشقون عن حزب الشعب مثل عبد الوهاب حومد الذين شكلوا معا جبهة جمهورية لتشدد الهجوم . ولكن حزب الشعب وبعض اتباعه من المستقلين استطاعوا الحصول على أغلبية سهلة وتمت الموافقة على نص القسم دون أي تعديل في السابع عشر من كانون الاول .

إن المجلس التشريعي قد صوت في الحقيقة الى جانب قيام الوحدة ، كما ان الزعيم سامي الحناوي رئيس الاركان العامة ، كان معروفا كاداة طيعة في أيدي حاشيته الموالية للعراق ، وعندما لم يبد هنالك اي عائق يمنع من قيام اتفاق فوري مع بغداد شعر كل من اكرم الحوراني والعقيد اديب الشيشكلي بضرورة التدخل وكانت مهمتهما ، اذا لم تكن حياتهما ، مهددتين ، ولم يكن أمامهما متسع للقيام بتكتيك مجتمع يكثر فيه الجدل ، ونظرا لكونهما في الصف الاول من الصراع فهما لم يستطيعا ان يقدرا — وقليل من الناس فعل ذلك في تلك الايام — قوتي المعارضين للوحدة وجبهة المؤيدين لها .

وفي ليلة التصويت زار اكرم الحوراني المقدم امين ابو عساف والرئيس فضل الله ابو منصور الضابطين الدرزيين اللذين نفذا انقلاب الحناوي وكانا لا يزالان على رأس سلاح اللواء الاول وقال لهما : « انتما فقط تستطيعان ان تنقذا البلد وتضعا نهاية لهذا الفساد وسيسجل التاريخ منجزاتكما ويقدر عملكما . فاذا ما ترددتما ولو لبضعة ايام فان الفرصة ستضيع ، وسيدخل جيش امبريالي

سورية تحت ستار من الجيش العراقي وسيستعبد ويخضع بلدنا من جديد » (١) .

وبعد ان كسبهما بالتماسه هذا تعهد الضابطان بتقديم الدعم للتآمر ، وفي اليوم التالي وبعد ان اشتمّ الحناوي رائحة العصيان قرر ان يستبدل برئيس الكتيبة المدرعة المقدم صبحي عبارة ، وهو رجل لا يمكن أن يتطرق الشك الى اخلاصه وقد ذهب الى مركز الكتيبة برفقة حامية من الشرطة العسكرية ، ولكن رجال الشيشكلي اعتقلوا المقدم عبارة في تلك الليلة ، وعادت المصفحات تخترق من جديد شوارع العاصمة لتعتقل اللواء حناوي (٢) وصهره اسعد طلس ورئيس الشرطة العسكرية محمد معروف ورئيس المكتب الثاني محمود الرفاعي وعددا اخر من الضباط الصغار .

وفي صباح اليوم التاسع عشر من شهر كانون الاول أصدر الشيشكلي بيانا أبلغ فيه الامة ان الجيش قد أرغم على أن يضع حدا لمؤامرات رئيس الاركان العامة وعدد من « السياسيين المحترّفين » الذين وبالتواطؤ مع عناصر اجنبية « هددوا سلامة الجيش وبنيان الدولة والنظام الجمهوري » .

لقد بدل قادة الجيش بين ليلة وضحاها الأمور في قضية مستقبل سورية .

الشيشكلي والحوراني

كان اديب الشيشكلي وأكرم الحوراني ، شريكا الانقلاب ، صديقي الطفولة في حماه وشبا ليصبحا اقدر زعماء جيلهما وأكثرهم حزما ، ولد الشيشكلي في حماه عام ١٩٠٩ وانتسب في البدء الى مدرسة زراعية قبل ان يقرر الالتحاق بالقوات الخاصة ، فدخل الجيش عام ١٩٣٠ ولكنه هرب منه في ايار ١٩٤٥ ليساهم مع الحوراني في الثورة على الفرنسيين ، كانا في اوائل شبابهما

---

(١) ابو منصور ص ٩٦

(٢) افرج عن الحناوي في السابع من ايلول عام ١٩٥٠ ليقتله احمد حرشو البرازي بالرصاص في بيروت في ٣١ تشرين الاول انتقاما لتنفيذه حكم الاعدام بابن أخيه محسن البرازي . وقد حكمت عليه محكمة بيروت العسكرية بالموت وقد خفف الحكم الى السجن لفترة ثمانية عشر عاما ودفع مبلغ ٢٥٠٠٠ الف ليرة لبنانية الى عائلة الحناوي .

عضوين في الحزب القومي السوري في وقت بدت فيه حركة سعادة واحدة من أكثر الحركات المناوئة للانتداب فعالية ، ولكنهما لم يكونا أكثر من مناضلين وطنيين عندهما بعض الآراء الايديولوجية والنظرية ، وقاد كلا الرجلين مجموعات من المناضلين في كانون الثاني من عام ١٩٤٨ في الهجوم على المستعمرات اليهودية في فلسطين ، وكثيراً ما شوهد الشيشكلي ،ـ كأحد أمهر القادة السوريين في حملة فلسطين ـ ، في قيادته في منطقة صفد وقد احاط به سياسيون راديكاليون امضوا وقتهم في الجبهة بلحاهم النابتة وهم يتحدثون عن الثورة قبل أن يعودوا الى دمشق كأبطال ، ولو تطلعنا الى الخلف لوجدنا ان الرجلين هما الشخصيتان البارزتان اللتان عاشتا انقلابات ١٩٤٩ ، فالشيشكلي هو الضابط الشاب الذي اختاره الزعيم ليكون على رأس الفرقة المدرعة التي قلبت حكم القوتلي في آذار بينما أصبح الحوراني المستشار المقرب للزعيم في صبيحة انقلابه ، واختلفا معه فيما بعد واقيل الشيشكلي من الجيش برتبة عقيد في السادس من آب من عام ١٩٤٩ ، ثم أعيد الى الجيش بعد اسبوعين وأعطي أمرة اللواء الاول عندما استعان الحناوي بالحوراني ، ولكن الرجلين استعملا مهارتهما في الثورة واستوليا على السلطة لحسابهما بعد ان واجههما ما أسمياه بتسليم البلاد الوشيك لنوري السعيد والوصي العراقي .

وقطع الحوراني آنئذ صلاته بالحزب القومي السوري ولكنه لم يكن قد ربط نفسه مع حزب البعث بعد إذ كان له في الجيش ، ودون جميع الساسة السوريين ، اتباع ملتزمون به ، ولكنه شعر وعلى مسرح دمشق السياسي بالحاجة الى جهاز حزبي ، فقرر ان يبعث من جديد حزبه العربي الاشتراكي الذي ادى دوره في منتصف عام ١٩٤٠ كستار لاخلاصه للحزب القومي السوري ، ونشر في كانون الثاني من عام ١٩٥٠ منهاجا حزبيا مثل تقييما وتصفية لتمرده المبكر على اقطاعيي الأراضي في حماه ودعا فيه الى توزيع الأراضي على الفقراء مصدر القوة والسلطة والسيادة والى سياسة خارجية حرة من كل تأثير خارجي واخماد الطائفية الدينية وتحرير المرأة ، والتعليم الابتدائي والثانوي الحر ، والخدمة العسكرية الاجبارية وانشاء صناعة الاسلحة وافتتاح مدارس زراعية

وتجارية ومهنية وأخيرا اقامة نظام جمهوري دستوري وبرلماني في الامة العربية ككل .

إن الشيشكلي والحوراني يمثلان في السياسة السورية الاتجاه المعادي للعراق لأسباب تعود بالنسبة للحوراني الى الوراء حتى تصل الى يوم قمع حركة رشيد عالي واعادة الجيوش البريطانية لعبد الاله في عام ١٩٤١ .

فقد بدا لهما كل من الوصي ونوري السعيد بسياساتهما الاجتماعية المتحدرة وارتباطاتهما الامبريالية مساويين تماما في مساوئهما لكل ما حارباه في سورية ، كما لم يكونا ينزعان إلى ان تحكمهما بغداد ، ولكن إلى أي حد يمكنهما ان يدعيا انهما بطلا الاستقلال السوري للذين يتصدون للتدخلات من جميع الجهات؟ لقد كرها العراق ولكن هل استطاعا ان ينقذا سورية من ضغط النفوذ المنافس ؟ .

صور الشيشكلي أحيانا على أنه بطل استقلال سورية ولكنه لا يستحق ، في رأي ميشيل عفلق ، هذا اللقب .

« فمع انه عارض قيام الوحدة مع العراق ، الا انه كان وثيق الصلة بالسعوديين والمصريين والفرنسيين وكان استقلاله محدودا جدا ، وقد تحدث المتحدثون الفرنسيون عن الشيشكلي على انه بطل وحدة أراضي سورية . انهذا العطف وجد لقيامه بتنفيذ لعبتهم في معارضته لبغداد وبالتالي للبريطانيين »(٣)

ولا يبدو أي شك في أن الشيشكلي والحوراني اذ قاما بانقلابهما مستقلين عن أي تأثير خارجي ، كانا يعلمان ممن يطلبان الدعم عند الأوان ، وفي هذا المجال فان الانقلابات السورية كانت أكثر من احتجاج متفجر يصدر عن القادة العاملين والضباط ذوي الاتجاهات السياسية ضد نظام غير صالح ولايمثلهم ، لقد كانت نتاج المطامع المتنافسة لجيران سورية العرب وسياسات الدول الكبرى المتصارعة في المنطقة .

وبرهن كل من الشيشكلي والحوراني بانقلابهما الذي قاما به في التاسع عشر من كانون الاول ، في وجه مجلس نيابي معاد ورأي عام غير مكترث ،

---

(٣) ميشيل عفلق للمؤلف ، بيروت ، ١٣ حزيران ١٩٦١ .

برهنا على انهما غير مثقلين بشكوك دستورية وكان لهما وجهة نظر في اين تكمن القوة ولكنها لم تكن قد نضجت بعد : لقد تكلمت الدبابات لغة أشد افحاماً من البرلمانيين ، وعلى أية حال فقد كانا غريبين عن مشهد الحياة السياسية الدمشقية يمثلان مجموعات الجيش التي كانت تقوم بالضغط على البرلمان من خارجه ، ويمثلان اليسار كذلك ولكنهما لم يكونا واثقين من سلطتهما ويختلفان عن الرعيل القديم بما عندهما من ميزة الحقد ، وعلاوة على ذلك فان مطامح الشيشكلي بدت في هذه المرحلة متواضعة نسبيا ، لم يكن الجيش بنظره سوى حكم يحتكم اليه ليدعو السياسيين للانتظام في لحظات الازمات الوطنية لا أن يكون اداة للحكم.وبحق فان من أهداف حركته الاولى ترك «ادارة البلد لحكامه الشرعيين » والسماح لهم بالقيام بأعمالهم التقليدية في تأليف الوزارة دون أن يقدر تماما إلى أي حد تعكر هذا بسبب التدخلات العسكرية المتتالية في الأشهر القليلة الماضية .

وتبعت اضطرابات ١٩٤٩ سنتان من التخبط العشوائي لايجاد صيغة سياسية تعبر عن المخطط الجديد الذي انبثق عن الانقلابات ، ولم يدرك السياسيون في الحال القيود الجديدة التي فرضت على سلطاتهم واستمروا يلعبون لعبتهم البرلمانية العشوائية ، يكتبون مسودات دساتير ، ويصدرون بيانات ويحيكون الدسائس مع قوى اجنبية وكأنهم يرفضون ان يقروا بأن الكلمة الأخيرة الان هي للأركان العامة ، وشجع الشيشكلي هذا السراب بالحرص الذي زاول به سلطته المطلقة فهو لن يرتكب خطيئة الزعيم الطائشة بالقائه مسؤولية كاملة على أكتاف الحكومة بشكل مبكر معرضا نفسه بذلك للوم الجماهير ، كان جنديا بارد الطبع ذو موهبة بحياكة الدسائس وتنظيم الرجال ، ففضل السماح للسياسيين باقحام أنفسهم في صراع مهلك مزعجا اياهم أثناء ذلك بتدخلات الجيش التي لا تلين ، وهذا ما بدا في كل الحوادث ، وكتقدير أصح فانه لربما كان هو نفسه غير واثق من قوته وكمية القدرة على القتال المتبقية لدى المدنيين . كانت الأشهر الطويلة من عامي ١٩٥٠ ــ ١٩٥١ ، والتي بقي فيها خلف الستار ، فترة اعداد وتدريب

ضروريين قبل استلامه السلطة كاملة ، وكان احد الموضوعات الرئيسية في هذه الفترة هو كشف الصراع بين الجيش والساسة ، ولكن حقيقة كون النتيجة الأخيرة امرا غير مشكوك فيه ابـدآ قد أضفى على كثير من جهود السياسيين جوا من اللاواقعية .

انتصارات مصر الديبلوماسية :

وكان هنالك موضوع اخر هو مشكلة سورية الدائمة في انحيازاتها الخارجية فقد انهارت آمال الهاشميين بشكل محزن حين أطيح بالحناوي ولكنها لم تنطفيء نهائيا وعلى كل فان الديبلوماسية المصرية لم تكن كسولة في الفترة نفسها وأحرزت انتصارين ملحوظين ، كانا على نقيض مع حمى التخبط التي عاشها العـراق ومساندوه ، ويذكر هنا كيف استبدل الوصي رئيس الوزراء نوري السعيد بعلي جودت الايوبي في كانون الاول من عام ١٩٤٩ لكي يعمل على خلـق أسباب الوحدة مع سورية ، وكيف ان انقلاب الشيشكلي في أواخر ذلك الشهر قد منع هذا التغير من ان يحمل ثمارا ، وفي هذه الاثناء كان علي جودت قـد عين مزاحم الباجه جي نائبا له وهو سياسي عراقي أصبح فيما بعد محبوبا في مصر وارسل إلى القاهرة ليهدىء الخلافات على سورية بين البلدين . وعقـد أتفاق « جنتلمان » (٤) دون أن يستشير وزارته ومعارضا رغبة الوصي الواضحة وتعهدت بموجبه العراق ومصر بعدم التدخل بشؤون سورية لفترة خمس سنوات ، وتضمن الاتفاق منع التدخل المباشر وغير المباشر واشار بشكل خاص إلى مشروعي سورية الكبرى والهلال الخصيب .

وعاد الباججي من القاهرة إلى العراق في ٣١ كانون الثاني عام ١٩٥٠ حوالي الثالثة بعد الظهر . وفي الحال دعى الوصي الوزراء بما فيهم بعض الاعضاء المعارضين أمثال صالح جبر وصديق شنشل ومهدي كبة الى اجتماع

---

(٤) النص في كتاب عبد الرزاق الحسني : تاريخ الوزارات العراقية ، المجلد الثامن ، ١٩٥٥ ص ١٣٦ — ١٣٧ .

بعد ظهر ذلك اليوم في قصر الرحاب ، وأصليت الاتفاقية التي عقدها الباجحي مع مصر ، وقد سمعت بها الوزارة العراقية يومئذ لاول مرة ، بنار الوصي وزعماء المعارضة المستعزة وفي ذلك المساء اتصل الوصي بعدد من المستقلين في الوزارة الذين كانوا يتلقون أوامرهم منه والذين كانت تعتمد عليهم الاكثرية الحكومية ، وطلب منهم ان ينسحبوا دون ان يتركوا لوزارة علي جودت أي اختيار سوى الاستقالة (٥) ، وبالتالي فان اتفاقية الباجحي الغيت واعلنت الحكومة العراقية الجديدة التي الفها توفيق السويدي عن نيتها في ادخال مشروع الاتحاد الفيدرالي السوري — العراقي في منهاجها . واعلن رئيس الوزراء أمام مجلس الشيوخ في شهر شباط من عام ١٩٥٠ بان الشعب السوري والشعب العراقي يشعران بحاجة ملحة للوحدة ، وقد أوضح هذا الحادث التأثير الدائب المؤسف الذي كان للقضية السورية على السياسة العراقية الداخلية وعلى تكتيكات مصر الاكثر انسجاما وفعالية .

وكان الانتصار الديبلوماسي الثاني الذي احرزته مصر أكثر أهمية ففي عام ١٩٤٩ أعلن مؤيدو الوحدة العراقية السورية بان مثل هذه الوحدة فقط هي التي تستطيع ان تتصدى وبشكل فعال للتوسع الاسرائيلي . وفي ذلك الخريف عندما بدا بان زعماء حزب الشعب يسندهم الزعيم الحناوي على وشك أن يتوصلوا إلى اتفاق مع بغداد قابلتهم مصر باقتراح اقامة حلف ضمان جماعي عربي — عرف باسم معاهدة الدفاع المشترك والتعاون الاقتصادي — ينسق دفاع الدول العربية ويجعل من أي اتفاق ثنائي كالاتفاق العراقي السوري المقترح أمراً ضرورياً ، وبعد ان قدمت مصر اقتراحها هذا في اجتماع للجامعة العربية الذي عقد في تشرين الاول عام ١٩٤٩ ، وافق مجلس الجامعة على هذه الأتفاقية في السابع عشر من نيسان عام ١٩٥٠ (٦) . وقد تعهدت بمساندة جماعية لاي عضو يجابه العدوان واشترط وجوب التشاور في حالة أي تهديد

(٥) حسين جميل للمؤلف ، بغداد ، ٢٨ نيسان ١٩٦١ .

(٦) انظر كتاب فائز . ا . الصايغ ، « الوحدة العربية » (١٩٥٨) الصفحات من ١٤٢ — ١٥١ حيث ناقش نصوص الاتفاقية .

خارجي وتنسيق وتدعيم القوى المسلحة ، وعينت لجنة عسكرية دائمة لتضع مخططات للدفاع الجماعي ومجلس دفاع مشترك وزاري ليقوم بالاشراف على تنفيذها ، كما وضع نص لاقامة تعاون اقتصادي .

وقد تخطت هذه الاتفاقية الحدود التي وضعتها الجامعة العربية في نقطتين : فقد وافقت الدول المتنازعة على ان تلتزم بقرارات المجلس التي تتبناها غالبية الثلثين (المادة السادسة وقد تعهدت أيضا « بعدم ابرام أي اتفاقية دولية لا تتفق مع المعاهدة الحالية » ، وان لا تتبع في علاقـاتها الدولية سبيلا لا يتلاءم مع أغراض المعاهدة الحالية (المادة العاشرة) ، وقد وصفت الاتفاقية بانها خطوة نحو تكامل أكبر بين الدول العربية وتعبير عن ارادتها بالوقوف جنبا إلى جنب ، وهي في الحقيقة لم تعكس شيئاً أكبر من سياسة مصر التقليدية المتجسدة في الجامعة والقائمة على سد الطريق أمام كل تجمع قطري عربي ، وعلى الاخص تجمع العراق وسورية ، ذلك كي تدافع عن الوضع الاقليمي الراهن في آسيا العربية وبهذا تحتفظ لنفسها بالدور الرئيسي بكونها أقوى دولة عربية (٧) .

وتتضح هذه المنافسة العربية الداخلية التي قامت عليها الاتفاقية عندمـا استنكف العراق والاردن عن توقيعها ، ووقعاها على التوالي في الثاني من شباط عام ١٩٥١ والسادس عشر من شباط ١٩٥٢ وتراوحت فترة التصديق الرسمي ما بين ٣١ تشرين الأول ١٩٥١ إلى ١١ تشرين الاول من عام ١٩٥٣ ولا حاجة لذكر أن محاولة ما لم تجر لتنفيذ هذه الاتفاقية رغم أن مجلس الدفاع الذي أوجدته عقد عدداً من الاجتماعات الشكلية ، فلم تتشكل هيئة أركان عامة مشتركة ولم توحد أية جيوش ، ولم يتحقق أي تنسيق في أي حقـل عسكري ، وبقيت الاتفاقية من الناحية العسكرية لفترة خمس سنوات حرفا ميتا ، لتعود مصر فقط لتنعشها من جديد وخاصة مادتها الهامة العاشرة التي تحظر اختلاف السياسة الخارجية ــ وتستعملها كسلاح ضد العراق في الصراع حول ميثاق بغداد الذي عقد عام ١٩٥٤ ــ ١٩٥٥ وعلى أي حال فان المصريين الذين

---

(٧) للالمام بوجهة النظر المصرية بالنسبة للدور الذي توخت القيام به عن طريق الاتفاقية أنظر كتاب « البورصة المصرية » ٢٧ تشرين الاول ١٩٤٩ .

طلعوا بها لم يكونوا يعنون بها كأداة عسكرية ولكن على الارجح كوسيلة لاحتواء العراق واعادة تأكيد مبدأ استقلال كل دولة عربية وهذا ما كانت الجامعة قد تعهدت به منذ البداية وإلى هذا الحد وفت بالغرض منها .

انهيار حزب الشعب :

اهتزت مكانة حزب الشعب السائدة بانقلاب الشيشكلي لكنها لم تتحطم، لقد انتزع منه السند العسكري الذي زوده به الحناوي وجعل من الاركان العامة سلطة منافسة للجمعية التأسيسية التي كان للحزب فيها اغلبية مسيطرة وعلى أي حكومة بعد ذلك أن تقيم توازنا بين مطالب الجمعية التأسيسية التي تشعر بالغيرة على امتيازاتها وبين جيش واثق من نفسه يزداد مغامرة يوما بعد يوم . وقد مر وقت طويل قبل أن يتم التوصل إلى ايجاد هذه الصيغة ، وقبل أن يكتشف أو يلمس السياسيون القيود التي فرضت على سلطاتهم . لقد انعكس هذا في الصعوبات التي اعترضت تشكيل وزارة صبيحة الانقلاب ، وبذلت بين ٢٠ و ٢٣ تشرين الاول محاولات فاشلة ، قام بها كل من خالد العظم وسامي كبارة عن المستقلين ، وزعماء الجبهة الجمهورية أكرم الحوراني وعبد الباقي نظام الدين وزعيم الجبهة الاسلامية الاشتراكية مصطفى السباعي ، وعضو بارز في حزب الشعب هو شاكر العاص ، وفي الليلة السابقة لليلة الميلاد شكل ناظم القدسي احد زعماء حزب الشعب وزارة سيطر عليها اتباعه (٨) . ولكن الجيش اعترض وقدم رئيس الدولة هاشم الاتاسي استقالته واجبر القدسي على الانسحاب في اليوم التالي لينهي حياة اصغر حكومة في تاريخ سورية . واخيرا في ٢٧ كانون الاول بعد مشاورات طويلة قدم

(٨) رئاسة الوزارة والشؤون الخارجية ناظم القدسي (حزب الشعب) الدفاع والاقتصاد الوطني فيضي الاتاسي (حزب الشعب) العدل زكي الخطيب (حزب الشعب) التربية هاني السباعي (حزب الشعب) الداخلية احمد قنبر (حزب الشعب) الاشغال العامة محمد المبارك (الجبهة الاسلامية الاشتراكية) المالية شاكر العاص (حزب الشعب) زراعة محمود العظم (مستقل) الصحة جورج شلهوب (مستقل) .

خالد العظم لائحة مصالحة اتفق عليها (٩) . واحتل الحوراني (الذي عينه الجيش) منصب وزارة الدفاع وكانت وزارة الداخلية من نصيب احد المستقلين بينما أصبح على حزب الشعب الذي كان يسيطر على الوزارة منذ شهر سابق أن يقتنع الان باربع حقائب وزارية ثانوية ، والعمل الاول الذي كان على الحكومة الجديدة أن تقوم به هو أن تصدر مرسوما باحالة اللواء الحناوي على التقاعد وتنصيب الزعيم أنور بنود رئيسا للاركان ، وقد فضل الشيشكلي سيد الموقف الحقيقي منصبا أقل شهرة وهو منصب نائب رئيس الاركان :

كان العظم واقعيا في بيانه الوزاري الذي قدمه للمجلس النيابي في الرابع من كانون الثاني عام ١٩٥٠ وقدم فيه تفهما واضحا لوضع سورية الجديد . وقد قطع على نفسه عهدا بان يدافع عن نظامها الجمهوري المستقل ووعد بان تدعم حكومته ميثاق الضمان الجماعي العربي الذي كان يتفاوض بشأنه في القاهرة ، وبسبب انعدام الخط الواضح لحزب الشعب فقد أنفسح المجال لعدد من المستقلين المؤيدين للهاشميين أمثال حسني البرازي ومنير العجلاني وحسن الحكيم بان يضجوا مطالبين بوحدة عربية مطلقة شاملة باتحاد فيدرالي بين الدول التي تقع تحت تهديد اسرائيل المباشر ، أي العراق والاردن وسورية ولبنان . ولكن لم يكن لهذه الالتماسات السابقة لاوانها أي صدى في الاجتماع وتمت الموافقة على سياسة العظم في السابع من كانون الثاني باغلبية ٩٣ صوتا مقابل ٦ أصوات وامتناع عضو عن التصويت . وفي اليوم التالي انطلق العقيد الشيشكلي في رحلة إلى القاهرة والرياض ليصلح الصدع الذي سببته قطيعة الحناوي ، وفي شهر شباط تبعه وزير الاقتصاد الوطني معروف الدواليبي

---

(٩) رئاسة الوزراء والشؤون الخارجية خالد العظم (مستقل) الدفاع اكرم الحوراني (الجبهة الجمهورية) الزراعة عبد الباقي نظام الدين (الجبهة الجمهوزية) الاقتصاد الوطني معروف الدواليبي (حزب الشعب) العدل : فيضي الاتاسي (حزب الشعب) التربية هاني السباعي (حزب الشعب) الصحة : فتح الله اسيون (حزب الشعب) الداخلية سامي كبارة (مستقل) المالية : عبد الرحمن العظم (مستقل) الأشغال العامة محمد المبارك (الجبهة الاسلامية الاشتراكية) .

الذي حصل على قرض بدون فوائد مقداره ٦ ملايين دولار وعلى وعد بمبلغ ٥ ملايين جنيه استرليني تقدمها مصر . كان هذا ثمن التعهد باستقلال سورية عن الهاشميين .

وقد أكد الحزب الوطني وامينه العام النشيط صبري العسلي هذه الحساسية بالنسبة لتغير المناخ ، ففي مؤتمر عقده الحزب في حمص سحب الحزب تصريحه الداعي إلى قيام وحدة مع العراق (والذي كان قد اصدره في الخريف الماضي عندما كانت مثل هذه الآراء شائعة) وعاد يؤكد اخلاصه للجمهورية ، وفي السابع والعشرين من كانون الثاني ترأس العسلي وفدا حزبيا إلى مصر للتصالح مع السياسيين المبعدين شكري القوتلي وجميل مردم واصبح من جديد على علاقات طيبة مع الجامعة العربية والسلطات المصرية ، ورأى القوتلي الذي ما فتأ ومنذ أن اطاح به الزعيم في آذار من عام ١٩٤٩ يحيك الخطط لعودته للسلطة — رأى في هذه الزيارة انتعاشا لحزبه وايقاظاً لآماله .

وحاول حزب الشعب في هذه الاثناء ، وقد واجهته معارضة الجيش والحوراني وحزب البعث ، وتجدد منافسات الحزب الوطني ، أن يستغل الرصيد الوحيد الذي بقي له وهو تمتعه بالاغلبية في الجمعية التأسيسية ، انتقى القدسي لجنة الثلاث والثلاثين رجلا التي أنيط بها وضع مسودة الدستور من أعضاء حزبه ، ولكن نص المسودة انتقد على نطاق واسع عندما نشر في نيسان (١٠) . لم يكن هنالك من خلاف حول المادة الاولى ، التي أعلنت أن سورية جمهورية برلمانية ذات سيادة ، ولكن المادة الثالثة التي اعلنت الاسلام دينا للدولة كانت موضوع نزاع عنيف في الصحف بين المسلمين المحافظين والمدافعين عن دولة علمانية . وقد نشرت صحيفة البعث بان ٢٣٥ طالبا جامعيا قد التمسوا من رئيس الدولة بان يقضي على كل الفوارق الطائفية ، واهتمت الطوائف المسيحية كثيرا بالامر وعالجت معظم عظات عيد الفصح هذا الموضوع ، وقال بطريرك اليونان الكاثوليك لجموع المصلين : « عليكم أن تناضلوا لتبرهنوا ان الحق إلى جانبكم وانكم لستم لاجئين في وطنكم »

(١٠) الترجمة الفرنسية في صحيفة لوريان (بيروت) ، ٢٠ نيسان ١٩٥٠ .

وهاجمت الصحيفة الاسلامية « المنار » الجدال الذي أثارته الطوائف المسيحية مثنية على القيم الروحية للشريعة الاسلامية واعلنت المادة الخامسة دمشق عاصمة الدولة على ان لا يكون ذلك قطعيا ، وهذا ما أخذه معارضو القدسي عليه اذ رأوا في ذلك مؤامرة من حزب الشعب (لنقل مقر الحكومة الى حلب في أول فرصة ممكنة) (١١) .

وفي أوج هذا الخلاف استقال الحوراني من الوزارة في الخامس والعشرين من نيسان معلنا بأنه يعترض على خمسة عشر مادة من الدستور الجديد على الاقل وانه لم يؤخذ رأى الحكومة في المسودة .

وقال بان العلاقات بين الحكومة والجمعية التأسيسية تكشف تماما عن فقدان الانسجام . لكن الاعلان الدستوري كان فقط مظهرا من مظاهر الصراع المذكور بين حزب الشعب المتحصن بسلطة دستورية مستمدة من الناخبين وبين قوى غير برلمانية تضم الجيش والحوراني والبعث الذين ادعوا بانهم يمثلون الرأى العام بشكل أصح . ولربما أقحم الحوراني عن مواجهة عرض للقوة في المجلس النيابي عرف أنه لن يكون الرابح فيه ، ولربما كانت استقالته عائدة إلى كونه قد اشتم في الجورائحة شيء ما فآثر أن يترك قبل ان تسقط حكومة العظم التي احاطت بها عاصفة اقتصادية بسبب فساد العلاقات مع لبنان .

دار الخلاف مع لبنان حول المشكلة القديمة للسياسة الجمركية وتنظيم الجمرك ، ففي عهد الانتداب كانت ادارة الجمارك مع عدد من المرافق الاخرى كالبريد والبرق ومراقبة الشركات ذات الأمتياز وانتاج التبغ تحت الاشراف المباشر للمندوب السامي لانها اعتبرت امورا ذات أهمية عامة لكل اجزاء الاقاليم المنتدبة وبالتالي لا يمكن السماح لحكومات الاقطار المختلفة أن تتولى الاشراف عليها كليا (١٢) .

---

(١١) بردي (دمشق) ١٨ نيسان ١٩٥٠ .

(١٢) أنظر الحوراني ، سوريا ولبنان ، ١٧١ ، ٢٢٢ ، ٢٨٩ . ولونغريج ص٣٥٧/١٨ نيسان ١٩٥٠

وفي عام ١٩٣٧ وافقت الحكومتان السورية واللبنانية على مبدأ ادارة جمركة منفصلة ، ولكنهما فشلتا في التوصل الى اتفاق حول نسبة العائدات الجمركية التي ستوزع على كل دولة ، وفي عام ١٩٣٨ فرضت الحكومة السورية ضريبة على المنتجات اللبنانية ورد لبنان بالمثل ، لكن الاجراءات لم تنفذ بشكل فعال وبقي النزاع بـدون حل خلال الحرب ، وفي نهاية عام ١٩٤٤ سلمت فرنسا ادارة الجمارك الى مجلس اعلى سوري - لبناني للمصالح المشتركة لكن أعماله لم تكن منسجمة وانتهى بخلاف في شباط من عام ١٩٤٨ ، وعقد الزعيم حسني الزعيم اتفاقية مع لبنان في تموز من عام ١٩٤٩ (ادعى البعض أنها كانت تتصل بغدره بانطون سعاده) ولكنها لم تعش طويلا وبطل مفعولها ، وأثارت خطط بناء مرفأ على الشاطىء السوري في اللاذقية لتحرير التجارة السورية من اعتمادها على مرفأ بيروت الرأي العام الوطني للضغط على الحكومة لكي تضع حدا لذلك « الاتحاد » الذي تضحى فيه مصالح ٤ ملايين سوري على مذبح التجارة اللبنانية . وعلاوة على ذلك فان الحكومة اللبنانية غدت بغيضة في سورية بسبب اضطهادها للقوميين السوريين بعد اعدام سعادة، واقترح خالد العظم بعد ذلك وحدة اقتصادية بين البلدين ولكن وعندما رفض لبنان هذا الاقتراح بحجة أن اقتصادي البلدين ليسا متكاملين وانما يصطدمان ببعضهما، جرى حل اتحاد الجمارك في آذار من عام ١٩٥٠ . وكانت النتيجة الفورية موجة من ارتفاع الاسعار في السوق السورية وجلب اسوأ نتائج للبلد من جراء هذه القطيعة (وكتبت صحيفة دمشقية في الاول من ايار من عام ١٩٥٠ : « اننا في سورية نعيش اسوأ ايام مررنا بها في تاريخنا . »)

ان تجارتنا في ركود ، وصناعتنا مشلولة ، ولا يستطيع مزارعونا ايجاد مشترين لمنتجاتهم ، ان استقلالنا في خطر وجمهوريتنا مهددة ، وتسمح جمعيتنا التأسيسية لنفسها بالانشغال بنزاعات سخيفة ، وحكومتنا خليط من الاتجاهات المتصارعة وقد نهب البلد ، وأصبحت تركيا والعراق والاردن وحتى العصابات اليهودية تنظر الينا نظرتها الى فريسة يشجعها في ذلك الروس والبريطانيون

والاميركيون والفرنسيون (١٣) .

وقد ادت الصعوبات الاقتصادية المتزايدة ، والخلاف الشديد على الدستور وفقدان الانسجام بين الاركان العامة والمجلس النيابي والوزارة . كل ذلك بالاضافة الى استقالة كل من الحوراني وفيضي الاتاسي الى انهيار حكومة خالد العظم في التاسع والعشرين من أيار .

وأعلن الشيشكلي في مساء ذلك اليوم في خطاب وجهه الى الجنود، ان الجيش سيمنع بكل ثمن تكرار هذه المهزلة التي كانت سورية مسرحا لها ، والتي حطمتها تقريبا ، ويشهد الله على أن الجيش يريد فقط ان يحمي استقلال سورية والنظام الجمهوري فيها (١٤) .

وفي اليوم التالي وبعد تداول طويل بين قادة الجيش ورئيس الدولة كلف ناظم القدسي بتشكيل وزارة ، وكان من الأهمية بمكان ان الجيش قد اسهم في تسمية رئيس الوزراء . ان الرجل الذي اختير هو زعيم الاكثرية في المجلس النيابي ، وبالمقابل قام القدسي باتصالات هامة وألف وزارته في الرابع من حزيران (١٥) ولقد كان مجبرا على تعيين ضابط من الجيش هو الزعيم فوزي سلو في منصب وزير الدفاع ، كما تعهد بأن وزارته لن تتخذ اية قرارات في سياسة الدولة وأنها ستكون حكومة انتقالية تحفظ عجلات الحكم في حالة دوران، معلقة الموافقة على الدستور الجديد ، وأصبح حزب الشعب الذي كان ذا سلطة بلا سلطة تماما ، وبموافقته على ذلك عقد القدسي هدنة مع الاركان العامة ، وتجنب بذلك عداوة الجيش المباشرة ولكنه في صيف وخريف ١٩٥٠ وجد نفسه يواجه معارضة أشد بكثير من مؤيدي الرئيس السابق شكري القوتلي ، ولقد كان جزءا من السخرية المستمرة للسياسة السورية في السنوات

---

(١٣) الفيحاء ، (دمشق) أيار ١٩٥٠ .

(١٤) الفيحاء ٣٠ أيار ١٩٥٠ .

(١٥) رئاسة الوزارة والشؤون الخارجية ناظم القدسي (حزب الشعب) الداخلية : رشاد برمدا (حزب الشعب) الدفاع : العقيد فوزي سلو ، الاقتصاد الوطني شاكر العاص (حزب الشعب) التربية : فرحان الجندلي (حزب الشعب) الأشغال العامة جورج شلهوب (حزب الشعب) العدل : زكي الخطيب (مستقل) المالية : حسن جبارة (من خارج البرلمان) .

التي سبقت الوحدة مع مصر ان حزبي الوطني والشعب – وهما الفريقان التقليديان – اللذين انبثقا عن الكتلة الوطنية واللذان كان لهما مصالح مشتركة في دعم النظام القديم بقيا في صراع حتى النهاية ولمصلحة القوى الراديكالية التي كانت تهدد الاثنين .

وكان صبري العسلي ، وهو محام بارع وسياسي انتهازي ، الروح المحركة لاعادة تنظيم القوى والمبادىء للقوتلي وذهب الى حد أنه ربط الحزب الوطني مع الحزب الاشتراكي التعاوني وهو تنظيم متطرف (١٦) ليشكل جبهة وطنية معارضة . وفي السادس والعشرين من حزيران انفجرت قنبلة في مبنى البرلمان وألقت الحكومة التبعة على الحزب الوطني ، وهاجم رشدي الكيخيا زعيم حزب الشعب ورئيس المجلس النيابي حمله التشهير التي يشنها الحزب الوطني على الجمعية التأسيسية .

قال « ان الحزب الوطني يتهمنا دائماً بكل أنواع الجرائم، وتصفنا صحفه على أننا « خونة » و « عملاء المصالح الاجنبية » ولكن هل من الخيانة ان نطلب اتحادا فيدراليا او وحدة مع بلد شقيق ؟ نعم اننا نطالب باتحاد فيدرالي او وحدة مع العراق ، لقد قلنا ذلك ونقول ذلك الان ، ولكننا تجشمنا عناء تحديد الوحدة التي نتطلع اليها ، يجب ان لا تتخطى سيادتنا او استقلالنا ، اين يمكن لبلد صغير كبلدنا ان يجد الخلاص ان لم يجده في الوحدة ؟ لقد اتهمنا بأننا اعداء الجمهورية ، ولكن الدستور الجديد الذي تكتب مسودته الان سوف يدعم الجمهورية ، وليس مستبعدا عن الحزب الوطني ان يغير اتجاهاته ، فهو لم يتردد في اعطاء تأييده غير المشروط للوحدة وقد قرر أخيرا ان من مصلحته ان يترك

---

(١٦) تأسس الحزب الاشتراكي التعاوني عام ١٩٤٨ بزعامة فيصل العسلي الذي كان هجومه على الجيش خلال حرب فلسطين واحدا من الأسباب العديدة التي أدت الى انقلاب الزعيم (أنظر الصفحة ٤١ – ٤٢) وقد نظم فيصل – وهو شاب حاد الطبع قوي الطاقة – حزبه كقوة يمينية ارهابية مبشرا بالفكرة الاسلامية وعاش بتقشف ممارسا نشاطه في المخابىء الجبلية ، وبعد ان سجنه الزعيم افرج عنه الحناوي وانتخب في المجلس النيابي على انه الممثل الوحيد لحزبه في انتخابات تشرين الثاني عام ١٩٤٩ .

هذه السياسة ونحن نترك الرأي العام ليحكم بين مواقفه ومواقفنا » (١٧) .

وفي السابع من آب خرق القوتلي المنفي في الاسكندرية حجاب صمته ولاول مرة منذ أن أطاح به الزعيم ودعا السوريين الى الدفاع عن استقلالهم ، وكانت هذه هي الاشارة التي كان ينتظرها مؤيدوه فدعوا الى اضراب في اسواق دمشق ونظموا مظاهرات وعقدوا اجتماعا عاما في الخامس من ايلول — اليوم الذي حدد للمجلس النيابي للتصويت على الدستور — ادانوا فيه نظام الحكم وشجبوا قرار الجمعية التأسيسية بتحويل نفسها الى هيئة تشريعية لفترة ٤ سنوات وهو حركة الغاية منها تمديد فترة حكم حزب الشعب ، ولكن تمت الموافقة على الدستور الجديد وانتخب السياسي العجوز هاشم الاتاسي رئيسا للجمهورية وشكل ناظم القدسي وزارة جديدة (١٨) وفي هذه الاثناء استمر القوتلي في نشر دعواه بأنه هو الرجل الوحيد الذي يستطيع ان يقف في وجه الهاشميين في الخارج وفي وجه العسكريين في الداخل .

وبينما استمر هذا الصراع بين الحزب الوطني وحزب الشعب كان هنالك صراع مواز يقوم بين الجيش وعدد من المستقلين الموالين للهاشميين أمثال منير العجلاني وحسن الحكيم . وفي الثاني من آب تجرأ العجلاني على أن يشن في البرلمان هجوما على الجيش وقال : « ان الجيش يحشر نفسه في كل شيء ، بقضايا التهريب ، بواجبات الشرطة ، بوزارة الداخلية ، بالبوليس السري ، وحتى بمراقبة اعضاء من هذه الجمعية (١٩)» . وقد نال هو نفسه « شرف» اهتمام الجيش عند عودته من زيارة قام بها للأردن ، ورد عليه الجيش بعد عدة أسابيع باصداره امرا بالقبض على العجلاني بتهمة التآمر مع الاردن على سلامة الدولة ،

---

(١٧) « لوريان » (بيروت) ، ١ تموز ١٩٥٠ .

(١٨) رئاسة الوزارة والشؤون الخارجية ناظم القدسي (حزب الشعب) الداخلية : رشاد برمدا (حزب الشعب) الدفاع العقيد فوزي سلو . الاقتصاد الوطني فرحان الجندلي (حزب الشعب) الأشغال العامة : احمد قنبر (حزب الشعب) الزراعة : علي بوظو (حزب الشعب) الصحة : جورج شلهوب (حزب الشعب) العدل : زكي الخطيب (مستقل) وزير الدولة حسن الحكيم (مستقل) .

(١٩) صحيفة (الف باء) دمشق ٣ آب ١٩٥٠ .

وحاكمته محكمة عسكرية ولكنه برأ ، وانتهز المدعي العام هذه الفرصة ليهاجم مشروع سورية الكبرى ، الذي ما فتأ الملك عبد الله يدعو اليه ، على انه « جريمة قومية » يهدف الى « تحطيم استقلال سورية والنظام الجمهوري لمصلحة الاستعمار» واستقال حسن الحكيم ، وهو نقاد دائم آخر لتدخل الجيش في الشؤون العامة ، من الوزارة في تشرين الاول .

وقامت أعمال عنف متفرقة في النصف الثاني من عام ١٩٥٠ لتشهد على تجزؤ السلطة السياسية ، وعلى الصراع من اجل السلطة ، وفي ٣١ تموز قتل العقيد محمد ناصر قائد القوى الجوية السورية ، قرب دمشق عن عمر يناهز السابعة والثلاثين ، وكان يعتبر أقوى وأهم منافس للشيشكلي ، وقد اوردت صحف بغداد والقاهرة وبيروت انه قد سمى قبل ان يموت اسم رئيس المكتب الثاني ابراهيم الحسيني ونائبه عبد الغني قنوت باعتبارهما قتلته ، ولكن وزارة الدفاع السورية منعت أي تعليق صحفي .. وقد برىء الرجلان اللذين ظهر اسمهما على هامش التاريخ السوري لنقص الادلة الثبوتية ، وفي الثاني عشر من تشرين الاول جرت محاولة فاشلة لاغتيال الشيشكلي ادت الى كشف تنظيم ارهابي عرف باسم كتائب الفداء العربي (٢٠) . اعتقل منهم احدى عشر عضوا واتهموا بجرائم قتل بما فيها وضع قنابل في معبد اليهود في سورية وبمحاولة قتل الكولونيل و . ف . سترلنج (٢١) وباقتحام مدرسة يهودية في بيروت ، وبوضع قنابل في مفوضيات بريطانيا وامريكا في دمشق ، والهجوم على الحي اليهودي في دمشق ، وتفجير المكتب المحلي لمنظمة اغاثة اللاجئين الفلسطينيين ، ومحاولة قتل الملك عبد الله والعقيد اديب الشيشكلي ، وقد قيل

(٢٠) كتائب الفداء العربي أسسها أربعة ارهابيين منهم حسين توفيق وهاني الهندي وقد اتهم توفيق بقتل وزير مصري سابق اسمه عثمان امين كان قد هرب من سجن القاهرة والتجأ في البدء الى الاردن وبعد ذلك الى سورية حيث رفضت السلطات طلب مصر بتسليمه .

(٢١) مراسل التايمز ومبعوث سياسي بريطاني سابق لشؤون البدو ، استوطن في دمشق بعد الحرب العالمية الثانية وفي السادس من تشرين الثاني هاجمه في منزله ثلاثة رجال مسلحين وجرح في صدره ، أنظر سيرته ، في سيفي لامست ، لندن ١٩٥٣ .

بان لعدد من الشخصيات السياسية صلة بهؤلاء ، منهم احمد الشراباتي وهو وزير دفاع سابق فقد اعتباره في حرب فلسطين ، ونشأت شيخ الأرض وهو اخو طبيب الملك سعود الخاص ، الذي قيل بأنه كان ينقل المساعدات السعودية للارهابيين ، وقد اطلق سراح هؤلاء ، فيما بعد ولكن علاقات سورية مع مصر والعربية السعودية عانت الكثير اذ انه أصبح من الواضح ان هاتين الدولتين كانتا تشجعان عودة القوتلي الى السلطة ، وان هذه الحملة لمصلحة الرئيس السابق قد أعادت احياء الكثير مما كان مشيناً وقاسياً في النظام القديم .

لقد شهد العام الذي تلى انقلاب الشيشكلي اضمحلال حزب الشعب بشكل مضطرد ، فكان القدسي في منصب رئيس الوزراء منذ حزيران عام ١٩٥٠ لكن جنديا جلس في وزارته كوزير للدفاع وتولى الاشراف على الدرك. وبقي الحزب مسيطرا على الجمعية التي حولت نفسها بعد تصديق الدستور من جمعية تأسيسية الى جمعية تشريعية ، وبقيت السلطة تنتقل بازدياد الى قوى خارج البرلمان ، ووجد الحزب نفسه مهددا لا من الجيش فقط والحوراني والجبهة الاسلامية الاشتراكية والبعث ، بل كان مهددا ايضا من انتعاش منافسه القديم الحزب الوطني ، وقد احرج حين رأى تبني الهاشميين العلني لبعض المستقلين كمنير العجلاني وهذا ما أدى فقط الى اثارة حمية الجيش ، ولكن ضعف الحزب وانهياره الحتمي كانا يعودان وقبل كل شيء الى تناقضات سياسته الخارجية فقد جرى زعماؤه وراء الوحدة مع العراق في نفس الوقت الذي كانوا يعلنون فيه وبكل شرف عن ارتباطهم بجمهورية سورية واستقلالها ، لقد أرادوا وحدة بدون نوري او عبد الاله او المعاهدة البريطانية ، ولم تكن هذه الاهداف واقعية وجريه وراءها جعله عرضة للاتهام بالذبذبة والخداع المكشوف ، لقد انقسم اصدقاؤهم وأساء اعداؤهم فهمهم ، فزادت مصر في هذه الفترة من تدعيم (الوضع الراهن) بابرام ميثاق الضمان العربي الجماعي ، وفي هذه الفوضى السياسية ظهر مصدر آخر للصراع وهو : جهود الدول الغربية لتنظيم الشرق الاوسط ، للتصدي للاتحاد السوفياتي ، ففي حلبتي السياسة السورية الداخلية والسياسة العربية فان وجه المشكلة الكلي كان يهمل في غالب الاحيان ، وقد تمت ملاءمة الموضوع على المسرح العربي ليشير الى خلافات ممثليه ويسعى لايجاد منافسين محليين مسلحين بعصي اضافية ليضربوا بها بعضهم الآخر .

١١

دفـاع الشرق الأوسط

عام ١٩٥١

غالبا ما ألقي اللوم على العرب لعدم مشاركتهم في اهتمامات العالم الواسع التي دفعت القوى الغربية إلى السعي لاقامة جهاز دفاع الشرق الاوسط وذلك بعد الحرب العالمية الثانية ، وقد اعتبرت لامبالاتهم بالنسبة لتهديد الاتحاد السوفيتي ضربا من السذاجة ، واحد أعراض عدم نضجهم السياسي وكدليل على ذلك كان تحالف بعضهم مع المانيا النازية خلال الحرب في الشرق الاوسط وإلى حد كبير مشاغل « الحرب الباردة » وقد تحكم في السياسيين الأميركية والبريطانية الزيت لأعادة اعمار اوربا .

وقد اعتقد المخططون الغربيون ان عليهم ان يكونوا مستعدين لمقاومة هجوم قد يحدث في مكان ما من اطراف الكتلة الشيوعية وخاصة في مناطق مكشوفة وهامة كالشرق الاوسط ، ولكن اهتمامات العرب كانت ضيقة ، كانوا يفكرون في مجابهة اسرائيل اكثر من تفكيرهم بالشيوعية الدولية ، وبطرد الجنود البريطانيين من أراضيهم أكثر من تقديم مساعدتهم « للدفاع عن الحرية » كانوا أكثر اهتماما بالصراع المحلي حول الزعامة العربية ، بنزاع الاشقة في الدول العربية المستقلة حديثا ، من اهتمامهم بضرورة اقامة جبهة متحدة ازاء أي تهديد خارجي ، توضح هذه الخلافات في المواضيع السياسية والدفاعية

(١) أنظر البزابيت مونرو ، سياسة المستر بيفن العربية في أوراق سانت أنطوني ، نشر البريت حوراني (١١) ، العفمنان ٩ — ١٠ .

الفشل الغربي في الحصول على معونة العرب في الخطط الدفاعية ، وقد أدت مخاوف بريطانيا والولايات المتحدة الى فقدان هذه البلدان حساسيتها بالنسبة لدقائق السياسة العربية ، وما كان يحدث لهذه الدول العربية ، وما يجري بينها ، وقد قادهم هذا الى خطأ في الحكم على المزاج العربي واقترفوا اخطاء في التوقيت الذي قدموا به مقترحات الدفاع ، والى ان ينحازوا ولو بشكل غير حاذق الى احد الفرقاء في الصراع العربي الداخلي . وبدوا في الغالب يتطلعون الى الشرق الاوسط من خلال منظار مصالحهم الخاصة ويرونه ملحقا للدبلوماسية الاوربية او ساحة « حرب باردة » اخرى ونادرا ما رأوه ضمن توتراته المحلية ، لقد فرضت الخطط الغربية للدفاع عن الشرق الاوسط على تعقيدات السياسة العربية التي لم يسبر غورها بشكل صحيح . ولقد كان هذا هو الخطأ بعينه نظرا لمستوى التوترات المحلية القائمة في الدول العربية كل على حدة ، وهذا ما أدى الى فشل تلك الخطط الطموحة ، كان هدف الغرب يتلخص في ان يدافع عن مصالحه في الشرق الاوسط على ضوء التزامات جماعية معينة ، وكانت هذه هي الشروط التي رجعوا اليها والتي وضعت على أساسها خطط الدفاع ، ان هم هذه الدراسة على أي حال لا ينحصر بالاستراتيجية العالمية او بدوافع واهتمامات الدول الكبرى ولكن بمشكلة أضيق هي أثر بعض هذه الخطط على السياسة الداخلية للدول العربية لا سيما سورية إذ ان الامور غالبا ما كانت تتحدد نهائيا في هذا الموطن المحدود .

الحيـــاد العربي :

يذكر في بعض الاحيان ان الغرب قد اكتشف حياد العرب عندما ذهب عبد الناصر الى باندونغ في نيسان عام ١٩٥٥ واشترى اسلحة شيوعية في ذلك الصيف ، ولكن الحياد كان واضحا في سورية للجميع عام ١٩٥٠ — ١٩٥١ ، فقد تبناه عدد من الزعماء الجدد قبل الثورة المصرية بكثير وأطيح بعدد من الذين لم يتبنوه بسبب شعور العداء نحو مقترحات الدفاع الغربية ، وكان حياد

سورية عاطفة نبعت من مجموعة آلام، فهنالك تجربة الانتداب الفرنسي المرّة ، والسخط للهزيمة في فلسطين ، ودور الغرب في خلق اسرائيل ، وزاد في خطورتها معارضة مشروع الوحدة العراقية السورية تحت الحماية البريطانية ، وتخوف شديد من حرب عصرية ، والنظرة السائدة التي تقول بان الاستقلال كان ضربا من الاوهام ، وان سورية كانت تحت رحمة الدول الكبرى ، وفي كانون الثاني عام ١٩٥٠ أعلن حزب أكرم الحوراني العربي الاشتراكي منهاجه داعيا لسياسة خارجية حرة من أي توجيه او تأثير اجنبي .

وبدا النزاع العربي الاسرائيلي مهددا بالانفجار ثانية على شكل اصطدام مسلح ، فقد استأنفت بريطانيا شحن السلاح لمصر والعراق والاردن بينما كانت اسرائيل تشتري المعدات الحربية من حيثما أرادت وكانت تزيد من انتاج الاسلحة الصغيرة ، وانتشرت شائعة بان بريطانيا والولايات المتحدة كانتا تضغطان على العرب للتوصل الى صلح مع اسرائيل للعمل على استتباب السلام واستقراره في الشرق الاوسط ، وسرت نغمة مريرة بان العرب يفضلون الف مرة ان يقعوا بين احضان روسيا على ان يقعوا فريسة لاسرائيل . وتنادت الجبهة الاشتراكية الاسلامية الى اجتماع في الثاني عشر من آذار وأعلن واحد من زعمائها وهو الشيخ مصطفى السباعي :

« نعتزم التوجه الى المعسكر الشرقي اذا لم ينصفنا الديمقراطيون... ونجيب اؤلئك الذين يقولون إن المعسكر الشرقي هو عدونا ، متى كان المعسكر الغربي صديقا لنا ، اننا سنربط أنفسنا بروسيا ولو كانت الشيطان نفسه » (٢)

كانت هذه واحدة من عدة انفجارات متشابهة ، وما يجدر ذكره هنا هو ان الجبهة الاسلامية الاشتراكية على نقيض الاخوان المسلمين في مصر ، بعيدة عن كونها تنظيما شبه عسكري او اداة سياسية ، كانت وبحق ناطقا اصيلا عن الجماهير السورية التي كانت وستبقى مسلمة غيورة .

وفي الخامس والعشرين من ايار عام ١٩٥٠ وقبل انفجار الحرب الكورية

---

(٢) ردده بيير روندو : الولايات المتحدة ازاء الشرق اليوم – لوريان رقم ٢ ، نيسان ، ١٩٥٧ ، صفحة ٤١ .

بشهر أصدرت بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة بيانها الثلاثي ملتزمة بحفظ السلام على الحدود الفلسطينية (٣) وأعلنت « معارضتها المطلقة لاستعمال القوة أو التهديد بالقوة بين أي من دول المنطقة ، وجعلت التزويد بالسلاح مشروطا بعدم الاعتداء» ، وقد قبلت كل من مصر وسورية والعراق والاردن ولبنان واسرائيل هذه الشروط وحددت تزويد الشرق الاوسط بالسلاح حتى عام ١٩٥٥ ، وهيمنت الحرب الكورية على بقية السنة ، ومن بين جميع دول الشرق الاوسط كانت تركيا هي الوحيدة التي اتخذت جهارا جانب الامم المتحدة وقررت ان ترسل فرقة مسلحة الى كوريا ، وكان الرأي العام العربي سريعا في عمل مقارنة بين الصهيونية « والاعتداء » على كوريا الشمالية ومقارنة تصرف الامم المتحدة في المناسبتين ، وقد كانت عدة صحف عربية مبتهجة علنا بفشل قوات الامم المتحدة لأنها وجدت في ذلك عقابا للمنظمة على دعمها لاسرائيل ، وكسبت مصر في العالم العربي وبامتناعها عن التصويت في مجلس الامن بعض السمعة التي كانت قد فقدتها في حرب فلسطين ، بينما أعلن سياسي من حزب الشعب السوري اصبح فيما بعد رئيسا للوزراء وهو الشيخ معروف الدواليبي ان الطريقة الوحيدة لمنع حرب عالمية ثالثة هي توقيع ميثاق عدم اعتداء مع الاتحاد السوفييتي (٤) وليس مما ينافي الواقع ان وجهة النظر الغربية حول الاحداث في الشرق الاقصى جعلت الحاجة لتنظيم الدفاع في الشرق الاوسط أمرا أكثر الحاحاً .

الجنرال روبرتسون والسيد ماك غي :

انعكس الاهتمام الغربي بدفاع الشرق الاوسط في التحشدات العسكرية واللوائح الديبلوماسية في الشهور الاولى من عام ١٩٥١ . فقد عقد الرؤساء

(٣) النص في هيوررويتز ، المجلد الثاني ٣٠٨ – ٣٠٩ لربما قصد بهذا الاعلان منع اي عمل عدواني ضد الاردن الذي ضم فلسطين العربية بالرغم من معارضة مصر والسعودية وقد صاغ المجلس النيابي الاردني قرار الضم في ٢٤ نيسان ١٩٥٠ .

(٤) والتر . لاكور . الشيوعية والقومية في الشرق الاوسط « لندن ١٩٥٦ ص ٢٥٦ .

العسكريون البريطانيون والاميركيون سلسلة من المؤتمرات في مالطا في كانون الثاني وآذار والتحق بهم في نيسان قواد البحرية الايطالية والفرنسية ، وجاب الجنرال سير بريان روبرتسون ، وهو قائد القوى البرية البريطانية في الشرق الاوسط ، العواصم العربية في كانون الثاني وشباط ، وزار مراقب الجيش الافرنسي الجنرال (فاليري) دمشق في كانون الثاني بينما عقد الديبلوماسيون الفرنسيون في الشرق الاوسط اجتماعاً في بيروت في نيسان برئاسة السيد كوف دو مورفيل السفير الفرنسي في القاهرة . وفي شباط ترأس السيد ج. ك. ماك غي وهو مساعد وزير الخارجية الاميركية لشؤون الشرق الاوسط وجنوب آسيا وافريقيه مؤتمراً في استانبول لسفراء الولايات المتحدة . واشار بيان اخير وبرضى الى « التقدم الكبير الذي احرزته كل من تركيا واليونان وايران في السنة التي انصرمت في بناء دفاعها (٥) . وامل أن تزداد دولا أخرى في المنطقة وعيها بالحاجة الى مساهمتها الخاصة في أمن المنطقة ولكن السيد ماك غي نفسه لم يؤكد هذا الامل المتفائل عندما جاب المنطقة في شهري شباط وآذار .

وفي الاسابيع التي سبقت زيارة الجنرال روبرتسون لدمشق في السابع من شباط دعا حزب البعث وحزب الحوراني العربي الاشتراكي والجبهة الاسلامية الاشتراكية الى سياسة حياد صارم تجاه المعسكرين العالميين ، وفي العشرين من كانون الثاني وضعت متفجرات في القنصلية البريطانية بحلب بينما أخرج البعث الطلاب في مظاهرات احتجاجية في دمشق وحمص وحماه ودرعا ودير الزور ، وفي الرابع والعشرين من كانون الثاني اعلن بيان بعثي :

« ان الامة العربية وهي تحارب لتحرير نفسها من الامبريالية الانجليزية — الافرنسية — الاميركية تحذر الجامعة العربية من القيام بأي خطوة للانحياز الى أي من المعسكرين ، والامة العربية تلتزم بحياد حقيقي سيمنع الامبريالية الغربية من جعل الوطن قاعدة استراتيجية ومن استغلال مصادرها النفطية لغايات عسكرية » ، وقدم طلاب جامعة دمشق التماساً الى رئيس الوزراء يطلبون منه

(٥) صحيفة نيويورك تايمز ، ٢٢ شباط ، من عام ١٩٥١ .

فيه أن يمنع الجنرال روبرتسون من دخول سوريا ، بينما سلم وفد عمالي مذكرة احتجاج الى المفوضية البريطانية ، وبعد زيارة الجنرال صدر بيان رسمي قال بأن احداً من الطرفين « لم يحاول ان يحصل او يعطي اي تعهد » ولكن مصادراً سورية نقلت للكاتب ان الجنرال قد طلب استعمال الطرق والسكك الحديدية والمرافىء في حالة حدوث عدوان، وقال ايضاً : إن بريطانيا في حاجة الى سورية كرباط ودي بين القوات البريطانية القوية المرابطة في قناة السويس والمراكز الامامية في العراق المحاذية للحدود السوفييتية ، ووجد بعض السوريين الذين قابلوا الجنرال تأكيداً لوجهة نظرهم في أن بريطانيا كانت تريد صداقة سورية ، ولكنها كانت تخشى ان ينتقل عدم الاستقرار السوري الى العراق ، لقد كانت تحب ان ترى سورية في منطقة نفوذها ولكنها توقفت عن دعم الوحدة السورية العراقية . واعترضت الحكومة السورية معتبرة أن سماحها بحرية مرور القوة البريطانية من القناة الى الفرات سيعني فتح الحدود الفلسطينية والتعاون مع اسرائيل ، وهذا أمر مستبعد لا يمكن التفكير فيه .

وقد جعلت زيارة ماك غي السوريين على معرفة سابقة بذلك الحماس التبشيري الذي رافقته حملة جماعية اقترنت باسم السيد دالاس ، لقد قال لهم ان الحياد يساعد العدو فقط ولكنه كان يشعر بسعادة اذ لاحظ ان الحياد كان في تقهقر ، اذ لا يمكن أن يكون هنالك حياد بين المعتدين والمدافعين عن الحرية ، واعتقد صلاح الدين البيطار وهو الامين العام لحزب البعث والذي اصبح فيما بعد وزيراً للخارجية بان ذلك « بيان كاذب لم يعكس المشاعر الحقيقية للشعوب الشرقية التي تعتقد ان مصالحها تكمن كلياً في الحياد ، تبع ذلك انفجار قنبلة في المفوضية الاميركية في دمشق الحقت بها اضراراً طفيفة .

ومما لا شك فيه بان بعضاً من ردود الفعل كان بوحي من الشيوعية ولكن المراقبين الغربيين يميلون الى الاعتقاد بانها كانت كلها بوحي من الشيوعية ولا علاقة لها بالحياد العربي . فاشخاص كالحوراني وعفلق والبيطار او زعماء الجبهة الاسلامية لم يكونوا رفاق طريق ولم يكونوا بمنفذين للتعليمات الشيوعية . فالغرب عدوهم طيلة حياتهم السياسية . وكانوا يبتعدون بغريزتهم عن الصراع بين الدول الكبرى ، وكتب صالح حرب رئيس جمعية الشباب المسلم في

مصر الى الامين العام لجامعة الدول العربية يقول :

ان الشعوب العربية وبعد كل ما قاساته لن تقبل ان تباع باسم الديمقراطية في السوق البريطانية الاستعمارية .. ان ما تبقى من الكرامة العربية التي ورثناها من اجدادنا العظام تدفعنا لان نسألك وباسم الشعوب العربية ان تعلن الحياد المطلق ، اننا لا نرغب ان نساند الشيوعية او أن ندافع عن الديمقراطية الامبريالية (٦) .

ان الميول القومية السورية القديمة في الحوراني جعلته عدواً لدوداً للشيوعية ، بينما زعماء البعث وبالرغم من كونهم قد تربوا على الماركسية قد استفاقوا من اوهامهم وراحوا يخوضون صراعاً عنيفاً مع الشيوعيين المحليين منذ السنوات الاخيرة للحرب . لقد تبارى حزب البعث والحزب الشيوعي على نفس الغاية ، وكان حسن الحكيم وهو صديق قديم للهاشميين (٧) واحداً من قلائل الرجال السوريين الذين تبنوا علناً سياسة موالية للغرب عام ١٩٥١ فكان يقول :

« دعونا نلتحق بالمعسكر الغربي عن طيب خاطر قبل ان نجد انفسنا مضطرين الى ذلك بفعل الحوادث ، اذ اننا وبتعاوننا بعد ذلك لن نجني أي شكر ، فالحياد أمر خيالي ، وسنجد أنفسنا مقحمين بالحوادث الدولية سواء للاحسن او للأسوء . ان ضعفنا لا يسمح لنا بأي مهرب (٨) .

ولكن وجهات النظر هذه لم تجد أي صدى عند الشباب : فقد وجه مئتا طالب جامعي مذكرة احتجاج الى رئيس الجمهورية يعلنون فيها ان « الشعب السوري لا يرغب في القتال إلى جانب سفاحيه » (٩).

---

(٦) المصري ، القاهرة ، ٢٢ كانون الثاني ١٩٥١ .

(٧) «لقد قدم لي الملك عبد الله لقب (باشا) في مناسبات عدة ولكني كنت أجيبه بأنني لا أستطيع ان أقبله » حسن الحكيم ، للمؤلف ، دمشق ، ١٠ تشرين الثاني ١٩٦٠ .

(٨) صحيفة الانشاء ، دمشق ، ١٨ شباط ١٩٥١

(٩) صحيفة الشعب ، دمشق ، ١٣ آذار ١٩٥١ .

سقوط ناظم القدسي :

أشارت هذه المناقشات العامة التي اجتاحت البلد في أوائل ربيع ١٩٥١ إلى نزاعات سياسية محلية معينة ، فناظم القدسي الامين العام لحزب الشعب كان رئيساً للوزراء منذ حزيران الماضي ومازال سلطته وسلطة حزبه قوضتا تماماً فقد فشل في الوقوف أمام الجيش وما زال البعث والحزب الوطني المنتعش يمعنان في مضايقته ، وكان وزير الداخلية رشاد برمدا في صراع مع الزعيم فوزي سلو وزير الدفاع بشأن الاشراف على الدرك ، ولقد شعر كل من الطرفين بأنه لن يستطيع التسليم : فلو جردت الحكومة من الدرك فانها ستفقد كل الوسائل المادية بفرض ارادتها في ارجاء البـــلاد . ولم يكن الجيش واثقـــاً مـــن انـــه يستطيع بدونه ان يسيطر على أي نتائج انتخابية في المستقبل ، لقد أربك الشيشكلي الرئيس القدسي ولكن الاخير استمر في الضغط من أجل اقامة اتحاد فيدرالي عربي او بالاحرى اتحاد فيدرالي مع العراق ، وفي كانون الثاني عام ١٩٥١ دعا الجامعة العربية لترى ما يمكن اتخاذه من خطوات ضرورية لاقامة مثل هذا الاتحاد ، ولم تأت هذه المناورات بشيء وأدت فقط الى تأكيد شكوك الجيش بان حزب الشعب كان يتآمر مع الهاشميين .

وتأزم الموقف بقيام مناقشة للسياسة الخارجية في جلسة البرلمان في الخامس من آذار . وكان القدسي متردداً غير حازم ، واعلن : « ان سياستنا الخارجية سيسيرها التطور المستمر للوضع الدولي ... » وفي جريه العقيم وراء صيغـــة للاتفاق مع العراق لم يستطع ان ينادي بالحياد ، ولم يسمح له حزبه أيضاً باتخاذ موقف واضح الى جانب الغرب كموقف حسن الحكيم ومنير العجلاني ، فقد دفع الى تسوية تافهة لم ترض أحداً .

ولم « يقصّر » اكرم الحوراني في حق الحكومة ، فقد قال ساخراً بحزب الشعب :

« انني انا ايضاً انادي بالوحدة العربية ولكنني لا أريد عروبة انكليزيـــة او اميركية ، انني اؤمن بالاشتراكية العربية ، ولكنني ارفض الاشتراكيـــة

الشيوعية ، وأحب هنا ان اتبنى قولا من الثورة الفرنسية يصف موقفنا : ايتها الوحدة العربية كم من الخيانات والجرائم ترتكب باسمك (١٠) .

وبعد أربعة أيام أي في التاسع من آذار ، استقال ناظم القدسي وقال احد المتكلمين باسم الحزب ، ليست هذه ازمة وزارية بل ازمة دستورية ولكنها لم تكن في الحقيقة سوى دليل على فشل سياسة الحزب في الداخل وفي الخارج ، ولقد حمّل القدسي الافرنسيين جزءا من مسؤولية سقوطه ، وأوضح فيما بعد :

« لقد وجدوا انهم لا يمكن ان يحتملوا كوننا نعمل من اجل الوحدة العربية ، وكانوا يخشون ايضاً من ان نعمل على انتزاع بنك سورية ولبنان من سيطرة فرنسا ، إن حكومتي هي اول من أمم المشروعات الأجنبية في الشرق الاوسط ، لقد استولينا على شركات المياه والكهرباء الافرنسية في حلب ، وشركة الكهرباء الافرنسية في حمص ، وشركات الكهرباء والنقل الانكليزية في دمشق ، وادارة حصر التبغ الافرنسية ، فاعتقد الافرنسيون من ثم أن لدينا بالنسبة للبنك خططا مماثلة » (١١)

مشاكل حول بحيرة الحولة :

وبقيت سورية بدون حكومة ثمانية عشر يوما بعد سقوط القدسي ، نشب القتال خلالها مع اسرائيل من اجل ضفاف الاردن الموبوءة بالملاريا جنوبي بحيرة الحولة ، والتي جعلتها اتفاقية الهدنة السورية — الاسرائيلية منطقة منزوعة السلاح ، بدأ الاسرائيليون أعمال التجفيف في حوض الحولة مدعين بأن كل المنطقة قد عادت لهم بموجب قرار الجمعية العامة الصادر في تشرين الثاني عام ١٩٤٧ ، وكانوا يخططون لتوطين آلاف من المهاجرين في هذه المنطقة الستراتيجية ، واحتجت سورية على هذا . « الخرق الفاضح لاتفاقية الهدنة

(١٠) صحيفة الانشاء ، ٦ آذار ١٩٥١

(١١) ناظم القدسي للمؤلف ، حلب ، ٣ تشرين الثاني ١٩٦٠

المعقودة في تموز ١٩٤٩ » وعلى الصعيد الداخلي كان وقع الحادث اقناع الجيش بعدم اخلاص حزب الشعب لاثارته الازمات في هذه اللحظة الخطيرة وبذلك تم الانقسام النهائي ، وازدادت العلاقات توتراً عندما رفض حزب الشعب الانضواء تحت لواء خالد العظم في وزارة تمثل الوحدة الوطنية ، وعلى هذا فعندما قام القدسي بتشكيل حكومته في الثالث والعشرين من آذار وضع الجيش (الفيتو) عليها ، وأرغمه على الانسحاب واستقال رشدي الكيخيا زعيم الحزب من رئاسة المجلس احتجاجا على ذلك ، وأنهى خالد العظم هذه الازمة الطويلة في السابع والعشرين من آذار بتأليفه وزارة غالبيتها من المستقلين باركها كل من الحوراني والجيش واضطلع فيها الزعيم فوزي سلو من جديد بأعباء وزارة الدفاع (١٢) ، ولكن سرعان ما وجد العظم نفسه وجها لوجه مع عداء حزب الشعب العلني الذي استعمل كل وسيلة توفرت له من جراء سيطرته على البرلمان لعرقلة أعمال حكومته ، ولم تسنح له الفرصة في احلال المصالحة كما فعل في عام ١٩٥٠ بين المطالب المتنافسة للجمعية التأسيسية والاركان العامة ، واضطر الى الاعتماد كليا على الجيش وبالتالي الاذعان له .

واستحوذت أعمال العنف المستمرة على الحدود الاسرائيلية حول بحيرة الحولة على انتباه الرأي العام وسمحت لحزب الشعب وللاطراف التي كانت تهتف للهاشميين بتجديد حملتها من اجل « وحدة عربية ان لم تكن شاملة فجزئية » كوسيلة دفاع وحيده ضد التهديد الاسرائيلي . وكان السفير العراقي في دمشق سريعا في تلقف الموضوع فصرح للصحف : « ان الخطوة الاولى هي جمع تلك البلاد التي ترتبط تاريخيا وجغرافيا ولها مصالح مشتركة ... » واتهم الذين يعارضون قيام وحدة عربية محدودة بأنهم يضعون العثرات امام مسيرة عجلة القضية العربية ، ورد خالد العظم على ذلك بأن مبعوثي الدول الأجنبية

---

(١٢) رئاسة الوزارة والشؤون الخارجية : خالد العظم (مستقل) الداخلية : سامي كبارة مستقل — الزراعة والعدل عبد الباقي نظام الدين (الجبهة الجمهورية) — المالية عبد الرحمن العظم (مستقل) التربية والاقتصاد الوطني : رئيف الملقي (مستقل) الصحة والأشغال العامة : سامي طيارة (الجبهة الجمهورية) الدفاع : الزعيم فوزي سلو .

ان وزارة الخارجية ستكون سعيدة دوما ان تسمع وجهات نظرهم مباشـــرة واضاف : « اما بشأن وضع العثرات امام عجلة اتحاد بلدين فان العربة كلها ، برأيي ، قد تحطمت وأطاحت بها العاصفة التي هبت في العام قبل السابق » وهذه اشارة الى انقلاب الشيشكلي في كانون الاول من عام ١٩٤٩ » .

وأدى تجدد الاشتباكات على الحدود السورية الى ان تقوم سورية بدعوة مجلس الجامعة الى اجتماع مستعجل في دمشق في الرابع عشر من أيار وان تتوجه الى كل من مصر والعراق بطلب المساعدة ، واعتبر العراق ذلك هبة من السماء تمكنه من تقديم مظاهرة عملية عن اهتماماته الاخوية وحرصه على سورية .

وأخبر نوري السعيد مجلس النواب العراقي في السادس عشر من ايار : « في هذه اللحظة التي اتحدث فيها اليكم تكون مدفعيتنا المضادة للطائرات في طريقها الى سورية لتساعدها ضد اعتداء الطيران الصهيوني ، ان وحـــداتنا ومدفعيتنا ومحاربينا سيبقون على الأرض السوريّة وتحت تصرف قيادة سوريّة ما دعت الحاجة الى ذلك .

وكان تجاوب العراق السريع على نقيض مع الصمت المطبق الذي ردت به مصر (١٣) ، ومر الجنود العراقيون في عرض في شوارع دمشق يوم السابع عشر من أيار ليشيع رضى كبير في نفوس الذين يتشوقون الى ارتبطات أوثق مع بغداد) وفي المجلس النيابي كال حسن الحكيم ومنير العجلاني (وهما داعيان لا يكلان للقضية الهاشمية)، المديح للعراق على انها الدولة العربية الوحيدة التي أتت لنجدة سورية ، وخشيت الصحف المصرية ان يكون في مساعدة العراق ايعازا (١٤) لفرض وحدة الهلال الخصيب بالقوة ، بينما نقل المفوض الفرنسي

---

(١٣) أوردت صحيفة لوريان البيروتية في السادس عشر من شهر أيار عام ١٩٥١ أن وزير الداخلية المصري محمد صلاح الدين قد قال كجواب على سؤال في مجلس الشيوخ بان مصر لن تتدخل في النزاع السوري – الاسرائيلي ولن تتخذ أي قرار يمكن ان يوقعها في مجازفات غير لازمة » ولكن الوزير أنكر في اجتماع الجامعة العربية في دمشق بين الرابع عشر والتاسع عشر من أيار أن يكون قد ادلى بهذه التصريحات .

(١٤) انظر الصحف القاهرية (الاهرام) ١٨ أيار ٩٥١ و (النداء) ، ٢٢ أيار ٩٥١ و – (المقطم) ، ٢٤ أيار ٩٥١ .

في بيروت م . كلاراك الى العراق اهتمام الحكومة الفرنسية بنزول القــوات العراقية في سورية (١٥) لقد كان الجميع يتصرفون كما يتوقع كل انسان .

لقد جعلت الجيوش العراقية حزب الشعب أكثر جرأة ، فقاد طيلة ذلك الصيف حملة على رئيس الوزراء متهما اياه « بالرضى عن النشاط الاستعماري الذي يقوم به بنك سورية ، وبتشجيع الرأسماليين السوريين والاجانب عــلى استغلال الشعب . » وكان لهذه الاتهامات بعض الوقع بسبب ارتباطات العظم الكبيرة الناجمة عن أعماله الواسعة وروابطه الوثيقة بفرنسا (فقد كان سفيرا في باريس في اوائل عام ١٩٤١ ورئيسا للوزراء في عهد الانتداب) ، وقد قام حزب الشعب بتجميد اعمال المجلس النيابي مهاجماً الحكومة في جلسة اثر أخرى رافضاً ان يصوت الى جانب اعتمادات اضافية للدفاع او يسمح بزيادة رواتب الموظفين . وقد عارض الرئيس الاتاسي محاولة العظم لحل البرلمان ، وفي الثلاثين من تموز توقف كل العمل الرسمي اذ اضرب ١٧٥٠٠٠ موظف في سورية مطالبين برفع أجورهم وبتحسين احوال العمل ، وفي ذلك اليوم لم يجمع أي بريد او يوزع ، ولم تجر أية اتصالات هاتفية وانقطع البلد تماما عن العالم الخارجي ، واستقالت حكومة العظم في تلك الليلة ، ولكن حزب الشعب الذي عمل على اسقاطها لم يكن هو نفسه يأمل في أن يخلفها بسبب معارضتــه للجيش ، لذا جاء اختيار حسن الحكيم لرئاسة الوزارة وهو معروف بتأييده للهاشميين وللغرب مفاجأة كبرى ، وفي نفس اليوم الذي كاد أن يفرغ فيه من تشكيل حكومته طار الشيشكلي الى الرياض ليحصل على دفعة من اقساط القرض السعودي لسورية وليتباحث مع ابن سعود حول الوضع في الاردن عقب مقتل الملك عبد الله في العشرين من تموز ، وكان لا بد من التريث بتشكيل الوزارة حتى عودته في التاسع من آب وهذا يشير ثانية الى المصدر الحقيقي للقــرار النهائي (١٦) .

---

(١٥) صحيفة (لوموند) ، ٢٤ أيار عام ١٩٥١ .

(١٦) رئاسة الوزارة والمالية : حسن الحكيم (مستقل) الشؤون الخارجية : فيضي الاتاسي (حزب الشعب) الداخلية : رشاد برمدا (حزب الشعب) الصحة : فتح‌الله أسيون (حزب =

وزارة حسن الحكيم :

شرح حسن الحكيم فيما بعد كيف وصل الى السلطة فقال :

« وصلت العلاقات بين الجيش وحزب الشعب الحاكم الى نقطة الانفجار ، وكان لا بد من ايجاد حل ، فطلب حزب الشعب من الرئيس الاتاسي ان يستدعيني لحلّ هذه الازمة ، ولقد قمت بتذكير الرئيس بان سمعتي التي اتمتع بها من حيث الاستقلال وحتى بين النواب المستقلين وكوني معروفا تماما بولائي للهاشميين والغرب فان ذلك كله يمكن ان يستخدم ضدي لمنع قيام حكومة مستقرة ، ولكنه راح يؤكد لي بأن اكثرية المجلس النيابي التي يقودها حزب الشعب تزكيّ تعييني ، وعلى ذلك فقد قبلت المهمة ورحت أعمل في أكثر المشاكل الحاجا ، وكان عددها ثلاثا : نقص في القمح — فقد قيل لي بأن احتياطينا لن يكفي أكثر من نصف شهر ، واضراب الموظفين والعجز في الميزانية ، فحول المشكلة الأولى اتصلنا بعدد من البلدان وحصلنا على عرض بمقدار — ٥٠,٠٠٠ — طن من القمح من السفير التركي . وبالنسبة للموظفين فقد حاولت أولاً ان اقنع زعماءهم بان زيادة الرواتب ليست موضوع بحث في هذه اللحظة ، فأنا لا أستطيع ان اقدم لهم شيئاً لم اكن أملكه ، فقد كان علي واجب نحو دافعي الضرائب كما أن عليّ واجباً نحوهم ، ولكن هذه النقاشات لم تكن ذات جدوى ، وبعد ذلك اعددت مشروع قانون بطرد الموظفين المضربين ومنع توظيفهم في أي عمل حتى لو كان عملا خاصا ، وقد وجدت في هذه الاجراءات الحازمة ملاذا حين فشل الحلم .

« انني لم اخضع لاغراء الشعبية الرخيصة ، فعندما كنت في منصبي اعيدت المبالغ السرية التي ترصد لرئيس الوزراء من اجل الدعاية ، الى خزينة الدولة دون ان تمس وكان ذلك مثار سخط عدد من الصحفيين كانوا قد اعتادوا ان

الشعب) الاقتصاد الوطني : شاكر العاص (حزب الشعب) الدفاع : الزعيم فوزي سلو . الأشغال العامة والمواصلات : حامد الخوجا (الجبهة الجمهورية) التربية : عبد الوهاب حومد (حزب الشعب) العدل : عبد العزيز حسن (الجبهة الجمهورية) الزراعة : محمد المبارك (الجبهة الاسلامية الاشتراكية) .

يحصلوا على دخلهم من هذا المصدر ، وكانت مشكلة العجز في الميزانية أشد المشاكل صعوبة اذ أن الجيش كان يرفض أي تخفيض في ميزانيته ، وبعد ذلك تبنيت التحايل على تأخير اصدار الميزانية الكاملة شهرا بعد شهر جاعلا المجلس النيابي يوافق على ميزانية اثني عشرية احكمت كلها بحيث تسمح بتوازن الميزانية الكاملة ، وبهذا تجنبت أي صدام مباشر مع اي مصلحة حكومية (١٧) ».

ومما لا يغرب عن الملاحظة أن حسن الحكيم عندما قدم بيانه الوزاري في المجنس النيابي في الثالث من شهر آب وجد أن من الاوفق عدم التعرض لحاجة سورية للاتحاد مع جاراتها وللتعاون مع الغرب ، وأعلن بدلا من ذلك ان النظام الجمهوري هو « أساس وجود سورية وسر انبعاثها » ، أما في الخارج « فستكون سياسة الحكومة صداقة نحو الجميع بما يتلاءم ومصالحنا الوطنية وبما يتفق مع ميثاق الامم المتحدة والقانون الدولي فكان ان هدأ الجيش بذلك وكسب الثقة.

وقد قال حسن الحكيم فيما بعد :

« لقد كانت ... الشيشكلي طيبة ولم يحدث أن أستأت من تدخله بالحكومة ، انني لم اجعل تعاطفي مع الغرب والهاشميين سراً ، ولكنه اقتنع لا ريب بأنني لم اكن أبيت شيئاً مخفيا ، وبعد ذلك كله فأنا شخص يتعاطف مع الهاشميين بمعنى ان ارتباطاتي كانت مع فيصل الاول وعبد الله ، ولم يكن لي أي احتكاك بالجيل الجديد امثال : عبد الاله أو حسن أو فيصل الثاني ، ولم أقم بأي دور في المؤامرات العديدة التي حاكوها ، واعتقد بأن الشيشكلي كان قد بدأ يثق بي حتى انه استدعاني في مناسبات عدة ليسألني فيما اذا كانت لدي انتقادات على الجيش) (١٨) .

وكان نائب البعث جلال السيد — من دير الزور — هو الذي أثار في المجلس النيابي بتاريخ ٢٤ ايلول قضية التدخل العسكري في القضايا العامة وقال : « ان الحكومة تتسلم السلطة وتسقط ثانية على الرغم من ارادة المجلس وحتى بدون علمه » . وشن زعيم حزب الشعب رشدي الكيخيا الهجوم الرئيسي

(١٧) حسن الحكيم للمؤلف، ١٠ تشرين الثاني عام ١٩٦٠

(١٨) حسن الحكيم للمؤلف، ١٠ تشرين الثاني عام ١٩٦٠ .

وقال بأن حزبه قد قدم تأييده لحسن الحكيم بعد ان تلقى تعهدا بان الحكومة لن تغفر أي تدخل في شؤونها وأنها ستمارس سيادتها الكاملة ، ووعدت الحكومة بأن تتجنب سيطرة الجيش على قوى الامن الداخلي ، وأصبحت السياسة الخارجية تملى حالياً دونما اي اعتبار للاهداف العربية او الوطنية التي أتى على ذكرها الدستور . « اني احب ان أقول بصراحة بأن صبرنا كاد ينفد ، فاذا ما وجدنا أنفسنا عاجزين عن أن نعطي الامة ما تتطلع اليه وترغب فيه فاننا جميعا سنترك هذا المجلس» ، لقد كان هذا الانذار الاجوف هو وسيلة حزب الشعب الوحيدة للرد على تجريد الحكومة من سلطاتها السياسية .

مقترحات الدفاع لعام ١٩٥١ :

لم تثن القنابل والمظاهرات وبيانات الحياد التي قابلت الجنرالات والساسه الغربيين في زياراتهم الاستطلاعية للشرق الاوسط عام ١٩٥١ عن التأكيد على خطط الدفاع التي وضعوها ، ولا بد هنا من ذكر التواريخ الرئيسية في هذا البرنامج (١٩) قبل ان نتحول الى التحدث عن تأثير هذه الخطط على سورية .

ففي الثامن عشر من حزيران عام ١٩٥١ وافقت السعودية على تجديد ايجار قاعدة الظهران للولايات المتحدة ولفترة خمس سنوات أخرى . وفي العشرين من ايلول اوصى مجلس منظمة حلف شمال الاطلسي بادخال كل من اليونان وتركيا في الحلف ، بينما راحت الحكومات الانكليزية والافرنسية والتركية تعمل مخططة لمشروع منظمة دفاع عن الشرق الاوسط اعدتها لعرضها على مصر في محاولة لتدويل قاعدة السويس ، وفي الثالث عشر من تشرين الاول دعت

---

(١٩) انظر المباحثات المصرية ـ البريطانية حول الدفاع عن قناة السويس والسودان رقم ٢ (١٩٥١) سجلات وزارة الشؤون الخارجية المصرية ، المذكرات والأوراق المتبادلة بين الحكومة الملكية المصرية وحكومة المملكة المتحدة في آذار عام ١٩٥٠ وتشرين الثاني عام ٩٥١ ، وكتاب جون . ك كامبل : دفاع الشرق الاوسط عام (١٩٦٠) الصفحات ٣٩ — ٤٨ ، وكتاب توم ليتل : مصر (١٩٥٨) ص ١٨٢ .

الدول الكبرى الاربع مصر للانضمام الى تحالف لقيادة الشرق الاوسط كعضو مؤسس « على اساس التساوي والمشاركة » واشترطت مذكرة بريطانية مرفقة ان الجلاء عن منطقة السويس رهين بقبول مصر للخطة ، وقد رفضتها مصر في الحال .

لقد تجاهل واضعوها رأي مصر والعرب ، وكانت مطالب مصر بسيطة : جلاء القوات البريطانية عن مصر جلاء تاما ووحدة مصر والسودان في ظل التاج المصري ، وقد قدمها رئيس الوزراء النحاس باشا في خطاب العرش في تشرين الثاني عام ١٩٥٠ ، وكانت مصر برفضها الموافقة على الخطة مدفوعة بالالآم التي عانتها من بريطانيا في فلسطين والتي كان لها رد فعل في نفوس المسلمين والعرب ، وقد رفضت مصر ان تساند عمليات الامم المتحدة في كوريا ما لم تلبي مطالبها ، وهاجمت الجماهير سفارتي انكلترا واميركيا في شهر آب عام ١٩٥١ في ذكرى توقيع المعاهدة المصرية – الانكليزية عام ١٩٣٦ ، والتي نقضها الانذار الذي وجهه البريطانيون الى فاروق في شباط عام ١٩٤٢ ، وفي الثامن من تشرين الاول قدم النحاس باشا للمجلس النيابي مشاريع قوانين تطالب بالغاء معاهدة ١٩٣٦ من جانب واحد ، والغاء اتفاقية الاحتلال واعلان فاروق ملكا لمصر والسودان ، وتبنت مصر والوفد سياسة الحياد ، ولكن بعد واقل من اسبوع « في الثالث عشر من تشرين الاول» قدم سفراء انكلترا وفرنسا وتوركيا واميركا مقترحاتهم لوزير الخارجية المصري وكأنهم قد تناسوا هذه التطورات التي طرأت .

الوقع في سورية :

وفي نفس اليوم ابلغ قناصل الدول الاربع وزير الخارجية السورية فيضي الاتاسي في دمشق بأمر تسليم المذكرة المشتركة الى مصر ، ولم يقدم اي طلب لسورية للدخول في التحالف ، فالاتصال من اجل اعلام سورية فقط ، ولكن ذلك كان مواربة لم يقدرها الرأي العام السوري ، وخرج الالآف في مظاهرات

احتجاج بعد صلاة الجمعة ، قادها زعيم الجبهة الاسلامية الاشتراكية محمد المبارك وزير الزراعة في حكومة حسن الحكيم ، وأرسلت المنظمات الشعبية والاسلامية المجتمعة في جامع أمية برقيات لرئيس الوزراء ومجلس الامن وإلى الدول الاسلامية والعربية وإلى عدد من الدول الاجنبية تطالب بتأييد القضية المصرية و « التي هي قضية العرب والمسلمين جميعاً » ، وتستنكر المؤامرة الامبريالية لاقامة دفاع مشترك ، وقد تحدث رئيس الوزراء حسن الحكيم عن نتائج الاحداث التي تلت ذلك فقال (٢٠) :

عندما انعقد المجلس النيابي في الثاني والعشرين من تشرين الاول طلب عدد من النواب من وزير الخارجية أن يدلي ببيان عن خطط الدفاع الغربية فوعد بتقديمه في الجلسة القادمة ، واجتمعت الوزارة في اليوم التالي ولكن فيضي الاتاسي كان غائبا ، وظهر فقط ولفترة وجيزة عند انفضاض الاجتماع في الثالثة بعد الظهر ، وقد لحظت انه كان يحمل رزمة أوراق وسئل عن التقرير الذي يزمع تقديمه الى المجلس النيابي ، فأجاب انه سيقدم النقاط الرئيسية فقط للمقترحات الغربية ، وقلت بصراحة بأنني لاأجد مبررا لمناقشة الخطة ، وأوصيته أن يخبر المجلس النيابي بأنه لم يطلب منا ان نعطي وجهة نظرنا وان الاتصال بنا كان على سبيل الاعلام فقط .

وفي الساعة الخامسة من بعد ظهر ذلك اليوم وقف فيضي الاتاسي ــ ويا لدهشتي ــ فشن هجوما طويلاً على خطط الدفاع الغربية وقال : ان اشتراكنا في نظام دفاع مشترك لن يكون إلا بوجود مصلحة وطنية حقيقية واضحة ، ولقد بحثت عبثا عن هذه المصلحة ، فالدفاع المشترك يفترض وجود عدو يقف في وجهه ... ولكن بأي طريقة نحن مهددون من هذا العدو الذي يهدف اليه هذا المشروع ؟ أي سوء اقترفه هذا العدو في حقنا ؟ ، لقد كان الغرب هو الذي خلق اسرائيل وهكذا ... (وخلال استراحة قصيرة أمسكت برئيس المجلس ناظم القدسي وأخبرته بعزمي على الكلام ، ولكنه نصحني بأن اؤجل الرد على

---

(٢٠) حسن الحكيم للمؤلف ، ١٠ تشرين الثاني ١٩٦٠ .

الاتاسي ليوم أو يومين لكي لا أزيد من تأزم الأمور ، فوافقت بتردد ، ولكنني منعت اذاعة خطاب الاتاسي الذي كان يحاول صياغته . »

سقوط حسن الحكيم :

« وفي اليوم التالي أي في الرابع والعشرين من تشرين الاول قدمت استقالتي الى الرئيس على أساس أنني لا أستطيع البقاء بعد الان في منصبي ازاء شقاق علني بين اعضاء وزارتي ، وعلى أي حال فقد وافقت على البقاء لفترة انتقالية قصيرة ولأتيح بهدوء انتقال السلطة الى الحكومة التي تخلف حكومتي ، وبدأت بعد ذلك أشك في أن خطاب فيضي الاتاسي كان مناورة قام بها حزب الشعب للاطاحة بي ، كنت قد سويت مشاكل تموين الحبوب واضراب الموظفين وعجز الميزانية وكانوا متشوقين للوصول الى السلطة ثانية ، وانتظرت من ٢٤ تشرين الاول لغاية ١٠ تشرين الثاني كان القدسي خلال هذه الفترة يؤجل اجتماعات المجلس النيابي ، وبعد ذلك قدمت للرئيس استقالتي الخطية وأخبرته بأنني لن أستطيع الانتظار أكثر من ذلك في هذا الظرف المعقد ، وأرسلت نسخة من رسالتي الى القدسي متضمنة دحضا لوجهة نظر الاتاسي ، وقلت ان خطة دفاع مشتركة ستمكننا من أن نقوي أنفسنا عسكريا واقتصاديا وستكون بديلا للمعاهدات المختلفة التي ترتبط بها الدول العربية كل على حدة وسببت إستقالتي ازمة طويلة حلها الشيشكلي أخيرا .. وبعد ست سنوات فقط تحققت شكوكي في دسائس حزب الشعب بما فيهم رئيس المجلس النيابي ، اذ كتب معروف الدواليبي الامين العام للحزب مقالة في صحيفة الايام في ايلول عام ١٩٥٧ (٢١) شن فيها هجوما عنيفا على مقترحات الدفاع المشترك وكشف عن أن الحزب ككل قد عارض المشروع ، ودفع وزير الخارجية الى مهاجمة المشروع في المجلس النيابي ، وهكذا فان الحزب الذي أتى بي الى السلطة هو الذي طعنني فيما بعد في ظهري لانني رفضت أن أكون دمية بين يديه وأعمل

---

(٢١) الايام ، دمشق . ٢٤ أيلول ، ١٩٥٧ العدد ١٢٢٥ .

كدرع واق بينه وبين السلطات العسكرية .

ان سقوط وزارة الحكيم يوضح تشابك المواضيع الخارجية بالمواضيع الداخلية للبلد وهذا ما نراه واضحا في حالة البلدان الضعيفة ، فقد راح موضوع مقترحات الدفاع الغربية يعمل مؤثرا على السياسة الداخلية ، لقد انتهز حزب الشعب الفرصة لاسقاط الحكيم الذي تجاوز كونه مفيدا له ، واستطاع بهجومه على الخطط الغربية ان يسكت اؤلئك النقاد الذين اتهموه بأنه على ارتباطات سرية مع بريطانيا ، وكما أشار الحكيم من قبل ، وكما ساور القلق الاطراف المعنية فان قضية مشاركة سورية في مشروع الدفاع الغربي قد أدت الى مشاكل محلية أكثر الحاحا — الصراع بين حزب الشعب والحزب الوطني ، وبين هذين الحزبين التقليديين وبين القوة الناشئة للحوراني وحزب البعث ، بين الملتزمين بالدستور وبين هؤلاء الذين يعتقدون بأن للجيش دوراً في السياسة عليه ان يلعبه بين المدافعين عن الوحدة مع الهاشميين وبين معارضيها ولربما ومن أكثرها أهمية الصراع بين حزب الشعب والاركان العامة ، وقبل يومين من سقوط الحكيم استقال وزير الداخلية رشاد برمدا احتجاجا على رفض وزير الدفاع نقل الدرك الى وزارته . « ان مصير خطط الدفاع الغربية لا يمكن ان يفصل عن نتيجة هذه المعارك العارمة المحدودة» .

وبقيت سورية دون حكومة تسعة عشر يوما ، فقد تشبث حزب الشعب (غير مقدر قوته تقديرا صحيحاً) بمبدأ عدم اشتراكه في الحكومة ما لم ينقل الدرك الى وزارة الداخلية، وما لم تعط وزارة الدفاع الى شخص مدني ،ويطبق فيها الدستورنصا وروحا ،ولكن هذه الموضوعات هي ذاتها التي لم يكن الشيشكلي ليفرط بها من غير أن يفقد اشرافه على النهج السياسي ، لقد بدأ صبره ينفذ مع حزب الشعب خلال السنتين الماضيتين بعد ان أتعبه عدم الاستقرار الوزاري عبث حزب الشعب المثير مع بغداد في وقت من الصراع والهدنة المشحونة على الحدود الفلسطينية ، وبات على قناعة بأن الحزب في طريقه الى تحطيم استقلال سورية ببيعها للعراق وسلب الجيش دوره القيادي في شؤون الوطن .

ونتيجة لذلك فقد فشل مرشح آخر في تشكيل الوزارة ، وأخيرا قام بذلك

معروف الدواليبي في الثامن والعشرين من تشرين الثاني (٢٢) ، والدواليبي مرشح جيد لأسباب عدة ، فهو أحد أعضاء حزب الشعب ولكنه لم يكن يميل الى الهاشميين ، وهذا ما ضمن رأي المسلمين المحافظين ، وقد نادى بالاصلاح الزراعي وتوسيع التسهيلات التربوية واعادة توزيع الثروة وهذا ما جعله في طليعة التقدميين ، وقد تبنى الحياد وهو من اوائل الذين طالبوا باقامة معاهدة عدم اعتداء مع روسيا وشراء السلاح من الشرق لكسر احتكار السلاح الغربي ، لقد كان شعاره «مزيداً من الأصدقاء لا الاعداء لسورية» وقد وصفته الصحافة الاميركية على أنه أكبر زعيم عربي معاد للاميركان ، وفي داخل البلد عارض تدخل الجيش في السياسة وعلى هذا فقد أمسك زمام وزارة الدفاع بنفسه وأعطى حزب الشعب حصة الاسد في المراكز الوزارية الاخرى .

انقلاب الشيشكلي الثاني :

حذر الشيشكلي الدواليبي بان القائمة الوزارية التي قدمها لم تكن مقبولة وستضطره الى ان يحل المجلس النيابي وهذا على ما يبدو ما كان يود أن يتجنبه كليا ، ولكن الدواليبي لم يرض بأية تسوية ، وهكذا فقد ضربه الشيشكلي ففي ليلة ٢٨ - ٢٩ تشرين الثاني أمر بالقبض على رئيس الوزراء ، وأعضاء الحكومة والامين العام لحزب الشعب ناظم القدسي وعدد من ذوي الميول الهاشمية امثال حسني البرازي ، وأبلغ بيان مؤرخ بتاريخ ٢٩ تشرين الثاني الامة

(٢٢) رئاسة الوزارة والدفاع : معروف الدواليبي (حزب الشعب) العدل : منير العجلاني (مستقل) التربية : هاني السباعي (حزب الشعب) الداخلية : احمد قنبر (حزب الشعب) الزراعة : محمد المبارك (الجبهة الاسلامية المشتركة) الشؤون الخارجية : شاكر العاص (حزب الشعب) المالية : عبد الرحمن العظم (مستقل) الاقتصاد الوطني . علي بوظو (حزب الشعب) الصحة : محمد شواف (حزب الشعب) . الأشغال العامة والمواصلات : جورج شاهين (حزب الشعب من خارج البرلمان) .

بأن الجيش قد تولى المسؤولية من اجل السلامة والامن العامين ، وفي اذاعة اعلانية في ذلك الصباح اتهم الشيشكلي حزب الشعب بكونه مسؤولا عن الانقلابات الثلاث التي حدثت من قبل ، وقال ان الجيش السوري يعتقد بأن حزب الشعب لم يكن يمثل الشعب وبأن الهدف الرئيسي للحزب كان التآمر على البلد وتخريب جيشه واعادة الملكية .

ثم دعا الشيشكلي خمسة نواب يمثلون حزب البعث والحزب العربي الاشتراكي والجبهة الاسلامية الاشتراكية وجبهة الجمهوريين والقوميين السوريين وأبلغهم بالاجراءات التي اتخذت في تلك الليلة ، واقترح على رئيس الدولة بعد ذلك أن يطلق سراح السياسيين المعتقلين اذا وافق الدواليبي على الاستقالة وحل المجلس النيابي وان هذه هي الطريقة الوحيدة لتحطيم القوة المنيعة لحزب الشعب . واتصل نائبا رئيس المجلس النيابي بالدواليبي في السجن ومعهما هذه الشروط . ولكنه رفضها في الثلاثين من تشرين الثاني ثم عاد فوافق على الاستقالة وهو لا يزال رهن الاعتقال في الاول من كانون الاول ، وفي اليوم التالي استدعى هاشم الاتاسي حامد الخوجا وكلفه بتشكيل وزارة وحل المجلس النيابي والقيام باجراء انتخابات جديدة ، ولكن حزب الشعب عارض هذا البرنامج بشدة ، فاستقال رئيس الجمهورية عندما رأى هذا الجمود واستلم الشيشكلي بعد ذلك بمرسوم عسكري مهام رئيس الدولة وحل المجلس النيابي في نفس اليوم ، وفي الثالث من كانون الاول سلم الزعيم فوزي سلو سلطات تشريعية وتنفيذية كاملة الى جانب مهمات رئيس الدولة ورئيس الوزراء ووزير الدفاع ، على ان يساعده في ذلك امناء عامون من مختلف الوزارات ، ويبقي الشيشكلي نفسه بعيدا عن ضوء المسرح ، وكان رأي حسن الحكيم انه :

« وحتى في هذه المرحلة لم يكن الشيشكلي مقتنعا بقدرة الجيش على ادارة البلاد ، وبدا بأنه يتردد في ان يصبح رئيسا للجمهورية مؤثرا البقاء وراء الستار وقد عين سلو كخطوة اولى عندما بدا بأن ذلك قد يفيد ، ثم عاد الشيشكلي فتسلم مكانه ، ومن الهام ان نلاحظ هذه الحركات الحذرة التجريبية عندما نوازن مطامح الشيشكلي ، ورأيي به هو أنه لم يكن يطمح في أن يصبح رئيسا

للجمهورية كما ظن بعض الناس ، لقد فرض الموقف والمنصب عليه فرضا ، ولو انه اراد اثارة ازمة لكان باستطاعته ان يفعل هذا قبل ذلك بكثير » (٢٣) .

لقد اطاح الجيش بكل مزاعم النظام البرلماني وتسلم السلطات كاملة ، كان هذا حلا مؤقتا ، ان الحوراني وقف الى جانب الشيشكلي وفي الظلال الخلفية كان الحزب القومي السوري الذي راح يسعى الان للاستفادة من كون الشيشكلي عضوا سابقا في الحزب ، ومن الفراغ السياسي الذي خلقه ، والبعث لم يكن يحب النظام العسكري ، ولكنه لم يسعه الا ان يهلل لافول نجم الحزبين التقليديين المحافظين ، ان حزب الشعب لا يزال يتمتع بمؤيدين له في البلد ولكن اصطدامهم المباشر بالجيش اصمتهم وأوقف حركتهم ، لقد ادعى الحزب بأنه دافع عن حكومة دستورية ونظم ديمقراطية في وجه تخطي الجيش لمسؤولياته ، ولكن ما حط من قيمته في انظار الجماهير هو صلته مع العراق وارتباطاته مع المصالح « الاقطاعية » ولم يكن حديثه عن الاصلاح جذريا بما يكفي للاقناع ، ولربما كان دفاعه عن الدستور أمرا اصيلا ولكنه تلكأ — وكعامل فعال في السياسة السورية — خلف الرأي العام الذي أراد نظاما « تقدميا » أكثر منه « ديمقراطيا » . لقد أراد المهتمون بالسياسة من رجال المهن والجيش والجامعة حكومة يمكنها ان تدافع عن مصالحهم كأمة وكطبقة ، وكان اهتمامهم بمحاسن الحكم الديمقراطي قليلا جدا .

وانتظرت كل هذه الفئات — وكذلك جارات سورية القلقات — لترى ماذا يمكن ان يفعل الجيش — السيد الحقيقي للوضع — بالسلطات التي استلمها علانية ، وأدى الصراع حول خطط الدفاع الغربية الى بلابل داخلية واضحة بدت أكثر للمراقبين الغربيين ، وحذرت صحيفة نيويورك تايمز قراءها مسدية اليهم النصح بأن هنالك طيف آخر يهيمن على الشرق الاوسط ، « انه نفس الطيف الذي قال عنه بيان ١٨٤٨ بأنه كان يهيمن على اوروبا لجعلها شيوعية . وفي سورية أراد رئيس الوزراء المخلوع ان يتعامل مع روسيا ، والموقف الحرج

(٢٣) حسن الحكيم للمؤلف ، دمشق ، ١٠ تشرين الثاني ١٩٦٠

السائد في الشرق الاوسط هو الاختيار بين الشيوعية والديمقراطية الغربية ، ونحن نقول ان الجواب يجب ان يكون الديمقراطية الغربية لأنه اذا لم يكن كذلك فان الغرب لن يتمكن من الاستمرار (٢٤) » .

ومن المشكوك فيه ان يكون الشيشكلي قد رأى المشكلة على هذا الوجه .

❀ ❀ ❀

(٢٤) صحيفة نيويورك تايمز ، ٣٠ تشرين الثاني ، ١٩٥١ .

١٢

الدكتاتورية العسكرية

عندما يزن السوريون فوائد الحكم العسكري وصرامته فانهم يفكرون في أديب الشيشكلي : فقد منحهم تجربتهم الاولى في حكومة يديرها عسكريون ، فحكم الزعيم القصير الجريء المشهور ، يتأرجح بين حكم العصابات السياسية والملهاة الموسيقية ، وكان خلفه سامي الحناوي مجرد دمية . ومن بين الدكتاتوريين العسكريين الثلاثة الذي أتوا على سورية يمكن ان يقال عن الشيشكلي فقط انه كان بنوي العمل ، فقد كان لعمله المسيطر المتخفي احيانا تأثير على شؤون سورية منذ انقلابه الاول في كانون الاول من عام ١٩٤٩ وحتى سقوطه في شباط من عام ١٩٥٤ ، فالفترة الطويلة التي استلم فيها السلطة كانت تتصف بتبدلات عميقة في حياة سورية السياسية وبملابسات بعيدة المدى في تاريخ ذلك البلد في فترة ما بعد الحرب .

وكانت شخصية الديكتاتور في الشيشكلي بطيئة في كشف نفسها ، فقد اوضح لنا الفصلان السابقان أي حذر اتبعه هذا المتآمر المحنك قبل ان يبرز كسيد لا ينازل بعد انقلابه الثاني في تشرين الثاني من عام ١٩٥١ . لقد لعب ولفترة سنتين لعبة القط والفأر مع حزب الشعب مقضا مضجعه بتدخلات الجيش المتكررة في نهج الحكومة ، ليضعف بهذه الطريقة قوته وبذلك يشل قدرة زعمائه ويسخر من الحكم البرلماني ، كما برز الحوراني — اقرب المقربين

المدنيين الى الشيشكلي – الى السياسة الوطنية ليقض مضجع ملاكي الأراضي في وسط سورية اولا ويضطهدهم بعد ذلك متسترا بحماية الجيش .

ولم يعدم البعث بدوره الاستفادة من هذه الفترة من الصراع بين الجيش والفئات السياسية التقليدية ، ولكن الدرس الذي كان من واجب كل السياسيين المدنيين تعلمه هو كيف يتعايشون مع الجيش وكيف يجدون له مكانا في الحلبة السياسية كقوة من بين عدة قوى ، وأخيراً تم تأمين الفة الجيش بدعوته إلى المشاركة كليا في النزاعات السياسية المدنية ، وهكذا فان حكم الشيشكلي قد جعل الجيش السوري أداة سياسية لا تستحي ، ولم يكن « ليعود الى معسكراته » تماماً حتى قيام الوحدة مع مصر في عام ١٩٥٨ وفي العمر القصير الذي عاشته الجمهورية العربية المتحدة .

ونما جيش الشيشكلي لا في تجربته السياسية فحسب بل في حجمه وقوته ، ولم يكن الوقت قد تسنى للزعيم او للحناوي ليداويا الضعف المؤلم الذي كشفته حرب فلسطين : كان الجيش سيء القيادة والتدريب والتجهيز ، وقد عمل الشيشكلي الكثير ، وبمساعدة فرنسا ليحوله الى قوة محاربة حديثة ، فأجرى تبديلات هامة إذ أحال عددا من المسنين الذين تأثرت عقولهم « بالقوات الخاصة » الى التقاعد وأحل محلهم ضباطا قوميين شبانا عينهم في مراكز المسؤولية ، وأرسل عددا من هؤلاء الى فرنسا وايطاليا والمانيا الغربية وانكلترا واميريكا للتدريب ليعودوا أحسن اعدادا ويشغلوا الوظائف الكبيرة التي عينهم فيها .

لقد أحب الشيشكلي مجتمع الشباب وغالبا ما كان يرى ليلا في قلب دائرة من اللهو العجيب في نادي ضباط دمشق ، وهو مقام فاخر للانتداب الفرنسي اخذه الجيش السوري لنفسه .

ولكن ما فاق شعبيته هو حقيقة كونه وخلال فترة طويلة من حكمه بدون أي منافس هام ، وقد وحدّ الجيش من حوله ، لكونه قائده غير المنازع ، محاولاً منع تدخله في السياسة ومن التحول إلى صراع بين فئاته ، ولم يستطع أي قائد من بعده أن يتمتع بهذه السلطة ، وبحق فان عددا من الضباط الشبان الذين كانوا من اخصائه المقربين امثال شوكت شقير وامين النفوري ، واحمد عبد

الكريم وعبد الحميد السراج وابراهيم الحسيني وطعمة العودة الله وأحمد حنيدي وبرهان أدهم قد لعبوا دورا كبيرا في مجرى السياسة في السنوات التي تلت افوله ، ولكن ليس كفرقة متآلفة . وكما سنرى فان التقسيم الانتحاري للجيش الى اجنحة متنافسة كان واحدا من أسباب الوحدة مع مصر .

وحتى بعد انقلابه الثاني في اواخر تشرين الثاني عام ١٩٥١ فان الشيشكلي وبحرصه المتميز لم يتخذ أي لقب رسمي في القيادة السياسية، واختار بدلا من ذلك ان يحكم من خلال الزعيم فوزي سلو الذي منحه بمرسوم مناصب رئيس الدولة، ورئيس الوزراء ووزير الدفاع ، ولقد قام سلو وهو حكيم « موثوق » بدور الرئيس الصوري لهذا النظام وبدور رئيس الاركان العامة ، بينما أمسك الشيشكلي بحرية ومرونة مهمة القائد الاعلى من خلف الستار ، لقد دخل سلو القوات الخاصة وعمره تسعة عشر عاماً في سنة ١٩٢٤ ثم بزغ ليصبح رئيسا للكلية الحربية في حمص مباشرة بعد جلاء الافرنسيين عام ١٩٤٩ ، وقد اشتهر كرئيس للوفد السوري الى محادثات الهدنة مع اسرائيل بعد حرب فلسطين وأصبح بعد ذلك وزيرا للدفاع في الوزارات المدنية من حزيران عام ١٩٥٠ . حتى تشرين الثاني عام ١٩٥١ ، وقد وقع اختيار الشيشكلي على سلو ليتسنى له من خلاله ان يمارس الاصلاحات العديدة التي شعر وكحاكم مطلق ان من واجبه القيام بها .

لكن الشيشكلي لم يكن أكثر من سابقيه كمفكر سياسي سفسطائي فقد آمن بالترتيب والنظام على أساس النظرية التي تقول بان الدول يمكن ان تدار بنفس الخط الذي تدار به الجيوش ، وقد استمد العناصر الراديكالية لفكرته من الحوراني الذي شاركه انتصاره على حزب الشعب وكان في الاشهر الاولى المتكلم الايديولوجي للحكم ، لقد « وصل » رفيقا الطفولة في حماه ليصبحا أقوى من في سورية ، وبالرغم من دهائهما فقد كانا هاويين عملية الحكم وكان منهاجهما من أجل العمال والفلاحين » الذي أعلناه في كانون الثاني عام ١٩٥٢ حسن المقصد وان كان سيء الاعداد ، وكان نصه الاصلي ، وهو مرسوم توزيع أراضي الدولة رقم (٩٦ الصادر في الثلاثين من كانون الثاني

عام ١٩٥٢) مستحيل التطبيق لان مساحة وموقع الأراضي غير المسجلة كانا مجهولين . (١)

ولقد جاء هذا التشريع عقب حملة عنف وارهاب ضد ملاك الاراضي في أواسط سورية في صيف عام ١٩٥١ . فقد هاجم الفلاحون ، بعد أن شجعهم الحوراني ، اعضاء هذه الاسر أمثال البرازيين وحبسوهم عن أرضهم وتربصوا بهم في منازلهم واعلن الحوراني بأن « الارض للفلاحين » مما أثار معارضة الشيوعيين الذين شعروا بان الحوراني يسرق شعاراتهم ، وفي برقيات أرسلها ملاك الاراضي إلى الحكومة المركزية التمسوا المساعدة « ضد الحزب العربي الاشتراكي الذي كانت مبادئه تشبه مبادىء الشيوعية الهدامة ذاكرين التهجمات والازعجات التي شلت الانتاج الزراعي وعملية الحصاد في البلاد » ، ووصلت حملة الحوراني إلى أوجها في اجتماع معاد للاقطاعية استمر ثلاثة أيام وعقد في حلب في منتصف أيلول عام ١٩٥١ ، حضره آلاف من الفلاحين من كل أنحاء سورية وافتتح هذا المهرجان الريفي الاول من نوعه في العالم العربي بمسيرة ضخمة من الفلاحين في الشوارع وهم يحملون لافتات تطالب بالاصلاح الزراعي .

وكانت افكار الحوراني تقوم على أساس خبرته في مناطق حمص وحماه في أواسط سورية حيث استحوذ كبار الاقطاعيين على الاراضي الجيدة ونالوا حصة ضخمة من الانتاج ، ولربما كان بامكان منهاجه التشريعي أن يكون أكثر فعالية لو أنه تطلع إلى أعادة توطين فقراء الفلاحين في مشاريع الري الخاصة بالدولة أكثر من تطلعه إلى تحديد حجم الملكيات في مناطق الزراعة البعلية المزدادة باضطراد في الشمال ، وبذلك يجازف بالمخاطرة بمنع تشغيل رأس المال المؤتمن هناك دون أن يستفيد من ذلك أي من المستوطنين الجدد .

وبدا نظام الشيشكلي يفوق اسلافه بنشاطه الخاص ، فقد كان عدد من اجراءاته ذات الطابع (الشوفيني) يهدف إلى ردع تأثير الاجانب وزعماء

(١) أنظر (وارنير) ص ١٠١ - ١٠٥ من أجل مناقشة تناقضات القانون وتعديلاته التي ادخلت فيما بعد ونتائجه المزيلة .

الدين والأقليات العنصرية وتوسيع اشراف الحكومة فشمل المدارس السورية الخاصة والاجنبية ، ومنع افتتاح المدارس التبشيرية ، وكذلك جعل استلام تبرعات من الخارج لاغراض تربوية منوطا بموافقة وزير التربية ، ومنعت منظمات الشباب والنوادي من ممارسة أي نشاط سياسي بينما أعيد تنظيم الجمعيات الكشفية والرياضية بمرسوم لكي يستبعد امكانية وجود اعضاء ذوي اتجاهات طائفية أو عنصرية ، وقد امر مدرسوا الدين وأئمة الجوامع بارتداء عمامة وزي موحد وحرم عليهم ارتياد المقاهي واماكن اللهو ، وفي اليوم الاول من رمضان الموافق للرابع والعشرين من أيار عام ١٩٥٢ أمرت دوريات الشرطة بان تلقي القبض على أي شخص يرى وهو يخرق حرمة الصيام .

وقد أخضع الاجانب إلى رقابة أشد ولم يسمح لهم بشراء أي عقار ، وخضعت العلاقات مع الدول الاجنبية لتفحص دقيق ، ومنع استعمال الشيفرة في كل المراسلات غير الديبلوماسية ، وفقدت كل من الجامعة السورية والمجمع العربي ومصلحة الآثار حق الاتصال مباشرة بمؤسسات اجنبية .

لقد كان على الرسميين في كل وزارة أو هيئة شعبية أن يدعوا بريدهم يمر عن طريق وزارة الخارجية ، وقد جعل استلام النقود من الاجانب لاغراض الدعاية جنحة جرمية يعاقب عليها بالغرامة والسجن ، وحرم دخول سورية على المتسولين والمجانين والفاسقات والمجرمين المطلوبين وأي شخص « يحتمل أن يقلق الأمن العام والسلام . »

وللقضاء على أية معارضة أمرت الحكومة في منتصف كانون الثاني عام ١٩٥٢ بحل الفرع السوري للاخوان المسلمين واغلقت مكاتبهم ومدارسهم في انحاء القطر ، واتخذت اجراءات مشابهة ضد الحزب الاشتراكي التعاوني وزعيمه فيصل العسلي ، ومنع الموظفون المدنيون والاتحادات التجارية من المساهمة في النشاط السياسي وفي نيسان تبع هذا الاجراء حظر عام على كل الاحزاب السياسية ، وطرد عدد من كبار الموظفين من وظائفهم بينما سرح عدد من أساتذة المدارس ومحاضرو الجامعة اذ رفضوا أن يقسموا يمين الولاء

للحكم ، « ليس هنالك في الشرق الاوسط أي بلد أكثر تنظيما » هذا مـــا أوردته التايمز ، لقد قدر مراسلها بان اوتوقراطية الشيشكلي التي يديرها أمناء عامون للوزارات يوجههم الزعيم سلو قد قامت في الاشهر الست الاول من الحكم باصدار مراسيم تقدر بمرسوم وربع المرسوم في اليوم (٢) ، وقـــد قدرت الصحافة المحلية الحاجة إلى مراقبة ذاتية حازمة فوافقت على أجراءات الشيشكلي دون أي تحفظ ومشجعة أياه للقيام حتى باجراءات أكثر جرأة ، وشنت بعض الصحف حملة لفرض « زي وطني موحد » بينما طالبت أخرى بان تقوم النساء كالرجال بواجبهن العسكري نحو أرض الآباء أو ان يساقوا الى العمل في الخدمات العامة على نمط المانيا الهتلرية ، وقد نسبت غزارة الامطار التي كانت تبشر بمحاصيل خيرة الى الرضا الآلهي الذي استحقه القائد بحكمته واستقامته .

لقد أقام الشيشكلي في ستة اشهر ديكتاتورية مركزية صارمة، وأسكت منتقديه بطرق بوليسية تقليدية وباتمام اصلاحاته الهامة ، وبعد أن ابعد السياسيين عن العمل واستند إلى دعم الجيش وجد في سورية بلدا يسهل حكمه ، وقد أشار المراقبون الاجانب ، الذين رأوا ان حركة المرور قد انتظمت وان النقليات العامة لم تعد مزدحمة ، بأن أتاتوركا جديدا قد ظهر في الشرق ، وفي نصف السنة التي سبقت ابعادها عن الاضواء والذي سببته الثورة المصرية في تموز عام ١٩٥٢ كانت سورية تحتل مسرح الشرق الاوسط .

سياسة الشيشكلي العربية :

ريع العراق باستلام الشيشكلي السلطات كاملة ، فعـــداوته للهاشميين واصدقائهم في سورية امر معروف حتى ان انقلابه الثاني قد أطاح بكل الآمال في أي تقارب عراقي سوري ، وبحق فان اختفاء حزب الشعب والنصر الاخير للجيش السوري قد ظهرا وكأنهما ضربة قاضية موجهة إلى المطامع العراقية

(٢) التايمز ، ٣٠ أيار ، ١٩٥٢

وربما دلل على ذلك الهستريا التي سمع بها العراق الاخبار ، فدعا السياسيون العراقيون إلى التدخل لانقاذ سورية من هذا (الثائر صاحب اليد العليا) بينما قررت الحكومة ان تسحب اعترافها داعية الدول العربية الاخرى لان تحذو حذوها ، وذهبت هذه المناورات سدى : ففي السادس من كانون الاول عام ١٩٥١ اعترفت الدول العربية الاخرى بالوضع الراهن في دمشق وبعد عشرة أيام ، أي في السابع عشر من كانون الاول زار كل من ممثلي بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة وتركيا ، الزعيم سلو رئيس الدولة ليبلغوه اعتراف بلادهم ، ولا ريب أن الدول الاربع قد أملت بهذه المقدمات التمهيدية ان تجعل الشيشكلي يهتم بخططها من أجل إقامة قيادة للشرق الاوسط التي رفضتها مصر بشدة قبل شهرين .

لم يكن الشيشكلي يعارض أي تقارب عام بين الدول العربية ودول حلف الأطلسي على أساس من التساوي ، ولكنه لم يكن مستعدا لان يذهب إلى حد قبول أي مس بسيادة البلاد من خلال نظام غربي للدفاع ، كان يرغب في الحصول على السلاح ولكنه فهم بان المفتاح إلى ذلك موجود في القاهرة ، كانت فرنسا تقوم بامداده بالسلاح ولكنه لم يكن يستطيع أن يوسع اتصالاته ما لم يكن بالامكان ايجاد حل للنزاع المصري – الانكليزي ، وعلاوة على ذلك فان المقربين اليه أمثال الحوراني وآخرين يدينون بالحياد كانوا يعتبرون أي اتفاق مع الغرب خيانة ، وهو موقف قد يكون دفع الشيشكلي إلى رفض مساعدة النقطة الرابعة الاميركية ، وقد خشي أيضا تسلل فنيي النقطة الرابعة وقيامهم بنشاطات لا علاقة لها بمهمتهم الرسمية .

ان حكام سورية الذين تكون شرعية حكمهم موضع ريبة اعتادوا ان يرسلوا مبعوثين إلى الدول المجاورة ليدافعوا عن قضاياهم او ان يذهبوا هم بأنفسهم فيثبتوا بذلك استقرار بلادهم ، وفي التاسع عشر من آذار – ولاثارة بغداد بالدرجة الأولى – حل الشيشكلي وسلو ضيفين على الملك طلال في عمان وفي الاسبوع الذي تلاه عبرا الجبال إلى لبنان حيث

مهد طريقهم عقد الاتفاق الاقتصادي السوري – اللبناني الذي انهى قطيعة عامين ، وفي الثامن من نيسان سافر الشيشكلي إلى العربية السعودية حيث زار منشآت النفط وقبر النبي وأجرى محادثات مطولة مع الملك ، ثم أعلن أن زياراته تستهدف « تقوية العلاقات الاخوية بين العرب » .

كانت العروبة شعارا مميزا استعمله الشيشكلي للقتال به في الشهور الاولى لحكمه ، ولربما دفعه إلى ذلك في الدرجة الاولى علاقاته شبه السرية مع الحزب القومي السوري ، حيث تتعارض القومية العربية مع المبدأ الاساسي للحزب وهو «الامة السورية» ، ولعل هذا عين السبب متجاوزاً رضاء الجماهير وقد راح الحزب القومي السوري ، «والشيشكلي الحاكم الذي لا ينازع» يبحث عن الاستفادة من الفراغ الذي خلقه الشيشكلي حول نفسه بحله الاحزاب السياسية كالبعث والحزب الاشتراكي العربي ، فقدم نفسه إلى الشيشكلي على أنه قوة سياسية منظمة ليقيم معه ، تحالف اقتضاء وضرورة لاتحالف مبدأ .

ومع أن الحزب القومي السوري لم يجرؤ قط على أن يجاهر كليا وعلنيا بأهدافه القومية السورية فقد كانت هنالك فترة في أوائل عام ١٩٥٢ بدى فيها وكأن صلاته ستزدهر ، فلكي يدخل الشيشكلي السرور إلى قلب الحزب شدد في عدد من خطاباته على سورية وتخطى موضوع العروبة ، وايضاً رافق شخص قيادي في الحزب هو عصام المحايري ، «أصبح فيما بعد الأمين العام» الديكتاتور احيانا في رحلاته كرفيق وصحفي ، وهي صلة استمد منها الحزب بعض الراحة ، ولكن هذا الاتجاه لم يدم : فالاشهر التي صعد فيها الشيشكلي إلى دور القيادة العربية عادت عليه بنتائج طيبة عديدة ،فقد كانت العروبة هي المبدأ الوحيد الذي يمكن أن يتجاوب معه السوريون ، « ان سورية جزء من الوطن العربي والسوريون جزء من الامة العربية ، هذا ما أعلنه الشيشكلي حين أقسم يمين الولاء التقليدي في كلية أركان حلب في شهر أيار (٣) . ووعد بأن سورية ستكون « بروسيا الدول العربية » و (القلعة الفولاذية) التي ستنطلق منها شعلة التحرير الى كل العالم العربي .

---

(٣) بردى ، دمشق ، ٢٢ أيار ، ١٩٥٢

حركة التحرير العربي :

بنمو مطامح الشيشكلي السياسية ظهرت الحاجة إلى أداة يمكن بها تحقيق هذه المطامح ، ففي السنتين اللتين فصلتا بين انقلابيه كان الشيشكلي شخصية ذات نفوذ تمارس النقض (الفيتو) من وراء الستار أكثر من كونها ممسكة بسلطة تنفيذية ، وعندما ازاح السياسيين المدنيين وظهر ذا سلطة كاملة زوده الزعيم سلو بذلك الستار الذي وضعه بينه وبين المسؤولية التنفيذية . التي تطلبته غريزته الحريصة وتجربته الضئيلة في الحكم ، وقد أملى عليه الان عدد من الظروف القيام بخطوة نحو العلنية : إن سلو أدار البلاد بسهولة واضحة منذ كانون الاول عام ١٩٥١ ، فالاحزاب السياسية مختفية بعد حلها ، و بدا وكأنه قد قدر لسورية وهي على ما هي عليه من الرفاهية والنظام أن تلعب دورا هاما في الشؤون العربية ، ولم يستطيع الشيشكلي أن يتهرب من الخاتمة وهي أن عليه الآن أن يحكم بالاسم كما يحكم في الواقع ، فكان عليه أن يبني جهازا سياسيا ، ويقيم نظام حكمه على أساس دستوري ويصبح رئيسا للجمهورية ، ولكن الطريق إلى الشرعية محفوف بالمخاطر ،ولربما كان سقوط الشيشكلي عائد إلى محاولته الانتقال من حاكم عسكري إلى رئيس جمهورية منتخب مما افقده الاتصال بالجيش ، وبمحاربته للسياسيين في مواطنهم سمح لهم بالاتجاه ضده .

وأقيم مجلس للوزراء بمرسوم صدر في الثامن من حزيران عام ١٩٥٢ « ليساعد رئيس الدولة على ممارسة سلطاته التشريعية والتنفيذية » ، وفي اليوم التالي شكل الزعيم سلو حكومته (٤) ، وبعد شهرين وفي الثاني من آب أوجد مرسوم آخر منصب نائب رئيس الوزراء الذي شغله الشيشكلي محتفظاً بمهام القائد العام للجيش ، وفي الخامس والعشرين من آب وعندما كان كل نظام حكم في

---

(٤) رئاسة الوزارة والدفاع : الزعيم سلو . الشؤون الخارجية : ظافر الرفاعي . المالية : سعيد الزعيم . الاقتصاد الوطني : منير دياب . التربية : سامي طيارة . الصحة والشؤون الاجتماعية الدكتور مرشد خاطر . الزراعة : عبد الرحمن المنيدي . العدل : منير غنام . الأشغال العامة والمواصلات توفيق هارون .

الشرق الاوسط يشعر بطغيان مد أمواج الثورة المصرية ، أفتتح الشيشكلي المراكز الدمشقية لحركة التحرير العربي وهو حشد جماهيري يقوم على الحزب الواحد، أمل الشيشكلي منه أن يمنح نظام حكمه القاعدة الشعبية الواسعة التي يتطلبها ، وقد أعلن بأن : « حركة التحرير العربي ليست حزبا جديدا يضاف إلى قائمة الاحزاب القديمة ليشوش الامة ويجزىء قواها ، انه محاولة صادقة مخلصة لجمع العناصر الطيبة من جميع الاحزاب والطبقات لصبهم في قالب واحد قوي ، قادر كليا على استعادة ثقة الامة ، واعطاء البلد صوتاً يصغى اليه ويحترم » .

ولقد تحدث عدة ديكتاتوريين بهذه اللغة .

وقد وصف منهاج مؤلف من واحد وثلاثين نقطة ذو نصوص منمقة ، الوطن العربي على أنه يمتد من طوروس حتى خليج البصرة ومن البحر الابيض حتى المحيط الاطلسي ، ودعا إلى الخدمة العسكرية الاجبارية ، وتحرير المرأة ، والضرائب التصاعدية ، واصلاح استملاك الاراضي وتوطين القبائل الرحل ، واقامة مدارس تجارية وزراعية والتشغيل الكامل ، ولكن هذه الوثيقة كانت اعلانا ورعا للمبدأ أكثر من كونها منهاجا تشريعيا ، وقد أفتتح الشيشكلي حركته في حلب في الرابع والعشرين من تشرين الاول بعد دخوله الظافر إلى المدينة على رأس عرض مؤلف من ١٠٠٠ سيارة فأعلن : « ان بلدنا هو موطن الفكرة العربية .. انني أدعوكم لان تلتحقوا بحركة التحرير العربي التقدمية والتي أقدر لها بان تنمو حتى تضم الوطن العربي كله ... فحركتنا هي تعبير عن ثورة الضمير العربي في سورية ، وشعلة هذه الثورة تنتشر إلى كل الاقطار العربية لتطيح بالقادة الجبناء الذين اقترفوا بضعفهم في حق عرب فلسطين جريمة كبرى » (٥) ، ولكي ينشر رسالته أمر الشيشكلي بشن حملة دعائية كبرى في الأذاعة السورية ، فكان حكمه اول من استخدم الدعاية الاذاعية سلاحاً في النزاعات العربية الداخلية (٦) . وقبل أن تسيطر اذاعة عبد

(٥) بردى ، ٢٣ تشرين الاول ، عام ١٩٥٢

(٦) كان المسؤول الاول عنها احمد عسه وهو مدير الاذاعة الذي ركن اليه الشيشكلي فهو واحدا =

الناصر (صوت العرب) على الاسماع العربية كان راديو دمشق يقوم بالخطوة الأولى نحو تلك الحملات الكلامية الرخيصة والتي لربما كانت الملامح المميزة للعلاقات بين دول الشرق الاوسط .

كانت حركة التحرير العربي من الناحية الايديولوجية ذات نمو هجين إذ كانت تستعير الافكار من مصادر عديدة مختلفة ، فدعت إلى قومية عربية مناضلة وتبنت سياسة اجتماعية واقتصادية تقدمية ، وادعى الشيشكلي — على نفس النمط الذي استعمله عبد الناصر فيما بعد بالنسبة لمصر — بان سورية قد أختارها القدر لتحرر الامة العربية من الاستعمار والفقر والجهل والانقسام الداخلي ، وفي مسائل التنظيم شكلت الحركة على نمط الحزب القومي السوري ، فكانت الميلشيا الحزبية ترى خارجة من قيادة الحزب في دمشق داخلة إليه في مشية عسكرية يحيي افرادها بعضهم بعضا برفع الايدي وقد انجذب اليها بعض الضباط لكنه لم يلتحق بها أي سياسي معروف بالرغم من الضغط الكبير الذي مارسه الشيشكلي عليهم ليفعلوا ذلك ، وكأية حركة وحيدة لاتسمح بأي منافس لم تكن هذه تتمتع بأي جذور في الانخراط الطوعي بها ، ولم تكن بديلا كفوءا للاحزاب السياسية التي كان الناخبون السوريون قد أعتادوا عليها ، ولكن نقاط الضعف هذه لم تكن واضحة في البدء .

وقد اقترنت الذكرى الاولى لقيام الحركة — والتي احتفل بها في دمشق في كانون الاول عام ١٩٥٢ باضخم عرض عسكري وعته الذاكرة — بحادثة أختراق دبابة لجمع غفير من الناس لتقتل اثني وخمسين شخصاً .. وتحدثت الصحف عن جيش سورية الجديد على انه «عملاق مدرع بالحديد والفولاذ» معيدة إلى الذاكرة أيام العصور الوسطى عندما كانت جيوش أمية تسير في شوارع المدينة « في طريقها إلى غزو جديد » واعلن الشيشكلي أن دمشق كانت في ذلك الوقت عاصمة العروبة وقلب الامة العربية حيث يرقد صلاح

= من ثلاثة نصحاء مقربين — تمتعوا بسلطة واسعة—كانوا معروفين باسم : (العظماء الثلاثة) كان الاثنان الاخران هما سكرتير الشيشكلي الخاص قدري القلعجي ومدير الدعاية والانباء نزيه الحكيم .

الدين البطل الذي حرر فلسطين (٧) ، وبدا الشيشكلي بعد عام من أنقلابـه الثاني آمنا لا يتزعزع .

الشيشكلي رئيس للجمهورية :

ازيحت أقواس النصر عندما لاحت التصدعات الاولى في صرح الشيشكلي ، ففي الحادي عشر من كانون الاول قام بزيارة القاهرة واثقاً بقاعدته في بلده حيث تعالت له الهتافات هناك وهو يقف إلى جانب اللواء نجيب يتبادلان التهاني على الثورات التي قام بها جيشاهما العظيمان ، وقد اراد أيضا أن يستمزج الضباط الاحرار في موضوع استمرار الدعم المصري لسورية في وجه العداء العراقي ، ومن هذه الناحية كانت زيارته هذه تشبه زيارة حسني الزعيم للملك فاروق في نيسان من عام ١٩٤٩ ، وقد ذكر الى مضيفيه بان صلاح الدين قد هزم الصليبين فقط عندما اتحدت القاهرة ودمشق .

وعاد إلى دمشق في السادس عشر من كانون الاول ليواجه موقفا ثوريا وتتفق معظم التقارير على أن العقيد عدنان المالكي وهو ضابط صغير معروف قابله في المطار وقدم له ثلاث مطالب ملحة : حل حركة التحرير العربي وانهاء الاكتتاب الشعبي لتسليح الجيش (بسبب مزاعم تقول بأن هـذه التبرعات كانت تحول إلى الحركة) ، واعادة الحريات السياسية والحياة الحزبية الديمقراطية ، وقد وافق الشيشكلي — الذي كان جيد التكتيك — على الشروط مهنئا المالكي على كونه الشخص الذي أختارته مجموعة لا بد أن تكون كبيرة ليخاطر بعرض هذه المقترحات ، وابتلع المالكي الطعم وقدم لائحة باسماء الضباط والشخصيات السياسية واساتذة الجامعة الذين يشاركونه اهدافه ، وفي الحال سجنهم الشيشكلي جميعا ، ومن الجائز أنه لم يـكن بحالة استعـداد كلي للازمة ، كما اوردت تقارير أخرى بأن مدير أمنه العقيد أبراهيم الحسيني قد استدعاه على وجه السرعة من القاهرة .

---

(٧) بردى ، ٤ كانون الاول ، ١٩٥٢

وفي الرابع والعشرين من كانون الاول اعلن رئيس الاركان عن اكتشاف مؤامرة ضد نظام الحكم وعن القاء القبض على عدد من الضباط « الذين سمحوا لانفسهم بأن يقعوا فريسة للافكار الهدامة التي ينشرها سياسيون متطرفون معينون » واضاف البيان ان المتهمين كانوا ينشرون بيانات مغرضة عن أن الحكومة في طريقها إلى الارتباط بمخطط دفاع الشرق الاوسط وانها قد وافقت على توطين اللاجئين الفلسطينيين في سورية وبعد اسبوع او اثنين تحي نهاية السنة عبر أكرم الحوراني وزعيما البعث ميشيل عفلق وصلاح الدين البيطار الحدود إلى لبنان سرا لكي يتجنبا الاعتقال ورددا التهم إلى الصحافة البيروتية ، وعلى هذا فان الشيشكلي واجه حركة عصيان من الجيش ونفور من أقرب مؤيديه المدنيين .

والعملية أليفة لديكتاتور يتمتع بسلطة مطلقة ويفقد تماسه مع مؤيديه الاوائل ، وبثقة متزايدة أصبح الشيشكلي بعيد المنال وقل تردداه على نادي الضباط وبرد ولاء معجبيه الصغار ، وبدأ يعد نفسه للرئاسة ، ومع ظهور مطامحه السياسية بدا الخوف من تدخل الجيش في السياسة والرغبة في اعادته إلى ثكناته والحد من امتيازاته ، وبدأ الضباط يرون فيه رجلا مختلفاً عن ذلك البطل الشعبي الذي عرفوه في الايام الأولى ، بل أضحوا يرونه أقل من ذلك .

كان خلاف الشيشكلي مع الحوراني وعفلق والبيطار نقطة انعطاف في أعماله واعمالهم ، ففقد دعم من لربما كانوا وبمقاييس مختلفة ، من أحذق الرجال واكثرهم التزاما بالمبادىء في الحياة السورية العامة ، بينما دخلوا هم وقد اتحدوا بمعارضتهم لاوتوقراطيته في شراكة غيرت مستقبل البلد ، وفي بيان للحوراني إلى الصحيفة اللبنانية « الدستور » في الرابع من كانون الثاني عام ١٩٥٣ اتهم الشيشكلي « بكبت الحريات وتقييد الصحافة واضطهاد المعارضين لنظام الحكم واضاف بأن الزعيم السوري كان ينفذ خطط الدفاع الغربية» إذ كيف يمكن للانسان أن يفسر بناء هذه الطرق والمطارات الاستراتيجية باموال الضرائب ؟ وميناء اللاذقية ؛ والاتفاقات التي وقعت مع الشركات البترولية ؟

وفي دمشق وصف الفارون الثلاثة على أنهم « عملاء سريون للامبريالية » ولكن لبنان رفض طلب تسليمهم بالرغم من الضغط الذي مارسه الشيشكلي باغلاقه الحدود لفترة أربع وعشرين ساعة وقطعه للمباحثات الاقتصادية ، وعلى أي حال فقد طلب منهم أخيرا أن يغادروا لبنان في حزيران عام ١٩٥٣ ، وفي شهر ما بين كانون الاول عام ١٩٥٢ حتى كانون الثاني عام ١٩٥٣ تبدلت الامور كثيرا إلى حد أن الحكم الذي كان يبدو قويا اصبح الان مهتزا ، كتبت صحيفة « لوموند » في تقرير لها من دمشق في العشرين من كانون الثاني ان ظل حرب اهلية يخيم على المدينة ، فالسجون مملوءة بالمشتبه بهم ، وغادر أناس كثيرون البلاد بينما انتشرت القلاقل من الجيش إلى الجامعة التي استمرت بالاضراب ولاول مرة لعدة اشهر ، وهزت الحوادث اعصاب الشيشكلي ، لم يكن من قبل يثق برجاله واصبح الان أكثر شكوكا يتخبط خبط عشواء ولا يجرؤ على النوم في المنزل خوفا من الاغتيال ، وفي ربيع عام ١٩٥٣ شجعته فترة من الاستقرار على المضي قدما في خططه لاقامة حكم على أساس دستوري .

كانت الصحافة ما فتأت تلمح ، ولعدة اسابيع ، إلى أقامة نظام رئاسي جمهوري على النمط المتبع في الولايات المتحدة عندما نشرت مسودة دستور جديد في الواحد والعشرين من شهر حزيران ، كما اعلن أيضا ان استفتاء سيجري في العاشر من تموز للموافقة على الدستور ، كما سيتم في اليوم نفسه انتخاب رئيس للجمهورية بطريقة الانتخاب المباشر ، وقد اذاع الشيشكلي بنفسه مواد الدستور مؤكدا على فوائد الحكم الرئاسي وقال : « ان هذه المسودة هي أكثر تقدمية من كل الدساتير الموجودة في الشرق الاوسط وحتى بعض الموجودة في العالم الغربي ، فلا تتضمن شيئا يتعارض مع امكانياتنا او مع الوضع الحقيقي لشعبنا « لقد نص على أن الرئيس » الذي ينتخبه الشعب بانتخاب سري متكافىء « يجب أن يكون سوري المولد يساعده وزراء يعينهم يكونوا مسؤولين أمامه وليس أمام البرلمان » وذكرت المادة الأولى بأن سورية جمهورية عربية ديمقراطية ذات سيادة ، ولكنه حذف لفظ « برلمانية » من النص الاول

وقطعت المسودة أيضا عهدا على الدولة بأن « تعمل على اقامة وحدة الامة العربية » .

ونشرت صحيفة حمصية تدعى « السوري الجديد » وهي العضو المعارض الوحيد في تلك الفترة بيانا وقعه خمس وعشرون محاميا يستنكرون اجراء الاستفتاء ويصفونه على انه « شكل من القيصرية» ولكن هذا لم يمنع من انتخاب الشيشكلي رئيسا للجمهورية واقرار الدستور بأغلبية ساحقة (٨) . وبعد خمسة أيام وفي الخامس عشر من تموز شكل الشيشكلي وزارة من محامين ورجال أعمال وملاكين اتصفت بشكل ملحوظ بغياب اسماء كانت من قبل مقترنة بالحياة السورية العامة (٩) أما فوزي سلو وقد بات عديم الفائدة أخيرا ، تقاعد وسط شائعات عن خلاف نشب بينه وبين الشيشكلي بينما عين الزعيم شوكت شقير رئيسا للاركان . وفي الثلاثين من تموز نص قانون انتخابي جديد استعيض به عن قانون أيلول عام ١٩٤٩ على تشكيل مجلس نيابي مؤلف من اثنين وثمانين عضوا - تسع وستون منهم مسلمون وتسع مسيحيون واربع ممثلون عن العشائر - يمثل كل واحد منهم خمسين الفا من السكان ، وحدد موعد الانتخابات في التاسع من تشرين الاول ، بينما صدر مرسوم يحدد شروط النشاط الحزبي ، يجب أن تكون الشرائع الحزبية «ديمقراطية» ولا تضم أي اقتراح بجمعية سرية أو شبه عسكري سرى ، وان تكون اهدافها التي تعمل من أجلها لا تتعارض وهدف الوحدة العربية ، ويجب ألا يكون هناك أي تجمع عرقي أو طائفي وان لا يسمح بانتماء أي من أفراد الجيش والشرطة والمستخدمين المدنيين إلى عضوية الحزب ، وابعد القطاع الطلابي نهائيا عن أي نشاط

---

(٨) تمت الموافقة على الدستور بنسبة ١٥٢ و ٨٦١ صوتا مقابل ٢٧١٣ من أصل ٩٦٥،٤١٧ ناخبا ، وأعلن عن انتخاب الشيشكلي وهو المرشح الوحيد للرئاسة بأغلبية ساحقة .

(٩) رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء : اديب الشيشكلي ، وزارة الداخلية : نوري الايبش العدل : اسعد محاسن ، الصحة والشؤون الاجتماعية : الدكتور ناظم القباني ، الزراعة : عبد الرحمن الهنيدي ، الشؤون الخارجية : خليل مردم ، المالية : جورج شاهين ، الدفاع : الزعيم رفعت خانكان . الاشغال العامة والمواصلات : فتح الله آسيون ، الاقتصاد : عون الله الجابري ، التربية : انور ابراهيم .

سياسي ، وأخيراً جرت الانتخابات في وسط جو من اللامبالاة العامة وخاضتها حركة التحرير العربي والحزب القومي السوري ، أما الاحزاب الاخرى فكانت أما محظورة أو أن تكون قد فضلت مقاطعة الاجراءات . وكما كان متوقعا فان حركة التحرير العربي قد أكتسحت الموقف فحصلت على ٦٠ مقعدا من أصل اثنين وثمانين بينما كسب الحزب القومي السوري مقعدا واحدا وهو تنويه يلفت النظر إلى عدم وجود اتباع لهم بين الشعب بالرغم من توافقهم مع الديكتاتور ، واعطيت المقاعد الباقية لممثلي العشائر وللمرشحين مستقلين .

واجتمع المجلس الجديد لاول مرة في الرابع والعشرين من تشرين الاول ليستمع إلى الرئيس وهو يلقي الكلام السائد في مثل هذه الظروف :

« اننا نعني بوطننا السوري الاسم الرسمي الشائع لذلك البلد الذي يقع ضمن حدود اصطناعية رسمتها الامبريالية عندما كانت لا تزال تملك السلطة لتكتب تاريخ العرب ، ولكن وطننا الحقيقي هو الامة العربية التي تمتد إلى قلب العالم » ... (١٠)

وانتخب مأمون الكزبرى — وهو محام شهير أصبح بعد سنوات من ذلك رئيس أول حكومة تشكلت بعد انفصال الجمهورية العربية المتحدة — رئيساً للمجلس .

وقبل ذلك التاريخ بثلاثة أيام كان الحوراني وعفلق والبيطار قد عادوا إلى سورية بموجب عفو عام اصدره الشيشكلي بعد انتخابه للرئاسة .

وقال صلاح الدين البيطار فيما بعد : ان حكومة الشيشكلي كانت حكماً غير شرعي حاول عن طريق الانتخابات أن يضفي عليها ثوبا من الشرعية، ولكنه لم يذهب إلى الاقتراع سوى نسبة ٥ ٪ من الناخبين ، وكان من الواضح بعد ذلك ان الشيشكلي كان قد انتهى سياسيا ، إذ تم عزله ، ولقد اتضح للشعب بأن الحكم العسكري في المدى الطويل لا يستطيع أن يقدم له شيئا وكان الطريق مفتوحا أمام الاحزاب السياسية لتوحد قواها وتدعوا إلى إنهاء الديكتاتورية واعادة الحرية

---

(١٠) صحيفة بردي (دمشق) ٢٥ تشرين الاول ١٩٥٣ .

السياسية والحريات الاخرى التي خنقها الشيشكلي (١١) .

لايمكننا ان نرد طول الفترة التي أمسك فيها الشيشكلي بزمام السلطـة إلى كفاءة مخبريه السريين ولا إلى اصالة افكاره السياسية او نجاح تجاربـه الدستورية ، انه لم يكن رجل دولة بارعاً أو مصلحاً ، كما لم يكن وحش قمع واضطهاد ، وبحق فانه من الصعب حتى تتبع دوافعه الشخصية : هل كانت تعطشاً للسلطة فقط أم أنـه كان يستلهم ذلك من مثل اصلاحية عليا انحرفت فيما بعد ؟ واذا كان لا بد من اعطاء سبب لطول عهده ، هو ان اواخر الأربعينيات وأوائل الخمسينيات قد شهدت ترسخ ازدهار الزراعـة السورية الكبير فيما بعد الحرب (١٢) فحرثت مساحات ضخمة من الاراضي البكر التي بقيت بوراً عـدة قرون في الحزام المعتمد على المطر الممتـد من شمال غربي البلاد حتى حدود العراق عبر الفرات ومناطق الجزيرة ، وبين عامي ١٩٤٣–١٩٥٣ تضاعف انتاج القمح بينما ازداد انتاج القطن إلى عشرة أمثاله ، ولا يمكن لأي بلد في الشرق الاوسط ان يحرز مثل هذه النسبة السريعة المدهشة في التوسع ، فقد فاق نتاج كل شخص في سورية اذا ما قيس بالمحاصيل الرئيسية عن نتاج أي شخص في مصر أو العراق ، ولكن الحكومات وقد اتبعت سياسة Laisser Faire (الاتجاه الحر) لم تستطع ان تدعى شرف اسهامها بذلك،اذ يعود توسع الزراعة البعلية كليا إلى مشاريع التجار السوريين وبشكل رئيسي تجـار حلب الذين استعملوا رؤوس اموالهم فأدخلوا الآلة الى الزراعة ، والاسهام الرئيسي الذي لعبه حـكم الشيشكلي في مخطـط التطور هذا هو تأسيسه لمكتب القطن في عام ١٩٥٢ (١٣) عندما اصطدم ازدياد القطن السريع بهبوط الاسعار ، وآفات المحاصيل وازدياد نفقـات الحراثة ، فباع المكتب بذوراً محسنة وفرض عددا من اجراءات المراقبـة

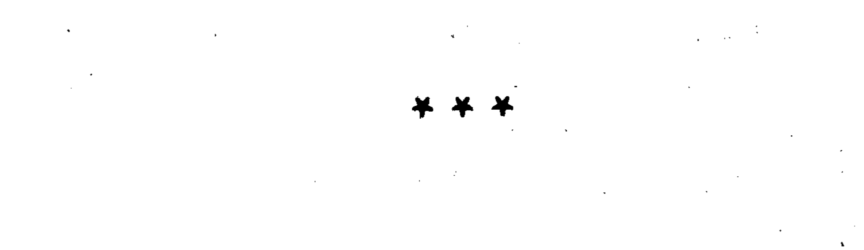
---

(١١) صلاح الدين البيطار للمؤلف ، دمشق ٢٣ ايلول عام ١٩٦٠

(١٢) وارنير ، الصفحات ٧١ – ١١٢

(١٣) نفس المرجع ص ٧٤

وقد شهد عام سقوط الشيشكلي أي عام ١٩٥٤ بلوغ سورية أوجها الزراعي من ناحيتي مجموع المساحة المحروثة واشكال انتاج المحاصيل الرئيسية ، وعلى أي حال قد يكون هذا الازدهار هو الذي أبقى الشيشكلي في السلطة كما أن المصاعب العامة لم تكن هي التي حرمته منها .



١٣

اسقاط الشيشكلي

ان دراسة سقوط الشيشكلي تكشف عن ملابسات السياسة السورية أكثر مما يكشفه عرض لسني حكمه ، فالدكتاتوريون يشوهون العمل السياسي برقابتهم على الفكر ودفع المعارضين إلى العمل السري ، ولا يتمزق الغطاء الذي يلقونه على المسرح السياسي الا حينما يبرز اعداؤهم إلى العلن ويتحدونهم ، وهكذا فان الأحداث التي أدت إلى هرب الشيشكلي من دمشق في ٢٥ شباط ١٩٥٤ تعطي درسا يفوق ما أعطته الاعوام السابقة للحكم المتسلط ، غير أن الرجال الذين أسقطوه لم يكونوا جميعا من الديمقراطيين عديمي الصبر اذ أن دوافعهم كانت تشكل خليطا ، منها ما هو نقي ومنها ما هو غير ذلك ، وإلى جانب شعورهم الوطني وكرههم للظلم كانت لديهم مطامح تبغي الكسب الفردي رافقتها اغراءات أجنبية .

الهجوم الاول :

أعتاد الشيشكلي أن يقول ، « إن أعدائي يشبهون الافعى ، رأسها جبل الدروز ومعدتها حمص ، وذنبها حلب ، فاذا سحقت الرأس ماتت الافعى » ولقد كان الشيشكلي محقاً في خوفه من الدروز لأنهم كانوا يشكلون مجتمعاً غريزيا متماسكا في جنوبي سورية ، تمسك بالتقليد المتمثل في مقاومة

حكم دمشق ، وقد دفعت بهم صلاتهم الوثيقة بالاردن إلى جعلهم وسيلة في يد النفوذ الهاشمي في سورية، وزاد من تعصبهم سهولة الهروب عبر الحدود حيث السلامة ، والزعيم الدرزي المرموق سلطان باشا الاطرش طلب اللجوء السياسي من الملك عبد الله بعد فشل ثورة ١٩٢٥ ضد الفرنسيين ولم يعد إلى سورية إلا عندما صدر العفو عنه عام ١٩٣٦ ، كما قامت بريطانيا بتغذيـــة صلات معينة ببعض العائلات الدرزية ـ علاقة أقل أتساعا بكثير من الصلات التي دامت طويلا بين روسيا والمجتمع الارثذوكسي في الشرق الادنى و صلات فرنسا بالمارونيين، غير أنها ذهبت بشكل او بآخر إلى تفسير الدافع وراء العلاقات الطيبة بين الدروز واصدقاء بريطانيا الهاشميين .

اصبح الجبل جزءا من سورية عام ١٩٤٥ فاقدا ما يشبه الحكم الذاتي الذي كان يتمتع به ابان الانتداب ، ان ذلك لم يكن في صالح نشوء علاقات طيبة مع الحكومة السورية التي جاءت بعيد الحرب،والحقيقة ان اشتراك الدروز في المؤامرة على الشيشكلي كان احد أحداث تاريخ طويل من الخصومة مع دمشق .

ففي عام ١٩٤٧ عزم الرئيس القوتلي على لجم نفوذ عائلة الاطرش في الجبل فقام يؤازره الملك ابن سعود (وذلك باقناعه بانه من خطط الدروز تنصيب الملك عبد الله ملكاً على سورية) بتشجيع الفلاحين الدروز على الوقوف ضد اسيادهم من عائلة الاطرش ، ولقد نظم هؤلاء العاملون بالمحاصصة حركة سميت بالشعبيين أشعلت النار في بيوت آل الاطرش في ستة من القرى وطالبت سلطان باشا في معقله (القريا) بالاستسلام،ولكن السلطان ذلك المحارب القديم عقد مجلس حرب واستدعى المحاربين من رجاله الذين هزموا الثائرين بقيادة حسن الاطرش في معركة حامية قرب قرية (بكا)، ويدعي الامير حسن (١) بان وزير الدفاع السوري أحمد الشرباتي انتظر نتيجة المعركة بصحبة فوج من قوات الحكومة على مسافة عشرين ميلا متحفزا لاحتلال الجبل متى تم طرد آل الاطرش منه ، ولكنه ومع فشل التمرد سحب الشرباتي قواته

(١) حسن الاطرش للمؤلف بيروت ، ٢١ تشرين الاول ١٩٦٠

إلى دمشق تاركا الدروز لكي يعقدوا الصلح فيما بينهم .

لقد اضعفت تلك المكيدة الفاشلة ضد الدروز موقف القوتلي وساعدت على انجاح انقلاب الزعيم ، ولكن وكما رأينا (٢) فان الزعيم بدوره استثار عداء الدروز لدى تسلمه السلطة . وقد كان الضباط الدروز هم البارزون من بين المتآمرين الذين أسقطوه ، ولم تكن علاقات الشيشكلي بسلطان الاطرش ودية قط وقد ساءت عندما قبض على منصور ، أحد ابناء سلطان بتهمة الاشتراك في مظاهرة بعثية ضد الشيشكلي .

ودلت المعلومات الواردة إلى الدكتاتور من قبل الزعيم شوكت شقير (٣) رئيس الاركان خلال الاشهر التي سبقت سقوطه ان هنالك خطط رسمها مناوئوه في الداخل والخارج للقيام بعصيان في الجبل يتسع إلى أن يشمل البلد بأكمله .

أما مدينة حمص ، حصن عائلة الاتاسي ، — ومعقدة أفعى الشيشكلي — فقد كانت بالنسبة له المركز الرئيسي للمعارضة خلال فترة حكمه ، ولقد وصفنا في السابق كيفية انضمام الاتاسيين إلى حزب الشعب المتشكل مجددا عام ١٩٤٨ والواقف ضد الحزب الوطني التابع للقوتلي والذي أخذ ينمي علاقاته مع العراق ، في ذلك الوقت كانت العائلات الكبيرة التي تملك الاراضي الواسعة كعائلة الاتاسي لا تزال تسيطر على الريف (على الرغم من أنها كانت مقدمة بعد فترة قصيرة على خسارة الحكومة المركزية لصالح الجيش) كما تحاول فرض سلطانها الاقتصادي في وجه تحدي فئة صغيرة من الصناعيين (٤) وطبقة من التجار ملاكي الجرارات (٥) الذين كانوا يفتحون أبواب الزراعة التجارية على الارض

---

(٢) الصفحة ٧٣ السابقة .

(٣) شوكت شقير للمؤلف بيروت ، ١٨ كانون الاول ١٩٦٠

(٤) بصورة خاصة مجموعة صناعية معروفة باسم .. الخماسية .. ، كان الشركاء الرئيسيون فيها بدر الدين دياب وعبد الهادي رباط وعبد الحميد دياب ومحمد عادل الخوجه وأنور القطب ولهم استثمارات في القطن والاسمنت والسكر والصابون والزجاج والبترول . الخ ..

(٥) الصيغة كما استعملها دورين وارنير صفحة ٧١ .

البكر في الشمال الشرقي ، للزراعة التي تعتمد على الآلات ، ومع السنوات الخمسينية الاولى كان الشكل التقليدي للسلطة قد تزعزع ، غير أنه لم يكن قد تعرض بعد لضربات سنوات ما بعد السويس ، والحقيقة ان هاشم الاتاسي الذي كان يحكم حمص ومعظم مناطق الريف المحيطة بها بعائلته ومؤيديه واصدقائه لم يكن من بين اولئك الذين تجرأ الشيشكلي على الاصطدام بهم علناً ، وبرعايته استطاعت حمص أن تصدر صحيفة السوري الجديد وهي الصحيفة الوحيدة الصادرة باسم المعارضة آنذاك .

ولقد حصل في تلك المدينة بالذات أن اجتمع بشكل سرى ممثلون عن جميع الاحزاب والجماعات المناهضة للشيشكلي في الرابع من تموز ١٩٥٣ للتوقيع على ميثاق وطني كان في الواقع عهدا باسقاط الديكتاتور .

وقد اتفقت احزاب الشعب والوطني والبعث والشيوعيين وعدد من « المستقلين » ذوي النفوذ على الاتحاد في محاولة مشتركة لاسقاطه كما شجعت محاولات الشيشكلي اصباغ الشرعية على نظامه بايجاده دستورا وبانتخابه لمنصب الرئاسة مناوئيه على الظهور علنا ، كما اتفقت على أن تقوم كل محافظة في سورية بالتهيئة لتحرير نفسها غير أن اشارة البدء بالعصيان الذي يشمل البلد بأكمله تكون في قيام حركة في جبل الدروز .

يصف حسن الاطرش قائد الدروز ما حدث في الجبل (٦) آنذاك بقوله :

« في منتصف عام ١٩٥٣ بعث رئيس الحزب الوطني صبري العسلي إلي بكلمة يقول فيها باننا يجب ان نوحد قوانا كي ننقذ البلد من الدكتاتورية ، وجاء لقاؤنا ليشهد بداية الحركة ضد الشيشكلي ، فبدأنا بتعبئة قوانا في الجبل بينما كان السياسيون بدورهم يعقدون سلسلة من الاجتماعات السرية لتنظيم معارضة فعالة ، أما قمة هذه الاتصالات فتمثلت في توقيع ميثاق حمص .

لكن حدث آنذاك خطأ فادح في التوقيت اذ قام البعث بتوزيع منشورات معادية للشيشكلي في الجبل وذلك قبل أن تصبح تحضيراتنا جاهزة — ربما في محاولة للوصول إلى قيادة حركة المعارضة — ولقد جلب عملهم هذا

(٦) حسن الاطرش للمؤلف ، ٢٤ تشرين أول ١٩٦٠

بتنبيه السلطات كارثة علينا ، اذ قام الشيشكلي بعمل سريع لاستباق الثورة فألقى القبض على الوفد الدرزي الذي كان يومئذ في دمشق (وانا واحد منهم) وارسل بقوات كبيرة إلى الجبل،ومن ثم حوصر سلطان باشا في بيته في (القريا)

وقد حدا اعتقالي وهذا الاستعراض للقوة ، بالدروز إلى التظاهر ضد الحكومة في السويداء ، وفسر الشيشكلي ذلك كله على أنه أول خطوة من الخطة المعدة سابقاً لاسقاطه وقرر اخماد التمرد في مهده فأرسل بوحدات مدرعة لاحتلال المدينة ، كما ضخم التهمة الملفقة التي اطلقها بأننا كنا نعمل يدا بيد مع اسرائيل بعرضه لاسلحة اسرائيلية استولى عليها من الجبهة على أنها وجدت في الجبل وكنتيجة لمثل هذا الاستفزاز قام جنوب الجبل بكامله بالاجتماع في القريا ، فكان تجمهر جماعة من الدهماء أكثر منه تجمع قوة عسكرية ، ولكن قوات الحكومة ، التي ربما خافت من عددهم ، اصطدمت معهم واصيبت بعدد من الاصابات وذلك قبل أن تتراجع ، وبذلك كان الجيش قد أثير بشكل عنيف ضد القرويين ، فأعاد تجميع شمله في السويداء ليبدأ مذبحة بين الاهالي استعملت فيها الاسلحة الثقيلة كما ارتكبت بعض الاعمال الفظيعة ومن ثم احتل الجيش الجبل بأكمله وهرب الزعماء الدروز إلى الاردن عابرين الحدود ، وسمعنا ان كمال جنبلاط (الزعيم الدرزي اللبناني) كان على استعداد للمجيء لنجدتنا عبر الجبال غير ان الممرات كانت مغطاة بالثلوج » .

ان أحداث الجبل التي يصفها هنا حسن الأطرش بلغت ذروتها في الاسبوع الاخير من كانون الثاني عام ١٩٥٤ فقد رافقتها اضرابات ومظاهرات طلابية في المدن الرئيسية السورية ، أما حلب – ذنب أفعى الشيشكلي – فقد بدأت بالتحرك انها لم تكن معقل اعدائه القدامى ، حزب الشعب فحسب ، بل كانت بلد العديد من الاقليات العنصرية والدينية ، كما هو الحال في شمال سورية كله ، الذين شعروا بان الكثير من « الاصلاحات » التي قام بها الشيشكلي والتي هدف منها إلى خلق دولة اسلامية عربية متجانسة ، هي موجهة ضدهم ، فالاكراد والآشوريين والارمن والعلويون والاقليات المسيحية

من كل صنف جرت مضايقتهم بواسطة سيل من المراسيم التي أمرت باسباغ اسماء – عربية صرفة على الفنادق والمقاهي ودور السينما وان تكون اللغة العربية هي اللغة المسموح التكلم بها في كل الاجتماعات والمهرجانات والاحتفالات ، وان يكون للمسلمين في كل المجالس التابعة للاقليات غير المسلمة عدد من المقاعد مساو للعدد التابع لهم سواء كانت هذه المجالس مجالس ثقافية او اجتماعية أم رياضية ، كما منع رؤساء الاقليات الروحيين من التحدث في اجتماعات عامة خارج امكنة عبادتهم .

وفي أوائل كانون الاول ١٩٥٣ اصطدم الطلبة بالشرطة في حلب كما أغلقت المحلات التجارية تضامنا مع المتظاهرين (٧) ، كما كتبت جريدة حمص « السوري الجديد » المعارضة أن اساتذة وطلابا قد جرحوا وان محامي حلب قاموا بالاضراب احتجاجا على اعمال الشرطة الوحشية ، وتعاظمت القضية ثم أدى اعتقال ثلاثة من المحامين إلى نزول الطلبة إلى الشارع في حمص كما حدث ذلك في حماه ودمشق حيث جرت أعتقالات عديدة وعلق التدريس في الجامعة .

ولقد كان ذلك الوضع المزعزع الذي ولد العنف في الجبل كما شرحنا أعلاه هو الذي قاد الشيشكلي إلى الظن بان اعدائه يتحفزون لضربه ، وقام باستباقهم وامر باعتقال أربعة وعشرين من القادة السياسيين (٨) . وذلك ليلة ٢٧–٢٨– كانون الثاني ، كما فرضت الاقامة الجبرية على السيد الوقور هاشم الاتاسي في داره بحمص والذي أصبح الآن ثوريا يعمل في العلن ، واعلنت حالة الطوارىء بينما عين عدد من قادة الجيش الكبار نوابا للمحافظين في محافظات حلب وحمص وحماه وجبل الدروز ، وفي دمشق نفسها أصبح

(٧) بدأت الاضطرابات عندما حاول الطلاب اضرام النار في الكلية الاميركية في حلب احتجاجاً على تمثيلية مدرسية زعموا انها عبرت عن مشاعر معادية للعرب .

(٨) كان من بين المعتقلين صبري العسلي من الحزب الوطني ، رشدي الكيخيا وعلي بوظو وشاكر العاص وفيضي وعدنان الاتاسي من حزب الشعب ، اكرم الحوراني، وزعيما البعث ميشيل عفلق وصلاح الدين البيطار وحسن الاطرش ، وعدد من اساتذة جامعة دمشق ممن لديهم نشاطات سياسية فعالة أمثال عبد الوهاب حومد ورزق الله انطاكي ومنير العجلاني .

الزعيم شوكت شقير رئيس الاركان العامة نائبا للمحافظ بينما احتفظ الشيشكلي لنفسه بمنصب الحاكم .

ثم قام السياسيون بالرد فأصدروا منشورا حماسيا باسم الجبهة الوطنية يهيب بالشعب ان يهب للخلاص من الدكتاتور ومن حوله من « الحشرات » بينما طلب هاشم الاتاسي من الدول الاعضاء في الجامعة العربية ان تتدخل قبل ان تلوثهم هم ايضا سموم الشيشكلي .

وفي اليوم ذاته ، ٢٨ كانون الثاني ، أصدرت نقابتا المحامين في دمشق وحلب احتجاجات تتضمن كلمات حادة تندد بتلك الاعتقالات ، بينما اذاع الشيشكلي نداء « للشعب السوري النبيل » يحذره فيه من « المخربين الذين اساؤوا استعمال الحريات الدستورية وعملوا على اثارة السكان للقيام بعصيان مستغلين الشعور الوطني لدى الطلاب » ثم هدأت الخواطر وأعلنت الحكومة يوم ٣١ كانون الثاني بأن الامن قد عاد الى البلاد بأكملها ، ومع بداية شهر شباط رفعت الرقابة المشددة عن الصحف ، كما الغي منع التجول الذي كان مفروضا على الجبل وأعيد فتح الحدود السورية اللبنانية التي كانت قد اغلقت بشكل مؤقت ، وبدأت الحكومة بالتشاور مع القادة السياسيين الموقوفين في محاولة للوصول الى تسوية ، وظهر الشيشكلي امام العديد من المراقبين بمظهر الذي اخمد العاصفة .

دور العراق :

ان هذه الهدنة خلال المعركة ضد الشيشكلي اتاحت الفرصة لوضع الاضطرابات الداخلية لسورية في قرينة اوسع : وليس سرا ان اعدائه المحليين كان لهم اصدقاء في الخارج ، وكما رأينا فان الانقلابات السورية كانت نتيجة ائتلاف مؤقت لبعض الرجال داخل البلد يساندهم مؤيدون من الخارج ، وكانت تدفع المتآمرين دوافع عديدة ومختلفة جدا وتجمعهم رغبة في التغيير ، وان العديد من الادلة تشير الى ان العراق كان يشجع ويمول العصيان ضد الشيشكلي .

وكان من المنطقي بالنسبة للسياسة العربية ان يجد اعداء الشيشكلي الداخليون من يدعمهم في العراق حيث كانوا ينظرون اليه على انه العائق الرئيسي الذي يمنع توسع النفوذ الهاشمي في آسيا العربية ، وقد قام منذ انقلابه الاول في كانون الاول عام ١٩٤٩ برفض كل المحاولات التي قام العراق بها للتقارب كما لاحق اصدقائه في سورية وباسم استقلال سورية أقام علاقات وثيقة مع العربية السعودية ، أما انقلابه الثاني في تشرين الثاني لعام ١٩٥١ فقد اقصى حزب الشعب وهو الحزب المؤيد للعراق عن الحكم ، كل هذه الامور أعطت العراق دوافع قوية جعلته يرغب باسقاطه .

ولا تستطيع سوى مصالح الوصي العراقي تفسير الاهتمام الشديد والترحاب اللذين استقبل بهما ظهور اولى الانشقاقات في الصخرة السورية .

لقد راقب عبد الاله رسوخ نظام حكم الشيشكلي بالغم والقلق فقد كان مستقبله غير واضح ووصايته على وشك الانتهاء في ١ ايار ١٩٥٣ وذلك مع اعتلاء فيصل الثاني للعرش ، لذلك فقد بدا له ان كل ما كان يحلم بالحصول عليه لنفسه يتمثل في عرش سورية ، ان الامر كان يتطلب طموحا صلبا ، وذلك للابقاء على آماله حية عام ١٩٥٢ ، العام الذي تميز بسيطرة الشيشكلي المطلقة على البلاد غير ان هذه الامال عادت الى الانتعاش عندما هوجم الدكتاتور السوري داخل بلده ، وقد وجد مناوئو الشيشكلي من جميع الفئات السياسية التشجيع من بغداد لخططهم الانقلابية .

ان علاقة العراق لم تكن مفهومة في ذلك الوقت ولكنها فضحت بعد اربع سنوات عام ١٩٥٨ ، عندما حاكمت حكومة الزعيم قاسم الثورية خدمة النظام السابق عندئذ تجلت الحقيقة واضحة من خلال الادلة التي ظهرت للمحكمة بان اعدادا كثيرة من الساسة السوريين كانت لهم اتصالات وثيقة مع الحكومة العراقية وقد استلموا في مرات عديدة الاموال منها (٩) ، فشكوك الشيشكلي

(٩) ان الأمور التي كشفتها محاكمات بغداد قد سببت بعض الحرج ، فصبري العسلي مثلا ارغم على الاستقالة من منصب نائب رئيس الجمهورية العربية عندما فضح انه تسلم ١٥ الف دينار من العراق خلال الحملة ضد الشيشكلي (انظر بيانه الى الاهرام، القاهرة) تاريخ ٧ تشرين اول ١٩٥٨ وسلسلة مقالات حسنين هيكل « ماذا جرى في سورية التي نشرها في الاهرام ما بين

اذن بالعراق لم تكن بلا أساس ، فقد كانت هنالك خطة مفصلة تهدف الى غزو سورية غزواً مسلحاً يقوم به العراق وقد اعترف بوجودها الزعيم غازي الداغستاني نائب رئيس اركان جيش العراق ابان محاكمته وبأنه ورثها من الذي سبقه في اول عام ١٩٥٤ (١٠) . ومن المعتقد ان الملحق العسكري العراقي في دمشق « عبد المطلب الامين » هو الذي وضع هذه الخطة « الخطة س » عام ١٩٥٣ .

ولم تكن بريطانيا بغافلة عما يجري تخطيطه وذلك نظرا لنفوذها الواسع في العراق في ذلك الحين غير انها لم تستطع تجنب التهمة التي وجهت اليها وهي انها شجعت الهجوم على الشيشكلي اذ اعلنت صحيفة لوموند يوم ٢١ نيسان ١٩٥٣ ما يلي :

« اننا نشهد مناورات أغلب الظن انها مستوحاة من بريطانيا العظمى ، لاثارة شركائها العرب ضد سورية ... انها ليست المرة الاولى التي تهدد بها المؤامرات الخارجية أمن سورية الداخلي او تحاول بريطانيا جر هذه الدولة التي تعتبر مفتاحا لرقعة شطرنج الشرق الاوسط الى داخل مناطق نفوذها . »

لم تكن الحماسة التي رافقت هبوب الصحافة الفرنسية للدفاع عن الشيشكلي على انه « بطل استقلال سورية » غير متصلة بحقيقة ان فرنسا استعادت تحت ظل نظامه بعض نفوذها في منطقة انتدابها السابقة ، وفي السابع عشر من تشرين الاول كتبت لوموند عن تشكيل « حكومة سورية الحرة » في بغداد برئاسة العقيد محمد صفا (١١) وجددت اتهاماتها لبريطانيا وهي الاتهامات التي وجهها

---

١٣ تشرين اول الى ١ كانون اول ١٩٦١ ، أنظر أيضا نشرة « الاذاعة البريطانية » رقم ٧٩٣ تاريخ ١٣ تشرين ثاني ١٩٦١ ، كما ذكر معروف الدواليبي في رسالة الى رئيس محكمة بغداد والتي قرئت ابان محاكمة فاضل الجمالي ان نوري والوصي قد عرضا عليه عونا عسكرية وماليا ضد الشيشكلي اثناء لقاء في بغداد في صيف عام ٩٥٣ ولكنه رفض ذلك . (انظر نشرة « الاذاعة البريطانية رقم ٦٦٣ — ٢٥ ايلول ٩٥٨) .

(١٠) انظر .. محكمة الشعب .. (١٩٥٨) . الجزء الاول — صفحة ٢٧٦ الصادر عن وزارة الدفاع العراقية .

(١١) كان صفا احد الضباط الذين أحالهم الشيشكلي على التقاعد بعد فشل الانقلاب ضده في كانون اول ١٩٥٢ .

الشيشكلي نفسه ضد « دولة اجنبية » عندما اوشك حكمه على الانهيار في بداية عام ١٩٥٤ (١٢) .

أما الصحافة السورية فبتضخيمها لهذه التهم قالت بوجود مؤامرة بريطانية خلف هذه الاضطرابات وذلك لاقامة حكومة عميلة لها في دمشق ، تجر سورية الى اتحاد الهلال الخصيب وتدفع بها الى الدخول مع اسرائيل في حلف دفاعي اقليمي ، وتعزل بالتالي مصر والعربية السعودية — كل ذلك كما زعم المقال : يخدم مصالح بريطانيا المضادة لمصالح اميركا في الشرق الاوسط (١٣) .

ان تصديق بعض هذه التصورات يشهد على صدق السوريين وعلى تناقض السياسة البريطانية في الشرق الاوسط .

شهدت اولى اعوام الخمسينيات ازديادا كبيرا في انتاج النفط في العراق ، فارتفع من ستة ملايين طن عام ١٩٥٠ الى ٣٠ مليون عام ١٩٥٤. ان مصلحة بريطانيا الاولى كانت تتمثل في المحافظة على صداقة سورية واستقرارها وبذلك تؤمن سلامة انابيب شركة بترول العراق الذاهبة الى البحر الابيض المتوسط ، ولم تكن لديها أية مصلحة في وحدة سورية عراقية ولو انها قامت لعاداها بشدة السعوديون و المصريون والفرنسيون والمتطرفون من الوطنيين العرب في كل مكان ولكان معنى ذلك ايضا تصدير مشكلات سورية الى العراق ، ولكن كان لبريطانيا التزامات صداقة نحو الهاشميين ، ولانها انقذت الوصي العراقي عام ١٩٤١ وجعلت منه شخصية مرموقة بعد الحرب فانها لم تكن لتستطيع معاداة خططه في سورية بشكل علني ، والواقع انها مالت الى الانحراف نحو مواكبة الخطط العراقية نظرا لما كانت تلاقيه من متاعب متزايدة في مصر وربما لأنها لم تقدر تلك الهوة المتعاظمة التي كانت تفصل بين الوطنيين العرب والعائلة الهاشمية ولقد بدا العراق في اعين الانكليز مرشحا قويا لزعامة العرب وذلك بأنهاره العظيمة وغناه البترولي الفاحش ، كما بدا لبريطانيا ان العائلة المالكة الصديقة

---

(١٢) انظر بيانه في الجمهورية (القاهرة) ، ٢ شباط ١٩٥٤ .

(١٣) انظر بشكل خاص صحيفة الفيحاء (دمشق) تاريخ ٣،٤،٩ / شباط ١٩٥٤

وحكومة نوري السعيد ومن لهم صلة بها يشكلون بمجموعهم الرصيد الاكبر عندما درس الوضع في لندن .

ولكن : اذا نظرنا إلى الأمر من وجهة نظر عربية فان العراق يكون عندئذ غير مؤهل لزعامة العرب .

لذلك فمهما كان الدور الحقيقي او الخيالي للدول العظمى ، فالمؤامرة على الشيشكلي قد تمت بمساعدة العراق في خريف عام ١٩٥٣ وتفجرت كما وصفنا في اضطراب مكشوف في كانون الثاني ١٩٥٤ ، وفي بداية ذلك الشهر قام فاضل الجمالي رئيس وزراء العراق باستغلال الاتجاه المناوىء للشيشكلي فوضع امام جامعة الدول العربية خطة اتحاد فيدرالي عربي يتكون على مراحل ويبدأ باتحاد سورية والعراق والاردن ، وقدم وزير خارجيته اقتراحا بان يقوم العراق بتمويل انشاء جيش عربي من عائداته البترولية ، ولكن كلا من مصروالسعودية نظرتا الى الاقتراحين بأعين الشك كما رفضتهما سورية على انهما تجسيد جديد لمشروع الهلال الخصيب الذي عارضه الشيشكلي طوال حياته السياسية .

ان هذا الرفض الفظ اغضب العراق كما قوّى من عزيمة أصدقائه السوريين . ووصفت الصحافة البريطانية الدكتاتور السوري بأنه « أداة في يد الامبريالية الفرنسية » وطالبت الدول العربية الاخرى بالتدخل ، وحثّ رئيس لجنة العلاقات الخارجية في مجلس النواب العراقي السيد صادق البصام رئيس الوزراء على طلب عقد جلسة عاجلة لجامعة الدول العربية « لان قضية سورية ليست مسألة داخلية فحسب بل هي مسألة تهم كل العرب » ، وبعد يومين اي في الرابع من شباط طلبت سورية سحب الملحق العسكري العراقي من دمشق « لقيامه بأعمال تتجاوز مجال واجباته الرسمية » ، وفي الواقع ان ما دفعه من أموال للسياسيين السوريين وللجرائد قد أصبح مفضوحا .

وفي اليوم ذاته عقد زعماء الطائفة الدرزية مؤتمر لهم في بيروت ليطلعوا الرأي العام العالمي والصليب الاحمر على مذبحة ابناء دينهم السوريين ، فألقى كمال جنبلاط كلمة هاجم فيها الشيشكلي هجوما عنيفا وأجابت السلطات السورية بأن اغلقت الحدود يوم السادس من شباط وقد وجد الشيشكلي في مصر سندا له ،

على حين كانت العراق ولبنان على خلاف شديد معه فدعا الرئيس نجيب وأنور السادات ، وهو عضو بارز في مجلس قيادة الثورة ، السوريين الى رص صفوفهم في وجه « عملاء الامبريالية ومؤيديهم من الانكليز القذرين .. »

غير ان العربية السعودية كانت الدعم الرئيسي للشيشكلي في وجه الضغط العراقي ، وقد كان الشيخ يوسف ياسين المسؤول الرئيسي عن رسم السياسة السعودية الخارجية وهو يكره العراق وخصص جزءاً متصاعداً من عائدات السعودية البترولية لمنع حدوث تفاهم بين سورية والعراق ، ونتيجة لتوسط السفير السعودي في دمشق الشيخ عبد العزيز بن زيد اعيد فتح الحدود السورية اللبنانية بعد اغلاقها بأربع وعشرين ساعة .

وفي العاصمة السورية بدأ التوتر بالتقلص وقام عبد الله اليافي رئيس وزراء لبنان بزيارة المدينة حاملا عرضا للتوسط بعد ان وصل بيروت الرئيس العراقي الجمالي في مهمة من اجل الصلح ، واجتمع البرلمان السوري من الثامن الى العاشر من شباط لتوجيه اتهاماته الرتيبة ضد العراق والانكليز وعملائهم المخربين ، غير ان الازمة بدت وكأنها انتهت ، وانتظر المواطنون بأعصاب أكثر هدوءاً نتيجة المحادثات بين الشيشكلي وزعماء المعارضة الموقوفين الذين كان يتوقع اطلاق سراحهم في أي يوم .

ذكرت لوموند يوم ٢٤ شباط « أنه لم يعد هنالك من شك في أن المتآمرين السوريين كانوا يعملون متفقين مع قوى من خارج البلد ، وان الصراع الخفي بين النظام والمعارضة لا يمكن له لوحده ان يفسر خطورة الاحداث الاخيرة ، ويبدو الان من المؤكد ان مؤيدي الهلال الخصيب — اتحاد سورية والعراق والاردن — حاولوا استغلال المشكلات الداخلية كي يسقطوا الشيشكلي المعروف بأنه الحامي لاستقلال سورية ، وتكمن مهارة هؤلاء المتآمرين في توزيع الادوار واخفاء ما هو مناورة ضد الاستقلال السوري تحت ستار ازمة داخلية ، ولكن الشيشكلي خرج منتصرا من امتحان القوة الجديد هذا . » وبعد ذلك بيومين شن عليه اعداؤه هجومهم السريع القاضي .

ثورة الجيش :

ان عصيانا عسكريا هو الذي أسقط الشيشكلي لان اعدائه المدنيين الرئيسيين كانوا في السجن ، والحدود هادئة عندما قام النقيب مصطفى حمدون من حامية حلب الساعة السادسة والنصف صباحا يوم ٢٥ شباط ١٩٥٤ باذاعة اول نداء للثورة طالبا من الشيشكلي مغادرة البلاد تجنبا لسفك الدماء ، وأعلن : « ليس هذا ببلاغ ولكنه اعتراف وعهد ونداء ، انه اعتراف بحالة اوصلت الجيش والشعب اليها حفنة من الرجال الاشرار ... وهو عهد بمحو الخزى والعار اللذين لحقا الجيش واستعادة طهارته ونبله لكي يعود الى ثكناته بنظام ... وهو أخيرا نداء لحمل السلاح ونداء للشرف ... »

قبل ساعة او ساعتين من صدور بلاغ التمرد هذا ، الذي شجبته دمشق في محاولة لتلطيف الجو بزعمها انه اذاعة اسرائيلية ، قام المقدم فيصل الاتاسي ، ضابط اركان اللواء الثاني المتمركز في حلب باعتقال رئيسه العقيد عمر خان تامر ومحافظ حلب والاعضاء الرئيسيين في حركـة التحرير العربي التابعة للشيشكلي ، كما تمركزت الدبابات بناء على أمره في الطرقات الرئيسية بينما قامت قوات باحتلال مركز البريد ومبنى الاذاعة وأبنية الحكومة ، وفي الساعة الثامنة والنصف تقريبا ايد العقيد امين أبو عساف قائد اللواء الثالث في دير الزور الثوار بشكل علني .

ان كل واحد من هؤلاء المتآمرين الرئيسيين فيصل الاتاسي ، امين أبو عساف ، ومصطفى حمدون كان يمثل قسما هاما من الائتلاف الذي وقف ضد الشيشكلي ، اما فيصل الاتاسي فهو ابن أخ الرئيس السابق هاشم الاتاسي القابع في حمص مركز الثورة ، وأما أبو عساف فقد كان يمثل الجبل الذي تحمل اضطهاد الشيشكلي وأخيرا النقيب حمدون من سكان حماه ، وكان صديقا حميما وتلميذا سياسياً لأكرم الحوراني ، فالجيش اذن كان يعمل كأداة بيد مصالح مدنية اقليمية تعززها دوافعه الخاصة الواضحة فموقف الشيشكلي تجاهه قد تغير ، وحين حاول اسباغ الشرعية على نظامه لم يعد ينظر الى الجيش على انه النخبة

بل خفض امتيازاته وسلطاته وحاول اعادته الى ما يشبه وضعه الطبيعي المعتدل في حياة الامة ، وقد اغضبت هذه المحاولة بمرارة معظم الضباط خارج نطاق حاشية الرئيس المقربة الذين رأوا بالاضافة الى ذلك ان اهواء المقربين من الدكتاتور تتحكم في أعمالهم وترفيعاتهم .

وما ان دنت الساعة التاسعة صباحا حتى قام قائد حامية الساحل الغربي في اللاذقية المقدم عبد الجواد رسلان بالانضمام الى الثورة تبعه بعد ساعات قليلة العقيد محمود شوكت قائد المنطقة الوسطى في سورية منطقة حمص وحماه .

وفي حلب استدعى المقدم الأتاسي القناصل الاجانب ليخبرهم عن النجاحات التي احرزها الثائرون ، وطلب من الشيشكلي في انذار وجه إليه ذلك الصباح مغادرة أرض سورية قبل الساعة التاسعة مساء او مواجهة المحكمة بتهمة الخيانة العظمى ، كما أذاع الضباط الثائرون بأنهم قد اتفقوا على طلب هاشم الاتاسي العودة الى الرئاسة التي استقال منها بعد انقلاب الشيشكلي الثاني في تشرين الاول عام ١٩٥١ .

اما المنطقة التي تقع شمالي دمشق فقد هبت تحمل السلاح ، وفي عصر ذلك اليوم وقع قادة حاميات حلب ودير الزور واللاذقية وحمص وحماه بيانا أرسل الى كل صحف الوطن العربي يعلنون فيه ان الجيش السوري قد قام بمنأى عن كل الاطماع الفردية او السياسية مستجيبا لنداء الشعب باعادة الحكم الشرعي الديمقراطي ، ثم أيد الانقلاب العقيد عمر القباني قائد حامية حوران التي تقع جنوب سورية وذلك عند العصر ، كما عزل عشرة آلاف جندي من أفضل قوات الشيشكلي في جبل الدروز ووقفت دمشق وحيدة .

أما الشيشكلي فانه امضى الصباح في اجتماع مع مستشاريه المدنيين ومع اركان قيادته ، ويظن انهم قرروا (١٤) ان تتخذ القوات الباقية تحت امرته — وهي تضم عماد مدفعية سورية الثقيلة ومدرعاتها المتمركزة في قطنا والقابون — مراكز دفاعية لا تتحرك للهجوم الا في حالة تدخل اسرائيلي مسلح او من قبل

(١٤) الحياة — ، (بيروت) ، ٢٦ شباط ١٩٥٤

دولة عربية مجاورة وألا تسحب أية قوات من حدود اسرائيل ، وقد اتخذت هذه القرارات قبل ان يذاع انذار حلب او تصل الشيشكلي اية انباء عن انفصال حاميات حوران وحمص وحماه عنه وانضمامها الى الثائرين ، اما هذه الامور فقد جرى بحثها في اجتماع كئيب في المساء حيث أشار عليه معظم رفاقه بالاستقالة ، وقبل هذه النصيحة .

وفي العاشرة مساء — وبعد ان وافق الثائرون على تمديد مهلتهم ساعة واحدة غادر الرئيس دمشق الى بيروت ومن ثم الى المنفى ، أما راديو دمشق فقد توقف عن البث اثناء اذاعة اخبار منتصف الليل بعد اذاعة الخبر والجزء الاخير من كتاب استقالة الشيشكلي الذي بعث به لدى مغادرته الى رئيس مجلس النواب الدكتور مأمون الكزبري .

كتب الشيشكلي قائلاً : « رغبة مني في تجنب سفك دماء الشعب الذي أحب ، والجيش الذي ضحيت بكل غال من أجله والامة العربية التي حاولت خدمتها باخلاص صادق اتقدمُ باستقالتي من رئاسة الجمهورية الى الشعب السوري المحبوب الذي انتخبني والذي أولاني ثقته آملا ان تخدم مبادرتي هذه قضية وطني ، وابتهل الى الله ان يحفظه من كل سوء وان يوحده ويزيده منعة وان يسير به الى قمة المجد » (١٥) .

لماذا لم يبق الشيشكلي ولم يحارب حتى النهاية ؟ رغم احتكاره الكبير للدبابات والمدافع الثقيلة فقد كان لديه أكثر من مجرد فرصة للسيطرة على الحاميات الثائرة ، ولم تذكر اذاعة دمشق المقاطع الاولى من رسالة استقالته التي وضح بها بأنه كان باستطاعته سحق الثائرين ولكن على حساب احداث انشقاق في الجيش — « وهو من لحمنا ودمنا » — واضعاف دفاع سورية في وجه العدو المتربص على الحدود ، ان هذه الاسباب قد تكون حملته بعض الثقل ، وقد يكون قد اعتقد بأنه لو استدعى الامر نشوب قتال فان الثائرين قد يطلبون تدخل جيش العراق وبذلك يفتحون امام العراق باب الدخول الى سورية الذي طالما

---

(١٥) دفاتر الشرق المعاصر — ٢٩ (١٩٥٤) صفحة ٧٤.

حرص في سياسته على ابقائه موصدا (١٦) ، وبالاضافة الى ذلك فان طبـاع الشيشكلي لم تكن ميالة الى القتال ، صحيح انه كان قائدا قديرا ابان حـرب فلسطين ولكنه كان يميل في سياسته الى دحر عدوه بطريق التحايل لا عن طريق المجابهة بالهجوم ، ولربما اعتقد أن افضل فرصة مواتية له هي في تصنع الهزيمة والذهاب الى بيروت قبل ان يعود لينقض على الثائرين في غفلة منهم ساعـة النصر ، وربما يكون قد تعب من الحكم معتقدا انه بوجود مال في مصـارف اجنبية ومأوى في العربية السعودية يحسن صنعا بانسحابه بكرامة ، طالما انه لا يزال لديه متسع من الوقت ، ويتمتع السوريون عن غير حق بسمعة الميـل الى العنف والحقيقة ان أكثر حالات الصراع السورية تنتهي باتفـاق الطرفين على حقن الدماء ، مهما بلغت تهديداتهما .

بلا حكومة :

عمت الفوضى اثر سفر الشيشكلي المفاجيء يوم ٢٥ شباط ، فالثائـرون لم يصلوا بعد الى دمشق بينما استلم السلطة العليا رئيس الاركان العامة الزعيم شوكت شقير ، وكانت اول خطوة قام بها ان اذاع نداء طـالب فيه بالهدوء ، وما كاد الشيشكلي يصل الى بيروت بعـد فترة قصيرة من منتصف الليـل حتى زار شقير سجن المزة ليطلق سراح الزعمـاء السيـاسيين الذين كانوا يراقبون تطور الازمة خلال الشهر الفائت مراقبة العاجز من وراء القضبان غير أن هنالك طلاب سلطة آخرون في العاصمة السورية تلك الليلة .

اذ رفض اثنان من الضباط المتنفذين في حامية دمشق وهما قائد الشرطة العسكرية النقيب عبد الحق شحادة وقائد وحدة مدرعة محلية النقيب حسـين حدة ، القبول بما حصل من سقوط سريع لنظام الشيشكلي فقد كانا يعلقـان

---

(١٦) ان علاقات الثائرين مع بغداد بعد بدء الثورة او مع « حكومة سورية الحرة » برئاسة محمد صفا لم تكن واضحة .

آمالا كبيرة عليه لذلك صعب عليهما رؤيته يتهاوى بدون قتال (١٧) وهما كانا قد عارضا قرار الاكثرية الذي أشار على الشيشكلي بالاستقالة وقد وجدوا حليفاً حذراً في الدكتور مأمون الكزبري رئيس مجلس النواب الذي دعا البرلمان للانعقاد يوم ٢٦ شباط وقرأ فيه كتاب استقالة الدكتاتور المخلوع لاولئك القلة من النواب الذين كان لديهم من الشجاعة ما يكفي للمغامرة بالخروج خارج بيوتهم (١٨) ، ثم اعلن الكزبري نفسه القائم بأعمال رئيس الجمهورية مستندا إلى البندين ٨٦ و ٨٩ من الدستور وتاركا رئاسة المجلس الى نائبه السيد سعيد اسحق ، ثم ارجئت الجلسة الى صباح اليوم التالي .

ولكن في الساعة الثامنة والربع من مساء ذلك اليوم اذاع راديو دمشق بيانا وكأنه دعوة الى ثورة مضادة وكان يحمل توقيع الزعيم شوكت شقير وتعهدا من هيئة الاركان العامة بدعم القائم بعمل رئيس الجمهورية ، كما اعلن «الوقوف في وجه أي تغيير أو انقلاب على النظام لا يأتي عن طريق قانوني» . وقد ظهر بعد ذلك ان النقيبين حدة وشحادة هما اللذان اصدرا ذلك البيان باسم الزعيم شوكت شقير بعد ان قاما باختطافه اولا .

وبينما كانت تجري تهيئة هذه الحفرة الأخيرة كان ثائرو حلب يخلدون الى الراحة ، غير انهم اذاعوا يوم ٢٦ شباط بيانين طلبوا فيهما تناسي الماضي وأرسلوا طائرات الى سماء دمشق مزودة بمنشورات تتهم ضباط الوحدة المدرعة بتوريط الامة في حرب أهلية وتطلب من الاهليين الوقوف في وجه زمرة الكزبري وشقير فاستجيب الى هذا النداء .

---

(١٧) ربما كان لشحاده مخاوف اخرى ، اذ ان رجلا جريئاً يسمى سليمان المرشد اعلن نفسه الها قبيل الحرب العالمية الثانية وأسس قرب اللاذقية نظاما دينيا مزيجا من السياسة والدين ، وقد استغله الضباط السياسيون الفرنسيون المحليون لتخريب معاهدة ١٩٣٦ التي دمجت دولتي العلويين والدروز في الدولة السورية ، لقد شنقه القوتلي ، وحاول ابن المرشد احياء الحركة زمن الشيشكلي فأرسل للتحقيق شحاده الذي قتل ابن المرشد ، وربما خشي من اعادة فتح القضية بعد سقوط الشيشكلي ، وقد حوكم فيما بعد وحكم عليه غيابيا بالاعدام في ١١ تشرين الثاني ١٩٥٤ .

(١٨) كان عدد الحاضرين (٤٦) عضوا .

ولما اجتمع البرلمان صبيحة يوم ٢٧ شباط قامت مظاهرة طلابية شاركتهم فيها فيالق من الدروز والشيوعيين والاخوان المسلمين واقتحمت مبنى البرلمان ولم تنسحب الا بعد ان أكد لهم سعيد اسحق بان البرلمان قد وافق لتوه على حل نفسه، اما الزعيم شقير فانه أصدر بيانا ـ وكان قد أطلق سراحه آنذاك ـ اعلن فيه حل البرلمان واعطاء الدكتور الكزبري صلاحيات تنفيذية وتشريعية مؤقتة » وايقاف كل الاجراءات المقبلة للاتفاق مع سلطات البلد . (١٩)

ولكن الثائرين لم يقنعوا بذلك ، وظهراً أصدر قادة المناطق الخمس الثائرون انذارا جديدا موجها الى الكزبري يطلبون منه ان يستقيل فورا وذلك لان الشعب والجيش لم يعترفا بالنظام الذي كان يحاول تثبيته كما سمعت انباء عن تحــرك الارتال الثائرة نحو دمشق لذا فان الزعيم شقير قرر تجنبا للاصطدام ان يعالــج الأمر بشكل مباشر مع القادة المجتمعين في دار هاشم الاتاسي في حمص ، وبعد أن شاور السياسيين الذين اطلق سراحهم من السجن توجه الى حمص امسيــة ٢٧ شباط وأمضى الليلة في محاولة الوصول الى حل سياسي ، وعاد إلى دمشق فجراً ليصدر بيانا يعلن فيه بأنه توصل الى الاتفاق مع القادة السياسيين والرؤساء الثائرين لاعادة السلطة الى أصحابها الحقيقيين .

لقد كان ذلك بمثابة اشارة سببت انفجارا كبيرا في المدينة ضد الشيشكلي وضد اولئك الذين لا يزالون على اخلاصهم له والذين احتموا في مبنى اذاعة دمشق ، وهاجم المتظاهرون المبنى ظهر يوم ٢٨ شباط لتصدهم الغازات المسيلة للدموع وطلقات من اسلحة خفيفة ، ولكنهم بتحديهم لنظام منع التجول أعادوا تجميع أنفسهم وجددوا الهجوم في اليوم ذاته ، وبينما كان الجنود يوالون اطلاق رشاشاتهم على الجموع المتقدمة استطاع مدير المحطة احمد عسه وهو احد أكفأ مستشاري الشيشكلي الهرب من المبنى تحميه حراسة قوية ، أما الدكتور الكزبري فانه بعد ان ألقت به الاحداث جانبا قدم استقالته الى الزعيم شقير بينما غادر النقيبان شحادة وحدة دمشق بعد ان استسلما اخيرا في الليلة ذاتها مسافرين الى اوربا بعد ان عينا ملحقين عسكريين في لندن وباريس .

---

(١٩) البناء بيروت ، ٢٧ شباط ١٩٥٤ .

وفي صباح اليوم التالي الاول من آذار ١٩٥٤ دخل هاشم الاتاسي دمشق منتصرا على رأس موكب يتألف من ٤٠٠ سيارة قبل الذهاب الى القصر الجمهوري الرابض على الهضبة فوق المدينة .

الشيشكلي في المنفى :

أمضى اديب الشيشكلي ليلة نفيه الأولى في السفارة السعودية في بيروت ، وكان من المقرر ان يغادرها عند فجر اليوم التالي ولكن جموح الصحفيين والمصورين الذين تجمهروا في المطار ظلوا ينتظرونه بدون جدوى ، اما الوضع في دمشق فكان مضطربا ، فتمد وصلت الى الشيشكلي رسائل من مؤيديه تسأله العودة ، أما السلطات اللبنانية التي تدرك مدى حقد الدروز عليه فانها خشيت ان تحدث محاولة تستهدف حياته وهو لا يزال فوق أرض لبنان ، وهنالك ادلة قوية بان السلطات العراقية كانت على استعداد للوصول الى ابعد الحدود كي تمنع عودته الى الحكم في دمشق ، وقد فهم ان السفارة العراقية في بيروت قد توصلت الى اتفاق مع زعماء الدروز اللبنانيين لتصفية الشيشكلي ، مما يفسر بان الدروز ثأروا لمذبحة ابناء دينهم في الجبل .

غير ان الرئيس اللبناني كميل شمعون رغبة منه في تجنب الاضطرابات أكد للعراقيين أن الشيشكلي سوف يغادر البلاد في الصباح ، فاستبعدت المؤامرة .

أما السعوديون فقد افهموا الشيشكلي بأنه لا يستطيع مغادرة سفارتهم الا للتوجه الى العربية السعودية ، وفي السابع والعشرين من شباط نقل الشيشكلي الى مطار بيروت الدولي برافقه مدير الامن وقائد الشرطة ورئيس الاركان العامة وتصحبه حراسة مشددة حيث استقل طائرة سعودية ملكية باتجاه الرياض .

ان الشيشكلية كقوة سياسية لم تدم طويلا بعده في سورية ، وقد تنفست البلد الصعداء بعد تخلصها من التسلط وقطعت وعدا بألا ترضخ للحكم العسكري بعد ذلك ، لقد بقيت دمشق لشهور بل لسنوات تعيش كابوسه ، وكان يكفي ان يذكر اسمه بين الحين والاخر في الصحافة العربية او يشاع خبر مروره في مطار مجاور ليثير البلبلة .

ان الارث السياسي الذي تركه اخذ يتضح تدريجيا فالجيش الذي سار نحو الطموح السياسي لم يعد الى ثكناته والى انضباطه الا بعد أربعة اعوام ، أي بعد الوحدة مع مصر وبقي كذلك خلال العمر القصير للجمهورية العربية المتحدة، ان الجيش الذي تعود على الامساك بزمام السلطة قد أفسده ايضا اشتراكه في المؤامرة التي دامت طويلاً على الشيشكلي ولنأخذ صبري العسلي كمثل واحدلاولئك السياسيين فتواطؤه مع العراق كان معروفا لدى الضباط وقد حد هذا من حرية عمله ، أما الجيش فقد أصبح في الواقع ملتصقا بالسياسة التصاقا لا يمكن فصله واضحى تركيبه بعكس التحزبات المدنية ، يقول جورج اورويل « ان الثورة عمل مفسد ، عمل لا يقوم « بافساد السلطة » فحسب بل يفسد الوسائل التي تتبع في الوصول الى السلطة » ان الكثير قد تغير في جبهة الاحزاب المدنيـــة منذ ان بدأ الجيش بالتدخل في السياسة قبل اربعة اعوام وقبل ان تظهر انتخابات عام ١٩٥٤ انقسامات المعارضة السرية ولقد عرفت الاحزاب العقائدية كيف تستغل وبشكل جيد دكتاتورية الشيشكلي اكثر من منافسيها التقليديين .

غير ان الانجاز الهام الذي قام به الشيشكلي تمثل في اعطاء سورية حكومة قوية خلال فترة انتقالية في شؤون الشرق الاوسط فهو قد اخرج سورية من بين اصابع السياسة العربية المتشابكة التي كانت تلعب بها وقام بحمايتها في اوائـــل الخمسينيات من التوسع الهاشمي (الذي دعمته موارد العراق البترولية بمليوني جنيه استرليني عام ١٩٥٠ و ٧٦ مليون جنيه عام ١٩٥٤) ومن تأثير مصر الثورية وان مطالبه على المستوى العربي لم تأت بأية عواقب خطيرة لانها كانت غـــير مركزة لعدم وضوح ذهنه ، وفقر موارده المحلية ، انه كان وفوق كل شيء من السوريين الوطنيين الذين لم يقاوموا ضغط جيرانهم فحسب بل قـــاوم ضغوط الدول العظمى رافضا التعاون معها في محاولاتها لتنظيم المنطقة دفاعيا حتى وصل الى رفض معونات النقطة الرابعة . وقد جرد سقوطه سورية من عنصر الحماية في المعركة المقبلة بين مصر والعراق حول حلف بغداد (٢٠) .

(٢٠) أطلقت النار على أديب الشيشكلي ومات قرب مزرعته في سيريس في مقاطعة جوياس في البرازيل يوم ٢٧ / ايلول / ١٩٦٤ كان في الخامسة والخمسين ويعيش في البرازيل منـــذ ١٩٦٠ ، وقد عرف ان قاتله درزي ويسمى نواف الغزالي ، ويظن ان دافعه الى القتل كان الانتقام لعمليات القمع التي قام بها الشيشكلي في جبل الدروز قبل عشر سنوات .

١٤

البعث والشيوعيون

ان لاحزاب اليسار في سورية أهمية خاصة كأدوات ديناميكية للتغيير ، أما قوة عملها السياسي فتتأتى من مجموعة من الأفكار يمكن ان يقال عنها بأنها طورت مواقف وطرق تفكير جيل كامل من الشباب العرب ، كما ان هنالك العديــد من الامور التي يشترك بهـا البعث والشيوعيون وذلك من الناحية الايديولوجية ، غير ان السعي وراء السلطة قد جعل منهم متنافسين لدودين يتحدون فقط لفترة قصيرة اثناء الازمات عندما يكون هنالك خوف من « الامبريالية » او « الرجعية » المحلية أكثر من خوف بعضهم من البعض الآخر ، ان دراسة نموهم وتفاعلهم تلقي ضوءاً على اصول القومية العربية الراديكالية كما تطورت بعد الحرب العالمية الثانية ، ولقد نشط قادتهم منذ الثلاثينيات ولكنهم لم ينالوا الاعتراف السياسي الا بعد سقوط الشيشكلي في عام ١٩٥٤ ذلك الاعتراف الذي حصلوا عليه نتيجة تأثيرهم على الرأي العام .

منشأ البعث

ترافق اثنان من الشبان السوريين وهما ميشيل عفلق وصلاح البيطار ــ الاول مسيحي والثاني مسلم ــ خلال فترة دراستهما في باريس منذ عام ١٩٢٩ وحتى عام ١٩٣٤ .

وفيما بعد قال عفلق « لم أكن قبل ذهابي لفرنسا سوى وطني ، لقد تأثرت جداً بوالدي الذي قام بدور مغال في النضال ضد الفرنسيين فسجن مرات عديدة ، ان الوطنية كانت تعتبر واقعنا المحلي لكنني اكتشفت والبيطار الاشتراكية في فرنسا ، وعندما عدنا كنا متلهفين على ايصال هذه الافكار الى الجيل الجديد » (١) .

لكنهما لم يكرسا نفسيهما كلياً للسياسة وذلك لعدة سنوات وعوضاً عن ذلك بدأ عفلق بتدريس التاريخ والبيطار الفيزياء في احدى ثانويات دمشق ، اما الطلاب فقد كانوا اكثر العناصر وعياً من الناحية السياسية فكانوا بذلك يشكلون أرضاً خصبة لافكارهما ، وفي عام ١٩٣٥ قاما بالتعاون بانشاء وتحرير صحيفة اسبوعية يسارية تسمى الطليعة اتسمت بثوريتها الصريحة في افكارها حول قضايا الادب والاجتماع والسياسة .

وقد وصف الاثنان تجربتهما في ذلك الوقت بقولهم:

في عام ١٩٢٨ (قبل ان نذهب الى اوربا) كانت نظرتنا للقومية على انها صراع بين الامة والمستعمر ... وكان اسم اولئك الذين يساعدون المستعمر هو الخونة والذين يقفون ضده الوطنيين ... ثم ذهبنا الى فرنسا ووجدنا دعماً من الشيوعيين لقضيتنا القومية ... وقرأنا للكثير من مفكري الغرب الليبراليين وكونا صورة لمجتمع واع متحرر من البؤس والفساد ، ولقد اكتشفنا باننا لم نكن نعاني من الجروح التي صنعها الاجنبي فحسب بل من جروح اجتماعية ايضاً وذلك لان مجتمعنا كان غارقاً في الجهل والزيف ، عندها أدركنا ان النضال ضد المستعمر يجب أن يقوم به الشعب بأكمله .

ثم عدنا الى سورية لنجد ان قادتها الوطنيين كانوا من الناس الذين لا يستطيعون رؤية أي شيء يتخطى مصالحهم الاقتصادية والعائلية ... وكان على النضال ضد المستعمر لكي يكون مجدياً ان يتضمن تغييراً في العقل والفكر وتعميقاً للوعي القومي والمستوى الاخلاقي ذلك كله يتصل بالحياة الفكرية والاخلاقية للامة (٢) .

(١) ميشيل عفلق للمؤلف ، بيروت ، ٣ كانون الثاني ١٩٦١ .
(٢) صلاح الدين البيطار وميشيل عفلق في « القومية العربية وموقفها من الشيوعية (١٩٤٤) .

التقرب من الشيوعية :

وقد حدث في بداية الثلاثينيات ان قام عفلق والبيطار باول اتصال لهما مع الحزب الشيوعي المحلي الذي كان يتألف وقتئذ من « اثنين او ثلاثة من الشبان في السجن واثنين او ثلاثة آخرين من الهاربين» (٣) واستمرا على علاقتهما الوثيقة حتّى عـــام ١٩٣٦ « لقد كنـــا في ذلك الوقت ماركسيين مع بعض التحفظات » هكذا اوضح عفلق (٤) . لقد كانت السلطة تضطهد الشيوعيين وكنا بذلك نعجب بهم ونتعاطف معهم ، وكانوا اشداء في مهاجمتهم الاستعمار الاجنبي كما بدوا لنا انهم منحوا مجتمعنا العربي الخامد الحياة والحركة .

لكنني كنت أشك بآرائهم المتعصبة لانني تعلمت الماركسية من اندريه جيد ورومان رولان (انه يقول في مكان آخر : إن الارواح النبيلة تسمو فوق التعصب الشيوعي) (٥) .

لقد كان عفلق شديد الاعجاب بجيد فهو نفسه شاعر وابان شبابه كتب بعض القصص القصيرة ، وأسرَّ لي بان السياسة هي ملجأ الكاتب الفاشل ، ولم يبد سوى قليل من الاهتمام بالاقتصاد الماركسي ، لكنه مثل جيد ورولان كان يرى الماركسية على انها طريقة في الحياة او علاج ميتافيزيقي يضع حداً للحرب والاستغلال ، ومثلهم كان فردياً الى حد بعيد مما جعله يرفض الانضمام الى الحزب الشيوعي . قال : « لقد زعموا بعد ذلك بأنني حملت بطاقة ولكن بالتأكيد لو وجدت مثل هذه الوثيقة لاستغلوها كامل الاستغلال » (٦) .

لقد انتهى تقرب عفلق للشيوعية في عام ١٩٣٦ (٧) وذلك عندما لم تعد المناورات الشيوعية خافية عليه بعد قيام حكومة الجبهة الشعبية في فرنسا ، وعندما حدث ضغط للتخفيف من وطأة الانتداب ، وقف الشيوعيون موقف المطالب

---

(٣) المصدر السابق صفحة ١٥ .

(٤) ميشيل عفلق للمؤلف ، بيروت ٣ كانون الثاني ١٩٦١ .

(٥) البيطار وعفلق ص ١٣ .

(٦) ميشيل عفلق للمؤلف .

(٧) اذا سئلت عن تعريف الاشتراكية فلن ابحث عن ذلك في كتب ماركس ولينين (عفلق في سبيل البعث (١٩٥٩) ، صفحة ٢٢) .

بيقائه مما سبب خيبة امل كبيرة ، وفي الوطن انتظر عفلق الفرصة الملائمة
لايجاد الحزب المحلي الذي انتقل اليوم بشكل صاخب من السرية الى العلنية .
كتب قائلا : « ان الحزب الشيوعي السوري لم يعد سوى أداة تنفيذ في
يد أبيه الحزب الشيوعي الفرنسي والحكومة الفرنسية بشكل عام ... ولقد بدأ
بجمع أعضائه من بين الاقليات الطائفية والعنصرية ومن بينهم كل الذين وقفوا
ضد القومية العربية ... وتخلى عن مطالبه الثورية واتكأ بثقله على النظام الفرنسي
الاستعماري ... والواقع ان وجوده قد اصبح مرتبطاً كل الارتباط باستمرار
سيطرة فرنسا على سورية ... ونسي اعداءه الحقيقيين واخذ يركز على مهاجمة
فرانكو وتشان كاي تشك وموسوليني وغيرهم من اعداء فرنسا وروسيا واضعاً
نفسه في صف الرجعية السياسية والاجتماعية داخل الوطن (٨) » .

وفي تلك الفترة بالذات ظهرت كتب ومقالات لاول مرة تصف ما
كانت عليه الحال الواقع في الاتحاد السوفيتي ، وفي كتاب جيد « عودة
من الاتحاد السوفييتي » وجد عفلق والبيطار اصداء لتحفظاتهما الشخصية .
لقد كتبا : « زار روسيا بعض المفكرين ممن لا يمكن الشك في صدقهم
وعادوا ليكتبوا ان روسيا لم تعد وفية لمبادئها وانها بدلا عن ذلك أخذت تسعى
لتوسيع نفسها ، وبدأت كغيرها من الدول بوضع مصالحها القومية في المرتبة
الاولى مستغلة الدعاية الشيوعية لاضعاف منافسيها ، كل ذلك دعانا الى ان نسأل :
اذا كانت دولة عظمى كالاتحاد السوفياتي تنظر الى مصالحها فقط أفلا
يجب علينا نحن امة العرب الفتية ان نحذو حذوها فنرسم سياسة مستقلة باحثين
فيها عن مصالحنا الخاصة فوق كل شيء آخر ؟ هذه الامور سببت لنا ازمة
روحية وعقلية أعاقت كتابتنا ونشاطنا السياسي لمدة تقارب العامين ، وذلك
لاننا لم نكن من بين اولئك السياسيين الذين يلبسون حلة مختلفة تناسب كل
مناسبة ويخفون اخطاءهم بالجدال الخادع ، لقد أردنا فوق كل شيء ان نفسر
الاشياء لانفسنا وان نوضح لانفسنا ولامتنا شيئاً أكثر عمقاً من السياسة — أي
العقل والروح العربيين » (٩) .

---

(٨) البيطار وعفلق في « القومية » ص ٨٠ .
(٩) المصدر السابق ص ٨ — ٩

عمل سياسي متواصل :

حوالي عام ١٩٤٠ وبعد عامين من التأمل اخذت افكار عفلق شكلها ، وبدأ هو وصلاح الدين البيطار بعقد اجتماعات سياسية لمجموعات صغيرة من طلابهما في بيتيهما ايام الجمعة وهي ايام الصلاة بالنسبة للمسلمين بينما استمرا بالتدريس في التجهيز وهي الثانوية الحكومية الرئيسية في دمشق ، واصدرا أول كراسة لهما في كانون الثاني لعام ١٩٤١ تبعتها ست او سبع اخريات في شباط ، وكانت جميعها موجهة ضد الافرنسيين وضد قادة الكتلة الوطنية الذين اتهموا بالتذبذب مع السلطة الانتدابية ، وكانت ثورة رشيد عالي في العراق في أيار ١٩٤١ مناسبة لهما لاظهار اخلاصهما للقضية العربية الشاملة ، فبدأا حركة « نصرة العراق » وجمعا المال لرشيد عالي وشكلا لجاناً من الشبان ممن كانوا على استعداد لامداد الكيلاني بالدعم المسلح ، ان تلك الثورة القصيرة العمر امدت البعث بالقوة الدافعة التي وضعته في درب النضال .

وفي نهاية عام ١٩٤٢ ترك عفلق والبيطار مهنة التدريس ليكرسا نفسيهما للعمل السياسي المتواصل، واستمرا في بناء تنظيمهما في أواخر اعوام الحرب وفي الفترة التي تلت الاستقلال مباشرة ، وقد جند طلاب المدارس الثانوية وطلاب الجامعة للقيام باضطرابات سياسية وجرى توزيع النشرات السرية وبدىء في تنظيم الشارع والسوق — وتهيئتهما للاضراب وتحول حزب البعث العربي الى حركة سياسية شرعية وذلك بعد رحيل الفرنسيين في عام ١٩٤٦ ، وفي العام ذاته ظهرت جريدة الحزب « البعث » لاول مرة ، وفي عام ١٩٤٧ عقد اول مؤتمر حزبي تم فيه تبني منهاج الحزب ، وقد تشكلت اول لجنة تنفيذية بعضوية ميشيل عفلق المعروف بالعميد وصلاح الدين البيطار كأمين لها وجلال السيد ووهيب الغانم أعضاء ، ثم جرى فيما بعد اقامة فروع في الاردن والعراق كما ظهرت تجمعات صغيرة في لبنان وفي جامعة القاهرة .

ان مرحلة التحول من الحرب الى السلم كانت فترة تميزت بالنضال الحاد في الجبهة السياسية الداخلية ، ورغم ان المنازعات الفردية كانت تعمل على

تمزيق الكتلة الوطنية الا انها بقيت في الحكم ، ثم قام البعث بحملة بمساعدة اكرم الحوراني للوصول الى انتخابات حرة عامة وقد حققوا ذلك في انتخابات عام ١٩٤٧ فسار بذلك مؤيدوهم خطوة باتجاه البرلمان ، لكن الحملة التي قاموا بها من اجل سرية الاقتراع لم تنجح حتى عام ١٩٥٤ عندما برهنت ، كما سنرى بأنها ذات قيمة عظيمة بالنسبة لهم لا سيما في قرى اواسط سورية ، ولذا فان الحزب يستطيع ان يفاخر بحق بأنه كان سباقاً الى المطالبة بالاجراءات الديمقراطية في سورية ، ولكن في عام ١٩٤٤ - ١٩٤٥ كان لا يزال يخوض معركة وقف فيها وحيداً يدعمه تنظيم هزيل ، اما صبري العسلي وزير الداخلية فقد كبت الصحافة والحريات الأخرى وارسل صلاح الدين البيطار الى معسكر الاعتقال في تدمر في الصحراء السورية ، وقد رشح عفلق نفسه للانتخابات التي جرت عامي ١٩٤٣ و ١٩٤٧ لكنه فشل في كلتيهما في الحصول على مقعد ، وتميزت الانتخابات الثانية بالشدة : اذ قام الحكم باستعمال الجيش للتأثير على الناخبين وارهاب مرشحي المعارضة .

وفي شهر حزيران من عام ١٩٤٤ شن قادة البعث اول هجوم كاسح لهم على الشيوعيين الذين رأوا فيهم مناوئين ذوي خطورة متزايدة ، وارادوا قبل كل شيء ان يفضحوا زيف ادعاء الشيوعيين بانهم يعملون من اجل مصالح العرب القومية ، ان خلاصة النقاط التالية هي بعض من نقاشهم (١٠) وهي ذات اهمية لانها تظهر رؤيتهم للدوافع السوفياتية في مثل هذا التاريخ المبكر :

ما هي سياسة السوفييت العربية :

أ - لا ريب في ان روسيا تهتم بحلفائها ابان الحرب اكثر من اهتمامها بالعرب .

ب - يتوقع أن تدعم روسيا فرنسا في الشرق الاوسط لموازنة نفوذ الدول الانكلوساكسونية .

(١٠) البيطار وعفلق « البعث والحزب الشيوعي » ١٩٤٤

ج — هل تضحي روسيا بحليفتها فرنسا من اجل سورية ؟ كلا . اشهدوا الدعم المتبادل بين فرنسا والحزب الشيوعي السوري .

د — ان كلتا الدولتين تركيا وايران لا ترغبان في رؤية العرب اقوياء ، اما روسيا فهي مهتمة جداً بهاتين الدولتين . هل تساندهما ام تساند العرب؟

هـ — لا يمكن للمرء ان يتوقع شيئاً من روسيا سوى استغلال مصالح العرب لخدمة السيطرة السوفياتية العالمية ، (كل الامم الصغيرة يجب ان تدور في فلكهـا .)

و — يقول الشيوعيون إنهم لا يرغبون في استيراد الماركسية الى سورية بل في المشاركة في النضال لتحقيق الاستقلال الوطني فحسب ، اما نحن القوميين العرب فاننا نجيبهم بأننا لسنا بحاجة الى دعم حزب اجنبي يستند الى حكومة اجنبية .

ز — يدعي الشيوعيون بان لديهم حلولا لمشكلاتنا الاجتماعية والاقتصادية غير ان العربي القومي الذي يستجيب لنداء شعبه هو الوحيد المؤهل لتبني الاصلاحات وستكون الرسالة الخالدة للامة العربية دليله ابداً .

ح — نتائج :

ان الحزب الشيوعي السوري سوف يقف في وجه مصالح العرب كلما اصطدمت هذه المصالح بالمصالح السوفياتية او خرجت عنها ...

لسنا ضد الاتحاد السوفياتي ، اننا نفرق بجلاء بين الاتحاد السوفياتي كدولة والحزب الشيوعي السوري المحلي ولا يجد العرب أية ضرورة في معاداة دولة كبيرة مثل الاتحاد السوفياتي الذي قام منذ نشوئه باظهار العطف على الدول التي تناضل من اجل استقلالها ، ان هدفنا هو اقامة علاقات صداقة مع الاتحاد السوفياتي بواسطة المعاهدات الرسمية بين الحكومات وليس بواسطة اداتها الحزب الشيوعي المحلي .

ان الشيوعية تنجح حيث يكون التفكير المشوش والضعف في الروح

القومية . غير ان العربي المثقف لا يمكن ان يكون شيوعياً دون ان يتخلى عن عروبته لان الاثنين متناقضان فالشيوعية غريبة عن كل ما هو عربي وستبقى دوماً أكبر خطر على القومية العربية طالما ان الاخيرة عاجزة عن وضع تعريف منظم وواضح وشامل لاهدافها ... »

عقيدة البعث (١١) .

ما هي اذن العقيدة التي توصل اليها عفلق ابان الحرب ؟ ان احد رفاقه الاوائل قد دونها بالشكل التالي راجعاً الى الفترة ما بين عامي ١٩٤٠ – ١٩٤١ : « لقد رسم عفلق ثلاثة اهداف لحركته وهي : الوحدة العربية والحرية والاشتراكية . وقد سميناها « بالثالوث » . وكنا نجتمع بشكل سري في منازل بعضنا لنستمع له وهو يشرح افكاره . »

ان عفلق يقر بفضل منهلين فكريين : اولهما الماركسية ابان دراسته في باريس وثانيهما النظريات الالمانية عن القومية الرومانسية والمثالية التي تبناها في اواخر الثلاثينيات ، « لقد تعلمنا من الفلسفة الالمانية بأن هنالك شيئاً اعمق من الاحداث الظاهرة او العلاقات الاقتصادية في تفسير مسيرة التاريخ ونمو

---

(١١) ان عقيدة البعث لم تتكون في ذهن عفلق في أوائل الاربعينيات ، ولكنها كانت تتطور وتنمو منذ الثلاثينيات حتى الوقت الحاضر ، وبينما كان التركيز على الاشتراكية في أواسط الثلاثينيات أتت الناحية القومية الى المقدمة بعد عام ١٩٣٦ مع هفوات عرضية تعصبية ، ولكن قومية عفلق هي على العموم ذات سمة انسانية ، ان تسلم الحزب للسلطة في العراق وسورية في اوائل ١٩٦٣ قد قاد الى تطورات اخرى بدت وكأنها ميل نحو الماركسية ثم عدلت بعد سقوط حكم الحزب في العراق في تشرين الثاني ١٩٦٣ ، انظر نضال البعث في سبيل الوحدة والحرية والاشتراكية (مجموعة وثائق الحزب منذ ١٩٤٢)، القسم الاول – دار الطليعة ١٩٦٣، وعفلق في سبيل البعث ومعركة المصير الواحد (١٩٥٨) ودستور حزب البعث العربي الاشتراكي » في كتاب القومية العربية طبعة سيلفيا هايم (١٩٦٢) »، وأنظر أيضاً مقدمة الانسة هايم الصفحات (٦١ – ٧٢) ، واسحاق اورون – تاريخ فكر حزب البعث العربي الاشتراكي، مجلة الشرق الجديد العدد التاسع(١٩٥٩)، وسيمون جارجي – انحلال حزب – لورين رقم ١١ عام ١٩٥٩ ، وجبزان مجدلاني «حركة الاشتراكية العربية » الشرق الاوسط في طور التحويل (١٩٥٨) طبعة و . زلاكير

المجتمع . وهذا ما عدل فلسفتنا المادية » (١٢) وباعتقاده ان « القومية حقيقة حية خالدة » (١٣) ، وقد تبنى عفلق شعار : امة عربية واحدة ذات رسالة خالدة على انه الشعار الذي يجسد عقيدته لقد اصبح صرخة تجمّع الحزب ، ثم جرى حقن مبادىء الوحدة والحرية والاشتراكية بجرعة كبيرة من الفلسفة الميتافيزيقية ، فالنضال من اجل تحقيق الوحدة لم يفهم على انه نضال مستقيم على الصعيد العربي كنسف الحدود السياسية الفاصلة ولكنه فهم على انه عملية اعادة بناء تؤدي الى اصلاح الشخصية والمجتمع العربيين ، وهذا لا يتم الوصول اليه الا اذا تخلص العرب من الارتباطات الاقليمية والدينية والعشائرية وتحرروا من كل التناقضات وسلموا بالقيم الخالدة للانسان . فالوحدة اذن ليست مجرد هدف سياسي منفصل بل هي بحث عن « كنز الحيوية الدفين » وعن منابع القومية المعنوية والروحية .

اما الحرية فتفهم على انها اولا : « الحرية الفردية — حرية الكلام والاجتماع والاعتقاد والفن » (١٤) — وثانياً الاستقلال الوطني — التحرر من الاستعمار وتحرير الشعوب المستعمرة . اما الاشتراكية فقد اعتبرت بدورها رديفاً للقومية ، « فهي ضرورة منبعثة من صميم القومية العربية لانها النظام الامثل الذي يسمح للشعب العربي بتحقيق امكانيته وتفتح عبقريته ... » (١٥) وفي رأي عفلق ان الاشتراكية هي اداة للرقي المعنوي للشعب بأكمله أكثر منها جملة وصفات لمشكلات اجتماعية واقتصادية محدودة . ويقول أيضاً ان الوضع في اوربا الغربية هو في خدمة البورجوازية وان الاشتراكية الغربية التي تعكس متطلبات الطبقات المحرومة لا بد وان تكون مادية ومعادية للقومية . غير ان الاشتراكية العربية هي على نقيضها فهي روحية ومتلازمة مع القومية معاً لانها تحتضن عبقرية الشعب بأكمله ، « الاشتراكية هي الجسد أما الوحدة الشاملة

---

(١٢) البيطار وعفلق ، القومية ص ١٧ .

(١٣) دستور البعث ، .. مبادىء عامة .. ، المادة رقم ٣ (هيم الصفحتان ٢٣٣ — ٢٣٤) .

(١٤) دستور البعث ، المادة الأساسية الثانية .

(١٥) المصدر السابق ، مبادىء عامة ، المادة رقم ٤ .

فهي الروح » وقد رحبوا بالوحدة السياسية على انها قوة خلاقة توصل تلقائياً الى المجتمع الاشتراكي ، كما فهمت الوحدة على انها ذات مضمون تقدمي ، ان ذلك الترابط الصوفي بين القومية والاشتراكية هو رسالة عفلق الخاصة .

لا يؤمن البعث بان اهدافه يمكن تحقيقها بواسطة الاصلاح التدريجي . انهم ينادون بالانقلاب الجذري كثورة هي ليست في عنف الثورة الشيوعية ولكنها على أية حال ثورة تقود الى تغير عضوي .

« فحزب البعث العربي الاشتراكي انقلابي (المادة ٦ من الدستور) يؤمن بأن اهدافه الرئيسية في بعث القومية العربية الاشتراكية لا يمكن ان تتم الا عن طريق الانقلاب والنضال وان الاعتماد على التطور البطيء والاكتفاء بالاصلاح الجزئي السطحي يهددان هذه الاهداف بالفشل والضياع » .

ولكن عفلق يوضح مرة ثانية ان هدف الانقلاب ليس تحقيق برنامج سياسي فحسب بل تحقيق شيء اصدق واعمق ، كتب يقول « اننا نفهم من الانقلاب هذه اليقظة الحقيقية والتي لم يعد مجال لانكارها او التشكيك فيها ، انها يقظة الروح العربية في مرحلة فاصلة من مراحل التاريخ الانساني » (١٦) ، ومرة اخرى يقول .. « ان الانقلاب قبل ان يكون برنامجاً سياسياً او اجتماعياً هو هذه الحركة الدافعة الاولى وهذا التيار النفسي القوي ، هذه المغالبة التي لا بد منها والتي لا يفهم أي بعث للامة بدونها » (١٧) .

ان عفلق كما تقول سيلفيا هايم :

« يعتبر السياسة أداة لاحداث تغيير صميمي لدى العرب ، او بالاحرى ترسيخ سيادة المحبة بينهم ... وانه لهذا السبب يعلن : ان « القومية هي المحبة قبل أي شيء آخر ، ولا يمكن للعرب الخلاص والتخلص من الضعف والمصاعب التي تواجههم الا عندما يحبون بعضهم وأمتهم وأرضهم حبا خالصا لا ريبة فيه . هذه الرؤية الصلبة لحياة سامية جديدة والتي هي غاية للعمل السياسي

---

(١٦) عفلق ، مظاهر الانقلاب في كتاب « في سبيل البعث » ، وقد ورد في (هيم ص ٢٤٤).

(١٧) المصدر السابق الصفحتان ٢٤٤ — ٢٤٥ .

تعطي عفلق هالة لا يمتلكها غيره من الكتاب العرب القوميين . » (١٨)

ان اهداف عفلق الثلاثة — الوحدة القومية والحرية والاشتراكية — هي في نظره متلاحمة ولا يمكن الفصل بينها ولا يمكن تحقيق واحدة منها بشكل كامل دون الاخريات ، وجميعها ترتكز على الشعب وعلى الايمان بقواه الخلاقة الدائمة ولكنها جميعا أداة للوصول الى نهاية المطاف لرسالة الامة العربية في العالم .

« يسألوننا ، أيها الاخوة ، ماذا نعني بالرسالة العربية الخالدة ، ان الرسالة العربية لا توضع في ألفاظ نذيعها ، ولا في مبادىء توضع لها المناهج ، ولا تتضمن مادة للتشريع .. ان هذه كلها أشياء زائفة ميتة ..

« ان الرسالة العربية هي حياتنا ذاتنا ، انها الاقرار باغناء الحياة هذه بتجربة عميقة صادقة تتناسب في عظمتها وشمولها مع عظمة الامة العربية وعمق الالآم التي عانتها ، وهول الاخطار التي تتهدد وجودها . ان هذه التجربة الحية الصادقة ستعيدنا الى ذاتنا والى حقائقنا الحية ، وهي ستجعلنا نتحمل مسؤولياتنا وستضعنا في الدرب الصحيح كي نناضل ضد هذه الامراض والعقبات والاحوال الزائفة ، كي نحارب الظلم الاجتماعي والاستغلال الطبقي وعهود الانانية والرشوة والاستغلال ، كي نصارع الطغيان ، مزيف الارادة الشعبية ، والمهين لكبرياء العربي كمواطن ورجل من اجل مجتمع حر يستعيد فيه كل عربي وعيه لذاته ووجوده وانفته وفكره ومسؤولياته . التجربة التي تتكون عبر نضالنا هي تجربة الامة العربية التي مزقت الى اقطار ودول هي كلها مصطنعة زائفة . اننا سنناضل الى ان نعيد توحيد هذه الاجزاء فنقيم دولة سليمة طبيعية لا يمكن لفرد واحد صارم ان يتكلم باسم الجميع والى ان نتخلص من هذه الحالة الغريبة الشاذة ، وعندها سيكون في مقدور العرب ان يتوحدوا ويمكن لارواحهم ان تسمو ولأفكارهم ان تتضح ولأخلاقهم ان تستقيم ، فيتضح المجال امام العقل العربي ليخلق اذ ان العرب اجمعين قد أصبحوا امة واحدة في كيان واحد. ان هذه التجربة

---

(١٨) المصدر السابق — المقدمة الصفحتان ٧١ — ٧٢

الصادقة النضال ضد الظروف القائمة بحالتها الطبيعية ، ان هـــذه التجربة هي رسالة الامة العربية » . (١٩)

لا يأتي دستور البعث على ذكر الاسلام غير ان عفلق لم يغفل صلته الوثيقة بالقومية العربية (٢٠) ، فالاسلام في رأيه هو شكل آخر للعبقرية الخالدة للامة العربية يمكن قبوله والرجوع اليه كحضارة او ثقافة قومية الى جانب كونـــه دينا ، والحقيقة انه يصور الاسلام تصويرا صريحا على انه ليس الهاما آلهيا فحسب بل هو بشكل جزئي استجابة لحاجات العرب زمن محمد واحد منابع العروبة (٢١) يقول ان الاسلام هو حركة عربية تعكس نضوج العروبة وتجددها ولا خوف من حصول تصادم بين القومية والدين ، « لان القومية كالدين تنبع من القلب ومن ارادة الله وهما يسيران يدا بيد تدعم احداهما الاخرى خاصة عندمـــا يمثل الدين عبقرية الامة وينسجم مع طبيعتها » (٢٢) .

ويعترض النقاد ان البعث لم يتجاوز ابدا مرحلة البلاغة الموجّهة ليتقدم ببرامج اجتماعية واقتصادية مفصلة غير ان دور الحزب كان على اي حـــال دورا هاما جدا بالنسبة للجيل الذي جاء بعد الحرب مباشرة ، فالمشكلات التي واجهت العرب آنذاك كانت تتلخص في كيفية التخلص من النفوذ الاجنبي ليبعدوا أنفسهم عن التورط في منازعات الدول العظمى ، وحدث ذلك قبـــل ما يقارب العشرة أعوام من اتفاق عبد الناصر وقادة البعث ليصبحوا معا مـــن أكثر اعداء الاستعمار صلابة وانسجاما وأكثرهم حيادا في العالم العربي .

ان شعار البعث الثلاثي المتمثل في — الوحدة والحرية والاشتراكية — كان يعني في الواقع هجوما ثنائيا على «الرجعية في الداخل» وعلى « الامبريالية » في الخارج ، والحزب كان من بين الرواد في منطقة الشرق العربي الذين عبرّوا عن الفكرة التي انتقلت بعدئذ الى الفكر الافرو آسيوي والقائلة بأن التحـــرر

---

(١٩) المصدر السابق ص ٢٤٨ .

(٢٠) انظر عفلق ، ذكرى الرسول العربي ، الطبعة الثانية (١٩٤٣) في كتاب « في سبيل البعث »

(٢١) هيم — ص ٦٢ .

(٢٢) المصدر السابق ص ٢٤٣ .

من الرقابة الاجنبية يجب ان ترافقه عملية تجدد جذرية للمواقف التقليدية والنظم الاجتماعية واعادة بناء قومي أو « بعث » جديد وذلك كي يستمر التحـــرر ويكون فعالا ، ان هذا لا يمكن الوصول اليه بواسطة عملية صياغة جديدة على النمط الغربي ، فالاصلاح الاصيل يجب ان ينبع من جذور الوعي القومـــي العربي ومن الايمان بالشعب العربي نفسه .

وقال في حديث ألقاه في شهر آذار ١٩٥٧ :

« نحن نرى ان الاستعمار نتيجة أكثر منه سببا . نتيجة لما يشوب مجتمعنا من نقص ومن تشويه ، قد يبدو كل ذلك لكم الان شيئا طبيعيا وسهلا كثيرا ، ولكن عندما بدأنا حركتنا قبل ١٥ عاما كانت هذه اللغة صعبة الفهم وصعبة التقبل ، لان الجو الذي خلقته الحركات السابقة التي قامت على الهواة والمحترفين كان جوا مزيفا حجب عن الشعب حقيقة قضيته ، فلم يكونوا يريدون ان يسمعوا ان قضيتنا مرتبطة بقضية الانسانية كلها ، ولم يكونوا يتقبلون ان تكون مرحلة نضالنا ضد الاستعمار مرتبطة بالنضال الاشتراكي في الداخل ولم يكونوا يفهمون ويستسيغون ان قضيتنا في كل الاقطار العربية هي قضية واحدة وان التجزئة التي فرضت على بلادنا هي مصطنعة وعارضة ، وان في اعماق الشعب ما هو كفيل بان يجلو الصدأ ويزيل الزيف ويظهر حقيقة امتنا وانها امة واحدة. » (٢٣)

فالبعث اذن قد أمد الحركة العربية القومية بعقيدة ديناميكيةنابعة منأرضها وبتطلعات اخلاقية وسياسية معينة في فترة تعرضت فيها الى مخادعات معتقدات اخرى ، وفي سورية — « الملتقى العظيم (٢٤) » لحركة الفكر التي شملت العالم العربي — كان الى جانب البعث حزبان عقائديان قاما بمنافسته ، وهما الحزب الشيوعي والحزب القومي السوري ، اما الجماعة الاولى فقد كانت شبه عميلة مموهة لدولة اجنبية والجماعة الثانية طرحت فكرة غريبة تشمل سورية الطبيعية وتعادي كل العداء مطالب القومية العربية ومطامحها ، وقد اعلن البعث ايضاً

(٢٣) عفلق ، في سبيل البعث ، ص ٢٠٧

(٢٤) ه . لا مانس ، سورية ورسالتها التاريخية . القاهرة (١٩١٥) ص ١٥ .

الحرب على حزبي الشعب والوطني الذين اعتبرهما حصون الرجعية والركود .
كل هؤلاء ، كانوا منافسين له ، وكان أهم انجاز له هو الربط ما بين الافكار الراديكالية في العدالة الاجتماعية والاجراءات السياسية الديمقراطية وبين الحلم الذي يبلغ من العمر خمسين عاما في الوحدة العربية والذي في اعماقه ربما يعتبر الفكرة السياسية الوحيدة التي ستظل جماهير سورية مخلصة لها على الدوام . ان عفلق قد أعلن في غمرة الاصوات العدائية لمنافسيه بأجمعهم بتعابير منمقة وفصيحة ان هذا هو الخط الرئيسي للقومية العربية وهذا الادعاء الذي قاله به عفلق لا يزال صحيحا حتى اليوم على الرغم من كبوات الحزب .

التحالف مع الحوراني :

كانت هذه اذن هي الآراء التي توصل اليها عفلق والبيطار بعد الكثير من البحث وذلك قبل ان يتحدا مع نائب حماه اكرم الحوراني في شهري تشرين الثاني و شباط عام ١٩٥٢ ، لقد شرحنا بعض الأمور التي تخص تاريخ الحوراني وهي مهاجمته للاقطاعيين في اواسط سورية ، وصداقاته في الجيش و دوره في انقلاب عام ١٩٤٩ وانفصاله عن الشيشكلي الذي حدد بدء انهيار عظمة الدكتاتور . ان تاريخ اندماج الاشتراكيين العرب التابعين للحوراني مع بعثيي عفلق يعود الى زمن هروبهما معا عبر الجبال من استبداد الشيشكلي ، قال عفلق بعدئذ : « ان عداثنا المشترك للشيشكلي كان احد العوامل التي سببت قرار اتحادنا ، وقد كنا نحسب معا حساب فترة النزاع الحزبي التي تلت سقوطه ، وشعرنا بالحاجة الى تجميع القوى ضد خصمنا الرئيسي في ذلك الوقت وهو حزب الشعب . » (٢٥)

ان الحوراني وعفلق كانا جد مختلفين من حيث الشخصية والمظهر وقد كتب مراسل التايمز عن عفلق : انه لم يكن بالنسبة للمعجبين به بمثابة انسان ذى سلطان فحسب بل انهم يعتبرونه قديسا وقد وصف مرة بأنه « غاندي القومية العربية »

(٢٥) ميشيل عفلق للمؤلف ، بيروت ، ٣ كانون الثاني ١٩٦١ .

رجل شاحب هزيل ذو حياء يشعر بالالم والصدق العميق وله عادات ذات طابع معتدل ورصين (٢٦) ، أما الحوراني فهو قائد بالفطرة وهو مندفع وشجاع ومتحدث بليغ وداهية . انه رجل نحيل يحب الفكاهة دون ان يترك أي أثـــر يوحي بالدجل ، وهو يكرس نفسه للسياسة تدفعه اليها طاقة عدائية سليمة النية . انه يتمتع بالقوة وما يميزه عن معاصريه هو ذلك الشعور الواضح الذي لا تشوبه شائبة بأنه لا توجد أية نقطة في السياسة لا يستطيع الحصول عليها ، اما اعداؤه فأنهم يخافونه ويمقتونه بينما يهز البسطاء من اصدقائه رؤوسهم لدى سماعهم الزعم القائل انه ينقصه المبدأ ، وهو يعيش ببساطه كأي اشتراكي عملي لا يملك سوى القليل من الماديات ، ان الثقل الذي أمد به التحالف كان تلك الموهبـــة للعمل السياسي وتلامذته في الجيش وتلك القاعدة المتينة في حماه التي بنى فيها معقلا انتخابيا حصينا كما برهنت على ذلك انتخابات عام ١٩٥٤ ، ومما لا شك فيه انه في بعض المناسبات ندم كلا عفلق والحوراني على هذا الاندماج ولكننا نشك كثيرا في استطاعتهما منفردين تغيير مجرى تاريخ سورية بالشكل الذي حصل فعلا .

خالد بكداش والحزب الشيوعي :

انشيء الحزب الشيوعي السوري اللبناني في أواسط الثلاثينيات ولكنه ظل ضعيفا محظورا ، واقتصرت نشاطاته على تنظيم مظاهرات الاول من ايار والسابع من تشرين الثاني الى أن تسلم ائتلاف الجبهة الشعبية الحكم في فرنسا عام ١٩٣٦ ، وفي هذه السنوات تأسس الحزب وأرسيت قواعده (٢٧) ، وكان فؤاد الشمالي احد أعضائه الاوائل ، وهو مصري من أصل لبناني ، وقد وصل الى لبنان ما

---

(٢٦) صحيفة « التايمز » المثل والحقيقة عند العرب ، ٨ تموز ١٩٥٩ .

(٢٧) سامي ايوب ، الحزب الشيوعي في سورية ولبنان ، ١٩٣٢ – ١٩٥٨ (١٩٥٩) الصفحات ٥٧ – ٦٣ . قدرى القلعجي ، تجربة عربي في الحزب الشيوعي ، الصفحتان ٤٥ – ٤٧ . الشيوعية والقومية الصفحة ١٤١ .

بين عامي ١٩٢٢ – ١٩٢٤ ، بعد ان طردته السلطات البريطانية من مصر بسبب نشاطاته البلشفية ، فاستقر في قرية بكفيا وأخذ ينظم اتحادا لعمال التبغ .

وفي الوقت نفسه تقريبا لفت شاب لبناني ، وهو يوسف يزبك وكان يعمل آنئذ مترجما في دائرة الهجرة التابعة لميناء بيروت ، لفت الانظار بسبب آرائه الاشتراكية فقد كتب بمناسبة وفاة الكاتب الفرنسي اناتول فرانس مقالا في صحيفة « المعرض » اللبنانية يوم ١٩ – ١٠ – ١٩٢٤ جاء فيه « لقد قضى صديق العمال والفلاحين » ، ان يوسف برجر عضو الحزب الشيوعي الفلسطيني لحظ هذا وقدم الى لبنان في الشهر التالي – تشرين الثاني – كي يبحث عمّن يكون هذا الشاب المأمول وجلب معه صورة عن المقال وقد خط بالاحمر تحت الجملة السابقة ، وسأل يزبك عم يقصد بوصف اناتول فرانس . « على انه صديق العمال والفلاحين » .

اعترف يزبك بميوله الاشتراكية ، فعقد اجتماع في بكفيا تبعه آخر في بيروت حضره برجر ويزبك وشمالي ومتعاطفون آخرون ، وفي هذا الاجتماع كشف برجر بلشفيته وان الحزب الشيوعي في فلسطين قد فوضه ، بتوصية من الاممية الشيوعية بتأسيس فرع للحزب خارج فلسطين .

فنشب في الحال تقريبا خلاف بين برجر والممثلين اللبنانيين الذين رفضوا ان يكونوا فرعا للحزب الفلسطيني وأرادوا تشكيل حزب مستقل خاص بهم ، وهذا ما فعلوه بعد اجتماع ثان اذ تقدموا في ٣٠ – نيسان – ١٩٢٥ بطلب ترخيص الى الدولة لحركتهم التي اطلقوا عليها « حزب الشعب اللبناني » ، وبعد حين اتصل يزبك والشمالي بجماعة يوجهها الشيوعيون الارمن تطلق على نفسها اسم « سبارتاكوس » ويرئسها أرتين مادويان ، فوافقت الحركتان على الاندماج في عام ١٩٢٥ لتشكلا الحزب الشيوعي السوري – اللبناني ، وتشكلت أول لجنة مركزية موقتة من يوسف يزبك وفؤاد الشمالي وآرتين مادويان وهيكازون بوياصيان والياس ابو نادر .

الا ان سلطات الانتداب الفرنسي تدخلت عام ١٩٢٦ واعتقلت يوسف يزبك وارتين مادويان فتجمدت نشاطات الحزب حتى اطلاق سراحهم عام

١٩٢٨ وفيها مدّ الحزب نشاطاته الى طرابلس ودمشق وبعض قرى الريف .

وفي عام ١٩٣٠ انضم للحزب عضو جديد هو طالب كردي يدرس الحقوق من دمشق واسمه خالد بكداش وكان آنئذ في الثامنة عشرة من عمره ، وبعد عامين وفي ١٩٣٢ افلح بكداش في ابعاد الشمالي من القيادة في ظروف لا تزال غامضة حتّى الآن ، كما طرد من الجامعة لنشاطه السياسي قبل ان يتخرج منها ، وفي السنوات الخمس والعشرين التالية كان احد قادة الشيوعيين في العالم العربي ، واشتهر بموهبته السياسية المكرسة للحزب وبمهارته الفائقة في تجنب الاعتقال ، وكان اوثق شركائه عند البدء ارتين مادويان ورفيق رضا اللذين انضم اليهما فيما بعد نقولا شاوي وفرج الله الحلو ، وقد ظلت هذه العصبة من الرجال تقود الحزب بفعالية حتّى قيام الوحدة السورية المصرية اذ هرب بكداش وارتد رضا ومات الحلو تحت التعذيب في سجن سوري .

ان بكداش طـ[illegible] القـامة عريض المنكبين غزير الشعر وشعبيته في سورية ناتجة فقط عن سحر شخصي أو دوره كقائد شيوعي ذي نظرة ثاقبة ودهاء بالغ ، ولكن شعبيته عكست ملامح مميزة خاصة للمجتمع في الشرق الاوسط ، فكرديته اتاحت له اتباعا على أسس عرقية أو دينية ، كما انه تمتع باحترام ايضا باعتباره فردا بارزا في وحدة اجتماعية قوية كثيرة الافراد شديدة الترابط ، فهو ابن احدى الاسر الكبرى في دمشق حيث يفضل الرجال تأييد كبير الاسرة او رئيس العشيرة اكثر مما يفعلون نحو زعيم مفرد ، وتكشف كتب بكداش ومنشوراته وأحاديثه عن عقلية هي مجربة عنيدة أكثر منها أصيلة (٢٨) ، انه يقف مع ذلك بين ساسة سورية الاوائل البارزين لمهارته في الجدل ولقدرته على هزيمة خصومه وللتلاحم النظري والترابط بين ارائه ، واذا قورن به اكرم الحوراني ، الزعيم الاشتراكي ، لبدا كالهاوي أمام المحترف (٢٩) .

واختفى بكداش بعد ان سجنته السلطات الفرنسية وقبل مغادرته سورية ،

---

(٢٨) انني مدين جدا للاستاذ حنا بطاطو من الجامعة الاميركية في بيروت للانباء المتعلقة بالحزب الشيوعي السوري ولمساعدته في جمع قائمة مطبوعات بكداش الموجودة في الفهرس .

(٢٩) انظر جاك راشيه : للبحث عن اشتراكية سورية « لورين » رقم ٤ ، ١٩٥٧ صفحة ١٧١ .

وفي عام ١٩٣٥ قاد الوفد السوري الى المؤتمر السابع للاممية الشيوعية الذي عقد في موسكو حيث امضى في منتصف الثلاثينيات فترة من التدريب .

وقد شرع ، اثر تشكيل حكومة الجبهة الشعبية عام ١٩٣٦ ، في ترسيخ حزبه على اساس متين ، فسمح لصوت الشعب وهي صحيفة الحزب رسميا بالصدور عام ١٩٣٧ ، وفي تشرين الثاني من ذلك العام نفسه رأس بكداش وفدا شيوعيا سوريا الى فرنسا ، وفي ايار ١٩٣٨ قام نائبان شيوعيان فرنسيان برد الزيارة الى سورية وخطبا في اجتماعات جماهيرية في دمشق ، ولكن الرياح لم تجر طويلا بما تشتهي السفن ، فبانهيار الجبهة الشعبية وجد الحزب الشيوعي السوري نفسه ثانية في موقف المعارض للفرنسيين . فالمعاهدة السوفيتية — النازية المعقودة في آب ١٩٣٩ قد باءت نهائيا بالفشل ، مع ان بعض زعماء الحزب السوريين تطوعوا في الحقيقة للقتال مع فرنسا حين اندلاع الحرب ، وقد منحت هذه السنوات الثلاث ما بين ١٩٣٦ — ١٩٣٩ ، الحزب الشيوعي فرصته الاولى ليقوم بنشاط علني مقبول ومعترف به ، فشكلت الملاكات (الكادرات) وتزايد الافراد الحزبيون الى عشرة أضعاف أي من حوالي مائتي عضو الى الفين في كل من سورية ولبنان .

وفي ايلول ١٩٣٩ منع الحزب من كل نشاط ، واعتبر غير شرعي واعتقل زعماؤه ، الا ان احتلال الحلفاء لسورية في أيار ١٩٤١ ومهاجمة هتلر للاتحاد السوفيتي بعد شهرين قادا إلى اطلاق سراحهم واستئنافهم نشاطهم في شتاء ذلك العام وعلى نطاق واسع ، ان الفترة ما بين عامي ١٩٤٢ — ١٩٤٨ قد تميزت بالمرحلة الثانية من شرعية الحزب ، اذ عادت « صوت الشعب » الى الصدور في بيروت ، وأحيي عدد من المنظمات « الجبهوية » ، وأهمها ، « عصبة انطون ثابت لمكافحة الفاشية » في لبنان ، وزادت شعبيته بعد ان غدا مؤكدا من سير ربح الحرب، وبعد اعلان استقلال سورية عام ١٩٤٣ حصل الشيوعيون على وضع مستقل منفصل في كل من سورية ولبنان ، مع انهم ظلوا يرتبطون بلجنة مركزية واحدة ، وقد ثبت استقلالهم في ٢٣ تموز ١٩٤٤ بايجاد لجنتين مركزيتين منفصلتين .

كان خط الحزب زمن الحرب هو التعاون مع « العناصر الاصلاحية الوطنية» في الكفاح ضد الفاشية وفي حركة التحرر والانبعاث الوطنيين ، وهذا يشمل وضع مطالب الطبقة الثورية جانبا والتأكيد بدل ذلك على « صفة الحزب الوطنية » ففي انتخابات ١٩٤٣ مثلا وهي الاولى بعد اعلان استقلال سورية رسميا رشح بكداش نفسه وخاض الحملة حسب البرنامج التالي :

١ ــ استقلال سورية وحريتها .

٢ ــ الوحدة الوطنية واعادة تجميع الشعب في سبيل الاستقلال الوطني .

٣ ــ ايجاد مؤسسات صادقة التمثيل صحيحة .

٤ ــ تقوية الروابط الاقتصادية والثقافية مع الدول العربية الاخرى .

٥ ــ تقوية الصلات مع الاقطار الاخرى على أساس العدل والمساواة (٣٠) .

لقد أقام بكداش ، بتكتيك كهذا ، علاقات ممتازة مع القوتلي وزعماء الكتلة الوطنية ، وكان بعض اعضاء الحكومة يستمعون كثيرا الى خطبه التي يلقيها في احتفالات المناسبات كالاول من ايار ، حتى ان الحزب حاز في نهاية الحرب على مكانة بالغة القوة وحسنة الاحدوثة والسمعة ، لقد أدرك بكداش ان خير آماله يكمن ، (بسبب غياب الطبقة الكادحة السورية) ، في اقامة صداقات مع البورجوازيين يحركهم الحزب الشيوعي من وراء الستار .

وفي حزيران ١٩٤٤ ، بلغ التعاطف مع السوفييت ذروته حين اعترف الاتحاد السوفيتي باستقلال سورية ولبنان وحين هرّب السفير الروسي بسيارته رئيس الوزراء السوري الى خارج البلاد في ازمة ١٩٤٥ ، لكن الحزب الشيوعي السوري تقهقر بجلاء الفرنسيين في نيسان ١٩٤٦ امام مجموعات سياسية اخرى رغم انه ظل يجاهر باخلاصه لقضية الاستقلال السياسي ، وكان احد الاسباب التي تجعله يقف في صف الفرنسيين الاعتقاد بان ابعاد فرنسا سيفتح الباب امام البريطانيين والمخططات التي يدعمونها من اجل اقامة وحدة الهلال الخصيب ، يضاف الى ذلك ان الحزب الشيوعي السوري لصلاته الوثيقة بالحزب الشيوعي الفرنسي قد اعلن في كل مناسبة ان تحرر الطبقة الكادحة (البروليتاريا)

(٣٠) خالد بكداش ، البيان الانتخابي ، ٧ حزيران ١٩٤٣ .

في سورية مرتبط أشد الارتباط بمصير الطبقة العاملة في فرنسا . ان الضربة القاضية التي تلقاها الحزب كانت تصويت الاتحاد السوفييتي في الامم المتحدة لصالح اقامة دولة يهودية في ٢٩ - ١١ - ١٩٤٧ ثم اعترافه بدولة اسرائيل في أيار ١٩٤٨ ، وعمل كهذا لا يمكن الدفاع عنه امام الشعب السوري ، فحل الحزب في كانون الثاني ودفعه الانقلاب الاول في آذار ١٩٤٩ الى العمل السري .

واستمر الحزب الشيوعي في طبع صحيفته السرية « نضال الجماهير » وتوزيعها على رغم حسني الزعيم ، كما شهّر بالطغاة العسكريين وبالدول الكبرى في فيض من المنشورات والبيانات .

كان « انصار السلام السوريون » الجبهة الشيوعية الرئيسية في عامي ١٩٥٠ - ١٩٥١ ، وكانت لهم اجتماعات في البلاد كلها عام ١٩٥٠ ، وظهرت « السلام » صحيفتهم الدورية في عام ١٩٥١ ، كما أثاروا المظاهرات ضد الامبرياليين أثناء الزيارة التي قام بها الى دمشق الجنرال سير بريان روبرتسون ، وقد اخذ زعيم الحزب الشيوعي يعتبر الشيشكلي اقل سوءا من حزب الشعب ومخططاته العراقية بعد أن كان قد عارضه اولا ، ثم وجه كثيرا من طاقاته ضد اعداء الشيشكلي وبصورة خاصة ضد حزب البعث ، وهذا يعكس تغييرا في خط الحزب الذي اختار أن يعتبر ما بين عامي ١٩٤٨ - ١٩٥٣ معظم الحركات الوطنية اعداء للشيوعيين ، وانقطع تعاونهم مع « العناصر الاصلاحية الوطنية » حتى بعد موت ستالين ، الا ان الزعماء الشيوعيين انضموا في الحقيقة الى المؤامرة على الشيشكلي في أواخر عام ١٩٥٣ ودعوا في انتخابات ١٩٥٤ الى اقامة جبهة وطنية من « جميع اعداء الاقطاع والرجعية والامبريالية » اما كيف كان سيرهم في مرحلتهم الشرعية الثالثة ما بين ١٩٥٤ - ١٩٥٨ وفي الشروط الجديدة من الحرية السياسية فسيترك الى فصل آخر .

١٥

انتخابات حرة (١٩٥٤)

رسمت الانتخابات السورية التي جرت في ايلول ١٩٥٤ ، وبعد سبعة أشهر من سقوط الشيشكلي ، نظام المعركة الداخلية للسنوات الاربع القادمة ، وقد رحب بها على انهـا الانتخابات الحرة الاولى في العـالم العربي ، وقدمت مقياسا ثمينا للرأي العام في وقت عصيب كانت فيه سورية أكثر البلدان العربية جدالا سياسيا . إنها تمثل عودة سورية الى الحكم النيابي ، ولكن هذه العودة أقل أهمية وخطورة من الفرصة التي اتاحتها للحكم على القوة النسبية للقـوى المتنافسة في المسرح السياسي السوري ، اذ أن قليلا مما له أهمية قد تم في العالم العربي وفي السنوات الثلاثين الماضية بدون المجالس الشرعية او التأسيسية التي كانت تعطّل أولا (١) .

لقد هيمنت على الحملة الانتخابية قضية واحدة رئيسية وهي هل ستنضم سورية الى ميثاق دفاعي للشرق الاوسط يرعاه الغرب ، وان الموضوع الدائم لهذا الميثاق هو التأثير المتبادل بين الكفاح الداخلي من أجل السلطة في سورية والصراعات على مسرح السياسة العربية الاوسع مـع وعـلى مستوى أكبر سياسة للدول الكبرى في المنطقة ، وفي عام ١٩٥٤ أصبحت هذه الصراعات الخارجية أكثر شراسة ، فحلف بغداد المقترح شق العالم العربي ، حتى أن

---

(١) انظر جاك بيرك ، عالم العرب السياسي ، دائرة المعارف الفرنسية المجلد الحادي عشر(١٩٥٧)

سورية وقد اصطلت بناره كانت أكثر الدول العربية متاعب وقلقا ، وسنترك الى الفصل التالي تفصيلات النقاش الكبير الذي دار حول هذا الميثاق الدفاعي ، وما سيذكر هنا أن مصير حلف بغداد ، بالمعنى الحقيقي تماما ، قد تقرر في ميدان السياسة السورية الداخلية ، فسقوط الشيشكلي عام ١٩٥٤ والانتخابات التي أشارت الى اشتراك سورية في معركة الدول الكبرى والى : « ان منافسات الدول الكبرى لم تعد تجري في عالم مستسلم عاجز قديم » (٢) .

وزارة صبري العسلي

كانت الخطوة الاولى التي قام بها خلفاء الشيشكلي هي اعلان عدم شرعية عهده الطويل ، كما نبذ دستوره الذي وضعه عام ١٩٥٣ وأعيد دستور عام ١٩٥٠ ، وفي محاولة لمسح الماضي القريب من الذاكرة قبل هاشم الاتاسي رئيس الدولة الجديد أولا استقالة الدكتور معروف الدواليبي رئيس الوزراء ، الذي طرده الشيشكلي حين قام بانقلابه الثاني في كانون الاول ١٩٥١ ، قبل استدعاء صبري العسلي ، الامين العام للحزب الوطني ، وتكليفه بتشكيل حكومة . وفي السنوات الاربع التالية لم يبعد العسلي فترة طويلة قط عن رئاسة الحكومة ، ويكشف عمله وسيرته ربما أكثر من أي سياسي سوري بارز آخر الضغوط المتصارعة التي تعرضت لها سورية ونتج عنها انقسام الولاءات .

ولد العسلي في دمشق عام ١٩٠٣ ونال اجازة الحقوق عشية الثورة السورية على الفرنسيين عام ١٩٢٥ والتي اشترك هو نفسه فيها ، وفي اواخر العشرينيات وطيلة الثلاثينيات عمل محاميا وساعد في انشاء وتوجيه جماعة وطنية سياسية صاخبة هي « عصبة العمل القومي » وذلك قبيل انضمامه الى الكتلة الوطنية عام ١٩٣٦ ، لقد وقف الى جانب الفيشيين عامي ١٩٤٠ — ١٩٤١ فاعتقله الحلفاء حين غزوا سورية ، ثم انتخب الى المجلس التشريعي عام ١٩٤٣ وأعيد انتخابه عام ١٩٤٧ وأصبح الامين العام للحزب الوطني . اشترك العسلي في عدة وزارات

---

(٢) ا . ح . حوراني ، رؤية للتاريخ (١٩٦١) صفحة ١٤٤ .

بعد الحرب العالمية الثانية كان في معظمها وزيرا للداخليـــة ، وهـــو وثيق الارتباط باخفاقات حكم القوتلي ومفاسده ، وعمليات القمع السياسي التي كان آنئذمسؤولاعنها جرّت عليه عداء حزب البعث الناهض ، على حين «أكسبه» تحوله المفاجيء الى الايمان بوحدة مع العراق عام ١٩٤٩ احتقار زعماء حزب الشعب .

وفي سنوات الدكتاتورية العسكرية القلقة حرص العسلي على ربط نفسه بجميع جيران سورية الاقوياء ، فأجرى اتصالات سرية مع العراق بينما ظل على صلات وثيقة بالقوتلي المبعد ومسانديه المصريين والسعوديين ، كما كان احد العناصر البارزة في المؤامرة على الشيشكلي وتسلّم اموالا من العراق ، الا ان اشتراكاته القائمة على الارتزاق هذه قد كشفته أمام تهديد تشهير زملائه المتآمرين وفضحته لا سيما في أوساط الجيش ، وهنالك امر غريب آخر وهو انه كان شريكا رئيسيا في مؤسسة قانونية ناجحة كان من بين زبائنها شركات اميركية كبرى مثل « التابلاين » ، ان العسلي ، في الحقيقة ، سياسي قديم بلا منهـــاج او مبدأ او عقيدة ، وظهوره المتعدد رئيسا للوزارة لهو اقل دلالة على وزنه السياسي من حقيقة قبول الاجنحة اليسارية واليمينية في المجلس النيابي به ، باعتباره مرشحا مسالما يمكن الاتفاق معه ، اما خطبه فكانت سيلا من البلاغة العربيـــة التي تخفي ذهنا متوقدا .

وفي الاول من آذار ١٩٥٤ شكل العسلي حكومة ائتلافية (٣) من الحزب الوطني وحزب الشعب مدعمّة ببعض المستقلين البارزين مثل الزعيم الدرزي

---

(٣) رئيس مجلس الوزراء : صبري العسلي (حزب وطني) وزير الاقتصاد الوطني : فاخـــر الكيالي (حزب وطني) وزير الصحة والاسعاف العام : محمد سليمان الاحمد — ويعرف باسم بدوي الجبل — (حزب وطني) وزير دولة : عفيف الصلح (حزب وطني) ، وزير الدفاع : معروف الدواليبي الوطني (حزب الشعب) ، وزير الخارجية : فيضي الاتاســي (حزب الشعب) ، وزير الاشغال العامة : رشاد جبري (حزب الشعب) ، وزير الداخلية : علي بوظو (حزب الشعب) ، وزير الزراعة : حسن الاطرش (مستقل) ، وزير العدل : عزت الصقال (مستقل) ، وزير المالية عبد الرحمن العظم (مستقل) ، وزير المعارف : منير العجلاني (مستقل) .

حسن الاطرش والاقطاعي الحموي عبد الرحمن العظم ، وبعد اسبوعين دعي المجلس النيابي الى الانعقاد ، وهو ليس المجلس الذي انتخب ايام الشيشكلي ولكنه المجلس الذي سبقه والمنتخب في ١٥ تشرين الثاني ١٩٤٩ والذي كان يقف وراءه حزب الشعب وحله الشيشكلي في ٢ كانون اول ١٩٥١ ، كل ذلك في محاولة لمسح الماضي وفترة حكم الشيشكلي .

ان السمة البارزة لوزارة العسلي الانتقالية كانت استثناء الحوراني والبعثيين وعدم تمثيلهم فيها على رغم معارضتهم العنيفة للشيشكلي ودورهم الكبير في اسقاطه ، وقد شاع ان الحوراني طلب وزارة الداخلية فرفض طلبه ، لذا فانه وعفلق وقفا في صف المعارضة ، فشجبا الائتلاف واتهماه بالرجعية وأعلنا ان الثقة في انتخابات ستعقد تحت اشراف الحكومة الائتلافية ستكون مفقودة .

أماني الهلال الخصيب :

ان اشتراك العراق في المؤامرة على الشيشكلي وفرحها الجلي حين سقوطه أثارا الشكوك المألوفة في أن خطوة أخرى ستتم لتنفيذ وحدة الهلال الخصيب .

لقد بدت الظروف ملائمة ، ففاضل الجمالي وهو وحدوى متحمس كان رئيسا للوزراء ، وكان اهتمام مصر موجها الى مفاوضاتها مع بريطانيا حول قاعدة السويس والى الصراع ما بين عبد الناصر ونجيب داخل مجموعة الضباط الاحرار ، كما أن العربية السعودية كانت هي ايضا قد أصابها الوهن اثر وفاة الملك عبد العزيز بن سعود عام ١٩٥٣ ، فابنه الملك سعود لم تكن له شخصية الأب ولا قدرته ، وفي سورية نفسها سقط الشيشكلي العدو الرئيسي للعراق ، وتمتع حزب الشعب ، الصديق الرئيسي للعراق بفترة انتصار وذلك لسيادته البرلمانية ولحقائبه الوزارية ، وفي هذا بعض تعويض له ، عن المحاكمات التي عانى منها على يد جيش تمزق وسادته الفوضى ، كما ان اليسار بدوره لم يكن قد استفاق تماما وشفي من الاضطهاد الذي انزله به الدكتاتور ، وفي الحقيقة كانت تلك فرصة اخيرة قد يعطي فيها عمل حاسم من أجل الهلال الخصب نتيجة فعالة .

وفي سورية كانت العواطف المشايعة للهاشميين لا تزال قوية آنئذ ، فكثير من الرجال المتنفذين لا سيما في شمال البلاد رأوا في الوحدة مع العراق على رغم الوجود البريطاني هناك، من الامور العربية والوطنية، وهنا بدأ عبد الناصر فقط يبشر بأن جميع الروابط مع الاجنبي خيانة وان العرب يجب ان يتحدوا فقط مع العرب ، وكانت صورة العراق لم تلطخ بعد بالقمع والغلو اللذين شهدتهما السنوات الاربع الاخيرة من الحكم الهاشمي الزائل ، وقبيل حلف بغداد وصفقة الاسلحة التشيكية ومعركة السويس كان يسمح للمرء بالدفاع عن وحدة الهلال الخصيب من غير ان يدمغ بالرجعية الخائنة للعروبة .

لم اذن لم تستغل تلك الظروف الفريدة المواتية ؟ .

أتى الاخفاق أولا بسبب الارادة ، فالوحدة لم تتم لان احدا ما لم يسع اليها سعيا قويا حثيثا ، والرجال الذين على صلة وثيقة بها كانوا مترددين فحزب الشعب كان منقسما حول القضية اذ كان عدد قليل فقط من زعمائه، كما في عام ١٩٤٩ ، على استعداد لقبول حكم عبد الاله وامتداد الصلات البريطانية — العراقية القائمة على معاهدة الى سورية ، ان هذه الشكوك أفسدت عزمهم ، وفي العراق كان حذر نوري السعيد يسبق تعاطف الجمالي وحماسته ، وبغداد وقد رأت آمالها تخيب مرة بعد اخرى بسبب الانقلابات السورية المتكررة أصبحت حذرة من عدم الاستقرار في سورية وفي ريبة قوية من السياسيين السوريين الذين يتجمهرون لاستلام الاموال ولكن قلما « يسلمون سلعا » مقابل ما يأخذون .

لقد أدرك كثير من السوريين ، وقد خطبت ودهم المملكة العربية السعودية وفرنسا ومصر وتركيا والعراق ، أن الوحدة مع العراق ستوقف سيل الذهب المتدفق وستعني قتل الاوزة « التي تضع البيض الذهبي » ، وهذا التعليل يفسر الى حد كبير كم أفلح العراق وأحيانا في العون على قلب الحكومات السورية، ولم يتمكن قط من اغتنام فرصة التفاوض من أجل وحدة مع الادارة التي تخلف تلك المخلوعة ، لقد خطط العراق والمتآمرون السوريون الى ان اسقاط الشيشكلي سيليه تصويت في المجلس النيابي السوري لصالح الوحدة ، ولكن

الساسة السوريون وقد اصبحوا في « السرج » وامتطوا متن الحصان فضلوا متابعة لعبتهم الوفيرة الربح وانتزاع الاموال من كل جهة ، ان تردد العراق السابق كان معديا ، فبغداد قد اخفقت ولم تتصرف حين تسلم الزعيم الحناوي السلطة عام ١٩٤٩ ، وهذه الترددات السابقة جعلت السوريين أنفسهم يصمتون الآن .

ربما كان دعم بريطاني فعّال لوحدة عراقية ـ سورية في هذه المرحلة مجديا ، ولكن بريطانيا لمّا تكن قد تخلّت بعد عن حيادها البالغ التحريف تجاه المشروع ، وفرنسا كما رؤي تعتبر سورية منطقة نفوذ شرعية خالصة لها تحميها ، مهما كان الثمن ، من التعديات والتجاوزات العراقية والبريطانية ، وكانت ترى في حسني الزعيم والشيشكلي بطلين للاستقلال السوري ـ من ناحية مصالحها ـ وساندتهما على التوالي ، وكانت بريطانيا ترضى ضمنا حتى عام ١٩٥٤ بالمطالب الفرنسية ، فهي لم تقم بشيء لتشجيع المطامح الهاشمية في سورية وانجاحها مع انها لم تستطع علنا مقاومتها ، انها لم تتعاطف مع دمج سورية بالعراق او بالاردن فهي تدرك أنها بتعاطفها قد تسيء الى وضعها الخاص في هاتين الدولتين الهاشميتين وتثير العداء الشرس لكل من فرنسا ومصر والعربية السعودية التي غدت في ظل ابن سعود أكثر الدول العربية الصديقة اخلاصا لبريطانيا مدة تزيد عن ثلاثين عاما ، ومع ذلك فان حقيقة اعتقاد الجماهير بأن بريطانيا كانت تريد وحدة الهلال الخصيب تحت زعامة العراق قد ساعدت ولا ريب على اندحار المشروع وهذه نتيجة تدعو الى السخرية ربما لم تجدها بريطانيا مقبولة ، فان أهدافها الحقيقية كانت أكثر تواضعا فالمصالح البريطانية تكون في سورية الصديقة التي تتكفل مرور الزيت العراقي بأمان إلى البحر المتوسط ، ولكن بعد أشهر قليلة كان على حلف بغداد ان يرغمها على تحديد موقفها في الصراع الدائر ما بين العراق ومصر ، وهو صراع ستكون نتيجته الأساسية السيطرة على سياسة سورية الخارجية ، ولكن فرصة قيام كيان سوري ـ عراقي موحد كانت قد ضاعت آنئذ .

وبينما لم تنجم عن صلات سورية بالعراق اية وحدة سياسية الا ان صلاتها بالقاهرة كانت آنئذ اقل ودا ، فالقوميون في سورية وفي العالم العربي لم يثقوا آنئذ بعبد الناصر ، فحزب الاستقلال في العراق والبعث في سورية وقفا الى جانب نجيب ضده (٤) ، وكان السبب الهام لذلك هو الاعتقاد بان عبد الناصر مشايع للاميركيين وبأنه لين أمام البريطانيين في المفاوضات حول منطقة السويس ، كما اتهم في التخطيط لاقامة حكم عسكري استبدادي يتعارض والنظام الديمقراطي المتعدد الاحزاب ، وبلغ السخط عليه الذروة حين ابرم معاهدة مع بريطانيا تلتها محاكمات الاخوان المسلمين ، وضمن هذه القرينة العامة كانت هنالك أحداث عديدة أكثر دلالة عملت على افساد صلات سورية بالقاهرة ، ولعل أهمها يتعلق بمحمود ابي الفتح ، الصحفي المصري المعروف ، الذي هرب الى دمشق في أواسط ايار ١٩٥٤ بعد ان حكم في مصر بالسجن ١٥ عاما مع مصادرة أملاكه ، لقد دافع ابو الفتح عن المبادىء الديمقراطية وحرية التعبير واتخاذ موقف صلب من بريطانيا (٥) ، وكانت صحيفته « المصري » تنطق رسميا باسم الوفد الذي ألغى معاهدة عام ١٩٣٦ ، وقد استقبل استقبالا حارا في سورية وحضر رئيس مجلس الوزراء والوزراء المآدب التي أقيمت على شرفه على حين جددت الصحافة السورية حملاتها على رجال الثورة في مصر للطريقة التي عاملوا أبا الفتح بها ، لقد رفضت طلبات تسليمه مع أنه غادر سورية سريعا الى بغداد حيث منحه نوري السعيد بعدئذ الجنسية العراقية .

لقد أتيحت للصحافة السورية فرصة أخرى لمهاجمة « الضباط الاحرار » حين ألقي القبض على الملحق العسكري المصري وهو يهرب قطعا من القماش ما بين بيروت ودمشق ، مع ان التحقيقات التي اجريت كشفت تفاهة طبيعة العملية التي قام بها ، وحين أعلن في مناسبة أخرى ان الصاغ صلاح سالم احد البارزين في جماعة الضباط الاحرار سيقوم بزيارة الى دمشق سارعت الحكومة

---

(٤) انظر مجدلاني : حركة الاشتراكية العربية (في لاكور : ميدل ايست ترانيشن ص ٣٤٠ الملاحظة رقم ٢) .

(٥) انظر احمد ابو الفتح ، قضية ناصر ، باريز (١٩٦٢) .

السورية الى توضيح أن الزيارة تم بمبادرة من القاهرة لا من دمشق ، فغضبت القاهرة وألغت الزيارة .

ان صبري العسلي رئيس مجلس الوزراء السوري ، وقد تمزّق ما بين القاهرة وبغداد ، لم يكن متأكدا من السبيل الذي ستجري فيه الريح ، لقد قبل معونات مالية من العراق في المؤامرة على الشيشكلي لكن الحزب الوطني الذي ينتمي اليه كان وثيق الصلة بالمعسكر المصري ـــ السعودي المنافس ، والقوتلي نفسه كان يتوقع وصوله قريبا ، لذا فان العسلي رأى ان المناسب هو ابقاء صلاته قوية بالجانبين ، وحين تظاهر الطلاب ، بترتيب من حزب البعث ، مطالبين الرئيس الاتاسي بابعاد رئيس الوزراء وتخليص سورية من الاتحاد مع « دولة عربية مستعبدة مجاورة » تعهدت الحكومة بألا تلزم البلاد بأي تحالف طويل الامد قبل الانتخابات .

الا ان نغمة التآمر مع العراق لم تمت وتندثر بسهولة ، ففي الثامن من حزيران ، وقبيل ثلاثة أيام فقط من سقوط الحكومة ، عقد العسلي اجتماعا سريا في منتجع « برمانا » اللبناني مع ميخائيل اليان ، وهو سياسي غني موال للعراق ومن الحزب الوطني ، والزعيمين العراقيين الجمالي وبابان ، وطبقا للشهادة التي قدمت بعدئذ في محاكمات بغداد التي تلت ثورة ١٩٥٨ العراقية بحث الرجال الأربعة إحتمال تنفيذ وحدة الهلال الخصيب عن طريق هجوم عسكري عراقي على سورية (٦) .

سقوط العسلي :

بقيت حكومة العسلي الائتلافية في الحكم مائة يوم ولكنها أسقطت قبل أن تتمكن من تسيير العمليات الانتخابية التي شكلت من أجلها ، لقد كانت حكومة واهنة متحيزة منقسمة على ذاتها ، وأبدت قليلا من المهارة المطلوبة

(٦) انظر الشهادة المقدمة في محاكمة فاضل الجمالي يوم ٢٠ / ايلول / ١٩٥٨ (موجز الاذاعة البريطانية رقم ٦٦١ ، ٢٣ / ايلول / ١٩٥٨) .

لانجاز عملية الانتقال الدقيقة الحساسة من الدكتاتورية العسكرية الى النظــام البرلماني ، ان اسابيعها الاولى تعكرت بالجدل الحماسي العام حول قضية عودة السيد شكري القوتلي ، رئيس الجمهورية السابق ، من المنفى ، فأصدقــاء القوتلي قد رأوا فيه خير زهرة تفتحت أثناء النضال الوطني ضد فرنسا ، أمــا اعداؤه فرأوا فيه سياسيا جعجاعا من تلك المدرسة القديمة التي قاد وهنها وصيرها على رؤية المفاسد الى انهيار الديمقراطية قصيرة العمر في سورية .

وفي التاسع من نيسان – ١٩٥٤ – زار وفد سوري مؤلف من الوجهاء والزعماء المسلمين وأساقفة الطائفة الارثوذكسية القوتلي في الاسكندرية ودعوه الى العودة ، فرد خصومه بتظاهرات في الشوارع وبحملة عنيفة شملت سورية كلها ، وكتبت احدى الصحف اليسارية : « ان هؤلاء الذين دعوا الى عودة القوتلي قد أحاطوه بهالة من القداسة وكأنه المسيح نفسه ، وفي الحقيقة فالقوتلي يعمل للعودة الى سدة الرئاسة « كمندوب سام » للانتداب المصري – السعودي وكأداة في يد السياسة الاميركية (٧) . »

وقد واجهت الحكومة عاصفة اخرى حول مشروع قانون يرغم اعــوان الشيشكلي السابقين والموظفين المدنيين الذين رقاهم ورفع درجاتهم عــلى رد الرواتب الحكومية التي تقاضوها في عهده ، ان هذا الاجراء التأديبي لأمــر سخيف سياسيا ، اذ كان له اثر غير متوقع ، فأعوان الشيشكلي السابقين سرعان ما استجمعوا قواهم في دفاع حانق عن حقوقهم الشرعية وأحيوا حركة التحرير العربي كقوة سياسية تعتزم خوض الانتخابات ، واجتمع زعماء الحركة في بيت مأمون الكزبري ، رئيس المجلس النيابي السابق ، لوضع بيان (٨) يردون فيه اتهامات حكومة العسلي باللاشرعية السياسية عليها نفسها ، ثم هددت الحكومة بمحاكمة الشيشكلي نفسه ولكنه أعلن (لارباك الحكومة) انه يسرلوضع نفسه تحت تصرف المحاكم السورية اذ ليس ثمة ما يخجل منه ، ولكن هذا الاقتراح سرعان ما ألغي .

---

(٧) صحيفة « الرأي العام » ، دمشق ، ٢٢ نيسان ١٩٥٤ .

(٨) أنظر صحيفة بردي ، دمشق ، ٨ – ٩ حزيران ١٩٥٤ .

ان الحكومة لم تنل سوى القليل من الراحة ، اذ اتهمت بتعيين افراد من احزاب الائتلاف في الوظائف المدنية وبأنها تعمل على تعديل قانون الانتخابات كي تكفل عودتها إلى السلطة ، وقد ثارت معارضة عنيفة لاعتزامها سحب رخص الصحف ثم الطلب من مالكيها تقديم طلبات للحصول على رخص جديدة في فترة اسبوعين ، وهنالك عاملان قد يكونان حاسمين في اسقاط حكومة العسلي ، الاول « غزله » المكشوف مع الولايات المتحدة الاميركية والذي يتعارض مع تيار الحياد القوى في سورية ، فحين زار الجنرال آرثر ترودو ، نائب رئيس الاركان الاميركية ، دمشق في ٨ أيار مثلاسرت شائعة تقول أنه قدم لاجراء مفاوضات حول اتفاقية معونات عسكرية كتلك التي عقدها العراق مع الولايات المتحدة في شهر نيسان ، وقد نفت الحكومة أية نية كتلك ولكن السخط قد وقع .

ثم ان الجيش السوري ، ثانيا ، وهو منذ فترة طويلة في صميم مختلف القضايا والمسائل لم يكن ليستكين بسهولة وهو ما يطلب منه الآن ، لقد كان على خلاف مع وزير الدفاع ، معروف الدواليبي ، الذي اصطدم بقادة الجيش في الماضي وكان الضباط حانقين على محاولاته الرامية إلى فرض « العودة إلى الثكنات » ووضع الاركان العامة تحت رقابة مدنية صارمة ، ويعتقد ان ضغط الجيش وراء الكواليس كان العامل الحاسم الذي أرغم العسلي على الاستقالة في ١١ حزيران .

اجراءات الغزي الانتخابية :

تشكلت حكومة جديدة برئاسة سعيد الغزي لتخلف وزارة العسلي المستقيلة ، والغزي محام دمشقي محترم ذو نزعة استقلالية وكانت حكومته حيادية غير حزبية أتم تشكيلها في ٩ حزيران (٩) في وجه تهديد جديد

(٩) رئيس مجلس الوزراء ووزير الدفاع : سعيد الغزي ، وزير المالية والخارجية : عزة الصقال ، وزير العدل والاقتصاد الوطني : اسعد كوراني ، وزير المعارف والزراعة : نهاد القاسم ، وزير الداخلية : اسماعيل قولي ، وزير الأشغال العامة والمواصلات والصحة والاسعاف العام : نبيه الغزي .

بانقلاب يقوم به الجيش (١٠) ، فأعلن الغزي فورا عن حياده التام في القضايا الداخلية وعزمه على الاحتفاظ بالصلات الاخوية مع الدول العربية جميعها ضمن اطار الجامعة العربية دون ان يلزم سورية بأية ارتباطات دولية ، ان المهمة الاولى الوحيدة لحكومته هي الاشراف على انتخابات حرة نزيهة وفق قانون انتخابات جديد يرى ان يضع مشروعه بالتعاون مع المجلس النيابي ، وقد أكسبه هذا البيان الواضح ثقة الجيش بالاضافة إلى ثقة عامة الشعب بماضيه ، لقد وثق به البعث وبلغت به المهارة حد تعيين اللواء شوكت شقير ، رئيس الاركان العامة ، وزيراً للدفاع كي يكسب ولاء الجيش .

انصرف الغزي بنشاط إلى عمله ، فعين ٢٠ آب ١٩٥٤ موعدا لاجراء الانتخابات ، وبموجب الدستور السوري هنالك مجلس واحد للنواب ينتخب لمدة أربع سنوات (١١) ، لقد ضمن الغزي الموافقة البرلمانية على قانون انتخابي جديد يلغي قانون الشيشكلي ويعيد قانون عام ١٩٤٩ مع بعض التعديلات في الايام العشرة الاولى من تسلمه مسؤولية الحكومة ، وقد نص القانون على ان يكون عدد النواب ١٤٢ ويمثل كل نائب منهم ٣٠ الفا من المواطنين ، ويحق لكل متعلم تجاوز الثلاثين ترشيح نفسه ، كما يحق لكل

(١٠) اعتقل العقيد محمد صفا وعدد من الضباط الآخرين في ١٩ / حزيران / بتهمة التآمر لاستلام السلطة بمعونة دولة اجنبية ، لقد قام العقيد صفا في عامي ١٩٥٢ – ١٩٥٣ بحملة ضد الشيشكلي من بغداد تحت اسم «حكومة سورية الحرة» ، ومن المحتمل ان العراق ، وقد قلق لفشل العسلي في الضغط من اجل الوحدة شجع صفا على تحريك الامور الى الذروة ، لقد صرح عشية اعتقاله الى صحيفة حمصية : « انني لم أكن خادما قط لغير سورية ، وأنا لست عراقيا او سعوديا بأكثر مما لو كنت بريطانيا او اميركيا او فرنسيا ، ليست لي مطامع سياسية ... و « سورية الحرة » التي تشكلت في العراق ليست حكومة ولكنها حركة مقاومة ضد الديكتاتوريه عملت بمساندة جميع السوريين وبأوامر من صاحب الفخامة الرئيس هاشم الاتاسي » .

« صحيفة السوري الجديد – حمص – ١٨ / حزيران / ١٩٥٤) .

(١١) انني مدين ببعض هذه التفاصيل الواردة في هذا الفصل حول اجراءات الانتخابات السورية الى دراسة لم تنشر اعدها الاستاذ رالف كرو من الجامعة الاميركية في بيروت وعنوانها « دراسة للقوى السياسية في سورية بالاعتماد على انتخابات ١٩٥٤ » ، أيار ١٩٥٥ .

من تجاوز الثامنة عشر من الذكور والثامنة عشر من الاناث وهي تحمل الشهادة الابتدائية حق الانتخاب .

ان الوحدة الانتخابية الاساسية هي القضاء وله نائبان او ثلاثة ، مع أن بعض المناطق الكثيفة السكان مثل حلب ودمشق يحق لها انتخاب أربعة عشر نائبا للاولى واثني عشر للثانية ، وعلى المرشح أن ينال ٤٠ ٪ من أصوات الاقتراع كي يفوز في الجولة الاولى ، واذا بقيت بعض المقاعد خالية فتجري انتخابات أخرى بعد اسبوع من الاولى ويفوز فيها من ينال أكثر من ١٠ ٪ من أصوات الجولة الاولى ، واغلبية ضئيلة تكفي آنئذ للفوز .

والحكومة في سورية شديدة المركزية وهذا ما يتيح للسلطة الاشراف على الانتخابات من خلال موظفي وزارة الداخلية في مختلف المناطق ، وهذا الاشراف يقوم على الدرك والمحافظين والقائممقامين ، فهم يراقبون تسجيل المقترعين وصلاحية المرشحين ، ومطابقة الشروط المتوفرة فيهم لما ورد في قانون الانتخاب ، بالاضافة إلى تسيير عدد كبير من أفراد الجهاز الاداري يسيّر حياة المواطنين العاديين ، كما أن موافقتهم ضرورية ولازمة للحصول على رخصة تجارية وشهادة ميلاد او وفاة ، وهم يراقبون عمليات تخمين الضرائب وتقديرها وجمعها ، كما ان الحصول على قرض من البنك الزراعي بدون مساندتهم ضرب من المستحيل ، لذا فكان طبيعيا ان يميل هؤلاء الموظفون إلى جانب النفوذ والمصالح القوية في الريف ، ولطالما ابتيع الدركيون الفقراء والذين حظهم من التعليم قليل ، بوسائل غير مباشرة كالهدايا في مواسم الحصاد او الدعوات إلى مآدب الطعام في بيوت الاقطاعيين ، ان التدخل في شؤون « القوى الطبيعية » العاملة في المجتمع لم يكن في صالحهم .

والغزي كي يحطم هذا التواطؤ مع المصالح المحلية نقل كل محافظ وقائمقام إلى مركز جديد قبل شهر من موعد الانتخابات ، لقد اسندت وزارة الداخلية والدرك إلى شخص موثوق غير سياسي نبّه الموظفين المدنيين إلى أن النشاطات السياسية محظورة عليهم تحت طائلة القانون ، أما الجيش فقد رضي مختارا ان أن يبقى في ثكناته اثناء عمليات الاقتراع .

ان نظام الاقتراع السري لا يقل أهمية عن هذه الاجراءات الوقائية ، فوضع الغزي اجراءاً انتخابياً أمل أن يكون ضمانا جيداً ، وهو كما يلي : يبرز المقترع البطاقة الشخصية في مركز الاقتراع حيث تدقق وفق القوائم الانتخابية ، ويعطى مغلفاً حكومياً موقعا من رئيس اللجنة الانتخابية ثم يدخل إلى غرفة الانتخاب السرية ليضع القائمة التي انتخبها في المغلف — وقد تكون قائمة قدمتها له الاحزاب والمرشحون المستقلون أو انتقاها هوبنفسه — ويغلق المغلف ويضعه في صندوق الاقتراع خارج الغرفة السرية على مرأى من اللجنة الانتخابية .

ويمثل هذا الاجراء وحده ثورة في التجربة الانتخابية السورية والعربية ، وقد جرى تبنيه بناء على اصرار حزب البعث وفي وجه معارضة حزب الشعب والحزب الوطني اللذين قالا ان المواطنين، (ونسبة الامية كبيرة جدا بينهم)، سيحيلون هذه الامور الدقيقة الجيدة إلى هراء ، لقد بذل هذان الحزبان جهدهما لاعاقة عمليات تطهير جهاز الموظفين ونقل المسؤولين الاداريين التي سار بها الغزي ، وفي ٢٩ تموز ، أي قبل موعد الانتخابات العامة بأسابيع ثلاثة ، أعلن حزب الشعب عن عزمه على مقاطعة الانتخابات شاكيا من أن الجيش قد عاد مرة أخرى إلى التدخل في السياسة ، ربما قدر هذا الحزب ان التيار في البلاد يسير ضده ، ثم حذا الحزب الوطني حذوه وأرغم الحكومة على اعادة النظر في موعد الانتخابات والذي هو ٢٠ آب وتأجيله إلى ٢٤ ايلول حيث وافقت جميع الاحزاب على الاشتراك .

الحملة :

أعادت الاحزاب والكتل السياسية صقل مناهجها ودققت في ملاكاتها واجهزتها ، ورسمت تكتيكها الانتخابي ، وقد ذكر فيما سبق قصة حزب الشعب والحزب الوطني ، وهما التوأم اللذان ورثا الكتلة الوطنية ، وقصة حزب البعث الذي يمثل القوى القومية العربية الراديكالية لعفلق والبيطار والتي اتفقت

فيما بينها ، والحزب الشيوعي والاخوان المسلمين والحزب القومي السوري الاجتماعي وحركة التحرير العربي التي أسسها الشيشكلي وحزب فيصل العسلي التعاوني الاشتراكي المتطرف ، ان تقييماً موجزاً لقوى الاحزاب النسبية قبيل الانتخابات جدير بالمحاولة فالصراع على السلطة في سورية في السنوات القليلة القادمة سيقاد تحت رايات حزبية .

الحزب الوطني :

رفعت عودة شكري القوتلي من المنفى في ٧ آب معنويات مؤيديه من الحزب الوطني ، وقد أعلن أن الرئيس السابق لن يكون له دور مباشر في الحملة غير اصدار توجيهات عامة ، ولكن الحزب كما كان واضحاً اعتبره رصيداً انتخابياً رئيسياً ، وقد دعا القوتلي الى مؤتمر يعقد في منزله يوم ٣ ايلول عدداً كبيراً من الساسة وزملائه القدامى والصحفيين ورؤساء النقابات المهنية والغرف التجارية وعميد الجامعة وآخرين من رجالات البلد ، وحثهم ، للحاجة الى وحدة وطنية ، على تشكيل مؤتمر وطني تديره لجنة من احزاب متعددة ثم اعلن : « انني لم أعد من مصر لاضيف حزباً جديداً الى قائمة الاحزاب القائمة ، لقد أتيت لأنادي ضمائركم للعمل متحدين كي نقيم حكماً مستقراً في سورية »، ولكن نداءه لم يلق اهمية كبرى وولد المؤتمر ميتاً ، فحزب الشعب استجاب ولكن بتحفظ وحزب البعث قابل الدعوة ببرود على حين قابلها الحزب الشيوعي بالعداء ، أما المستقلون الاقوياء كخالد العظم الذي دار الحديث حوله على أنه منافس القوتلي الرئيسي على الرئاسة فلم يدع الى الانضمام لهذا المؤتمر ، ان الرأي العام كان غير مبال اذ وجد من المحيّر اثارة هذه الضوضاء حول رجل يمثل نظاماً قد مضى ويتحمل مسؤولية القلاقل التي شهدتها سورية بعده .

ان الحزب الوطني كان يتقهقر في سورية منذ عام ١٩٤٧ ، وقد فقد بعض المقاعد في انتخابات ذلك العام لصالح حزب الشعب ، وزاد من ضعفه نفي زعمائه بعد انقلاب حسني الزعيم وحله واعتباره غير مشروع زمن

الشيشكلي ، ولكن النتائج كانت اقل خطورة مما قد يبدو لان الحزب لم يسع قط لتجنيد اعضاء جماهيريين دائمين يرتبطون بعقيدة او نظام حزبي ، فهو مؤلف فقط من النواب انفسهم وكان يستمد نفوذه من سجلهم الوطني وسمعتهم الشخصية وثرواتهم ومكاناتهم الاجتماعية .

وكان المحامي الدمشقي صبري العسلي امينه العام ، على حين رأس شخصان متنافسان هما الدكتور عبد الرحمن الكيالي ولطفي الحفار فرعي الحزب في حلب ودمشق ، ومن اعضاء الحزب الاخرين البارزين ميخائيل اليان وسهيل الخوري ومجد الدين الجابري ، وللحزب صحيفتان : « القبس » في دمشق و « الشباب » في حلب .

لقد قاوم الحزب ، تحت زعامة القوتلي ، التوسع الهاشمي في السنوات التي تلت الحرب ، ودافع عن الاستقلال السوري في وجه جميع محاولات وحدة الهلال الخصيب ، ولكن هذا لم يعد عام ١٩٥٤ سياسة الحزب المتفق عليها ، فقد طالب جناح موال للعراق يتزعمه لطفي الحفار بالتقارب مع حزب الشعب على حين قاد الكيالي الجماعة المخلصة للقوتلي واصدقائه السعوديين والمصريين ، وفي عام ١٩٥٥ كشف حلف بغداد هذه الخلافات وانشق الحزب

واقتصرت دعاية الحزب الوطني الانتخابية على تذكير المواطنين بماضيه الوطني اثناء الانتداب ، ولم تجر أية محاولة لتحديد منهاجه ما عدا خطاباً ألقاه صبري العسلي في حلب يوم ٩ تموز وأعلن تبني الحزب لشكل « جديد » من الاشتراكية « لا تسلب الرجال ثرواتهم ولكنها الاشتراكية التي تتيح للعمال ان يتمتعوا بثمرات جهودهم » (١٦) ، وهو تعبير استقبلته الصحافة اليسارية باستنكار سافر ، لقد انصبت معظم جهود الحزب وطاقاته على تهيئة قوائم المرشحين والسعي لاقامة تحالف مع حزب الشعب ، ولكن الخلافات بين الحزبين كانت بالغة العمق وفي جميع الدوائر الانتخابية تقدما بقوائم متنافسة ، وكان كثير من زعماء الحزب الوطني على وداد مع بريطانيا منذ فترة طويلة ، وهذا من بقايا الحرب حين امدهم الجنرال سبيرز بالدعم البريطاني ضد

(١٦) الشباب ، ١١ تموز ١٩٥٤ .

الفرنسيين ، ولكنهم اتهموا اثناء الانتخابات بتلقي دعم الولايات المتحدة والعربية السعودية (اعيد الى الذهن ان صبري العسلي هو محامي التابلاين) .

حزب الشعب :

اقترب حزب الشعب من الانتخابات بحذر ، فقد خشي زعماؤه ان يكشف عدد الاصوات مدى سقوط اسهمهم عما كانت عليه عام ١٩٤٧ ـ ١٩٤٨ حين تأسس الحزب ، لقد صارعوا الدكتاتورية العسكرية ، وخسروا معركتين رئيسيتين ، كانت الاولى لصالح ـ الوحدة العراقية ـ السورية والثاقية ضد الجيش دفاعاً عن الحكومة الدستورية .

ان الحزب ، وقد اضناه صراع طويل مع الشيشكلي وانقسامه عام ١٩٥٤ حول ما سيفعلونه بخصوص العراق ، كان ضعيفاً ولا يستطيع مزاحمة غيره في الانتخابات .

الا انه احتفظ ببعض ارصدته الكبرى لمواجهة هذه الخسائر ، فهو اصلا قوة سياسية اقليمية تعتمد على حلب وحمص لذا فباستطاعته الاعتماد على هذين المعقلين مهما كان ضعف اتباعه في مناطق اخرى من البلاد ومهما كان قليل الثقة بتنظيماته فيها ، كما كان زعماؤه يتمتعون بسمعة جيدة بسبب نزاهتهم الفردية تفوق ما يتمتع بها زعماء الحزب الوطني ، وهم من الفئات التي يطلق عليها السوريين « نظيفة اليد » لانهم كانوا اقل جشعاً في الوظائف ونشاطاً في توزيع الحماية ، أما دستور الحزب فيكشف عن وعي للمشاكل السياسية والاجتماعية من غير ان يسند هذا الوعي أي منهاج مفصل ، ان الرصيد الانتخابي الرئيسي لحزب الشعب ، كما هو الحال بالنسبة للحزب الوطني ، ليس العقيدة او جهاز الحزب ولكن مواقف زعمائه الفردية ونفوذهم ، وهم رشدي الكيخيا وناظم القدسي ومعروف الدواليبي واحمد قنبر وعبد الوهاب حومد في حلب وفيضي الاتاسي وهاني السباعي وعدنان الاتاسي في حمص وعلي بوظو وشاكر العاص ورشاد جبري ونسيب البكري في دمشق ، ولهم ثلاث

صحف هي : « السوري الجديد » الجريئة في حمص والتي قادت المعارضة ضد الشيشكلي ، و« الشعب » في دمشق و « النذير » في حلب .

لقد تجنب الحزب اثناء الحملة الانتخابية قضية العلاقة مع العراق لما تثيره من جدل ، وأكد بدل ذلك على الدفاع عن استقلال سورية ونظامها الجمهوري وهذا ولا ريب يعكس الخلاف في وجهات النظر داخل صفوفه ، وتعتقد اوساط شعبية ان بعض الاموال التي انفقها هذا الحزب اثناء الانتخابات قد أتت اليه من العراق ، على حين ضخم اعداؤه الاتصالات التي زعم انها جرت بين الملحق العسكري العراقي وبين بعض افراده .

حزب البعث :

خرج البعث قوياً بعد الاختفاء الذي دفعه اليه الشيشكلي ليلقي بنفسه في المعركة الانتخابية، فأحكم ميشيل عفلق وأكرم الحوراني تحالفهما الذي أقاماه في المنفى بأن شكلا من شخصيهما قيادة لحزب اعيد احياؤه وتشكيله حتى قيل أن عدد اعضائه المسجلين قد بلغ ستة آلاف ، وكان لعفلق ولصديقه البيطار عدد كبير من الاتباع بين شباب دمشق وجبل الدروز ، اما معقل الحوراني فكان في ريف حماه ، كما ان له اصدقاء عديدون في الجيش شدّوا من ازر الحزب وساعدوه على الوقوف امام احزاب عقائدية منافسة كالحزب القومي السوري الاجتماعي في اليمين والحزب الشيوعي في اليسار .

وقد بذل الحوراني ، في الاشهر التي سبقت الانتخابات ، جهوداً كبيرة لاثارة الفلاحين والعمال على سادتهم التقليديين ، فتأسست الجمعيات الفلاحية والاتحادات العمالية لاقناع العمال الزراعيين ان لهم حقوقاً ، كما استأجر الحزب المحامين وأثار حالات ضرب المالكين مستأجري اراضيهم او اهانتهم ، وقدم الحزب المشورات القضائية ونقل هذه الحالات الى القضاء ، وفي ظل حكومة الغزى الحيادية والقوى التقليدية في موقف الدفاع ، والجماهير متقدة حماسة من أجل حكومة ديموقراطية اخذت المحاكم تصدر احكاماً عادلة ،

ان صحف الحزب تناولت هذه الاحداث ونشرتها في طول البلاد ، وبتعطش شديد احتذيت في مختلف القرى .

واكترى الحوراني اعداداً كبيرة من الشاحنات وملأها بمؤيديه وطاف القرى في حملات جريئة ، وكان يواجهه عادة رجال الملاكين الاقطاعيين بالقوة وحدثت معارك عديدة ، ولكن عرض القوة هذا هو ما اطلق عقال ألسنة الفلاحين واخرجهم من سكوتهم وتسبب في وقوفهم جميعاً معه، وفي بعض الحالات المتطرفة وجد الاقطاعيون أن الدخول الى قراهم قد غدا خطراً عليهم .

وفي اواسط الخمسينيات يمكن تصنيف ثلاثة ارباع سكان سورية على انهم من سكان الريف (١٣) ، وكانت « الطبقة الفلاحية » تعيش في قرى صغيرة متكاملة تماماً تربطها الاسر القوية وضغوط الطائفية ، لا في مزارع مبعثرة ، وادخلت سيارة الركاب الكبيرة والصغيرة حركة جديدة بعد الحرب العالمية الثانية ، لكن نسبة مئوية كبرى من سكان المدن ابقت محل اقامتها الرسمي في القرى فتعود اليها لغايات انتخابية ، لقد هاجم تكتيك الحوراني هذا البناء الاجتماعي الريفي في اسسه ، وغرفة الانتخاب السرية التي ناضل الحزب في سبيل الوصول اليها فترة طويلة اتاحت له ان « يحصد » الجزاء السياسي لعمله .

ان للبعث وحده من جميع الاحزاب السياسية ما عدا الحزب الشيوعي منهاجاً مفصلا وخطاً حزبياً حول جميع القضايا الكبرى القائمة ، فقد قاوم جميع انواع النفوذ الاجنبي في العالم العربي سواء اكان سياسياً ام اقتصادياً ام ثقافياً ، وكان ضد العراق والهاشميين والغرب ، كما أنه ايضاً ضد السوفييت وقد رفض اثناء الحملة الانتخابية جميع اشكال التعاون مع الشيوعيين على رغم نداءات خالد بكداش المتكررة لاقامة « جبهة وطنية » ، وحين اعلن العراق عقده لاتفاقية المعونة العسكرية مع اميركا انضم البعث الى حزب كمال جنبلاط اللبناني ــ الحزب التقدمي الاشتراكي ــ في بيان مشترك حول الحياد (١٤).

---

(١٣) انظر واريز ، صفحة ٨٢ .

(١٤) البعث ، ٩ أيار ١٩٥٤ .

وفي مهرجان كبير في حلب عقد يوم ٨ تموز حدّد صلاح الدين البيطار أهداف الحزب ؛ فهو سيناضل في سبيل تشريعين أثنين : الاول قانون للعمل لحماية العامل من تعسف رب العمل ، والثاني لائحة تحدد علاقة الفلاحين بمالكي الارض ، وتحدث البيطار أيضا عن اصلاح الارض والتصنيع وتحديد الدخل والنضال ضد سيطرة رأس المال الاجنبي .

لقد كانت اجتماعات الحزب حية مزدحمة بالحضور ،تبدو غير متأثرة بهجمات الشيوخ ومدرسي الشريعة الاسلامية واتهاماتهم لها بالالحاد ، وكانت له صحيفتان (البعث) في دمشق و« التربية » في حلب .

الحزب الشيوعي :

اتفق سقوط الشيشكلي وحدوث تغيير في التكتيك الشيوعي تجاه الحركات الوطنية في العالم أجمع ، فبينما كانت موسكو ما بين ١٩٤٨ واوائل الخمسينيات تعادي كليا الحركات الوطنية ما لم تكن شيوعية في هويتها أخذت السلطات السوفيتية ترى أكثر وضوحا ان « الحركات الاصلاحية الوطنية » في الاقطار المستقلة او التي استقلت حديثا لها دور هام في النضال ضد الاستعمار ، لذا فقد حث الشيوعيون على التعاون مع الاحزاب الوطنية – مهما كانت صفتها الطبقية أو مناهجها الاجتماعية والاقتصادية – في جبهات وطنية معاديـــة للاستعمار (١٥) .

وفي سورية قاد هذا التغير في خط الحزب خالد بكداش إلى توجيـــه دعوة لجميع « أعداء الاقطاع والرجعية والاستعمار » كي توحّد قواهـــا وتخوض الانتخابات في « جبهة وطنية » موحدة ، وقد توجه بندائه بالدرجة الاولى إلى حزب البعث والساسة اللاحزبيّين البارزين « ذوي العقلية التقدمية » مثل خالد العظم ، فلقيت هذه الدعوة بعض النجاح اولا ، فالعظم كان ينشد في اليسار دعما سياسيا كامنا ولكنه لما يكن بعد مهيأ لتحالف علني ، عـــلى

(١٥) من اجل معالجة وافية للموضوع أنظر صفحة ٢٣٠ .

حين كان البعث حتى تلك الفترة معاديا عنيفا للشيوعيين على رغم تأثره القوى بالافكار الشيوعية ، ان اعداءهم المشتركين قد جمعوا بينهم أخيراً وكان على الحزب الشيوعي ان يخوض وحيدا انتخابات عام ١٩٥٤ ، ولما لم تعترف السلطات به حزبا سياسيا شرعيا لذا فقد خاض عدد من اعضائه المعركة الانتخابية كمرشحي « وحدة وطنية » .

وكان للحزب جمهور قليل في عام ١٩٥٤ ،ولكن سحر شخصية بكداش وجرأته دفعت الناس إلى المبالغة في تقدير قوته ، وكان الدعم يأتيه بصورة رئيسية من الفئات الاكادمية المهنية كالمحامين وأساتذة الجامعة والاطباء والمهندسون ولا سيما اولئك الذين تلقوا علمهم في فرنسا ، وكان له اتباع أيضا بين صغار الموظفين وبين النساء المسلمات اللواتي رأين في الشيوعية قوة تعمل على تحريرهن وأملا لمساواتهن في الحقوق مع الرجال ، ولكنه كان متخلفا جدا عن البعث ضمن المجموعتين الكبيرتين الضاغطتين خارج البرلمان وهما الجيش والطلاب ، لقد بدأ بتنسيب الاعضاء من بين بروليتاريا المدينة ولم تكن له أية نشاطات بارزة في « الطبقة الفلاحية » .

لقد نقل عدد من صحف دمشق وجهة النظر الشيوعية ويخص بالذكر منها « نضال الشعب » السرية الدورية و « الطليعة » ولكن صحيفة « الاخبار » البيروتية الاسبوعية هي التي تمثل رسميا خط الحزب ووجهة نظره .

الحزب القومي الاجتماعي :

كان الحزب القومي السوري الاجتماعي عام ١٩٥٤ حزب اقلية جيد التدريب ولم يكن هنالك تناسب بين أعداد افراده وبين تأثيره على مجرى الامور في سورية ، وكانت علاقته بالشيشكلي جد وثيقة مما جعله لا يتمتع بتأييد شعبي واسع في الانتخابات التي تلت سقوطه . ان عقيدته السورية جاءت معاكسة للقومية العربية التي تبناها معظم السوريين ، وبعد أن منع في

لبنان واعدم مؤسسه (١٦) نقل الحزب مقر قيادته إلى دمشق تحت زعامة جورج عبد المسيح ، وفي ذلك الوقت تمتع بالقليل من الشعبية تميزت بانتخاب امينه العام عصام المحايري عضوا في المجلس النيابي ، ولكن حتى عندما كان في القمة عامي ١٩٤٩ – ١٩٥٠ لم يكن باستطاعته أن يدعي ان له أتباعا من الجماهير .

وتكمن اهميته عام ١٩٥٤ في جذبه اهتمام بعض الرسميين الغربيين بسبب شجبه « الخطر الاحمر » وتبنيه شعارات اليمين الغربي المتطرف ، وفي شهر نيسان من عام ١٩٥٥ وبعد الانتخابات بثمانية أشهر أساء إلى آرائه وبالتالي أساء إلى كل الموقف الغربي باغتياله نائب قائد الجيش السوري العقيد عدنان المالكي . ان تقريرا حول هذا التدخل المفجع في السياسة السورية – المسماة بقضية المالكي – يجب ان يترك لفصل آخر ، أما آراء الحزب فقد جاءت في جريدته الدمشقية (البناء) وذلك إلى أن منع الحزب في نيسان عام ١٩٥٥ وقد عادت هذه الصحيفة إلى الصدور بعد ذلك في بيروت .

الاخوان المسلمون :

ان الفرع السوري للاخوان المسلمين لم يدخل الانتخابات على شكل حزب سياسي ، فقد وضع ثقله لتأييد من اعتبرهم من « المسلمين الجيدين » او من هم معادون للغرب ، وقد نادى بتضامن المسلمين وبعودة إلى القرآن والاسلام كأساس للحياة القومية ، ولكنه بعكس جهازه الرئيسي في مصر لم ينجح في استعمال هذا التحليل الاسلامي كأداة سياسية في تجميع شبيبة البلد في حركة جماهيرية على مستوى عال من التنظيم شبه العسكري ، ان تأثير حركتهم كان واسعا لكن انتشارها السياسي لم يكن فعالا ، وقد وصمت بسفسطائية الآراء بشكل عام . أما أفكارها فقد جرى نشرها في صحيفتها (المنار) وفي الخطب الاسبوعية في الجوامع وفي الاذاعات الدينية

---

(١٦) أنظر الفصل التاسع .

يوم الجمعة من اذاعة دمشق ومن زعمائها الشيخ مصطفى السباعي ، محمد المبارك ومعروف الدواليبي (الذي كان أيضا من زعماء حزب الشعب) .

أن تأثير الاخوان الرئيسي قد جاء عام ١٩٥٤ — ١٩٥٥ وذلك بالتأثير على الرأى العام السوري ضد الثورة المصرية ، وقد اجتمع ممثلون عن الحركة في سورية والعراق والاردن والسودان في مؤتمر لهم عقد في دمشق بعد أن أبعد عبد الناصر اللواء محمد نجيب في شهر شباط لعام ١٩٥٤ وقاموا بحملة ضد ضباط مصر الأحرار (١٧) .

أما السوريون الذين كانوا قد تحرروا حديثاً من الدكتاتورية العسكرية فانهم لم يرتاحوا إلى النظام العسكري المصري ، كما نقصت شعبية مجلس الثورة المصري عندما عمل على قمع الاخوان المسلمين ، ولم يستطع الرأى العام في سورية ملاحظة مدى الفرق بين الارهابيين الطائشين من الاخوان في مصر وبين شيوخه الاتقياء الورعين ، ان الهجوم الصحفي المستمر في سورية مع نشاطات اللاجئين من أعضاء حزب الاخوان المسلمين قد دعا مصر إلى استدعاء سفيرها في دمشق في اوائل شهر تشرين الثاني . وفي الواقع فان احدى المهام الرئيسية التي كلف بها مبعوث مصر الجديد إلى سورية ، محمود رياض ، كانت امتصاص هذه الموجة من النقمة على مصر ، تلك الموجة التي وجد أنها العائق الرئيسي الذي كان عليه تخطيه عندما حاول الحصول على تأييد سورية ضد العراق في المعركة التي جرت فيما يتعلق بحلف بغداد .

الحزب التعاوني الاشتراكي :

تألفت هذه الحركة اليمينية الاسلامية من المؤيدين الشخصيين لأحد الشبان السوريين المتعصبين واسمه فيصل العسلي ، وقد اوصلته بهجماته العنيفة على الجيش (١٨) ابان حرب فلسطين إلى السجن عندما امسك

---

(١٧) انظر كتاب الحسيني « الاخوان المسلمون » الصفحتين ١٣٤ — ١٣٥ .

(١٨) راجع الفصل الخامس .

الزعيم بزمام الحكم في آذار عام ١٩٤٩ ، ان هذه العملية قللت من حماسة بعض تلامذته لكنها لم تمنعه من ترشيح نفسه لانتخابات عام ١٩٥٤ وفوزه وكان من أبرز مساعديه رشيد الدقر وسيف الدين المأمون بينما قامت صحيفتان وهما بردى (اسم النهر الذي يمر بدمشق) والانشاء بترديد آرائه في اكثر الاحيان .

حركة التحرر العربي :

ان حركة التحرير العربي التابعة للشيشكلي رغم أنها حلت بعد سقوطه ، قد عادت للظهور عندما هددت السلطات اعضاءها باتخاذ خطوات تأديبية تجاههم ، وهكذا استمرت في العمل دفاعا عن النفس وليس كقوة سياسية نشيطة . وقد أعتقد أنها تميل نحو الغرب في سياستها الخارجية وبشكل خاص نحو فرنسا التي أقام الشيشكلي معها روابط خاصة ، أما الاعضاء القياديون في الحركة فقد كانوا : مأمون الكزبري وعبد الحميد الخليل وصبحي دك الباب بينما قامت صحيفة الفيحاء (احد الاسماء التقليدية لدمشق) بتأييدهم .

المستقلون :

على رغم كثرة الاحزاب السورية السياسية فقد كان للمستقلين أكثر من نصف مقاعد كل محافظة – ما عدا حلب وحمص وحماه – حيث سيطر مرشحو الاحزاب فيها ، وهؤلاء الرجال اللاحزبيين كانوا يمثلون عادة النزعة التقليدية في أنقى اشكالها فهم من أصحاب الاراضي ورجال الاعمال وزعماء القبائل والاقليات ورؤساء أكبر واكثر العائلات تزعما ، وقد استمدوا تأييدهم من عوامل محلية كما أكدت نجاحاتهم المتعددة في الانتخابات قوة الشكل التقليدي للولاء وضعف التنظيم الحزبي ، واستطاعوا لمهارتهم في المناورة وعددهم الكبير لعب دور قيادي في المجلس النيابي ، فبعضهم أمثال حسن الحكيم ومنير العجلاني كانوا من مؤيدي الهاشميين بينما رغب غيرهم أمثال

الانتخابات :

وجرت الانتخابات في جولتين الاولى يومي ٢٤ — ٢٥ ايلول والثانية يومي ٤ — ٥ تشرين الاول في جو من الحرية والنظام لم يسبق له مثيل ، فقد اغلقت الحدود خلال عملية الاقتراع بينما أبقيت قوات الجيش في ثكناتها وقامت قوات الشرطة والدرك بدوريات في المدن التي تتجمع فيها القوى الرئيسية ، لكن هذا لم يعن تحرر جميع المرشحين والناخبين من كل الضغوط إذ يمكن القول أن مثل هذه الضغوط أصبحت قليلة جدا وفي الجولة الاولى ، تم ملء ٩٩ مقعدا من اصل مجموع المقاعد البالغ عددها ١٤٢ ثم ملئت المقاعد المتبقية وعددها ٤٣ مقعدا في الجولة الثانية ، وكانت النتيجة النهائية كما يلي :

عام ١٩٤٩ (١٩)	عام ١٩٥٤
٣١ — المستقلون بما فيهم ٩ نواب للقبائل	٦٤ المستقلون
٢٠ — مستقلون من اصدقاء حزب الشعب	٣٠ حزب الشعب
٤٣ — حزب الشعب	٢٢ البعث
١ — البعث	١٩ الحزب الوطني
١٣ — الحزب الوطني	٢ الحزب القومي السوري الاجتماعي
١ — الحزب القومي السوزي	٢ الحزب الاشتراكي التعاوني
١ — الحزب الاشتراكي التعاوني	٢ حركة التحرير العربي الاجتماعي
٤ — الكتلة الاسلامية الاشتراكية	١ الحزب الشيوعي
١١٤ المجموع	١٤٢ المجموع

(١٩) أرقام عام ١٩٤٩ وضعت هنا كدليل اولي : اذ لا يمكن اجراء مقارنة صحيحة ، فالحدود بين الاحزاب عام ١٩٤٩ كانت مائعة وانتسابات المرشحين غير واضحة ، وكان المجلس مؤلفا آنئذ من ١١٤ عضوا على حين أصبح عام ١٩٥٤ مؤلفا من ١٤٢ ، والحزب الوطني قاطع الانتخابات رسميا رغم ان عددا من أعضائه نجح ، وفي عام ١٩٥٤ لم يخض الانتخابات أي حزب اسلامي .

ان السمات الرئيسية لهذه النتائج كانت تفوق البعث وتناقص قوة حزب الشعب ، وانتخاب خالد بكداش كأول نائب شيوعي في العالم العربي، وفوز عدد كبير من المستقلين يفوق كل الفئات المنظمة .

ان المحور الرئيسي لفوز البعث كان نصر الحوراني الكاسح في حماه حيث فاز هو ورفاقه بخمسة مقاعد محطماً قائمة منافسة للمستقلين بزعامة اقطاعي شاب ذو شعبية ونفوذ هو عبد الرحمن العظم (٢٠) الذي تمتع بدعم جميع العائلات التي تملك الارض في المنطقة ، كما حمل اسما اعتاد الناس على احترامه بشكل تقليدي فقد كان تقريبا الوحيد بين فتيان عائلته صاحب عقل متفتح وثقافة عالية ، لكنه ارتكب خطأ واحدا فقط إذ قبل تحت ضغط المحافظين من مؤيديه ان يضمن قائمته الانتخابية اسم حسني البرازي وهو رجل عرف عنه عندما كان رئيسا للوزراء ومحافظا لحلب أنه قاس وفاسد ، وقد حذر العظم من مغبة اشراك البرازي، وانه قد يضعف ذلك فرصه في النجاح ولكنه قد أعطى وعدا ولم يعد يستطع أن ينكث به .

أعطى أحد المقربين من رفاق الحوراني الكاتب فكرة عن خطة البعث في حماه : « ان الوضع الاساسي تميز بسيطرة الحوراني على الريف بينما بقيت حماه نفسها في أيدي « الاقطاعيين » ، أما الجو في المدينة فكان متأزما جدا وذلك قبل الانتخابات ، اذ تصرف ملاك الاراضي بكثير من العنف وذلك بضربهم وتخويفهم لكل من يظن بأنه من مؤيدي البعث ، وكانت خطتنا خلال الاسابيع التي سبقت الانتخابات هي أن نتصرف بضعف والا نرد بالقتال بل أن نطلب من السلطات اعادة النظام وتطبيق القانون .

« ظن الاقطاعيون انهم ربحوا المعركة فقاموا قبل الانتخابات بعشرة أيام بتجميع مؤيديهم وساروا يدقون الطبول في كل أحياء المدينة ، وتابعنا اضاعة وقتنا حتى قبل يومين من الانتخابات عندما قمنا بمحاولة قصوى فالقينا بكل

(٢٠) قائمة البعث أكرم الحوراني ، عبد الكريم زهور ، فيصل الركابي ، سعد الحاني ، خليل الكلاس .

قائمة المستقلين : عبد الرحمن العظم ، رئيف الملقي ، حسني البرازي ، خضر الشيشكلي ، اديب نصور .

ما لدينا من قوة لتنظيم مظاهرة جماهيرية ، فاحضرنا الفلاحين من القرى البعيدة وجمعنا كل مؤيدينا ، وقد نتج عن ذلك اعظم تجمعات شهدتها المدينة ، وتحت هذا التأثير للرأي العام تمت الانتخابات »

ان نجاح الحوراني الثائر الشاب باصوات الفلاحين واصدقائه من جيش الطبقة الكادحة في إبعاد ممثلي كل ما كان عظيما ومبجلا في حماه، كان جوهر الثورة التي دلت عليها نتائج الانتخابات ، ومن بين النجاحات الاخرى الهامة للبعث كان انتخاب وهيب الغانم في اللاذقية وفوز صلاح الدين البيطار على عصام المحايري الامين العام للحزب القومي السوري الاجتماعي في دمشق .

أما ميشيل عفلق فلم يرشح نفسه، لكن نتائج الانتخابات كانت نجاحا له بقدر ما كانت نجاحا للحوراني فقد كانت نتيجة عقد زمني من التثقيف على الجيل الذي بلغ الرجولة في أواخر الاربعينيات واوائل الخمسينيات ، ولم يكن يفضل الشكل المباشر في العمل السياسي فميدانه المفضل هو حلقة من التلامذة او غرفة في مدرسة ، ولم يكن باستطاعته اثارة حماسة الجماهير كما كان في بعض الازمات يفضل الهدوء في جبال لبنان على العواطف السياسية في دمشق ؛ ومع النجاح الانتخابي للبعث كان عفلق قد انهى بشكل او بآخر مرحلة من مراحل عمله ، فقد كان مفكرا أكثر منه شخصية سياسية ، وقد جاء الان دور الاخرين لترجمة أفكاره بشكل عملي ، وبعد عام ١٩٥٤ أخذ الحوراني ذلك المناور بالهيمنة على توجيه الحزب بشكل متزايد .

ان تراجع حزب الشعب رسم نهاية صفحة طويلة في العلاقات السورية العراقية، فقد قطع الأمل في وحدة الهلال الخصيب باكثرية أصوات المجلس النيابي السوري ، كما دفع العراق واصدقاؤه في سورية إلى إعادة النظر في استراتيجيتهم معتقدين بانه لاشيء سوى القوة تستطيع حسم القضية ، وقد كانت نتائج الانتخابات وحلف بغداد هي التي سببت فتح صفحة جديدة من التآمر العنيف في العام التالي ، اذ وجد أعداء العراق في هزيمة حزب الشعب ضمانة للوحدة السورية في وجه التوسع الهاشمي ، وقد كان هذا الاقتراع

السري الشعبي الاخير أقل انتصاراً للمستقلين منه للاستقلال نفسه ، هكذا أعلنت صحيفة لوموند (٢١) ، وعلى الرغم من أن تمثيله المطلق قد شطر فان حزب الشعب أظهر مرة أخرى سيطرته ونفوذه في حمص وحلب إذ حصل على اثنين وعشرين من ثلاثين مقعدا في هاتين المحافظتين حيث سجل قادة الحزب نجاحات شخصية وهم ـ رشدي الكيخيا، ناظم القدسي، ومعروف الدواليبي في حلب والاتاسيين في حمص .

وقد حقق خالد العظم الذي كان يرئس قائمة مستقلة فوزا ساحقاً في دمشق ، فالعديد من الناخبين وضعوا اسمه على ورقة الانتخاب إلى جانب اسم خالد بكداش ، الزعيم الشيوعي، لكن الاقتراع الجماهيري لصالح الخالدين لم يكن بسبب اتجاه يساري صحيح في البلد ، بل بسبب تفاعل شعبي ضد ما اعتقد بانه ضغط اميركي على الحكومة السورية .

وسواء أكان ذلك الادعاء صحيحا أم لا فانه يبقى أقل أهمية مما كان يعتقد ، فقد قيل على سبيل المثال أن حكومة الولايات المتحدة طلبت ابعاد خالد بكداش عن الانتخابات وان المصالح الاميركية ارادت بناء مصنع للكوكاكولا في سورية وان سورية تتعرض لضغط لقبول مساعدات النقطة الرابعة ـ التي كانت بالنسبة للرأى العام السوري مرتبطة بالاستعمار ـ، وان المساعدات الاميركية لبناء مطار حديث في دمشق تشترط قبول بعض البنود السرية وان رفض هذه البنود قد أدى بشركة بان اميركان للخطوط الجوية إلى تحويل خطها إلى بيروت حيث جرى بناء مطار دولي ، هذه اذن هي بعض التقارير التي سادت وأدت إلى موجة قوية من الشعور المعادي لاميركا وللغرب استفاد منه أمثال أكرم الحوراني وخالد العظم وخالد بكداش أما معروف الدواليبي المعروف بكرهه للانكليز والأميركيين فقد كسب أصواتا انتخابية أكثر من أى مرشح آخر ،أما الرأى العام الاميركي فقد تعامى عن كل شيء ماعدا نجاح خالد بكداش اذ أعلنت صحيفة النيوزويك على سبيل المثال في عددها الصادر في تشرين الاول بان سورية قد اصبحت الزعيمة الشيوعية في العالم العربي.

(٢١) لوموند ١١ تشرين الاول ١٩٥٤

ولم تظهر الانتخابات ان الشكل الاجتماعي القديم لم يستطع الدفاع ضد الهزات والانقلابات العسكرية للاعوام السابقة فحسب بل أنها أظهرت اقتصار « الحياد » في الرأى العام العربي ، ان الرجال الذين اظهرت الانتخابات أنهم أقوى واعظم فعالية في السياسة السورية كانوا جميعا من الذين تعهدوا برفض أية اتفاقية أو حلف او في الواقع أى شكل من اشكال الروابط الرسمية مع الغرب ، وهذا الانذار الذي تجاهلته كل من لندن وبغداد قامت بملاحظته القاهرة وموسكو اذ استعملت جريدة الاهرام اليومية يوم ٢٥ تشرين الاول أى صبيحة الانتخابات افضل انواع الطباعة « « لعنونة » الأخبار القائلة : ان سورية ترفض كل الاحلاف مع الغرب ، وعبد الناصر الذي لم يكن قد مضى اسبوع على توقيعه الاتفاق البريطاني المصري للجلاء لابد وانه وجد تشجيعا ودفعا في نتائج الانتخابات في سورية .

❀ ❀ ❀

١٦

١ - حلف بغداد وأعداؤه

كان لحلف بغداد تأثير عميق على كل مستويات السياسة العربية ، فهذا الحلف وضع أصلاً لغرضين : فهو سلاح عسكري ضد الاتحاد السوفياتي ، وأداة سياسية للقوة البريطانية والعراقية في العالم العربي ، وفعالية الدور الاول للحلف لاتزال موضع نظر ، ولكن فشل غرضه الثاني بات جلياً حتى قبل ان يتم توقيع الحلف . لقد ولد الحلف مشلولا منذ البداية بالتناقضات الاميركية الانكليزية ليتحطم فيما بعد على صخرة التناقض المصري العراقي ، واعطاء لمحة عن المناقشات الدفاعية التي ثارت واستمرت لعام او اكثر وانتهت في ٢٥ شباط ١٩٥٥ أمر ضروري لتقييم أثر هذا الحلف على القضايا العربية ، اذ كانت هذه المناقشات هي المضمون الذي تبلورت من خلاله سياسة عبد الناصر العربية ، هذه السياسة التي سادت المنطقة خلال الاربع سنوات التالية .

الخلافات الانكليزية ــ الاميركية :

ان اميركا وبريطانيا رغم اتفاقهما على اهمية الدفاع عن الشرق الاوسط ضد التوسع الشيوعي ، الا انهما غالباً ما تختلفان على الطريقة التي يتم بها ذلك ، ومن غير الممكن تقديم بيان دقيق عن هذه الخلافات الا بوثائق رسمية ،

على انه من الواضح ان فشلهما في تحديد سياستيهما يعود الى نقص في الترتيبات النهائية التي وضعت .

ولتوضيح هذه الخلافات في خطوطها العريضة يمكن القول انه بينما كانت الدولتان متفقتين على الاستراتيجية العامة لمنع توسع المعسكر الشيوعي المعادي ، الا أن بريطانيا كانت اكثر اهتماماً بانقاذ ما يمكن انقاذه من الوضع الذي كان سائداً في العالم العربي ، لذلك فضلت انكلترا اللجوء الى منظمة دفاعية غربية مكفولة تستطيع بها ان تحافظ على حقوقها المكتسبة وعلى التسهيلات العسكرية التي كانت تتمتع بها في بعض الدول العربية ، وقد تعارض هذا مع نظرة اميركا الى قضية الدفاع في الشرق الاوسط ، فأميركا التي بدأت بالتململ من المكتسبات البريطانية ، تطلعت الى انشاء سد من الدول غير العربية على حدود روسيا الجنوبية .

غير ان هـذا التمايز لم يكن دائماً بمثل هذا الوضوح ، فقـد كان بود الأميركيين ان ينضم العرب الى نظام أمن جماعي ، ان كان ذلك ممكناً ، واذا عدنا الى الخطة الاصلية للدفاع الغربي التي وضعت عام ١٩٥٠ — ١٩٥١ وجدنا ان بريطانيا والولايات المتحدة انضمتا الى فرنسا وتركيا في محاولة عقيمة لاستمالة مصر كي تنضم الى نظام دفاعي وتقود العالم العربي اليه (١) ، ولم تتباعد السياستان وتفترقان الا بعد ذلك بكثير ، أي أثناء المفاوضات الانجليزية — المصرية حول منطقة قناة السويس بين ١٩٥٢ — ١٩٥٤ ، فقد اقترح الجانب البريطاني ان تكون الاتفاقية مشروطة بموافقة الجانب المصري على المساهمة في التنظيم الدفاعي للشرق الاوسط ، لكن الاميركيين لم يرغبوا في الضغط لتأييد هذه الفكرة . وقد قال ايدن في مذكراته : ...

« ... كانت السياسة الاميركية عامة تميل الى الاعتقاد بأن مصر ما زالت ضحية « للاستعمار البريطاني » ، ومثل هذا الاعتقاد يثير عطف الأميركيين كما ظهر أيضاً انها تخضع لرغبتها في الوصول الى حل سريع بأي ثمن تقريباً ، وتخضع لامتناع عاطفي بأنه متى وصلنا الى اتفاق فسوف تسير

(١) راجع الفصل الحادي عشر .

الامور على ما يرام ، وهذه الاعتبارات بالاضافة الى الخشية من فقدان العطف الشعبي وخسارة تأثير امريكا على النظام الجديد ، خصوصاً بالنسبة للسفارة الاميركية في القاهرة . وعدم رغبة اميركا في أن يكون لها المركز الثاني في المنطقة رغم أنها لا تتحمل المسؤولية الاولى فيها ، كل هذه الاسباب مجتمعة أدت بالأميركيين ، على النطاق المحلي على الاقل ، الى سحب دعمهم المطلق الذي كانت تتوقعه شريكتهم في حلف الاطلسي ، مما كان له تأثير عظيم ان لم نقل تأثير حاسم على مفاوضاتنا » (٢) .

وقد برزت الخلافات الانكليزية الاميركية عندما حولت الحكومة الأميركية الجديدة اهتمامها الى قضية الدفاع عن الشرق الاوسط في اوائل عام ١٩٥٢ ، ويعود تاريخ هذه المبادرة الاميركية الحية الى الرحلة التي قام بها مستر دالس في الشرق الاوسط في شهر أيار ، كان دالس لا يزال يستطلع في البداية امكانية مشاركة عربية في نظام امن جماعي ، وصرح عبد الناصر الذي قابل دالس آنذاك بأن جميع مناقشات وزارة الخارجية الأميركية تدور حول الاهداف العسكرية ووسائل مجابهة أي عدوان اجنبي محتمل وتابع عبد الناصر :

« لقد أبلغته رأيي بصراحة ، فقلت له لن يكون هناك اي عدوان اجنبي لسبب بسيط وهو أن وسائل الحرب الحديثة بأسلحتها النووية قد غيّرت من فن الحروب بأكمله ، وجعلت من أي عدوان خارجي احتمالاً ضعيفاً ، وأضفت بأن الجبهات الداخلية لها الاسبقية الاولى في مجال الدفاع والأمن ، كما ابلغته انه قد يستطيع بوسائله وطرقه الخاصة أن يمارس ضغطاً على أيـة حكومة عربية للانضمام للمعسكر الغربي واعطائه قواعد في أراضيها ، الا ان ذلك لن يكون ذا قيمة حين تحين اللحظة الحاسمة ، واردفت انه سيجد ان الحكومة التي رضخت للضغط ستخسر الدعم الشعبي ، ولن تكون قادرة على قيادة الشعب ، وستتحول القيادة آنذاك الى قيادات غير معروفة لديهم .

(٢) مذكرات السير انطوني ايدن : القسم الثالث : الحلقة المفصلة (١٩٦٠) الصفحات ٢٥٦ - ٢٥٧ . وقد اوضح ايدن شكوكه لسفير الولايات المتحدة في القاهرة ، المستر جفرسون كافري (صفحة ٢٥٢) .

بالاضافة الى أن القواعد العسكرية التي تؤخذ بالقوة لن تكون ذات فائدة عند الحاجة اليها ، اذ سيكون هنالك عشرات من القواعد التي تعمل ضدها » (٣) .

لم تغب هذه الحجج عن فهم المستر دالس ، فاوضح عند عودته الى الولايات المتحدة بأن ايجاد منظمة دفاع الشرق الاوسط « احتمال للمستقبل لا للفترة الحالية » ، وحيث أن كافة الدول العربية أكثر غرقاً في نزاعاتها المحلية من ان تفكر بالانضمام الى دفاع مشترك ضد الاتحاد السوفياتي ، وكان « الصف الشمالي لدول المنطقة » قد شعر بالخطر فمن الواجب تقويته لمقاومة الخطر الذي يهدد مجموعة الشعوب الحرة (٤) . وهذا حكم واضح لصالح استراتيجية دفاعية اخرى وضد نظام يعيش في الارض العربية .

ومما شجع اميركا على هذا التفكير نجاحها في الدول المتاخمة للحدود الشمالية للعالم العربي في السنوات الست التي سبقت رحلة دالس (٥) ، فقد كانت تركيا تتلقى مساعدات اميركية منذ عام ١٩٤٧ ، ودعم هذه الرابطة الانتصار الانتخابي الذي احرزه الحزب الديموقراطي التركي في أيار ١٩٥٠ واشتراك تركيا في الحرب الكورية ، ثم انضمامها الى الحلف الاطلسي في شباط ١٩٥٢ . ان دور تركيا كقاعدة معادية للشيوعية امر لا مجال للشك فيه ، وفي ايران ازداد التأثير الاميركي ازدياداً عظيماً نتيجة للأزمة البترولية ، فقد تبع سقوط مصدق في آب ١٩٥٣ ومجيء حكومة الجنرال زاهدي المؤيدة للغرب سيل عظيم من المساعدات الاميركية ، وعندما بت في النزاع البترولي اكتسبت المصالح الاميركية مركزاً متيناً في الصناعة البترولية الايرانية ، والى الشرق وفي باكستان هتف مستر دالس: ان شحنات كبيرة من القمح الاميركي اوقفت مجاعة وشيكة .

هذه هي اذن بلدان « الحزام الشمالي » التي كانت الولايات المتحدة

(٣) عبد الناصر في مقابلة صحفية مع جريدة نيويورك تايمز ، ٣ تشرين الثاني ١٩٥٩ . (خطب الرئيس جمال عبد الناصر وتصريحاته الصحفية ، ١٩٥٩ ، صفحة ٦٠٠) .

(٤) صحيفة نيويورك تايمز تاريخ ٢ حزيران ١٩٥٣ ، (المعهد الملكي للشؤون الدولية ، عرض ١٩٥٣ ص ١١٥ – ١١٧) .

الاميركية تأمل في تقوية « دفاعها المشترك » ، وكان التحالف قد تم بين تركيا والباكستان في معاهدة صداقة وقعت في ٢٦ تموز ١٩٥١ .

« ومن هاتين الدولتين كان الوصول الى الاهداف الحيوية في روسيا اسرع منه في أي قاعدة اخرى على الحدود الروسية الجنوبية ، فاذا امكن ضم ايران الى هاتين الدولتين ، فقد تم ايجاد القاعدة الجغرافية الضرورية للدفاع العسكري واعمال الانتقام من الاتحاد السوفياتي ، واذا انضمت الولايات المتحدة بطريقة ما الى هذه البلدان أمكن آنئذ تزويد القاعدة الجغرافية بالوسائل المادية وستكون النتيجة امتداد خطوط التطويق و « الاحتواء » المعادية لروسيا ، والتي ركز طرفها الغربي عند الاطلسي » (٦) .

ان شكل هذا المخطط الاميركي برز تدريجياً خلال عام ١٩٥٣ وحتى الشهور الاولى من عام ١٩٥٤ ورافقه احتجاجات في كل من الهند والاتحاد السوفياتي والصين وافغانستان ، الا ان دالس ما كان ليحيد عن هدفه ، وفي الثاني من نيسان ١٩٥٤ وقعت اتفاقية تركية باكستانية اتبعت في ١٩ أيار باتفاقية تعاون عسكري بين الولايات المتحدة والباكستان (٧) ، وان الاشارة الى ان العراق كان يدفع للانضمام الى الحلف التركي الباكستاني قد ايدها تصريح ٢٥ نيسان القائل بان العراق ستستلم هي الاخرى مساعدات اميركية عسكرية .

لقد قطع الامريكيون شوطاً بعيداً ، ولكن في مواجهة سخط بريطاني متصاعد بل لقد جرى التنويه الى ان بريطانيا قد نصحت العراق بالتمهل في الانضمام للحلف (٨) ، « وفي الحقيقة أوضحت بريطانيا متألمة أنها قد اعلمت بالمخططات الاميركية اعلاماً ولم تستشر (٩) » ، ولا يحتاج فهم اسباب غيظ بريطانيا الى كبير عناء ، واعتبرت بريطانيا ان « المسؤولية الاولى » في العراق وباكستان

---

(٦) المعهد الملكي للشؤون الدولية ، ١٩٥٣ ، ص ١١٧ .

(٧) من اجل الخطوات التمهيدية والتفاصيل الاخرى راجع المصدر السابق ص ١٢١ و ١٩٥٤ ص ٢٠٣ .

(٨) صحيفة سكوتسمان ، ٢١ نيسان ، ١٩٥٤ .

(٩) المعهد ... ، حلف بغداد ، (مذكرات ١٩٥٦) ص ٣ .

تقع على عاتقها فلم ترحب بالغزو الاميركي غير المرغوب فيه ، ففي العراق كانت هناك مشكلة خاصة تتعلق بمصير معاهدة ١٩٣٠ الانكليزية العراقية التي ينتهي امدها عام ١٩٥٧ ، والتي انتهت محاولة تجديدها عام ١٩٤٨ ببيانات عنيفة معادية للانكليز في بغداد . وفي حال انضمام العراق الى تحالف اميركي مع دول « الطوق الشمالي » فان المعاهدة الانكليزية العراقية ستطوى تلقائياً ولن يكون هناك مبرر لتجديدها او اعادة المفاوضة بشأنها مما يهدد المركز البريطاني في العراق .

كما اهتمت بريطانيا بتأثير هذه المبادرة الاميركية على رأي دول الكومنولث لا سيما الهند ومصر خاصة ، اذ كان معلوماً ان القيادات المصرية تعارض في عضوية العراق في نظام دفاع غربي ، وقد خشيت بريطانيا من ان مزيداً من التصاق العراق بالحلف التركي الباكستاني قد يعكس تأثيراً سلبياً على المفاوضات الانكليزية المصرية التي كانت آنذاك تجتاز مرحلة دقيقة وتزيد من ضعف الامل في عضوية مصر في منظمة دفاعية مستقبلا .

ولكي نقدر مدى قلق البريطانيين علينا ان نتذكر انه في ذلك الوقت بالضبط اي في نيسان ١٩٥٤ ، وصلت معركة ديان بيان فو الى طورها النهائي ، وبات انهيار فرنسا في الهند الصينية بنتائجه البعيدة متوقعاً ، وقد كان المستر دالس آنذاك يحاول ان يدفع المملكة المتحدة الى تجمع مرحلي جاهز للتدخل وقابل لان يتطور الى منظمة دفاعية لجنوب شرقي آسيا (١٠) ، وكانت وجهة نظر ايدن ان التدخل قد يجر العالم الى حافة الحرب وقد لا يكون فعّالاً من ناحية عسكرية ، بل ان ايدن كان يعتقد بان النتائج البعيدة المدى لنظام أمن جماعي يجب ان تتميز بوضوح من المشكلة الآتية بخصوص « القيام بعمل جماعي موحد ، كما انها تتطلب دراسة وتفكير وافيين خصوصاً فيما يتعلق بمسألة العضوية » (١١) . وعلى كل الاحوال يجب عدم القيام بأي عمل قد يحكم مقدماً على نتائج مؤتمر جنيف الخاص بالهند الصينية والذي كان مقرراً افتتاحه في نهاية الشهر .

(١٠) مذكرات ايدن ، القسم الثالث ، صفحة ٩٥ ،
(١١) مذكرات ايدن ، القسم الثالث ، صفحة ٩٦ .

وكان رد فعل دالس ان يتخذ خطوات « لتسوية مسألة العضوية (في ميثاق الامن المقترح) على مسؤوليته الخاصة » (١٢) وفي ٢٠ نيسان رتب دالس اجتماعاً في واشنطن لسفراء المملكة المتحدة ، اوستراليا ، نيوزيلندا ، فرنسا الفيلبين ، تايلند ، ودول الهند الصينية الثلاث المتحدة بقصد تنظيم فئة رسمية عاملة للدراسة الدفاع الجماعي لجنوب شرقي آسيا ، وقد رفضت المملكة المتحدة الحضور ، وانهى ايدن تعليماته الى السفير البريطاني بالكلمات التالية :

« قد يعتقد الاميركيون ان الزمن الذي يحتاجون فيه الى مراعاة مشاعر ومتاعب حلفائهم قد انقضى ، وان اعتقادنا بان هذا الميل قد اضحى واضحاً يخلق صعوبات متزايدة لاي شخص في هذا البلد يرغب في الوصول الى علاقات انكليزية اميركية وثيقة ... » (١٣) .

في الاوساط الرسمية :

لقد كان هناك كما قيل نوع من التأفف تجاه طريقة مستر دالس في اعلان سياسته واعتبارها بمثابة ضغط على حلفائه ووضعهم تجاه الاختيار بين تبني سياسة لا يوافقون عليها ، او الرفض العلني للاجراءات التي عرضتها حكومة الولايات المتحدة (١٤) .

ومما لا شك فيه ان شيئاً من هذا الهياج قد غير من تقدير بريطانيا لحلف دول الطوق الشمالي المقترح ، وكما علق مسؤول انكليزي : « لقد ظن دالس انه قد احدث الجبهة الشمالية ، انه كان شديد الايمان بالتكتلات بصرف النظر عمن تضم » .

وعندما تم الاتفاق المصري الانكليزي في تشرين الاول ١٩٥٤ شعرت بريطانيا انها قد اضحت قادرة على استعادة زمام المبادرة في الشرق الاوسط ،

(١٢) المصدر السابق ، صفحة ٩٨
(١٣) صفحة ٩٩
(١٤) المعهد ... ، عرض ١٩٥٤ ، ص ٣٠ .

وقدم نوري السعيد ، رئيس الوزراء العراقي والمؤيد للارتباط مع انكلترا الفرصة المناسبة ، وقد كتب ايدن يقول : « لقد سررت لدى سماعي في نهاية عام ١٩٥٤ ان نوري السعيد رئيس الوزراء العراقي كان يعمل في خط تقوية ميثاق الجامعة العربية بادخال تركيا ومساعدة المملكة المتحدة والولايات المتحدة (١٥) ، وكان هذا بديلا واضحاً لخطة دالس ، فبينما كان حلف « الحزام الشمالي » ، الذي أقيم ليكون خط دفاع امامي على الحدود الروسية ، مكوناً من دول غير عربية — تركيا ، ايران ، الباكستان — مع احتمال اضافة العراق كشريك ثانوي ، فان مشروع نوري السعيد المنافس حوّل مركز الثقل في النظام الدفاعي الى العالم العربي مرة أخرى ، فهو يعد لمشاركة عربية واسعة من كل الموقعين على ميثاق الامن العربي الجماعي ، ويعطي العراق الدور الاول كهمزة وصل بين هذه الدول العربية من جهة وتركيا والقوى الغربية من جهة اخرى ، والمشروع بكامله يُطبق تحت الاشراف الانكليزي وليس الاميركي .

ولا ريب في أن أوهاماً وجدت في لندن حول الزمام في ميثاق الامن العربي الجماعي تحت قيادة العراق الصديق كما كان الامر في العقد الماضي عام ١٩٤٥ عند أملت بريطانيا في أن تدير الجامعة العربية تحت قيادة مصرية ، وبدا لفترة وكأن نوري السعيد قد عثر على صيغة حكيمة يمكن ان ترضي الرأي العام العربي وتبقي في الوقت نفسه على الوجود الانكليزي في العالم العربي خلف ستار من الارتباط المتعدد الجوانب ، وبهذا المعنى يمكن القول ان المشروع كان قد صمم ليكون أداة سياسية للقوة الانكليزية والعراقية في المنطقة ، وكانت النواة الاولى لهذا المشروع ، الميثاق التركي العراقي للتعاون المتبادل الذي وقع في ٢٤ شباط ١٩٥٥ وعرف باسم حلف بغداد ، ولم يكن من المستغرب ان يغضب الاميركيون بعد ان اهملت مخططاتهم بشأن الطوق الشمالي على هــذه الصورة ، وكتب ايدن مراوغاً : « إن مشكلتي في العمل مع دالس كانت في تقرير ما يقصده بالضبط ... فلم اكن لافهم هذا البرود الطويل للسياسة

(١٥) مذكرات ايدن ، القسم الثالث ، صفحات ٢١٩ — ٢٢٠ .

الاميركية تجاه حلف بغداد في أكثر مراحله حرجاً ... » (١٦) .

سياسة مصر العربية :

ان خطة نوري السعيد الكبيرة لانشاء تحالف اقليمي بين الدول العربية قد دعمتها الدول الشمالية المجاورة وأيدتّها القوى الغربية ، لكنها هزمت امام المعارضة المصرية ، فقد كان هذا المشروع ضد كل قاعدة من قواعد السياسة المصرية ، كما توضحت منذ الاربعينيات ، وكما كان الضباط الأحرار في مصر يعيلون رسمها .

ويروي عبد الناصر في كتابه « فلسفة الثورة » الذي كتبه عام ١٩٥٣ أن « طلائع الوعي العربي بدأت تتسلل الى تفكيري وأنا طالب في المدرسة الثانوية أخرج مع زملائي في اضراب عام في الثاني من شهر ديسمبر « تشرين الثاني » من كل سنة احتجاجاً على وعد بلفور الذي منحته بريطانيا لليهود ومنحتهم به وطناً قومياً في فلسطين اغتصبته ظلماً من أصحابه الشرعيين » ، ولكنه يضيف : « وحين كنت أسائل نفسي في ذلك الوقت : لماذا أخرج في حماسة ولماذا أغضب لهذه الأرض التي لم أرها ؟ لم أكن أجد في نفسي سوى أصداء العاطفة » . وفي المدرسة العسكرية ، حين كان يدرس مشكلات الدفاع عن البحر المتوسط في كلية اركان الحرب ابتدأ عبد الناصر يرى المسألة أكثر وضوحاً واخيراً ، « ولما بدأت أزمة فلسطين كنت مقتنعاً في اعماقي بأن القتال في فلسطين ليس قتالا في أرض غريبة ، وهو ليس انسياقاً وراء عاطفة ، وإنما هو واجب يحتمه الدفاع عن النفس » (١٧) . وكان رد الفعل عند عبد الناصر كما هو عند أي وطني مصري .

فكتب يقول : « فقد كنا نحارب في فلسطين ، وأحلامنا كلها كانت في مصر ، كان رصاصنا يتجه إلى العدو الرابض أمامنا فيخنادقه ، ولكن قلوبنا

(١٦) المصدر السابق ، صفحة ٦٣ — ٦٤ .

(١٧) جمال عبد الناصر ، فلسفة الثورة ، صفحة ٥٦ — ٥٧

كانت تحوم حول وطننا البعيد الذي تركنا الذئاب ترعاه ... وكان حديثنا الشاغل وطننا الذي يتعين علينا أن نحاول انقاذه (١٨) .

وكان التأثير الاول للحرب الفلسطينية على مصر حقاً هو تعرية واقع الفساد فيها أكثر من دفع قضية التضامن العربي ، وعندما تحرك الجيش المصري كان هناك شعور قوي في مصر ، بأن هذه المهمة الخاصة تهم العرب أجمعين ، وحين تؤدى فان الجيش يستطيع العودة الى ارضه وستستمر الحياة كما كانت سابقاً ، ولكن الهزيمة وما رافقها من اعتقاد بأن حلفاء مصر قد خانوها قوى الميل نحو العزلة ، ولم تبد اسرائيل آنذاك خطراً ملحاً بالنسبة لمصر كما كان الامر بالنسبة لسورية والاردن ، فسيناء تمد بينهما درعاً عظيماً واقياً من الرمال ، وحتى بعد الثورة المصرية عام ١٩٥٢ كان تيار « مصر اولا » تياراً صريحاً بين الضباط الاحرار ، حيث الشعور السائد كان بأن انتهاج سياسة عربية ترف لا تقوى مصر عليه ، لذا يجب عليها ان تعزل نفسها عن أمور السياسة العربية المضطربة وتركز جهودها حول مشاغلها الداخلية .

وكان عبد الناصر وحيداً تقريباً في معارضته هذا التيار ، فهو على خلاف معظم رفاقه الوطنيين ، إذ كان الدرس الرئيسي الذي استخلصه من الحرب الفلسطينية هو وجوب ترابط الدول العربية والحاجة الى تعبئة طاقاتها المجمعة ضد الاستعمار واسرائيل ، وهو يطرح بوضوح تام كيف توصل الى هذه النتيجة .

« ولما انتهى الحصار (حصار الفالوجة) وانتهت المعارك في فلسطين وعدت الى الوطن ، كانت المنطقة كلها في تصوري قد أصبحت كلاً واحداً ، وأيدت الحوادث التي جرت بعد ذلك هذا الاعتقاد في نفسي ، كنت أتابع تطورات الموقف فيها فأجده أصداء يتجاوب بعضها مع بعض ، كان الحادث يقع في القاهرة فيقع مثيل له في دمشق ، وفي بيروت ، وفي عمان ، وفي بغداد وغيرها ، وكان ذلك كله طبيعياً مع الصورة التي رسمتها التجارب في نفسي ، منطقة واحدة ، ونفس الظروف ، ونفس العوامل .. بل ونفس القوى المتألبة عليها جميعاً ، وكان واضحاً أن الاستعمار هو ابرز هذه القوى.

(١٨) المصدر السابق ، صفحة ١٢ .

حتى اسرائيل نفسها لم تكن الا أثراً من آثار الاستعمار .... ان الاستعمار هو القوة الكبرى التي تفرض على المنطقة كلها حصاراً قاتلا غير مرئي . أقوى وأقسى مائة مرة من الحصار الذي كان يحيط بخنادقنا في الفالوجه ... ولقد بدأت بعد أن استقرت كل هذه الحقائق في نفسي أومن بكفاح واحد مشترك وأقول لنفسي :

« ما دامت المنطقة واحدة ، وأحوالها واحدة ، ومشاكلها واحدة ، ومستقبلها واحد .. والعدو واحد مهما حاول أن يضع على وجهه من أقنعة مختلفة فلماذا تتشتت جهودنا .. ؟ ثم زادتني تجربة ما بعد ثورة ٢٣ يوليو (تموز) ايماناً بهذا الكفاح الواحد وضرورته ، فقد بدأت خبايا الصورة تتكشف ، والظلام الذي كان يحيط بتفاصيلها ينقشع » (١٩) .

فالحرب الفلسطينية اذن اثبتت لعبد الناصر الحاجة الى التماسك العربي ، وقد توصل عبد الناصر باستخفاف أقل ولكن بطموح أكبر الى النتيجة التي توصل اليها قبله علي ماهر والملك فاروق والنحاس باشا ، وهذا الدرس الذي استخلصه عبد الناصر من تجربته الشخصية ميز السياسة العربية التي ورثها عن اسلافه وتجسدت في الجامعة العربية عام ١٩٤٥ وميثاق الامن الجماعي عام ١٩٥٠ ، هاتين الاداتين — الجامعة والميثاق — بما أمرتا به مصر من سيطرة على مجموعة دول عربية أقل قوة وتقدماً كانتا جزءاً هاماً من التراث السياسي . ولكن سرعان ما اعتقد عبد الناصر ان لمصر دوراً كبيراً عليها ان تلعبه ، ان مسرح نشاطها المجال الحيوي حيث تستطيع ان تلعب دوراً فعالا هو أوسع من دائرة الدول العربية ، والاستنتاج المشهور الذي وصل اليه عبد الناصر كان ان الوقائع التاريخية والجغرافية قد وضعت مصر في مركز التأثير من ثلاث دوائر هي دوائر الدول العربية والافريقية والاسلامية .

« لست أدري لماذا يخيل إلي دائماً . أن في هذه المنطقة التي نعيش فيها دوراً هائماً على وجهه يبحث عن البطل الذي يقوم به، ثم لست أدري لماذ يخيل إلي أن هذا الدور الذي أرهقه التجوال في المنطقة الواسعة الممتدة في كل مكان

(١٩) المصدر السابق . صفحة ٦٢ .

حولنا ، قد استقربه المطاف متعباً منهوك القوى على حدود بلادنا ، يشير الينا أن نتحرك وان ننهض بالدور ونرتدي ملابسه فإن أحداً غيرنا لا يستطيع القيام به ، وأبادر هنا فأقول إن الدور ليس دور زعامة ، انما هو دور تفاعل وتجاوب مع كل هذه العوامل . يكون من شأنه تفجير الطاقة الهائلة الكامنة في كل أتجاه من الاتجاهات المحيطة بها ، ويكون من شأنه تجربة لخلق قوة كبيرة في هذه المنطقة ترفع من شأن نفسها وتقوم بدور ايجابي في بناء مستقبل البشر .... ونحن وحدنا بحكم المكان نستطيع القيام به (٢٠) » .

كان هذا سياق تفكير عبد الناصر عندما ارغمت الاحداث الزعماء المصريين في شتاء ١٩٥٣ــ ١٩٥٤ على أن ينعموا النظر ويحددوا وصفهم بدون لبس ولا ابهام ، فحلف دالس لدول الطوق الشمالي يتبلور ويهدد بابتلاع العراق ، وكانت الاقتراحات المباشرة الاولى بشأن تجميع الدول الآسيوية والافريقية حديثة الاستقلال وغير المرتبطة تبحث آنذاك ، ومصر نفسها كانت على عتبة الاتفاقية مع بريطانيا ، التي تمنحها استقلالها التام وتحرر سياستها الخارجية من ضغط الفرق الاجنبية التي تعسكر في اراضيها ، وهكذا كانت قياداتها الشابة مسوقة للمرة الاولى منذ ان تسلمت زمام السلطة ، لأن تنظر الى ما وراء النيل وان تكتشف من جديد العالم العربي من حولها .

وفي أواخر كانون الأول ١٩٥٣ عقد عبد الناصر والفريق المصري الذي اشترك في المفاوضات الانكليزية المصرية ، ويتألف من عبد الحكيم عامر ، وعبد اللطيف البغدادي ، وصلاح سالم ، ومحمود فوزي ، سلسلة اجتماعات لتوضيح خط مصر السياسي الجديد ، وفي اوائل كانون الثاني انضم اليهم سفراء مصر في المملكة المتحدة ، والولايات المتحدة الاميركية ، والاتحاد السوفياتي ، والهند ، وباكستان الذين استدعوا للمشاورات ، وقد وصفت الصحافة والاذاعة هذه الاجتماعات التي استمرت بدون انقطاع حتى أوائل شباط على انها مراجعة شاملة وحاسمة لسياسة مصر الخارجية، كما أوضحت أن دنو مصر من إعادة فتح المحادثات بينها وبين بريطانيا تتبع السياسة التي كانت

(٢٠) المصدر السابق ، الصفحات ٥٥ ، ٧٣

توضع آنذاك (٢١) .

وبعد جلسة حاسمة عقدت في ٩ كانون الثاني اعلن ان سياسة مصر الخارجية ستقوم على المبادىء التالية :

اولا — اقامة كتلة عربية حرة من أي تأثير إستعماري لحماية مصالح الشعوب الاسلامية والعربية والافريقية .

ثانياً — عقد معاهدة تربط هذه الشعوب معاً .

ثالثاً — تأسيس كتلة افريقية تضم جميع البلدان الافريقية التي لا تزال ترزح تحت نير الاستعمار (٢٢) .

وقد كان لوجهات النظر الهندية والسوفياتية الداعية للحياد وزن كبير في هذا المؤتمر ، فقد أعلن السفير المصري في موسكو ، الفريق عزيز المصري ، عند وصوله الى القاهرة « ان الحياد يعني السلام وروسيا تريد السلام » .

ولكن حياد مصر في تلك المرحلة المبكرة كان تعبيراً عن رغبتها في استقلال قومي كامل اكثر مما هو سلاح نضال اصبح مسلطاً في العالم العربي بأكمله ، ونقلت وكالة الانباء العربية في ٢٧ كانون الثاني ان سفراء مصر سيحملون عند عودتهم الى مراكزهم « تعليمات قاطعة » حول سياسة مصر ، ولكن هذه السياسة لن تكون حيادية «بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة» على مبدأ رفض قبول «أي نوع من انواع التعاون الا اذا كان على اساس الاعتراف الكامل بحقوقها وسيادتها وسمعتها القومية » .

وقد أكد هذا « الناطق باسم الثورة » صلاح سالم في المؤتمر الصحفي الذي عقده في العاشر من شباط بمناسبة اختتام سلسلة الاجتماعات :

« بالنسبة للسياسة المصرية لك أن تسميها حيادية أو ما تشاء ، فقد يختلف البعض على تعريف كلمة حياد ، ولكن الذي لا يمكننا الاختلاف عليه هو اننا سنعارض ولن نتعاون بأية وسيلة مع جميع الذين يقفون في وجه حريتنا وكرامتنا ، بل سنتعاون مع الذين يتعاونون معنا ونؤازر الذين سيؤازروننا . اني أعلن الآن أن مصر قد اتخذت خطوات عملية لتحسين التعاون بكافة

(٢١) ميدل ايست ميرور ، ٣ كانون الثاني ١٩٥٤ ، صفحة ٢

(٢٢) هيئة الاذاعة البريطانية ، رقم ٤٣١ ، ١٥ كانون الثاني ١٩٥٤ .

اشكاله مع دول العالم في الشرق والغرب على السواء ، اننا لن نميز بين دولة واخرى الا بمقياس استجابتهـا لمطاليبنا ودعمها لنـا في الحقول السياسية والاقتصادية واحترامها لقوميتنا المصرية ، وبالاختصار اننا نرغب في العيش احراراً وسنناضل من أجل ذلك ، ولن يستطيع احد أن يلومنا على نضالنا في الحصول على حريتنا التي لن نساوم عليها مهما كان الثمن (٢٣) » .

« ولاول مرة في التاريخ » اعلن راديو القاهرة ، « ان لمصر سياسة محددة » (٢٤) . ان ثبات موقف مصر انعكس في توسيع خدماتها الاذاعية ، فاذاعـة صوت العرب كانت تبث لمدة نصف ساعة يومياً منذ الرابع من تموز ١٩٥٣ ولكنها زادت ارسالها في الرابع من كانون الاول ١٩٥٤ الى ساعة وثلاثة ارباع الساعة ، واصبحت الاداة الاساسية لبث الدعاية المناهضة للاستعمار من الشرق الاوسط ، واعلنت هذه الاذاعة « ان القاهرة يجب ان تبقى دائماً في خدمة العرب والعروبة والاسلام » . ان « صوت العرب يتحدث الى العرب ، يناضل من اجلهم ويعبر عن وحدتهم ، فليس له الا هدف واحد هو العروبة وليس له من أمل الا في العرب ، انه لا يناضل الا من أجل مجـد العرب واستقلالهم» (٢٥) ... وكانت اذاعة صوت العرب الاذاعة الوحيدة التي تخرج من بلد عربي موجهة توجيهاً صريحاً للعرب اجمعين ، وبعد ستة اشهر وفي الرابع من تموز ١٩٥٤ ، تمدد فترة الارسال في صوت العرب الى اربع ساعات يومياً على كلا الموجتين الطويلة والمتوسطة ، كما بدأت تبث أيضاً باللغة السواحلية : « ان وضع مصر الجغرافي يتطلب منها ان تعمل للتحرر من كل اشكال الاستعمار في القارة الافريقية التي يجري فيها النيل ... » (٢٦) .

كان رد عبد الناصر على اعلان الاتفاقية التركية الباكستانية في الثاني من نيسان رداً واضحاً ومختصراً : « يجب ان لا تنضم اي دولة عربية الى الحلف . فهو حلف دفاعي يتجاهل مصالح الشرق الاوسط ، ويهدف في نفس الوقت

---

(٢٣) هيئة الاذاعة البريطانية، رقم ٤٤٠ ، ١٦ شباط ١٩٥٤

(٢٤) هيئة الاذاعة البريطانية، رقم ٤٤١ ، ١٩ شباط ١٩٥٤

(٢٥) هيئة الاذاعة البريطانية ، رقم ٤٣٠ ، ١٢ كانون الثاني ١٩٥٤

(٢٦) هيئة الاذاعة البريطانية ، رقم ٤٨٠ ٦ تموز ١٩٥٤

الى تخريب عمل جامعة الدول العربية » (٢٧) . ولكن ما إن اقتربت العراق من حافة الانضمام الى هذا الحلف حتى اشتدت المعارضة المصرية :

« ان كل عربي يدرك الآن الحقيقة الساطعة وهي ان الغرب يريد أن يبقى في أرضنا الى الأبد ، انه يريد أن يبقى سيد العالم ليتمكن من استعماره وإستعباده واستغلاله ، فالغرب سيعطي العراق امدادات عسكرية ولكن لأي غرض ؟ هل هي لتقوية العراق كي يستطيع ان يصفي اسرائيل ربيبة الاستعمار والعدو الاول للعرب ؟ كلا ، بل ليقودها الى الموت في الخطوط الامامية للحرب العالمية الثالثة ، ويخلد الاستعمار الغربي فيها (٢٨) » .

وفي وجه هذا التهديد ، دخلت سياسة مصر العربية طوراً أكثر تهجماً ابتداء من رحلة الصاغ صلاح سالم الى العالم العربي ، وقد وصفه راديو القاهرة بانه « يطير من مدينة عربية الى أخرى محاولا أن يوحد العرب ويحطم قيود الامبريالية والاستعباد » ، وكانت الرسالة التي بشر بها في كل من العربية السعودية واليمن ولبنان ، ان الوقت قد أزف لكي تبنى العلاقات بين الدول العربية على أسس جديدة تقوم على سياسة عربية موحدة تجاه جميع القضايا الرئيسية وأولها الرفض الصريح لكل الاحلاف العسكرية الاجنبية .

واعلن راديو القاهرة : « ان لمصر سياسة واحدة لا لبس فيها ولا ابهام ، وهي ان تدعم بقوة وحدة العرب حتى يستطيعوا ان يجابهوا العدوان ، والظلم والاستعباد كرجل واحد .

ودعا « صوت العرب » العرب ان يقفوا صفاً واحداً في وجه الامبريالية ، وان يطردوا الانكليز ويطهروا الارض العربية من هذا الطاعون ، وان يحوزوا على ثرواتهم وأن يسلحوا أنفسهم لدفع العدوان ، والحفاظ على السلام والعدل .

لا أحد يرفض المساعدة الشريفة من الخارج ، ولكن العرب يستطيعون ان يستغنوا عن أي فلس او رصاصة قد تجلب الاستعباد وتعرقل التقدم العربي ، ان مساعدة من هذا النوع هي مساعدة غير قائمة على احترام المصالح المتبادلة ،

---

(٢٧) هيئة الاذاعة البريطانية ، رقم ٤٦٥ تاريخ ١٤ نيسان ١٩٥٤

(٢٨) هيئة الاذاعة البريطانية ، رقم ٤٧١ تاريخ ٤ حزيران ١٩٥٤

وحقوق الشعب في الحرية والاستقلال . هذه هي – أيها العرب – سياسة مصر (٢٩) .

وحتى منتصف عام ١٩٥٤ ، كان نظام الحكم المصري الجديد لا يزال مجهول الهوية بالنسبة للدول العربية الاخرى ، وبالنسبة للعالم الخارجي ، لم يكن واضحاً بعد من الذي ربح المعركة من القوى المتنافسة داخلياً وخارجياً والمتصارعة للسيطرة على الثورة المصرية . فالضباط الاحرار الذين قاموا بالثورة كانوا منهمكين بتثبيت أنفسهم في الوطن ، وكانت اتصالاتهم جد قليلة مع الدول العربية الاخرى ، والعالم خارج حدود وادي النيل بالنسبة لهم منطقة غريبة اخذوا يستكشفون معالمها بحذر ونفور . وفي هذه الظروف اتخذ عبد الناصر الخطوة الجريئة في تعريب السياسة الرسمية لمصر ، وقرن التضامن العربي تحت قيادة مصر بسياسة عدم الانحياز ، هذه هي السياسة التي كانت مصر تحث العرب على انتهاجها : إن على العرب ان يتحدوا مع العرب فقط .

وفي ٢٣ تموز ١٩٥٤ أي في العيد السنوي الثاني للثورة المصرية قال عبد الناصر : « ايها الاخوة المواطنون لقد بدأت مصر مع العرب عهداً جديداً عهداً قوامه الاخوة الصادقة الصريحة ، التي تواجه المشاكل وتفكر فيها وتعمل على حلها ، ان هدف حكومة الثورة ان يكون العرب امة متحدة ، يتعاون جميع ابناؤها على الخير المشترك ... ان الثورة تؤمن ايضاً بأن عبء الدفاع عن البلاد العربية يقع أول ما يقع على العرب وهم جديرون بالقيام به (٣٠) »

انه لمن المبالغة في التبسيط القول، (كما فعل بعض المراقبين الغربيين)، ان مصر كانت آنذاك مهتمة فقط بتقوية موقفها اثناء المفاوضات مع بريطانيا، وانه ما أن تنتهي هذه المفاوضات نهاية مرضية فانها سترجع الى الخط الغربي . وعلى العكس من ذلك ، كان راديو القاهرة يعيد باستمرار تقديم المواضيع المعادية للغرب كتعبير عن الاهتمام بالشعوب العربية والاسلامية والآسيوية اكثر منها دعوة لهم لدعم مصر في قضية منطقة قناة السويس أو في القضايا الاخرى . وكانت مصر تتحسس طريقها نحو مذهب التحرر الشامل من الوصاية الاوربية ،

(٢٩) هيئة الاذاعة البريطانية ، رقم ٢٧٩ ، ٢ تموز ١٩٥٤

(٣٠) هيئة الاذاعة البريطانية ، رقم ٤٨٦ ، ٢١ تموز ١٩٥٤

فالمفاوضات مع بريطانيا ، قد فتحت في الحقيقة نوافذ جديدة أمام مصر :
« فبدلا من الاختيار القديم بين الخضوع أو الحكم الذاتي ضمن الدائرة البريطانية اصبح لها الآن الخيار بين الحكم الذاتي او الاستقلال الحقيقي (٣١) ». فقد اوضحت الاتفاقية ان مصر تستطيع ان تختار الاستقلال وقد فعلت : وأرغمت بريطانيا على الجلاء عن منطقة السويس دون أن تضمن موافقة مصر على الانضمام الى نظام دفاع جماعي خاضع للوصاية الغربية .

وفي الحقيقة ، وعندما وقعت الاتفاقية المصرية — الانكليزية بالحروف الأولى في السابع والعشرين من تموز ، جهدت مصر بأن توضح للعرب ان سياستها لم تتغير ، فهي تؤمن بأن الدفاع عن الشرق الاوسط يجب أن يترك لدول المنطقة نفسها وأن أي تحالف مع الدول الغربية هو « قناع للاستعمار » .

وقد اوضح راديو القاهرة ان الاتفاقية المصرية الانكليزية ليست حلفاً . كما أكدت اذاعة « صوت العرب » ان لمصر حلفاً واحداً تؤمن به وتعمل له : هو ميثاق الامن الجماعي العربي .

فهو الامل الذي تدور حوله السياسة المصرية ، انه التحالف العربي الذي يجب أن تتجسد فيه العروبة والذي يجب ان يبنى على أسس ثابتة ، لا أحلاف مع الغرب ولكن معكم انتم ايها العرب (٣٢) .

كانت القيادات الشابة في مصر متأثرة اشد التأثر بالحياد الهندي (٣٣) الذي تجاوز ، تحت تأثير الحرب الكورية ، اصوله الهندية في المسالمة والتحمل الى تكوين قوة دولية وسيطة ترمي ثقلها بلا تحيز الى جانب السلم ، والسلم من خلال المفاوضة .

ولقد رأت الهند ، كدولة حديثة التحرر ، ان خطة الاحلاف الغربية في آسيا هي انتقاص من هذه الحرية وان الآسيويين سيستخدمون للمرة الثانية ، كما كان الامر في العهد الامبريالي ، كمخالب في اللعبة الكبيرة للقوة الدولية ، وان ادارة البلاد ، اثناء وجود قواعد اجنبية مدعومة بالسيطرة الاقتصادية ،

---

(٣١) حوراني ، لحظة التغير ، : ازمة ١٩٥٦ « رؤية للتاريخ » ، صفحة ١٣٢

(٣٢) هيئة الاذاعة البريطانية ، رقم ٤٩٨ ، ٧ ايلول ١٩٥٤

(٣٣) المعهد الملكي ، عرض ١٩٥٣ ص ١١٨

سيكون له نفس تأثير الاستعمار القديم (٣٤) .

وكانت هذه هي بالضبط وجهة نظر مصر ، فسياسة عدم الانحياز بدت لكل من الهند ومصر ضمانة للسيادة القومية ، كما انها وسيلة لتجنب الانخراط في نزاعات وتكتلات القوى الدولية ، ان معارضة مصر لعضوية العراق في حلف غربي كانت في الحقيقة صدى اكثر فظاظة من الاعتراضات التي قدمتها الهند ضد عضوية الباكستان في حلف جنوب شرقي آسيا عام ١٩٥٣ . ولكن سياسة عدم الانحياز في حالات كحالة مصر ، يجب أن تتلاءم مع فحوى السياسات العربية الداخلية ، فلكي تحافظ مصر على دورها القيادي في الشؤون العربية ، كان عليها أن «تروج» سياسة الحياد لكل الدول العربية ، انها لا تستطيع ان تسمح بالاصوات المعارضة ، ان أية سياسة مغايرة لسياستها هي تحد لها . وهكذا كانت السياسة المصرية قائمة على معادلتين متداخلتين : الاولى ، ان سياسة عدم الانحياز هي الضمانة الاساسية للاستقلال . والثانية ان على العرب ان يعتمدوا في دفاعهم على انفسهم فقط . وكان هناك اعتقاد ضمني ثالث وهو أن هذا النوع من التكتل العربي القائم على جامعة الدول العربية وميثاق الامن الجماعي العربي هو أفضل ضمان لاستمرار الزعامة المصرية .

سياسة العراق العربية :

ان التحدي الاول لهذه الآراء جاء من العراق ، فحكامه ولا سيما ، نوري السعيد وعبد الاله الوصي على العرش ، لم يؤمنوا بالحياد . ان خطر التوسع الروسي جدياً ، ومركز بريطانيا المكتسب في العراق كمؤسسة للدولة ومستشارة لها كبير جد . بينما كانت علاقات حكام العراق مع تركيا والباكستان على حدودهم الشمالية والشرقية ودية من أوجه عديدة ، في حين لم يكن لهم ثقة بجيوش جيرانهم العرب .

كما ان هؤلاء الحكام ، كانوا يكرهون من صميم قلوبهم كلاً من الجامعة العربية وميثاق الامن الجماعي العربي اللذين كانا يبدوان لهم مجرد وسائل

(٣٤) مخائيل ادوارد ، آسيا في الميزان ، صفحة ١١٣

للتدخل المصري في آسيا العربية ، هذه المنطقة التي تعتبرها العراق دائرة شرعية لنفوذها . لقد استخدمت مصر الجامعة العربية عقداً من الزمان كي تبقى العراق داخل حدودها وتمنع وحدة الهلال الخصيب التي كان الهاشميون متعلقين بها الى حد كبير . وفي الحقيقة فان اصرار مصر على التدخل في شؤون العرب بعد الحرب العالمية الثانية قد سلب القوميين العرب القدماء مثل نوري السعيد ورفاقه في جيش فيصل الاول دورهم القيادي الذي كانوا سيقومون به حتماً لولا هذا التدخل . فقد فرضت مصر خطتها في العلاقات على العالم العربي ، وكان هذا على حساب مخطط نوري السعيد الكبير . (وهنالك قلة نادرة من الرجال نالت من كره العراق ما ناله عبد الرحمن عزام منها ، وهو الأمين العام السابق لجامعة الدول العربية فقد اعتبر خادماً وديعاً للسياسة المصرية) .

وهكذا كان الاحتمال ضعيفاً بأن يستجيب العراق استجابة مرضية لدعوة ثوار مصر ، الى تكتل عربي ضمن اطار ميثاق الامن الجماعي . فلم يكن نوري السعيد قانعاً بامكانية الدفاع عن العراق بدون دعم الدول الغربية واشتراك جيرانه غير العرب ، بل انه قدر الحاجة الى تعاون وثيق مع تركيا وايران للسيطرة على اكراد العراق ولكي يضمن بالتالي وحدة العراق الداخلية (وهو اعتبار عجز عن ادراكه عدد من خلفائه) لكن نوري السعيد بصراحة ، رأى في مناقشات الدفاع فرصة لاستخلاص زمام المبادرة في الشؤون العربية من يد مصر .

وقد جعلته عائدات النفط المتصاعدة أكثر جرأة كما انها عززت منزلة العراق في العالم العربي ، ففي سورية ، خلق سقوط الشيشكلي فرصاً جديدة امام الدبلوماسية العراقية ، وفي مصر فان مجلس قيادة الثورة يواجه عاماً صعباً . كان حكام مصر شباناً ومتضامنين ، ولكن استقالة اللواء نجيب في شباط وما تبعها من عودة الى القوة يوحي باضطرابات داخلية . وقد شوش رأي العرب في كل مكان صراع الضباط الاحرار الطويل والمرير مع الاخوان المسلمين ، وحتى الانتصار في المفاوضات الانكليزية المصرية لم يحل من المشاكل لعبد الناصر ومجلسه : فقد وجدوا أنفسهم ضحايا الدعاية المضادة

لبريطانيا التي ربي عليها شعبهم. ان الرأي العام المصري لم يكن ليصبر على أي تحالف جديد مع الدول الغربية: فالاستقلال يجب أن يرى حقيقياً أولاً كذلك وإن مرحلة انتقالية ستكون ضرورية لمصر قبل التفكير في المشاركة في أي حلف.

ولا بد أن نوري السعيد قد درس هذه الامور كلها بعناية، وكانت مناقشته كما يلي :

اذا كان العراق سيصبح رأس حربة في نظام دفاع جماعي ، فانه سيستفيد من فيض الاسلحة والاموال والمعدات الغربية ، وستتبعه دول عربية اخرى . وبهذا يكون الشرق الاوسط آمناً من الشيوعية ، وستواجه مصر اختياراً مكشوفاً بين العزلة أو اللحاق بالركب كشريك ثانوي .

وعلى ضوء هذه المناقشة ، وجد نوري السعيد مشروع دالس الخاص بدول « الطوق الشمالي » غير مرض تماماً ، فبريطانيا اولا تعارض في انضمام العراق الى هذا التحالف ، ونوري السعيد يكن لها ولاء كافياً يمنعه من فعل ذلك ، وهنالك سبباً اقوى : فالاستراتيجية البعيدة « للحزام الشمالي » لا تسمح بعضوية عربية واسعة ، فاذا انضم العراق الى الحلف التركي الباكستاني فانه سينعزل عن العرب أكثر من أن يقودهم . وهكذا كانت مشكلة نوري السعيد في ان يضع صيغة يكون العراق فيها الخيط الذي يضم عقد الدول العربية مع جيرانها في الشمال بالاضافة الى الدول الغربية. هذه هي الافكار التي قلبها نوري السعيد في ذهنه في صيف ١٩٥٤ بعد التوقيع بالحروف الاولى على الاتفاقية الانكليزية المصرية في تموز .

محادثات سرسنك :

حدثت المجابهة الاولى بين السياستين المصرية والعراقية في الاسبوع الثالث من آب عام ١٩٥٤ في سرسنك وهو مصيف جبلي في شمالي العراق . وقد اقترح المصريون هذه المحادثات ، وكان يرئس الجانب المصري الصاغ صلاح سالم ، الناطق الاول باسم الحكومة الثورية ، يرافقه محمود رياض الذي اصبح فيما بعد بوقت قصير مبعوث مصر في دمشق ، هذان الرجلان هما « المهندسان

الرئيسيان لسياسة مصر العربية » ، وقد روى الصاغ صلاح سالم ما جرى فقـــال : (٣٥) .

« طرت الى الموصل في أواسط آب ، ثم تابعت طريقي بالسيارة الى سرسنك حيث اجتمعت بالملك فيصل وعبد الاله ونوري السعيد وعراقيين آخرين ، وقد تحدثت مع كل منهم على انفراد كما تحدثت معهم مجتمعين .

« كان شاغلهم الاول احتمال تهديد عسكري من روسيا ، وقد ذكروني بان حدودهم قريبة جداً من القوزاق ولا تتجاوز الثلاثمئة او الاربعمئة ميل ، كما كانوا مهتمين بمشكلة فلسطين وما الذي يمكن عمله هناك ، وقالوا بانهم ضعفاء جداً .

« ولقد هنأوني على نجاح المفاوضات مع بريطانيا واضافوا انهم يرغبون في أن يفعلوا الشيء ذاته إذ ان معاهدتهم مع بريطانيا على وشك الانتهاء . وقد تحدثوا ملياً عن ضعفهم ، وان بريطانيا والغرب هما المصدر الطبيعي للسلاح ، كما اخبرني نوري السعيد انه ليس هناك من امل في الحصول على مزيد مـــن الاسلحة وبناء جيش قوي الا بالانضمام الى حلف مع الغرب كما فعلت كل من الباكستان والهند .

« وأبدى نوري السعيد تخوفه من تركيا ، وذكر أنها طالما ارادت ان تنتزع الموصل ، كما سلبت الاسكندرون من سورية ، ولهذا فمن الضروري ان نبني وضعاً قوياً لمقاومة المطامع التركية .

« ثم تكلموا عن الخطر الشيوعي غير المباشر من البلدان المجاورة كايران ، ومن النشاط الشيوعي السري في العراق نفسه : « اننا حكومة واقعية عكس حكوماتكم السابقة من الباشوات ، ونحن نرغب في التعاون معكم » ، وانهى نوري السعيد عرضه لوضعهم قائلا : « انني ارغب في عمل شيء لقضية فلسطين قبل ان اموت » .

« وقد اجبته اننا في مصر قد ناضلنا زمنا طويلا لنحصل على استقلال حقيقي ، ونحن اذ منحنا هذا الاستقلال الآن فاننا نعتقد ان علينا تجنب كـــل الارتباطات الاجنبية وخاصة مع القوى الكبرى . لقد عقدنا تحالفاً في الماضي

---

(٣٥) صلاح سالم للمؤلف ، لندن ١٢ نيسان ١٩٦٠

وعلى سبيل المثال معاهدة ١٩٣٦ مع بريطانيا العظمى ، ولكن الشريك الاقوى استغل هذه المعاهدة لتحديد حرية الطرف الاضعف ، وهي طوال سنوات التحالف العشرين لم تساعدنا الا على خلق قوة تتراوح بين العشرة الاف والعشرين الف رجل مجهزين بالبنادق فقط لاقامة العروض العسكرية ، انهم لم يساعدوننا قط في بناء جيش قوي قادر على الحرب ، لقد ارسلوا لنا بعثات عسكرية ، وبدلا من أن تقوم بتدريب فرقنا جعلت من نفسها الآمر الفعلي وتدخلت في شؤوننا الداخلية . لقد كان السفير البريطاني القوة الفعلية في بلدنا ، انه يستطيع ان يطرد الوزراء وان يعين رئيس الوزراء .

« لقد تدخل الانكليز في الحقيقة في جميع مجريات حياتنا ، ثم اخبرتهم ان شعبنا لا يزال يذكر هذا التدخل ويعلم لم كان الامر كذلك ، والأمر بسيط فالبريطانيون أكثر منا قوة وهم مصالح متعددة في المنطقة ، وفي مثل هذا التحالف لا مكان للاستقلال الفعلي .

« واخيراً ، اخبرتهم اننا في مصر قد قررنا أن من الافضل لنا الآن السير في مرحلة انتقالية حرة من كل الالتزامات ، نراقب من خلالها كيف ستعاملنا بريطانيا والغرب ، فان عاملونا كدولة ذات سيادة فقد نُغير رأينا ، اما في الوقت الحاضر فقد قررنا ان نرفض كل الارتباطات مع الدول الكبرى ، فنحن نهدف الى استقلال كامل غير مشروط .

« وقد اجبت رداً على مخاوف نوري السعيد حول مخططات تركيا بشأن الموصل انه اذا دعم الغرب تركيا في مطاليبها فلن يكون بامكان العراق ان يحرك ساكنا ، وعلى العكس ، اذا لم يرغب الغرب في أخذ تركيا للموصل ، فانها لن تستطيع ان تفعل ذلك مطلقا .

« اما بالنسبة للشيوعية فقد اخبرت نوري السعيد بصراحة ان سياسة التحالفات الغربية هذه هي افضل سبيل لتقوية المنظمات الشيوعية السرية ، كما ان هذه السياسة لن تدفع الشيوعيين الى مضاعفة نشاطاتهم داخل البلد فحسب ، ولكنها ستسمح لهم ان يصوروا الحكومة كلعبة في أيدي الدول العظمى ، وبهذه الحجة يكسبون القوى الوطنية الى جانبهم .

« وأخبرتهم » ان القوميين عندكم مشابهون جدا للقوميين عندنا . انهـــم

يريدون استقلالا كاملا ، فقد ملوا التدخل الانكليزي في شؤونهم الداخلية ، وهم سيتأثرون حتما بالدعاية الشيوعية « المشكلة في العراق هي في اكتشاف الفئات القومية لانك اذا خسرت ثقتهم فقد خسرت المعركة داخل بلدك ، والاسلحة التي تبتغيها من الغرب يمكن ان يستعملها القوميون ضدك » .

« عند ذلك تكلم عبد الاله ، الوصي على العرش، فقال : ان الاوضاع في العراق تختلف تمام الاختلاف عنها في مصر (إذ كان على قناعة بان الضباط موالين للعرش وللاسرة الهاشمية)، ومن ثم عدد سلسلة الامتيازات التي يتمتع بها الضباط : فقد اعطوا فيلات للسكن وتعويضاتهم كبيرة ، كما أنهم يتسلمون مكافأة عند تقاعدهم تساوي راتب عام كامل ، وفي هذا الموضوع تكلم أكثر من نصف ساعة ، ثم قال : « ان الملك فاروق كان يعامل ضباطه معاملة سيئة جدا ، ولهذا قمتم بثورتكم .

« ولكنني تابعت موضحا : « اننا لم نخلع فاروقاً من اجل مرتبات اعلى ، لقد ثرنا لاننا قوميون اردنا ان نحرر الحكم من التأثير الاجنبي . ان الحرية لا يمكن ان تشترى بالقصور والمرتبات والامتيازات ، وأنا اخبرك بصراحة انك اذا كنت تريد للحكومة والعرش ان يبقيا ثابتين فان عليك ان تتبنى سياسة تمنح بلادك استقلالا حقيقيا . »

« وعندها تساءل العراقيون كيف يمكنهم ان يقووا جيشهم اذا تبنوا سياستنا فتقدمت ببعض الاقتراحات .

« قلت : لندعُ كل البلدان العربية جميعها الى مؤتمر ونرتب مجتمعين منظمة دفاع حقيقية ، فاذا اتفقت القاهرة وبغداد على ذلك فسيتبعها الاخرون ، فإذا أقمنا حلفا عربيا صرفا في هذه المنطقة الحساسة من العالم بقيادة موحدة ، واستراتيجية دفاعية عامة ومخططات واحدة للتدريب ولبناء الطرق والمطارات وما الى ذلك ، فسنذهب آنذاك معا كيد واحدة الى الدول الغربية ونقول لهم : هذه منظمة اقليمية حسب المادة ٥١ و ٥٢ من ميثاق الامم المتحدة ، ان لكم مصالح عديدة في المنطقة . اننا نريد منكم ان تساعدوا هذه المنظمة باعطائها السلاح حتى تستطيع أن ترد كل عدوان عن أي منطقة ، وشعبنا لن تداخله

الريبة في منظمة عربية صرفة من هذا النوع .

واذا رفض الغرب بعد ان نكون قد فعلنا كل ذلك ان يعطينا اسلحة فسنفكر من جديد، ولكن كونوا على ثقة بان الاتحاد في مثل هذه المنظمة الفعالة سيمنحنا قوة عظيمة ، ان الغرب في الوقت الحاضر يرمي بذور الشقاق بيننا ، ولكننا باتحادنا سنكون في وضع اقوى لمقابلة احتياجاتنا الدفاعية والاقتصادية المختلفة .

وأضفت : انظروا الى اسرائيل ، إن شعبنا يعلم انها لم تكن لتوجد لولا المساعدة الغربية ، فكيف نستطيع اقناعه الآن بأن يوحد قواه مع أولئك الذين أتاحوا لاسرائيل ان تصبح مصدر عدوان مستمر ضدنا .

« وقد بدا نوري السعيد مقتنعا بحججي فقال : « اننا نقبل اقتراحاتك بشكل عام » ، وأضاف سيزور القاهرة في منتصف ايلول في طريقه الى لندن وسيبحث آنذاك التفاصيل مع عبد الناصر ومعي .

« وغادرت غرفة المؤتمر وقد ظننت انني حققت نجاحا باهرا ، وكنت مفعما بالامل وعدت سعيدا الى القاهرة ... »

ان رواية الصاغ صلاح سالم تخطيء فقط باسقاطها بعض النقاط ، فقد أهمل ذكر نقطتين اولاهما عديمة الأهمية ، ولكن الثانية قيمة ، وهما معا افسدتا ثمار رسالته التي بشر بها وخلقتا ثغرة في الاتفاق الذي كان يظن أنه قد توصل اليه مع نوري السعيد .

أما الاولى فكانت ملاحظة لا تمت بصلة الى النتائج الاساسية التي بحثت في سرسنك ، افلتها صلاح سالم في مؤتمر صحفي في بغداد في التاسع عشر من آب ، فقد سأله صحفي ان يحدد موقف مصر تجاه الاتحادات الثنائية بين الدول العربية (وكان هذا اشارة واضحة الى القضية الملحة لوحدة سورية والعراق التي عارضتها مصر دائماً في الماضي) وماذا سيكون موقف حكومةالثورة الجديدة في مصر منها. وقد أجاب صلاح سالم: «ان مصر لا تعارض أي نوع منالوحدة، فاذا رغب شعبان او أكثر من الاتحاد بشكل ما فان مصر لن تمانع، وان منالمحتمل ان نتفق نحن العرب جميعاً على الدفاع عن بلادنا والمحافظةعلى وجودنا (٣٦)».

---

(٣٦) هيئة الاذاعة البريطانية ، الرقم ٤٩٤ ، ٢٤ آب ١٩٥٤

ولم يدرك صلاح سالم مضمونات جوابه هذا ، فقد كان مشغولا سلفا ، كما يوحي القسم الأخير من جوابه ، بمسائل دفاع الشرق الاوسط التي سادت مؤتمر سرسنك ، ولكن الرأي العام العربي استشف من ذلك ان مصر قد سحبت اعتراضاتها على خطة نوري السعيد الخاصة بالهلال الخصيب ، فغضب السوريون لبحث مستقبلهم في محادثات لم يحضروها ، أما الملك سعود فكان في غاية الاضطراب ، مما أرغم مصر على ان تنشر تكذيبا بأنها منحت العراق تأييدها في مشروع لضم سورية . لقد اثيرت عاصفة واسعة مصطنعة حولت الانتباه عن القضايا الاساسية الراهنة وسممت الجو ضد مباحثات مستقبلة .

أما النقطة الهامة التي لم يوضحها الصاغ صلاح سالم توضيحا كاملا فقد كانت تخص طبيعة الاتفاق الذي تم في سرسنك حول قضية الدفاع عن الشرق الاوسط ، لقد كان محقا في القول ان نوري السعيد قد وافق على الحاجة الى تقوية ميثاق الامن الجماعي العربي ، ولكنه لم يذكر انه هو نفسه قد وافق على انه يجب استشارة بريطانيا والولايات المتحدة في كل مرحلة وان دعمها مطلوب ، وقد ظهر فيما بعد انه قد تم الاتفاق على القرار التالي :

« اتفق الطرفان على ضرورة اعادة النظر في ميثاق الامن الجماعي بقصد تقويته وجعله أداة قوية فعالة تمكن البلدان العربية من التصدي لأي خطر قد يتهددها ؛ وسيدرس كل من الطرفين الامر ويجري المحادثات اللازمة مع الولايات المتحدة وبريطانيا بهذا الشأن ، ان اجتماعا آخر بين مصر والعراق سيعقد في القاهرة خلال النصف الثاني من شهر ايلول لاستعراض نتائج الاتصالات مع الولايات المتحدة وبريطانيا ولمتابعة المحادثات ، ثم سيجتمع الطرفان معا مع ممثلي بريطانيا والولايات المتحدة لبحث الموضوع والاعداد لطرحه على الدول العربية الاخرى بقصد الوصول الى اتفاق شامل(٣٧) . »

---

(٣٧) نقلا عن نوري السعيد في اذاعة له يوم ١٦ كانون الاول وهو يدافع عن سياسته العربية أثناء مرحلة الخصومة المقذعة التي تبعت حرب السويس (راجع هيئة الاذاعة البريطانية رقم ١٢٦ ، ١٨ كانون الاول ١٩٥٦) ، عبد القادر حاتم المدير العام لمصلحة الاستعلامات المصرية أجاب نوري السعيد في ٢٠ كانون الاول (راجع هيئة الاذاعة البريطانية رقم ١٣٠ ، ٢٧ كانون الاول ١٩٥٦) .

لقد خسر صلاح سالم المنـاورة ، فكر في كسب نوري السعيد الى جانب بعث ميثاق عربي صرف ، ولكنه بدلا من ذلك ، وافق على ربـط منظمة دفاع عربية بالدول الغربية . وفي الحقيقة ، قبل ان يغادر صلاح سالم بغداد الى القاهرة بعد محادثات سرسنك ، ذهب بعيدا الى حد الاتصال بالقائمين بالأعمال في سفارتي بريطانيا والولايات المتحدة (إذ أن سفيري الدولتين كانا غائبين عن العراق آنذاك) لبحث الامر معهما واعلامهما انه سيجري اتصالا مع السفيرين الانكليزي والأميركي في القاهرة (٣٨) . لقد تجاوز مذكرتـه ، ليشرح كم كانت فكرة الاستقلال العربي الحر كليا عن الوصاية الغربيـة أمرا مشكوكا فيه عام ١٩٥٤ .

وعند عودته الى القاهرة وجد الصاغ صلاح سالم ان عبد الناصر لم يكـن يشاركه رضاه عن نتائج زيارته ، وسرعان ما كانت الصحافة العربية تقلب الرأي في معلومات تفيد حدوث انشقاق في مجلس الثورة حول محادثات سرسنك وفي اوائل ايلول قيل ان صلاح سالم قد ذهب في اجازة ليعاد استدعـاؤه للقيام بواجباته بعد يومين فقط ، كما اتصل شقيقه جمال سالم هاتفيا بنـوري السعيد ليكذب اشاعات عن وجود خلاف في مجلس الثورة ، ولكن الانشقاق كان واقعا كما اعترف المصريون أنفسهم فيما بعد .

بعد عودة صلاح سالم الى القاهرة ، عـارض الرئيس جمال عبد الناصر فكرة استشارة بريطانيا والولايات المتحدة في موضوع هو من « صميم امتيازات حقوقنا » ، وقال ان استشارة بريطانيا والولايات المتحدة يعني الدخول معهم في مفاوضات .

وفي السابع والتاسع من شهر ايلول استقبل الرئيس جمال عبد الناصـر نجيب الراوي سفير العراق الى مصر ، وقال السفير في هذه المناسبة ان نوري السعيد لن يزور مصر كما اتفق سابقا مع صلاح سالم حتى تستشار بريطانيـا والولايات المتحدة في مسألة تقوية ميثاق الامن الجماعي ، وأوضح الرئيس جمال عبد الناصر للسفير العراقي ان فكرة استشارة بريطانيا والولايات المتحدة « لا

(٣٨) هيئة الاذاعة البريطانية ، رقم ١٢٦ ، ١٨ كانون الاول ١٩٥٦

تتفق مع سياستنا المستقلة ، ولقد اجريت مباحثاتنا بهذا الشأن مع العراق لان الجواب البريطاني معروف لدينا . ان طريقتهم الوحيدة لتقوية ميثاق الامن الجماعي هي المشاركة في هذا الميثاق ، لقد بلغونا ذلك ورفضناه منذ عام ١٩٥٣.

وقال السفير العراقي : « ان اهمالكم الاتصال مع الانكليز والاميركان سيمنع نوري السعيد من زيارة القاهرة ويمنع بالتالي استئناف المباحثات » .

وأجاب الرئيس ان نوري السعيد حر في اتخاذ القرار الذي يشاء ، ولكن المصلحة العامة تقضي باستئناف المباحثات ، وان على نوري السعيد ان يكون حاضرا كما وعد حتّى تدفع القضية العربية الى الامام (٣٩) .

وهكذا فشلت مهمة صلاح سالم في سرسنك .

اجتماع عبد الناصر ونوري السعيد :

قضت زيارة نوري السعيد الى القاهرة في الخامس عشر من ايلول على البقية الباقية من الاوهام حول اتفاق مصري عراقي ، وحددت افتتاح مرحلة أكثر عنفا في مناقشات الدفاع ، وفيما يلي تقرير صلاح سالم عما جرى :

خرجنا أنا وعبد الناصر لاستقبال نوري السعيد في المطار ، ثم رافقته الى فندق السميراميس حيث سألني ان اصعد الى غرفته ، ثم دخل وأغلق الباب وراءه ، وقال : « انني متأكد انك واقع في متاعب مع عبد الناصر حول مقترحات سرسنك ، وانني مستعد لأن أساعدك ضد عبد الناصر » . وأمضيت معه ما يزيد عن الساعة مقسما على عدم وجود مشاكل من أي نوع ، وان عبد الناصر سيعيد كل كلمة قلتها .

ثم اجتمعنا معاً عند عبد الناصر ذلك المساء ، وابتدأ نوري السعيد بالحديث ، تكلم لمدة ساعتين ولم يفهم احدنا كلمة ، إذ كان يتمتع بقدرة فائقة في الحديث لساعات دون أن يحمل كلامه أي معنى ، وتكلم وتكلم وتكلم ونظرت الى

(٣٩) جواب عبد القادر حاتم على نوري السعيد (هيئة الاذاعة البريطانية رقم ١٣٠ ، ٢٧ كانون الاول ١٩٥٦) .

عبد الناصر ونظر عبد الناصر اليّ . وأخيرا تدخل عبد الناصر فاقد الصبر قائلا :
« انني في الحقيقة لا أستطيع ان أفهم ، ارجو ان تخبرني ما تريد قوله باختصار » .

فتكلم نوري السعيد آنذاك ببساطة متناهية فقال : « انني لا أستطيع ان اعتمد على العرب في الدفاع عن بلادي ، فاذا قلت لشعبي ولاصدقائي الاجانب انني ساعتمد على جيوش سورية والسعودية ولبنان للدفاع عن بلادي فسيقولون لي : « نوري ، انك لأحمق » ان الطريقة الوحيدة للدفاع عن بلادك هي في عقد تحالف مع الغرب ، انني افهم جيدا شكوكك تجاه بريطانيا ، ولكنني ذاهب الى هناك .

وعندها أجاب عبد الناصر بمجرد كلمات قليلة : « حسنا يا نوري ، لقد اعطيتك نصيحتي ، انك بالطبع حر في ان تفعل ما تشاء وأننا سنستمر في سياستنا والمستقبل سيحكم بيننا » (٤٠) .

والرواية الرسمية المصرية لهذه المقابلة كما اذاعها عبد القادر حاتم في العشرين من تشرين الاول تتضمن تفاصيل اضافية :

نوري السعيد : « .. من أين نحصل على الاسلحة اذا لم يكن هناك صلة بين البريطانيين وميثاق الامن الجماعي » ؟

عبد الناصر : اذن فالمقصود مشاركة بريطانية في ميثاق الامن الجماعي ، لقد طلب منا البريطانيون عددا من المرات ان نعقد معهم حلفا ، وقد رفضنا العرض واعلمناهم ان ميثاق الامن الجماعي هو الاساس الوحيد لتنظيم الدفاع عن البلاد العربية .

ان الاتصال مع البريطانيين سيقود إلى احد هاتين الاجابتين : أما الوصول إلى اتفاقات ثنائية بين الدول العربية وبريطانيا ، أو ادخال بريطانيا وتركيا في ميثاق الامن الجماعي العربي ... ولهذين السببين فان أي تجديد للمباحثات معهم لن يؤدي إلا إلى اعادة هذه المطاليب نفسها ، وتكون نتيجته بالتالي البدء بمفاوضات منحرفة مع بريطانيا ، هذه المفاوضات التي نحن في

(٤٠) صلاح سالم للمؤلف ، لندن ١٢ نيسان ١٩٦٠

غنى عنها. واضاف الرئيس : «ليس علينا فقط ان نفكر بالدفاع ضد العدوان الخارجي ، ان علينا أيضا أن نأخذ بعين الاعتبار قضية حماية استقلالنا من مخططات الاستعمار » ، ثم قدم عبد الناصر هذا البيان عن سياسته :

« ان هدفنا ان نتمم اتفاقية الجلاء ، ونحن نشعر أن الامور لن تتبلور الا بعد عامين من الجلاء البريطاني عن مصر ، ان مصر تحتاج إلى عامين بعد الجلاء لتبحث الامر وتقرر السياسة التي ستنتهجها، ولهذا السبب لا استطيع الموافقة على أي من هذه المقترحات ، اننا نريد ان نتمتع باستقلالنا وان نستخدم عقولنا لفترة ونحن مستقلون ، مما يحتاج إلى مدة عامين بعد الجلاء» .

وأجاب نوري : « ان العراق لم يفعل شيئا يعارض خطة مصر لضمان الاستقلال ... ولكن ميثاق الامن الجماعي هو مجرد حبر على ورق ، ويجب ايجاد وسائل أخرى للدفاع » (٤١) .

خطة نوري السعيد البديلة :

لقد بات واضحاً الان ان العراق ومصر لم تتفقا ، ولكن خطوة العراق الثانية لم تكن معروفة ، وقد رسم نوري السعيد استراتيجته خلال الشهر التالي : في لندن اولا ، حيث امضى ثلاثة اسابيع مباشرة بعد زيارته للقاهرة ثم في اسطامبول حيث بقي من الثامن إلى التاسع عشر من تشرين الاول . وكان في هذه الزيارات أن قدم نوري السعيد لكل من بريطانيا وتركيا خطته المقترحة البديلة لحلف دول الحزام الشمالي : وكانت هذه الخطة التي استقبلها ايدن بحرارة شديدة (٤٢) هي تقوية ميثاق الامن الجماعي العربي بادخال تركيا ومساعدة بريطانيا والولايات المتحدة .

وكانت الخطوة الاولى إبعاد تركيا عن الحلف التركي الباكستاني وادخالها في علاقة أوثق مع الدول العربية ، ولم تكن هذه الخطة بادرة جديدة في ذهن

(٤١) هيئة الاذاعة البريطانية ، الرقم ١٣٠ ، ٢٧ كانون الاول ١٩٥٦

(٤٢) راجع ص ١٨٦

كل من نوري السعيد ووزير الخارجية التركي وانما كانت استمرارا لجهود التقارب السابقة بين الدولتين والتي تلت الحرب ، ان نوري السعيد نفسه كان قد فاوض عندما كان خارج الوزارة عام ١٩٤٦ لعقد معاهدة صداقة وحسن جوار مع الاتراك ، هذه المعاهدة التي صدق عليها مجلس النواب العراقي في حزيران عام ١٩٤٧ (٤٣) ، ولهذا كان من الطبيعي ان يتوجه بنظره مرة أخرى نحو تركيا ، ولكن من الهام ان نعيد للأذهان ان معاهدة ١٩٤٧ قد واجهت آنذاك معارضة من القوميين العرب على اساس انها قد تورط العراق رغما عنه في صراع مع الاتحاد السوفيتي وانها تتضمن اعترافا بضم تركيا للواء الاسكندرون العربي .

وعلى أية حال ، فإن فكرة تحالف تركي عربي جديد لقيت قبول زعماء الحزب الديمقراطي التركي الذين تسلموا السلطة في أيار ١٩٥٠ ثم أعادوا تعزيز مركزهم في انتخابات أيار ١٩٥٤ ، وكان من المعتقد ان وزير الخارجية التركي ، (فؤاد كوبرولو) ، قد اغرته رؤية تجمع سريع لكل الدول العربية – ان لم تقل الاسلامية – تحت القيادة التركية، والتلميح الاول لهذه السياسة الجديدة اشير اليه في اواخر تشرين الاول انه من غير المتوقع انضمام العراق الان إلى الحلف التركي الباكستاني ، فالحكومة التركية تدرس بدلا من ذلك اتفاقات ثنائية ، مع دول عربية منفردة (٤٤) . وفي افتتاح الدورة الجديدة للجمعية الوطنية التركية في الاول من تشرين الثاني ، أكد الرئيس بايار على تحسن العلاقات مع الدول العربية وخاصة مصر والعراق وتطلع إلى مزيد من التقدم في هذا المضمار (٤٥) .

ولم تكن مصر بعد قد أدركت بوضوح مقاصد العراق ، اذ انه ابعد ما كان منظورا من تخطيط نوري السعيد الكبير كان تقاربا عراقيا تركيا ،

(٤٣) راجع مجيد خضوري ، العراق المستقل (لندن ١٩٥١) الصفحات ٣٤٦ – ٣٤٧ .

(٤٤) الاذاعة اللبنانية ، ٣١ تشرين الاول نقلا عن المصادر التركية (هيئة الاذاعة البريطانية الرقم ٥١٥ ، ٥ تشرين الثاني ١٩٥٤)

(٤٥) راجع حديث الرئيس بايار في هيئة الاذاعة البريطانية ، رقم ٥١٦ تاريخ ٩ تشرين الثاني ١٩٥٤ .

ولكي لا تتخلف عن الركب ولكي لا تؤخذ على حين غرة ، ابتدأت مصر بدورها في التودد إلى تركيا ، وصرح سفيرها في أنقرة في الواحد والثلاثين من تشرين الاول بما يلي :

لقد تم اعداد الاساس الضروري لبناء تعاون وثيق بين تركيا ومصر باعتبارهما الجمهوريتين الكبيرتين في الشرقين الاوسط والادنى ، وتم الاتفاق على ابتداء المفاوضات الرسمية بهذا الخصوص في المستقبل القريب ... وكما سيكون هذا التعاون الوثيق بين تركيا ومصر مصدر قوة للمصريين فانه سيشكل دعما للعالم العربي أيضا ... وبالاختصار فان التحالف التركي المصري سيشكل قوة هائلة في الشرق الادنى بتعداد يبلغ الخمسين مليون نسمة (٤٦).

بل ان عبد الناصر نفسه منح هذه الحملة ثقلا في مقدمة مشهورة لكتاب بعنوان سياسة العرب والاتراك : «مهما حدث بيننا وبين الاتراك في الماضي أو في الحاضر فاننا ننتمي لبعضنا البعض ، فآباؤنا كانوا أخوة في التاريخ .. واذا كانت العراق آمنة ، فنحن آمنون ، واذا كنا من القوة بحيث نجعل العدو يفكر مرتين ، فان تركيا ستكون آمنة » ... (٤٧)

ولقد رأى عدد من المراقبين في شهر العسل التركي المصري القصير هذا ، والذي تبع سريعا توقيع الاتفاقية الانكليزية المصرية ، سببا لافتراض أن مصر تميل نحو الغرب ، ولكنها لم تكن أكثر من خطوة احتياطية في تنافس مصر مع العراق ، فلم يكن لدى مصر رغبة في أن تهزم على المستوى العربي بارتباط تركيا والعراق ، وفي الحقيقة ، سرعان ما ساءت علاقاتها مع تركيا عندما أصبح واضحا ان هذه قد استعملت كطعم لجر مصر إلى نظام دفاع خاضع للوصاية الغربية ، وبنهاية السنة انتهى شهر العسل التركي المصري وابعد السفير التركي من مصر (٤٨) كما علق رئيس الوزراء التركي ، عدنان مندريس

(٤٦) هيئة الاذاعة البريطانية ، الرقم ٥١٥ ، تشرين الثاني ١٩٥٤

(٤٧) نقلا عن راديو انقرة (هيئة الاذاعة البريطانية ، الرقم ٥٢٤ ، ٧ تشرين الثاني ١٩٥٤) .

(٤٨) هنالك بعض الأسباب الشخصية لتدهور العلاقات فقد شتم السفير التركي عبد الناصر شخصيا اثناء حفلة في دار الاوبرا أعلن على اثر ذلك انه شخص غير مرغوب فيه .

في السابع والعشرين من شهر كانون الاول : « ان هؤلاء الذين يعيشون في مناطق معينة يجب أن لا يقعوا فريسة للوهم انهم باتحادهم فيما بينهم يستطيعون العيش بأمان » . (٤٩) .

ولكن القيادة المصرية تمسكت بسياستها . وليس هناك من وثيقة أكثر تمثيلا للحماس والابتهاج الذي كرسوا به حقهم في قيادة العرب من نداء اذاعة « صوت العرب» ليلة اتفاقية الجلاء في التاسع عشر من تشرين الاول ١٩٥٤ :

« أخواني العرب الاعزاء في الاردن وفي العراق ، وفي جنوب شبه الجزيرة العربية ، وفي شمال أفريقيا وفي فلسطين ، ارفعوا رؤوسكم عن أحذية الاستعمار فقد ولى عهد الاستعباد، لقد ابتدأت مصر تحرير نفسها من قيود الاستعمار ، هذا المساء ستوقع اتفاقية الجلاء . ارفعوا الرؤوس التي أحنيت في العراق وفي الاردن وعلى تخوم فلسطين ، ارفعوا رؤوسكم اخواني في شمال افريقيا ، ان شمس الحرية تشرق على مصر وستغمر اشعتها وادي النيل بأكمله ، فارفعوا واشمخوا رؤوسكم نحو السماء .

ان بداية تحرر مصر من أغلال الاستعمار قد أتت ، ارفعوا رؤوسكم وانظروا ماذا يحدث في مصر ، وهناك لن تجدوا ملكا مستبدا ولا اقطاعا ولا جيشا ضعيفا ، أنظروا كيف حررت الثورة المصرية الامة من القوى الاستعمارية في القناة ، أنظروا مصر تركل الملك واعوانه خارجا ، أنظروا اليها تنجز مشاريعها المائية العظيمة ، أنظروا اليها تكسر الحصار وتبني مصانع الذخيرة والطائرات ، استمعوا اليها وهي تقول لا أحلاف الا مع العرب ، انظروا اليها وهي تجبر المحتل على اخلاء القاعدة في قناة السويس ...

لقد حققت مصر كل هذا في عامين فقط ، فكروا فيما يمكن أن تفعله مصر من أجلكم الان وقد تم الجلاء ، أنت ، ياأخي المستعبد في العراق يا أخي على حدود فلسطين وفي شمال افريقيا ، عليك ان تتذكر العامين الماضيين وان تتخيل العامين التاليين في مصر ، عندها سترفع رأسك في فخر

(٤٩) هيئة الاذاعة البريطانية رقم ٥٣٠ ، ٣١ كانون الاول ١٩٥٤

وكرامة ، وانتم يا اخوتنا في العراق، ان عروبتكم وقاعدة الحبانية في بلادكم ستتحرر بتحرر مصر ، وسيجبر المستعمرون على استجداء صداقتكم بدلا من استنشاق عدائكم يا أخي . ارفع رأسك الان لان النصر قد تم لك باخوانك عرب مصر (٥٠) .»

لكن مصر وبالرغم من هذه النداءات المتواترة ، لم تكن بعد معادية للغرب نهائيا ، فاتفاقية الجلاء أدت إلى تحسن ظاهري في العلاقات الانكليزية المصرية ، والمبعوثون البريطانيون كانوا على ود مع بعض الاعضاء القياديين في مجلس الثورة ، وكان هناك غموض في التفكير المصري آنذاك ، فقد نادت مصر باستقلال عربي غير مشروط تحت قيادتها ، ولكنها بقيت ترنو إلى الغرب كمصدر للسلاح وكشريك محتمل في المستقبل — بعد انتهاء المرحلة الانتقالية —، وقد أنعكس هذا الغموض في قرارات متضاربة صدقت بالاجماع في أجتماع وزراء الخارجية العرب الذي عقد في كانون الثاني عام ١٩٥٤ .

كانت القرارات :

١— لايجوز الانضمام إلى أى حلف خارج مجال ميثاق الامن الجماعي .

٢ — ان التعاون مع الغرب ممكن ، اذا قدم حلاً للمشاكل العربية وسمح للعرب ببناء قوتهم بمساعدات من الاسلحة (٥١) .

وقد رفضت الدول العربية الا أن تعترف بأن تبنيها سياسة مصر(كما عبر عنها في القرار الاول) سيتعارض ولا ريب وتعاونها مع الغرب وقد علق الصاغ صلاح سالم على مؤتمر وزراء الخارجية هذا فقال :

« من المدهش ان اتذكر انهم بالاجماع وافقوا على ان الدول العربية مستعدة للتعامل مع الغرب ، لقد وقعت مصر التصريح ، ولكن لكي نحلي مذاق الحبة في فم الجمهور ، اصرت مصر ان تضمن البيان المشترك حول التعاون ، بعض الجمل ، مثل « اذا قـــدم حلا للمشاكل العربية » وتلا ذلك مناقشة طويلة ، فقد ارادت بعض الوفود ان تعلم ماذا نقصد بتعبير « المشاكل العربية » . وسألوا : أهي تعني بأن التعاون غير ممكن حتى يوجد

(٥٠) هيئة الاذاعة البريطانية ، الرقم ٥١١ ، ٢٢ تشرين الاول ١٩٥٤

(٥١) هيئة الاذاعة البريطانية ، الرقم ١٣٠ ، ٢٧ كانون الاول ١٩٥٦

مثل هذا الحل لجميع المشاكل العربية ؟ وتوضح تماما في المناقشات التالية اننا لا نقصد مثل هذا المعنى . وقد وافقوا على ان مثل هذا الحل للمشاكل العربية يمكن ان يتطلب زمنا طويلا ، غير ان التعاون مع الغرب يمكن ان يبدأ حالا . (٥٢) »

كان ثمة فشل في فهم مضمونات السياسة المصرية او بما رفض لمواجهة محتواياتها — فالمطالبة بالتحرر التام من جميع الروابط الاجنبية — وهي لا تطلب ذلك لنفسها فقط ، بل لجميع الدول العربية والافريقية — انما تعني حتما الاصطدام بالمصالح البريطانية .

ولم تدم هذه البراءة الا أسابيع قليلة ، فقد وضع نوري السعيد خططه الدفاعية مع الانكليز والاتراك ، وكان يتحرق لتنفيذها ، ثم زار عدنان مندريس بغداد في ١٣ كانون الثاني ١٩٥٥ ونشر مع نوري البيان المشترك الشهير عن عقد إتفاقية الدفاع المشترك ، وقد كان العراق يهتم بالاشارة إلى أن « الاتفاقية التركية — العراقية لا صلة لها بالحلف التركي — الباكستاني » وحث مصر على أن تكون في مقدمة الدول العربية التي تنضم اليه (٥٣) .

وكان رد فعل مصر دهشة أليمة ، تلاه هيجان وسخط ، فقد رأت في مبادرة نوري الفورية تحديا لقيادتها ، فقال صلاح سالم :

« كان من الواضح ان المعركة بين سياستنا وسياسة العراق سوف تمتد إلى سورية ، وكانت القضية واضحة بمثل هذه البساطة : اذا استطاعت تركيا والعراق ان تجرا سورية إلى صفهما ، فسوف تتبعها لبنان والاردن ، وبذلك فسوف تنعزل مصر تماما ، كما فلن يكون امامنا خيار سوى الرضوخ فقررنا أن يكون ردنا قويا ، لذلك دعونا فورا جميع رؤساء دول الجامعة العربية إلى اجتماع في القاهرة في ٢٢ كانون الاول لمناقشة هذا الامر الهام» (٥٤)

ولم يوقع حلف بغداد من الناحية الشكلية الا بعد شهر ، غير أن سورية خلال ذلك قامت بدورها الحاسم .

---

(٥٢) صلاح سالم للمؤلف ، لندن ١٣ نيسان ١٩٦٠

(٥٢) برهان الدين باش اعيان في بيان لجريدة الاخبار (القاهرة) ١٥ كانون الثاني ١٩٥٥ (راجع) هيئة الاذاعة البريطانية رقم ٥٣٥ ، ٢١ كانون الثاني ١٩٥٥)

(٥٤) صلاح سالم للمؤلف ، لندن ١٢ نيسان ١٩٦٠

١٧

٢ - حلف بغداد وأعداؤه

اذا كانت سياسة سورية ضيقة، فان حلف بغداد قد أعطاها أهمية أوسع، ذلك انه كان لسورية الصوت الحاسم والمرجح في مستقبل الحلف : فلو قبلت عضوية الحلف لتبعتها دول عربية أخرى، أما وقد رفضته وناصبته العداء الشديد . مما ادى الى تجميده، وعزل العضو العربي الوحيد فيه وهو العراق، واظهرت معركة حلف بغداد وضع سورية وكأنه نقطة التحول في مصير الحلف : فبما انها مركز التنافس بين الدول العربية، فقد استقطبت النشاط الديبلوماسي للدول العظمى . وأعلنت انها قد اختارت موقفها ضد الحلف في الاسابيع التي سبقت توقيعه مباشرة في ٢٥ شباط ١٩٥٥ وفعلا فان ملامح هذا القرار قد ظهرت في انتخابات ايلول ١٩٥٤ بالفوز الكاسح للاتجاه الحيادي .

حتى ذلك الحين لم تعكس السياسة السورية أكثر من العداء المعهود لجيرانها العرب، فكانت هدفا لتدخل متكرر من الهاشميين، لكنه تدخل ضعيف، تمنع تأثيره العربية السعودية ومصر، فالسعودية على عداء تقليدي مع التوسع الهاشمي، ومصر تعارض الاتحاد السوري العراقي، لان ظهوره يعني ظهور قوة عربية تضاهي قوة مصر وتتحداها . لقد حمت ديكتاتورية الشيشكلي سورية من الضغوط الخارجية، ولكن المصادفة العجيبة جعلت الشيشكلي يذهب إلى المنفى في نفس اليوم الذي اطاح عبد الناصر بمحمد نجيب وذلك في ٢٥ شباط عام ١٩٥٤، إن حكومة قوية في دمشق ابتغت الدفاع عن استقلال سورية سقطت

في اللحظة التي اعلنت مصر بقيادة عبد الناصر اتباع سياسة عربية فعالة .

وهكذا فقد عادت الحياة النيابية إلى سورية في ظروف أكثر تعقيداً من الصراع المألوف من تودد الهاشميين والعمل المضاد من قبل المصريين والسعوديين، وبينما كانت هذه المنازعات على الزعامة المحلية الشغل الشاغل للعرب آنذاك ، جاءت الحرب الباردة بقضايا أعظم طعمت بها التناقضات الداخلية بين العرب ، فغدا الجو يتطلب تلوينا أيديولوجيا جديداً كلما تعاظم الصراع ، وفي سورية ، قدمت المناقشات حول حلف بغداد لليسار المحايد الفرصة للاخذ بزمام المبادرة ولتجسيد المكاسب التي نالها في الانتخابات بسياسة قومية .

حكومة فارس الخوري :

تصادمت الجبهتان في العهد الجديد أثناء انتخابات عام ١٩٥٤ ، فوقفت إلى اليمين التجمعات القلقة من الحزب الوطني وحزب الشعب مع فئة من عشرة نواب يقودهم منير العجلاني ويسمون انفسهم « الكتلة الحرة » . ويبلغ عددهم جميعا ستين نائبا، لكن هذا الحلف قلق وغير ثابت ، تمزقه المنافسات الشخصية والخصومات القديمة ولا يجمعه مذهب سياسي واحد . لقد عانى المحافظون من النكسات في الانتخابات غير أن وضعهم المكتسب ما زال قويا : فقد كانوا يعتبرون بحكم العادة الحزب الحاكم في سورية ، وكان هاشم الاتاسي رئيس الجمهورية يعتبر حاميا لحزب الشعب ، لذلك لم تكن مفاجأة ان ينتخب ناظم القدسي رئيسا لمجلس النواب وهو قطب حزب الشعب .

وكان التجمع اليساري اكثر حماسة ولكنه كخصومه ، متعدد الاجنحة ، اذ يتألف من البعث بقيادة اكرم الحوراني ، ومن المليونير « التقدمي » خالد العظم وجماعته ، وهم حوالي ثلاثين نائبا من المستقلين يسمون انفسهم « الكتلة الديمقراطية » ، والزعيم الشيوعي خالد بكداش وجميعهم يعدون بين الخمسين والستين نائبا ، وبين الكتلتين يقف عدد من النواب ليس لهم اتجاه سياسي معين

هم نواب العشائر ، ونواب عن المنظمات الاسلامية ، وأخيرا عدد من مؤيدي اديب الشيشكلي وأنصاره .

وفي ١٤ تشرين الاول ، قبل رئيس الجمهورية استقالة رئيس الوزارة سعيد الغزي الرئيس غير الحزبي الذي قاد الانتخابات بمنتهى الحذر ، ثم استدعى خالد العظم القطب البارز في التجمع ، وكلفه بتشكيل حكومة ، غير ان العظم حصل على الثقة بأكثرية بلغت من الضآلة حد أنها بقيت تحت رحمة نائب او نائبين ، وبعد عشرة أيام من الجهود العقيمة استقال معترفا بالهزيمة . وأظهرت التجربة أن البعث والعظم اضعف من أن يشكلا حكومة ما دام الحزب الوطني وحزب الشعب ومنير العجلاني يعارضونها ويرفضون الدخول في كتلة واحدة او تجمع ، اذن فلن يصل اليسار الى السلطة الا اذا مزق صفوف خصومه .

عندئذ وقع اختيار الرئيس على رجل الدولة والمشرع البروتستانتي المذهب ، فارس الخوري ، وكان الخوري واحدا من قدماء السياسيين الوطنيين السوريين الذين وقفوا حياتهم على الدفاع عن سورية ضد الاتراك اولا ، ثم ضد الفرنسيين حتى استقلت البلاد ، وكان وهو في السابعة والسبعين شهيرا بالاعتدال والحكمة السياسية ، غير أنه عجز ايضا عن تأليف حكومة ائتلافية ، فقد رفض البعث والعظم الاشتراك فيها ، لذلك اضطر الى الاعتماد على حزبي الشعب والوطني حين وضع قائمة وزرائه ، في ٢٩ تشرين اول (١) . فعارضها اليسار لأنها « تعزف بقصد وتصميم عن الاتجاه الشعبي الذي كشفت عنه الانتخابات . » ولكي يهدىء فارس الخوري المعارضة اعلن رفض وزارته لكل الاحلاف الاجنبية ، بل لقد اضطر في فوضى المناقشة التي أعقبت بيان حكومته ان يعلن رفض حكومته لأية « مساعدة او حلف او اتفاقية » مع أية

(١) الرئيس فارس الخوري (مستقل) الخارجية فيضي الاتاسي (حزب الشعب) الداخلية احمد قنبر (حزب الشعب) الدفاع رشاد برمدا (حزب الشعب) العدل : علي بوظو (حزب الشعب) المالية دكتور رزق الله انطاكي (حزب الشعب) الأشغال العامة والمواصلات مجد الدين الجابري (الحزب الوطني) ، الصحة بدوي الجبل (محمد سليمان الاحمد) (الحزب الوطني) الاقتصاد الوطني دكتور فاخر الكيالي (الحزب الوطني) التربية دكتور منير العجلاني (مستقل) الزراعة عبد الصمد الفتيح (من نواب العشائر) .

دولة أجنبية ، غير ان هذا الاعتراف بالحياد لم يقنع خصومه الذين يعرفون ميوله الغربية السابقة ، فانتظروا متربصين اول انحراف منه عن هذا التصريح ليسقطوا حكومته .

مؤتمر رؤساء الوزارات العرب :

في ٢٢ كانون اول دعت مصر رؤساء الوزارات العرب الى مؤتمر في القاهرة ، لمناقشة العراق في اعلان عزمه على عقد حلف دفاعي مع تركيا ، فقد دخلت معركة حلف بغداد مرحلتها الحاسمة ، وكان المؤتمر اكثر من مجابهة بين السياسات ، كان عرضاً للقوة من اجل قيادة العرب على أرض مصرية ، وكان هذا اول مؤتمر للدول العربية يحضره عبد الناصر ، فدعا كل رئيس على حدة ليوضح موقفه ، وقد حضر فارس الخوري عن سورية وسامي الصلح عن لبنان وتوفيق ابو الهدى عن الاردن والامير فيصل عن السعودية ، كما حضر المؤتمر ايضا وزراء خارجية كل من مصر وسورية ولبنان والاردن ، اما نوري السعيد فقد رفض الحضور ، واعتذر بأنه مريض ، ولكن بعد الالحاح المتكرر من المؤتمر فوض رئيس الوزراء السابق ، فاضل الجمالي ومعه نائب رئيس الوزراء احمد مختار بابان ومبعوث وزير الخارجية برهان الدين باش أعيان . فوصل الوفد الى القاهرة في ٢٦ كانون الثاني .

ويقدم الصاغ صلاح سالم هذا الوصف عما جرى :

« كانت المحادثات حية صريحة ، اذ ان كل جانب اعلن موقفه ، وكان موقف السوريين مبهما ، فقد وافق ممثلا سورية ، الشيخ فارس الخوري ووزير خارجيته فيضي الاتاسي ، على عدم إلزام سورية بأي حلف اجنبي ، لكنهم لم يذهبا الى حد ادانة نوري السعيد ، وأصرا على انه حر تماما في أن يفعل ما يشاء في بلده ، وقالا ان العراق لا يجوز ان يعامل كفريق متهم ، وأنهما لم يأتيا الى القاهرة لاتهام أحد .

غير اننا اجبنا السوريين : « عليكم ان توضحوا موقفكم ، فقبل كل

شيء ، فان الاعلان التركي العراقي يتضمن دعوة لكم». فأجابوا انهم لم يتلقوا اية دعوة رسمية ، كما لايجوز ان نتوقع منهم ان يضعوا سياستهم كردود فعل لما يظهر في الصحف .

عند ذلك سألناهما ان كانا يرضيان بتوقيع تصريح رسمي ينص على اننا – نحن الحكومات العربية – نرفض كل ارتباط بالاحلاف الاجنبية ، غير انهما رفضا ، وأصرا ان مثل هذا القرار يؤذي العراق ، وقد جلس اللبنانيون جانبا ولم يتفوهوا الا بالقليل ، اما الاردنيون الذين كانوا مع السعوديين وضد العراق فقد ساعدونا ، مثلما ساندتنا السعودية طبعا .

« وقد أعاد الجمالي جميع الجدل الذي سمعته في سرسنك عن الشيوعية ، وعن كون العراق عرضة للهجوم ، ثم حميت المناقشة وصرخ اعضاء الوفود في وجوه بعضهم البعض ، وعند احدى النقاط صرخ الجمالي : « لم آت هنا ليشتمني الاغراب » لكننا اجبنا « هنا لا يوجد اغراب ، بل اخوة عرب » ، ولم يصل المؤتمر إلى أي اتفاق » . (٢)

لقد نشر راديو القاهرة ستارا كثيفا من الدعاية ضد الحلف ، وحين انتهى المؤتمر الى الفشل التام في الاسبوع الاخير من كانون الاول ، علت منه لهجة عنيفة وشتائم شخصية ، فأذاع في ٣٠ حزيران ١٩٥٥ ما يلي :

« اليوم تشهد شعوب ودول في جامعة الدولة العربية خيانة مكشوفة جديدة ، بطلها نوري السعيد ، ان اصراره على هذا الحلف ، وتحديه للشعب العربي ، واستخفافه بأقوى الحقوق ، لهو خيانة للعروبة واكثر اضرارا بالجامعة العربية من أي شيء ارتكبته اسرائيل او الصهيونية ... (٣) »

وهذا الهجوم هو الاول في سلسلة متزايدة من الهجمات العنيفة الموجهة مباشرة ضد نوري شخصيا ، معلنا بذلك دفن عهد « الردنجوت » * واللباقة الرسمية في عالم السياسة العربية . ان الجيل السابق من الساسة العرب

(٢) صلاح سالم للمؤلف ، لندن ١٢ نيسان ١٩٦٠

(٣) راديو القاهرة ، ٣٠ كانون الثاني ١٩٥٥ (هيئة الاذاعة البريطانية ، رقم ٥٣٩ ، شباط ١٩٥٥)

* الردنجوت : لباس رسمي خاص س.ع

مؤسسي الجامعة العربية من أمثال سعد الله الجابري ، لن يحاربوا خصومهم السياسيين بهذه الطريقة لو أنهم في مكان القادة الجدد .

وقد شهد ذلك الاسبوع ايضا نهاية شهر العسل بين تركيا ومصر ، ففي ٢٥ كانون الثاني أعلن راديو القاهرة ان أي حلف مع تركيا « صديقة اسرائيل » يعني بالضرورة حلفا غير مباشر مع اسرائيل نفسها ، وخيانة للقضية العربية ، وأصبح نوري السعيد « حليف حليفة اسرائيل » .

ولكي يتجنب الرؤساء العرب فشل مؤتمر القاهرة قرروا في ٣٠ كانون الثاني تأخير اجتماعاتهم عدة أيام ريثما تزور لجنة رباعية نوري السعيد في بغداد ، وتتألف من الرئيس اللبناني والرئيس الاردني ووزير الخارجية والصاغ صلاح سالم الذي وصف ما جرى بما يلي :

« استقبلنا نوري بالبيجاما ، متظاهرا بأنه مريض ، وبقي الثلاثة صامتين بينما اعدت شرح وجهة نظر مصر ، وفي ذلك المساء زارني في المقر الرسمي عدد من كبار الساسة العراقيين من أمثال توفيق السويدي وآخرين ، وقد أتى كل منهم بمفرده وتكلم ضد نوري وجنونه بالاحلاف .

« وبعد حوالي اليوم أرسل اليّ نوري رسالة يدعوني فيها الى بيته ، وفي الصالون وجدت جميع السياسيين الذين زاروني ، وربما أخبر نوري بزياراتهم لي . قال لي : « حضرة الصاغ ، لقد جمعت لك جميع الرؤساء ووزراء الخارجية السابقين الذين ما زالوا احياء في بلدي ، وأريد منك ان تسمع سياستنا منهم . » ثم أمرهم بالكلام فردد كل منهم حجج نوري ، ولم أشاهد واحدا منهم ثانية . فقد طرنا الى القاهرة ، وكانت كلمات الوداع التي وجهها الي نوري : « لست جنديا في جيش عبد الناصر ، أرجو ان تخبره بأنني لن أطيع أوامره » (٤) .

وهكذا انفض مؤتمر الرؤساء العرب في ٦ شباط دون ان يصل الى قرار أو أن ينشر بلاغا مشتركا .

وقد أعلن صلاح سالم آنذاك : « ان العالم العربي يقف الآن على مفترق طرق ، فاما ان يصوغ استقلاله ووحدته المتماسكة بعناصرها الخاصة وشخصيتها

(٤) صلاح سالم للمؤلف ، ١٣ نيسان ١٩٦٠

القومية ، واما ان يتبع كل بلد طريقه ، ان الطريق الثاني يعني بداية سقوط القومية العربية ... » (٥)

وفي اليوم التالي سقطت حكومة فارس الخوري في دمشق ، فربحت مصر جولة حاسمة وسريعة .

انشقاق الحزب الوطني :

يستحق ان يعتبر سقوط حكومة فارس الخوري في ٧ شباط ١٩٥٥ من « نقاط التحول » في السياسة العربية . فقد أمسك « اليسار » المحايد بزمام المبادرة وواجه « اليمين » المؤيد للعراق هزيمة في مجلس النواب الذي كان يعتبر حتى الان معقلاً له ، وحدث اتصالان خلال الازمة : فقد تقارب البعث مع مصر بسبب تماثل نظرتهما الى السياسة الخارجية ، بينما اتخذ البعث طريقه داخل سورية نحو الشيوعيين لمواجهة عدوهما المشترك ، ويمكن ان يعزى كثير من الاحداث التاريخية اللاحقة الى هذه الصلة المزدوجة ، فقد عنت الأولى أن سورية خطت نحو دخول منطقة النفوذ المصري ، بينما أدخلت الثانية سورية مباشرة في الحرب الباردة ، فأثارت آمال السوفييت ومخاوف الغرب .

لقد سقطت حكومة فارس الخوري لأنها اتهمت بالتخلي عن سياستها المعادية للاحلاف الاجنبية ، وهي السياسة التي تعهد بها في بيانه البرلماني لنيل الثقة بحكومته ،وأكدها ثانية قرارمن لجنة الشؤون الخارجية في البرلمان قبيل سفر فارس الخوري الى مؤتمر القاهرة . (وكان الزعيم البعثي صلاح البيطار سكرتير هذه اللجنة التي تضم ايضا اكرم رالحوراني وخالد بكداش) . وقد ثارت مخاوف المعارضة حين جاءت تقارير الصحافة من القاهرة تشير إلى أن الوفد السوري أعرب عن عطفه على العراق. وعاد الرئيس الخوري الى دمشق مسرعاً خلال تأجيل المؤتمر ، وأعلن انه « اذا كان ميثاق الأمن الجماعي العربي فعالا ،

---

(٥) هيئة الاذاعة البريطانية ، رقم ٥٤٢ ، ١١ شباط ١٩٥٥

فان العراق غير مجبرة على البحث عن وسائل للدفاع » (٦). وقد اعتبر خصومه تصريحه تغطية لأسس السياسة العراقية ، وتبريرا لهم كي يعملوا على الاطاحة به .

غير ان خالد العظم وزعماء البعث كانوا يعرفون انهم لا يستطيعون بمفردهم تأمين الاكثرية ، لقد اتيحت الفرصة في الخريف السابق وفشلوا ، وهم في حاجة الى كسب الثقة في البرلمان ، لذلك بحثوا عن حلفاء لهم في الحزب الوطني الذي كان في حالة تفكك وظهرت عليه احيانا بوادر الانقسام بين مؤيدي العراق بقيادة لطفي الحفار ومعارضيه بقيادة صبري العسلي (٧) . فكان حلف بغداد عاملا أدى الى انشقاق علني في الحزب وأعطى للعظم وللحوراني فرصة عظيمة .

تقرب العظم اولاً الى العسلي ومخائيل ليان مقترحاً إقامة ائتلاف يلغي به اتفاقه مع اكرم الحوراني ، وعندما تحول الاقتراح الى تحالف ، ألح العظم على شريكيه بان يقبلا الحوراني فيه « لانقاذه من يد الشيوعيين » . وحين فضح أمر الحلف بين العسلي وليان من جهة والحوراني والعظم من جهة اخرى ، انسحب لطفي الحفار وأعضاء بارزون آخرون من الحزب الوطني كما انسحب وزيران من الحزب الوطني ومن الحكومة ، وهما فاخر الكيالي وبدوي الجبل ، وهذا ما اودى بالائتلاف الذي انشأه فارس الخوري وأجبره على الاستقالة .

وفي ١٠ شباط ذهب العظم والعسلي والحوراني الى الرئيس الاتاسي وأدعوا بأنهم يمثلون الاكثرية في البرلمان وأخبروه بأنهم وضعوا ثقتهم في العسلي لتأليف حكومة جديدة ، وعبثا حاول حزب الشعب ومنير العجلاني بالمستقلين اليميتيين من نوابه ان يمنعوا ظهور التحالف الثلاثي ، ودعموا فارس الخوري الذي مد

(٦) هيئة الاذاعة البريطانية رقم ٥٤١ تاريخ شباط ١٩٥٥

(٧) تذبذب العسلي طويلا بين بغداد من جهة والقاهرة – الرياض من جهة اخرى ، قبل أن ينضم نهائيا الى الجانب المعادي للعراق . وكان مؤيده الرئيسيون عبد الرحمن الكيالي ومخائيل اليان ، لكن مخائيل اليان عاد الى الجانب المؤيد للعراق .
وكان كذلك لطفي الحفار وسهيل الخوري (ابن فارس بك) وبدوي الجبل ونجيب البرازي وصلاح شيخ الأرض الخ ..

يده ثانية الى رئاسة الوزارة دون جدوى، مما اضطر الرئيس الاتاسي الى تكليف العسلي بتشكيل الوزارة التي اعلنت في ١٣ شباط(٨)، وكان خالد العظم ابرز عضو في الحكومة الجديدة باعتباره وزير الخارجية والدفاع معا، وهذا دليل على ان سورية بدأت مرحلة جديدة كما أوضح العظم فيما بعد :

« كان من الواضح بعد سقوط الشيشكلي ان سورية في حاجة الى تجمع سياسي يستطيع ان يقاوم تأثير الاحزاب الموالية للغرب ، وقد بدا لي لفترة انا لا نستطيع أن نستمر في سياستنا الموالية للغرب التي اتبعناها منذ الحرب الثانية ، ولا نستطيع أن نبحث في مكان آخر عن المعونة للدفاع عن مصالحنا العربية ، وشعرنا بأننا نحتاج الى تأييد مجموعة من الدول التي لم يكن لها فكرة سابقة عن قضية فلسطين والتي تستطيع أن تؤيدنا في هيئة الامم .

« وهذا هو السبب الذي جعلنا نشايع الروس ونأخذ من المعسكر الشرقي معونات مادية ومعنوية ضخمة ، لقد استمر تقاربنا مع الشرق حين أصبحت وزيرا للخارجية بعد سقوط حكومة فارس الخوري ، فدعمتنا روسيا بنجدات ضخمة ايام السويس ، لكن هذا لا يعني اننا اعتنقنا العقيدة الشيوعية ، فنحن نفرق بين القضايا الدولية وبين القضايا الاجتماعية والسياسية الداخلية ، نحن لا نتعاون مع الشيوعيين الا على المستوى الدولي ، ان استقلالنا عن الفرنسيين لا يزال حديث العهد ونحن بحاجة الى حلفاء اقوياء ، وعليه فان تقاربنا مع الاتحاد السوفييتي ليس تقاربا في العقيدة ، ونحن نرى أنهم ، رغم ايمانهم بالاشتراكية والملكية المشتركة ، بعيدون عن تطبيق هذا المبدأ على المستوى الدولي .

وبعد انحيازي الى الشرق في القضايا الدولية غدا حلفائي الطبيعيون

(٨) رئيس الوزراء ووزير الداخلية صبري العسلي (الحزب الوطني) وزير الخارجية وقائم باعمال وزير الدفاع خالد العظم (الكتلة الديمقراطية)، الأشغال العامة والمواصلات عبد الباقي نظام الدين (الكتلة الديمقراطية) التربية رئيف الملقي (الكتلة الديمقراطية) ، الزراعة : حامد الخوجة (كتلة العشائر) ، الاقتصاد الوطني فاخر الكيالي (الحزب الوطني) المالية : ليون زمريا (الحزب الوطني) ، العدل مأمون الكزبري (مستقل ، شيشكلي سابق) و زير دولة مكلف بالصحة وهيب الغانم (البعث) .

في الوطن البعث والشيوعيون ، فكلا الجانبين يؤيده العمال والفلاحون ، وكلاهما يريـــد أن يسيطر على الغرف التجارية والجمعيات التعاونية والفلاحية ورأيت ان مهمتي ان احاول التوسط بينهما وان أجمعهما معا » (٩) .

دور مصر :

سرعان ما أدركت مصر دور سورية في معركة حلف بغداد ، فايـــدت حكومة العظم وحلفاءه في كل مراحل استلامها السلطة ، واوكلت امر اكتساب جانب سورية الى خبيري مصر في الشؤون العربية صلاح سالم ومحمـــود رياض ، فأدار سالم الجانب الاعـــلامي من المعركة ، في حين ان محمود رياض استلم دورا الطف في عالم الدبلوماسية ، إذ أضبح سفيراً لمصر في دمشق ، وبتوجيهات من صلاح سالم ركزت صحافة مصر واذاعاتها حملات بلا كلل ولا ملل على حكومة فارس الخوري ، واليكم نموذجا مما اذاعه راديو القاهرة في ٩ شباط نقلا عن (الاهرام) :

« كانت انتهازية وزير خارجية سورية وتردده في مؤتمر القاهرة مـــن أسباب إخفاق المؤتمر الرئيسية في نشر قراراته التي تشجب الاحلاف الاجنبية ، ومن ضمنها حلف نوري — مندريس . »

« وقد دعا هذا الوضع المؤسف الوفود الاخرى الى التردد وسحب موافقتها المبدئية على القرارات ، فاذا كانت التقارير الواردة من سورية صحيحة بأن حزب الشعب الذي ينتسب اليه وزير الخارجية قد شجب موقفه ، واذا كان صحيحا ان لجنة الشؤون الخارجية قد اتهمته بالتخلي عن سياسة سورية المتفق عليها ، واذا كان الرئيس السوري اضطر الى التخلي عن سياسته الحذرة التي اتبعها خلال المؤتمر ، فان لهذا التحول في موقف سورية تأثيرا كبيرا ، اذ ان جميع الدول العربية ، باستثناء العراق ، سيتفقون مع مصر على السياسة الصريحة الحاسمة التي اعلنتها في مؤتمر رؤساء الوزارات ، واذن سيكون من الممكن ان

(٩) خالد العظم للمؤلف ، دمشق ٨ تشرين الثاني ١٩٦٠

نسجل فوز مصر في الجولة الأولى من المعركة التي دخلتها الى جانب الشعب العربي (١٠) »

وفي رسالة من المقدم صلاح سالم الى المؤلف ، ذهب في حماسته أبعد من ذلك فأدعى انه مسؤول مسؤولية مباشرة عن سقوط فارس الخوري :

« حين بدا ان مؤتمر الرؤساء سيفشل ، نشرت سلسلة تصريحات عن الموضوع بأكمله ، وكشفت كل ما قيل ، وقد اذيع ذلك كله مما أثار سخط وعداء الشعب السوري لحكومته . »

« وقد سأل بعض النواب السوريين حكومتهم ما اذا كان ما نشره الصاغ صلاح سالم صحيحا ام كذبا ، فأجاب فيضي الاتاسي ان ذلك حتما كذب صريح ، وفي اليوم نفسه أذاعت محطة القاهرة تسجيلا سريا لخطاب فيضي الاتاسي في المؤتمر ، فعلم كل شخص في سورية ان فيضي الاتاسي كذاب ، مما ادى الى استقالة الحكومة والف صبري العسلي حكومة جديدة (١١) » .

وصل محمود رياض الى سورية في ١٨ حزيران ١٩٥٥ وأعلن ان هدفه دعوة فارس الخوري الى مؤتمر الرؤساء ، ثم أقام كسفير لمصر في سورية حتى اعلان الوحدة بعد سنوات ثلاث ، وهو يعد من ابرز السفراء الناجحين ، لأنه وبحق أحد مهندسي الوحدة بين القطرين . صدف وصوله وسوريا قد تحررت حديثاً من الديكتاتورية العسكرية ، ولم تكن تنظر بارتياح الى الحكم العسكري في مصر ، بل إن محاكمات عبد الناصر لجماعة الاخوان المسلمين خلقت في دمشق مشاعر شديدة العداء للنظام في مصر ، غير ان محمود رياض كرس جهوده لقلب هذه الميول بان شرح للسوريين بأن الاخوان المسلمين في مصر ليسوا مؤمنين بل ارهابيين ، ووزع آلافا من النسخ عن محاكماتهم ، ودعيت عشرات الوفود ، بما فيها اعداء عبد الناصر من حزب الشعب والجمعيات الاسلامية ، الى مصر لترى منجزات الثورة ، وبعد ذلك بعام تمت صفقة الاسلحة التشيكية ، فخطت مصر الخطوة الحاسمة في كسب سورية .

---

(١٠) هيئة الاذاعة البريطانية ، رقم ٥٤٣ ، ١٥ شباط ١٩٥٥

(١١) صلاح سالم للمؤلف ، ١٣ نيسان ١٩٦٠

غير ان المهمة العاجلة لمحمود رياض بين كانون الثاني وشباط ١٩٥٥ ، كانت كما حددها بنفسه، في ان يبعد سورية عن حلف بغداد، وقد قال : «كان ثمة نزعة واضحة وبارزة بين السياسيين القدامى لتوقيع حلف بغداد، ولم يكن سهلا على حكومة سورية الا تفعل ذلك ، وفي عام ١٩٥٤ ، لم تكن سياسة مصر واضحة تماما ، ويصعب التقدير إلى أي مدى كانت تستطيع مصر أن تدعم حكومة او قطرا اختار رفض التيار الذي أقامته العراق والدول الغربية .

« كانت سورية محاطة بحكومات تحبذ جميعها الحلف ، ولبريطانيا قواعد في الاردن والعراق ، في حين ان لبنان وتركيا منحازتان الى الغرب ، أما الحكومة السورية فكانت متوترة الاعصاب ويرجع جزء من ذلك الى فترة المكائد والمؤامرات التي سبقت سقوط الشيشكلي ، والى الفوضى التي تبعته ، فكانت تتلمس طريقها وتنشد سلامتها .

وحتى عام ١٩٥٤ — ١٩٥٥ كانت مصر كماً غير معروف في العالم العربي؛ ولم يكن لحكومة الثورة الا اتصالات جد بسيطة بالحكومات العربية ، ففي السنوات الاولى من الثورة المصرية حاولت قوى كبيرة وعديدة — بما فيها الوفد والاخوان المسلمون وامريكا وبريطانيا — ان تمسك بقيادة الحركة وتجرها لتلائم مصالحها، وأنصار هؤلاء في خارج مصر مصابون بالحيرة فهم لا يعرفون مصدر القوة الحقيقية للنظام المصري ، ولا منهج سياسة عبد الناصر .

« ولكن في ١٩٥٥ أصبحت سياستنا واضحة ، إذ آمنا بأن على العالم العربي ان يحمي استقلاله الكامل قبل ان ينضم الى أية اتفاقية عسكرية مع الدول الاجنبية ، فقد كنا ضعافا جدا ونعلم أن أي ارتباط مع حلف اجنبي سيجعلنا تابعين له . »

« وكانت مهمتي في سورية ان اشرح سياستنا في التضامن العربي ومعاداتنا لحلف بغداد ، فاتصلت بجميع الاحزاب السياسية . وكان طبيعياً ان أجد نفسي على وداد خاص مع البعث لتشابه نظرتينا الى القضايا الخارجية ... (١٢) »

وفي ٢٢ شباط تقدم صبري العسلي ، رئيس الوزراء الجديد ببيان حكومته

---

(١٢) محمود رياض للمؤلف ، القاهرة كانون الثاني ١٩٦١

إلى المجلس النيابي فشجب عقد جميع الاحلاف والمواثيق العسكرية الاجنبية ، وتبنى مخلصا افكار مصر في السياسة الخارجية ، وكان من المقرر ان يناقش بيانه في الرابع والعشرين ، ولكن في الثالث والعشرين وصل عدنان مندريس رئيس الوزراء التركي الى بغداد ، فاتهمت إذاعة القاهرة فورا تركيا بارسال فرقتين الى الحدود السورية ، لممارسة الضغط على المجلس النيابي السوري ، وانكرت انقرة ذلك كليا (لكنها لم تذع انكارها بالعربية إلا في اليوم الثاني بعد ان انتهت مناقشة الحكومة السورية في البرلمان) ، وخلال هذه الحوادث فاز العسلي بالثقة في ليلة ٢٤ شباط ونالت حكومته ٦٦ صوتا ضد ٥٣ وامتناع عضوين عن التصويت (١٣) وفي المساء نفسه وقع نوري ومندريس حلفهما في بغداد ، في حين كان « صوت العرب » يرتفع مجلجلا بالشجب والاستنكار :

« اننا لنأسف ان نذيع ان بلاغاً صدر في بغداد جاء فيه أن تحالفاً بين تركيا والعراق سيبرم الليلة ، وان مجلس الوزراء العراقي قد وافق على المشروع بصيغته النهائية ، وهكذا فان نوري السعيد ، وقد رفض القرار الاجماعي للشعب العربي ، ينضم الى حلف مع الاتراك اعداء العروبة واصدقاء الصهاينة — حلف سيطيح بطموح العراق الى الحرية ، وآمال الفلسطينيين بالعودة ، وآمال العرب في الوحدة والسلامة والمجد ، ان اذاعة صوت العرب التي قاومت هذا الحلف لتعلن للعالم اجمع ان الشعب في العراق ليتبرأ من هذا الحلف ، وان القيود التي وضعت بواسطته على الشعب العراقي النبيل لن تقيد الا نوري السعيد نفسه ، ان الشعب العراقي غير مقيد بهذا الحلف ، فهو لم يوقعه و لن يوقعه ، انه يلعنه ولسوف يمزق هذه القطعة القذرة من الورق ، التي هي حلف نوري — مندريس (١٤) . »

وفي ٢٦ شباط وصل صلاح سالم الى دمشق ليرسخ المكاسب المصرية ، فصرح بأنه ما دامت العراق قد وقعت حلفها مع تركيا فان ميثاق الامن الجماعي العربي لم يعد له وجود ، واقترح بدلا عنه اتحادا فيدراليا بقيادة عسكرية مشتركة

(١٣) هيئة الاذاعة البريطانية رقم ٥٤٧ ، ١ آذار ١٩٥٥

(١٤) اذاعة القاهرة ، ٢٤ شباط ١٩٥٥ (هيئة الاذاعة البريطانية ، رقم ٥٤٧ ١ ايار ١٩٥٥)

وسياسة خارجية موحدة ، وتوحيدا في الأمور الاقتصادية والثقافية ، وستدعى للانضمام اليه جميع الدول العربية ما عدا العراق ، وقدم صلاح سالم نسخة من هذه الاقتراحات الى سورية ، لكنه قوبل بشيء من الشك ، وخاصة من وزراء الحزب الوطني ، ورئيس الوزراء الذي اعتقد ان هذه خطوة كبيرة ، واليكم ما يرويه بنفسه عن هذه الحوادث في رسالة خاصة للمؤلف :

« حدث عندئذ حادث هام جدا : ففي ٢٨ شباط قامت اسرائيل بعدوان على قطاع غزة استخدمت فيه الدبابات والطائرات فقتلت عشرات من الجنود المصريين وألحقت بالممتلكات خسائر فادحة . وقد هاجمني بضراوة السوريون المؤيدون للعراق والمعارضون لسياستنا ولا سيما حزب الشعب وقالوا بلـؤم : « جئت لتساعد سورية في الدفاع عن نفسها ، وبما كان من الافضل لك ان تنظر في أمر الدفاع عن بلادك اولا ، فأجبتهم ببساطة انه اذا كنا ضعافا كل لوحده فسنغدو اقوى باتحادنا .

واستخدمت كل سلاح دعاوي لاقناعهم ؛ وفي الأول من اذار نظم الجيش السوري اجتماعا كبيرا في دمشق ، وحشد رئيس الاركـان شوكت شقير ونائبه عدنان المالكي عددا كبيرا من الضباط والسياسيين ، ومن ذلك الاجتماع اعلن ان سورية قد وافقت على اقامة حلف كامل مـع مصر وعلى توحيد الجيشين وفي اليوم التالي وقعت أنا وصبري العسلي الاتفاقية ، وقد نصت الفقرة الاولى على معارضة حكومتينا للحلف العراقي التركي وجميع الاحلاف الاخرى ، وأعقب ذلك تحضير للقيادة المشتركة والتعاون الاقتصادي .

«وكان الدور الاول في هذه المفاوضات للعظم وليس للعسلي ، فقد كان العظم بالتعاون مع شقير والمالكي هو الذي أملى الاتفاقية (١٥) » .

ثم زار خالد العظم وصلاح سالم عمان في الثالث من آذار والرياض فـي الرابع والخامس وبيروت في السادس منه ليحصلوا على موافقة هذه الحكومات على حلفهم الجديد ، وكما هو متوقع ، عبرت حكومتا الاردن ولبنان عن تحفظ كبير وطلبتا مزيدا من الوقت لدراسة الاقتراحات ، غير ان السعودية اضافت ـ

---

(١٥) صلاح سالم للمؤلف ، ١٣ نيسان ١٩٦٠

توقيعها ، ويقول الصاغ صلاح سالم « عدت الى القاهرة في ٧ آذار وانا مقتنع بأننا ربحنا المعركة من اجل سورية ونجحنا في تجميد حلف بغداد » (١٦) وبعد شهر ترأست اجتماعا لكتابة نص الاتفاقية السورية — السعودية — المصرية ، ولكن بالرغم مما أعلن في ١٩ آذار من ان مسودة قد وضعت ، فان شيئاً لم ينشر ، فقد سلمت مسودة المشروع في الثلاثين الى الوفدين السوري والسعودي، غير أن المؤتمر انفض في ٢ نيسان وقرر ان يتابع المفاوضات بالطرق الديبلوماسية وجرت اتصالات في اجنحة مؤتمر باندونغ ، ولكن لم يتوصل إلى أي اتفاق نهائي رغم ان الصحف المصرية ذكرت ان ذلك غدا وشيكا .

ان حلف آذار ١٩٥٥ بين مصر والسعودية وسورية لم يكن ذا تأثير عسكري ولا نفع اقتصادي ، ولكن هذا المقياس غير ملائم للحكم على الاتفاقية ، فهي ليست أكثر من انقلاب ديبلوماسي ، اقتنعت به الاطراف المعنية ونفذته لتجابه تحدي نوري السعيد، وقد سبق أن سلك الملك فاروق السلوك نفسه لينقذ حسني الزعيم من الهاشميين في نيسان من عام ١٩٤٩ . فقد كان مبرر وجوده بالنسبة للرياض والقاهرة منع سورية من السقوط في دائرة النفوذ العراقي ، ولكنه يمثل ايضا اول تدخل لمجلس الثورة خارج وادي النيل منذ الثورة المصرية ، وأول نجاح لسياستها العربية .

لقد بشر عبد الناصر بالقومية العربية منذ ١٩٥٤ ، وعنى بها تضامن العرب في تأييد سياسة مصر في الاستقلال عن الدول الكبرى وتصميمها على ان تجعل من العرب قوة يحسب لها حساب على الصعيد العالمي ، هذه السياسة مست وترا حساسا عند انصار الحياد في سورية ، وان عرّت مضمون العروبة من المعاني التي استعمله بها البعث وبقية القوميين العرب ، فعندما يتحدث البعث عن الوحدة العربية يرى فيها رابطة عضوية ، ومزيجا متجددا تولد فيه الامة العربية من جديد ، وجبهة عربية موحدة في القضايا الخارجية ليست الا جزءا من آمالهم الطموحة في ازالة الحدود، في حين ان حلف بغداد جمع بين مصر والبعث ، فكان ايضا بداية سوء فهم طويل بينهما حول معنى الوحدة

(١٦) المصدر السابق .

ـ وهو حوار ذو مقاصد متضاربة ـ لم توضحه الا التجربة المرة للوحدة بين القطرين، وقدر لهذه الصلة ان تنتهي بخيبة امـل تامة للسوريين ، والحقيقة الواضحة هي ان مصر لم تكن مستعدة لصلة أكثر من تنسيق السياسة الخارجية ، وهي سياستها التقليدية التي تنشدها ، وعروبتها ـ بمعنى الشعور مع غيرها من العرب ـ كان لا يزال أمراً سطحياً تاماً .

وثمة اشارة الى هذه الصعوبات في كتابات ميشيل عفلق عن اول حوار للبعث مع المصريين بين شباط واذار من عام ١٩٥٥ :

« كان لنا يد في تحضير مسودة مشروع الحلف المصري ـ السوري ـ السعودي ، وقد اعتبرناه الخطوة الاولى نحو اتحاد فيدرالي للاقطار الثلاثة ، غير ان الحلف بقي حبرا على ورق ، فقد تعثر في مناقشات لا نهاية لها امتدت شهورا عديدة ودارت حول ميزانية الدفاع المشترك وهيئة الاركان العامة ، واحتجت مصر بأنها فقيرة ولا تستطيع ان تدفع ، بينما كانت العربية السعودية مستعدة للدفع ، لكنها ترفض ان تتخلى عن سيادتها، لقد لزم جميع الاطراف الصمت حين بحثت مسألة التنسيق الاقتصادي .

وبدا وكأن البعث وحده كان جاداً ، وكانت هذه المباحثات الاتصـال الأول بين البعث والمصريين ، ولم تكن البداية مشجعة.، فقد كان المصريون متحفظين الى أبعد الحدود يرفضون ان يتخطوا حدود وطنهم المعروفة ، غير اننا لم نستسلم لليأس ، إذ أخذنا بعين الاعتبار حداثة المصريين في حركة القومية العربية ، وشجعناهم نتيجة لذلك على أن يندمجوا تماماً ببقية العالم العربي (١٧)

كانت نظرة مصر الى الوحدة العربية بسيطة ومعقولة ، ولقد أعلنهـا مرارا عبد الناصر ، ولكنها لم تكن بمثل الوضوح الذي عرضه اثناء مقابلـة أجرتها معه صحيفة نيويورك تايمز بعد بضع سنوات ، حين كان يصـارع مشكلة الدمج « التي كان البعث من بين القوى التي اقنعته بها : »

كلما اتحدت الاقطار العربية قويت وكان بمقدورها ان تواجه العدوان وتوقفه ... وكلما تخلى العرب عن وحدتهم غدوا هدفاً للسيطرة الاجنبية ، ان

---

(١٧) ميشيل عفلق للمؤلف ، بيروت ١٣ كانون الثاني ١٩٦١

معنى هذا واضح: فلكي نحمي البلاد العربية يجب ان ننشيء جبهة عربية واحدة، وبتحديد أدق ، يجب أن تستقل جميع الاقطار العربية وان تتخلص من النفوذ الاجنبي الذي يجزئها كي يحول أنظارها ، هذا شيء ، والاعتبارات الدستورية شيء آخر ، وفي الحقيقة فقد دهشنا حين توجب علينا ان نعالج الاعتبارات الدستورية اولا ، عندما قامت الوحدة بين قطري الجمهورية العربية المتحدة... وأكرر ثانية ان هذا لا يستوجب بالضرورة ان تعني الوحدة العربية اندماج الاقطار العربية جميعها في دولة واحدة . ان ما يهمني هو خلق تضامن عربي ونضال عربي موحد بسبب وحدة المصير والمستقبل العربيين ، ان أهم شيء على الاطلاق هو ان هذا التضامن يجب ان يسود الاقطار العربية في كل الظروف» (١٨) .

بريطانيا تنضم الى الحلف :

عندما انضمت بريطانيا الى حلف بغداد في نيسان ١٩٥٥ (١٩) لم يكن قد تبقى الا القليل من الخطة الكبرى التي وضعها نوري السعيد لربط اتفاقية الامن العربي الجماعي بتركيا والغرب ، فقد كانت معارضة مصر لا تلين ، كما أن المعركة من اجل سورية تم خسرانها ، وانتقل مركز الثقل في السياسة العربية الى القاهرة . ولم تعد تخطر على بال احد الآمال المتعلقة بالحلف اوأن يقبله العرب بزعامة نوري السعيد واشراف بريطانيا ، واذن فلماذا اصرت لندن على بما يعتبر قضية خاسرة ؟ غالبا ما قيل ان بريطانيا لو تحققت من ان سمعة عبد الناصر القومية هي أكثر الدعوات شعبية في العالم العربي ، لسعت الى تدارك هذا الانهيار في نفوذها المحلي ، الذي ميز السنوات الاربع بين حلف بغداد وثورة العراق عام ١٩٥٨ . ولكن هل كان باستطاعة بريطانيا ان تفعل غير ذلك ؟

(١٨) خطب الرئيس جمال عبد الناصر وتصريحاته ١٩٥٩ صفحات ٥٩٤ - ٥٩٥

(١٩) وقعت اتفاقية خاصة بين العراق وبريطانيا في ٤ نيسان ١٩٥٥ ، وقد حلت محل الاتفاقية السابقة التي عقدت في ٣٠ حزيران ١٩٣٠ بين الدولتين ، وقد تضمنت الاتفاقية الجديدة انضمام بريطانيا الى حلف بغداد .

إن المسودة الأولى للحلف خطت في لندن خلال زيارة نوري السعيد في ايلول ١٩٥٤ ، واتخذ القرار بتنفيذه بعد توقيع الاتفاقية الانكليزية – المصرية بشهر واحد ، فقد كان انطوني ناتنغ يمثل بريطانيا في المراحل النهائية من المفاوضات ، حين سبر عبد الناصر وجس نبضه حول موقفه من الحلف المقترح ويعتقد بأن الزعيم المصري أجاب آنذاك أنه سيبقى « محايداً » ، موضحاً ولا ريب صعوبة استمالته للانضمام الى الحلف ، ولكن قد يكون كلامه فسر خطأ بأنه لن يشجب نظاماً دفاعياً اذا جرت محاولات لاقامته، ومن المؤكد ان الحكومة البريطانية ظهرت مؤخرا بمظهر المشدوه من عنف الهجوم المصري على حلف بغداد، وانها رددت شكواها في البيت الابيض من ان عبد الناصر قد تراجع عن كلمته ، غير ان الارتباك لم يقتصر على جانب واحد ، فعبد الناصر بدوره تظلم من ان بريطانيا والولايات المتحدة قد خرقتا « اتفاقية الجنتلمان » مع مصر التي تصورت أن عليها قيادة حلف دفاعي عربي صرف (٢٠) .

وقد يكون سوء الفهم المتبادل ، مع مظاهر الود الخداعة التي أعقبت توقيع الاتفاقية الانكلو – مصرية ، قد أعمت المسؤولين البريطانيين عن طبيعة الخيار الذي اختاروه في تشجيع حلف بغداد ، وربما كان هناك بعض الميل الى التفكير بأن في استطاعة بريطانيا ان تتجنب الانحياز الى احد الجوانب في الخلافات العربية الداخلية – أي أن دعمها للعراق لا يعني بالضرورة عداء مصر –، وأنه في النهاية قد تقنع مصر بالدخول فيه ، وفي اللحظة التي تمت فيها الموافقة على هذه السياسة ووضعت عناصرها رهن التنفيذ ، بات من الصعب قلبها او التراجع عنها ، فالدول الكبرى لا تستطيع تغيير اتجاهها بين ليلة وضحاها : اذ يجب ان توضع في الميزان مصالح متضاربة عديدة وان تراعى اعتبارات شركاء دوليين .

وفي البدء قابل ايدن عبد الناصر في القاهرة يوم ٢١ شباط ١٩٥٥ ، أي قبل توقيع الحلف بثلاثة أيام ، وأمضى وزير الخارجية وبصحبته الفيلد مارشال السير جون هاردينغ ليلة في القاهرة وهو في طريقه الى اجتماع (حلف جنوب

---

(٢٠) صحيفة نيويورك تايمز ، ٤ نيسان ١٩٥٥

شرقي آسيا) في بانكوك ، وحضر عبد الناصر حفلة العشاء في السفارة . وكتب ايدن :

قدم السير جون تقييما استراتيجيا ممتازا للوضع ، ووافق عليه عبد الناصر موافقة تامة ، وأعلن عبد الناصر ان مصالحه وعواطفه مع الغرب ، لكنه احتج بان الحلف التركي العراقي ، بتوقيته السيء ومحتواه المشؤوم قد اخر تأخيرا خطيرا تطور التعاون الفعال بين الدول العربية والغرب .

ولم تكن هذه الحجة جديدة علي ، فالتوقيت دائما سيء بالنسبة للبعض ، واستخدمنا كل حجة نستطيعها كي لقنع عبد الناصر بان يكبح انتقاداته على الاقل ، وان يوقف معارضته اذا بدا له الامر معقولا ، ولا اظن اننا أثرنا عليه ، وكان عبد الناصر ذو المظهر اللطيف ، ودودا معنا طيلة المحادثات ، وقد كرر الاشارة الى التحسن الكبير في العلاقات الانكلو – مصرية ، والى الأهمية التي تعلقها حكومته على هذا التحسن ، والى آماله في أن يستمر ذلك مستقبلاً ، ومهما يكن من أمر فان عبد الناصر لم يكن مستعدا للاقتناع بالمشروع التركي – العراقي ، وقد علقت على هذا في تقريري الى لندن آنذاك قائلا : « لا ريب في أن الحسد يلعب دوره في هذا ، مع رغبة محمومة في قيادة العالم العربي » . وقبل ان تبدأ المحادثات أخذنا صوراً تذكارية بدا فيها ممسكاً يدي شاداً عليها (٢١) .

وهذا النص ، بما يخفيه من حنق وغضب ، يمكن ان يستشهد به ضد توقعات ايدن خلال اجتماعاته في بغداد حيث توقف ليلة هناك في طريق عودته الى لندن :

وجدت في حديثي مع نوري السعيد ان الخطط لاتفاقية دفاعية جديدة بيننا ، مع انتسابنا الى حلف بغداد ، قد تقدمت تقدما حسنا ، تناولنا العشاء ، زوجتي وأنا ، مع الملك فيصل تلك الليلة بحضور ولي العهد ورئيس الوزراء ، كانت أمسية حلوة تحدثنا فيها بعد قليل عن المشروع التجريبي للاتفاقية الجديدة التي وضعها رئيس الوزراء ، ورأيت اننا لم نختلف الا في بعض التفاصيل .

كان على مائدة العشاء ذلك المساء بعض ازهار التاج ، وقد عرفت أن

---

(٢١) مذكرات ايدن ، القسم الثالث ، صفحة ٢٢١ .

الملك قد تمتع بسنوات دراسته في كلية هارو ، فسألته ان كانت هذه الازهار توحي بالذكرى، فأعطاني واحــدة و هو يبتسم وسألني ان أقدمها الى جامعي قديم من كلية هارو ، هو السير ونستون تشرشل . فتقبلتها شاكرا (٢٢) .

الثقة ، الولاء ، المصالح المتبادلة ، الدعم الطويل المألوف الذي يربــط بريطانيا الى نوري السعيد والاسرة المالكة العراقية ... كل ذلك لا يمكن ان يوضع على الرف لكي تبعث بريطانيا السرور في نفس ضابط شاب في القاهرة ، ومن المؤكد ان ايدن شعر بنوع من الالتزام الادبي تجاه نوري السعيد الذي تخلى عن حلف الحزام الشمالي الذي اقترحته امريكا لصالح مشروع خطــط خصيصا لحماية المصالح البريطانية في العالم العربي ، وعلى هذا فليس من المعقول ان يوضع حياد مصر — الذي لا يعدو ان يكون هياجا — فوق التحالف العراقي ، ولا ان تفكر حكومة من المحافظين في بريطانيا ان تبتعد عن العراق ، في حين ما تزال بريطانيا مشغولة في اخضاع ثورة ضد سياستها الفاشلة في مصر بين صفوف مؤيديها في بريطانيا نفسها .

فاذا كانت هذه هي بعض الاعتبارات العامة التي جذبت بريطانيا الى حلف بغداد ، فان اسبابا عاجلة ، فرضت على بريطانيا موقفها ، وهذه الاسبــاب هي الفوائد العسكرية التي تجنيها من الحلف وتزايد أهمية زيت الخليج العربي ، ان قيمة الاتفاق الخاص مع العراق في ٤ نيسان ١٩٥٥ حين انضمت بريطانيا الى حلف بغداد ، هي أنه جاء بديلاً عن المعاهدة الانكليزية — العراقية التي كانت تهاجم مهاجمة شديدة في العراق ، والتي كانت ستنتهي عام ١٩٥٧ ، فقد أكد الاتفاق الجديد التسهيلات الممنوحة لبريطانيا في الطيران فوق الأراضي العراقية والهبوط في الموانئ الجوية العراقية وخدمة الطيران البريطاني ، بالرغم من ان المطارات انتقلت الى سيادة الحكومة العراقية ، « ففي احتفال خاص في العراق ، جلت طائرات السلاح الجوي الملكي البريطاني عن قاعدة الحبانيــة بموجب تعديلات المعاهدة الانجليزية — العراقية . واقلعت الطائرات المقاتلــة باتجاه قبرص ثم حولت اتجاهها في الجو وعادت ثانية الى مطار الحبانية ، بموجب

---

(٢٢) المصدر السابق ، ص ٢٢٢ .

اتفاقية حلف بغداد (٢٣) » . لذلك فان تأثير هذه الاجراءات كان قانونيا اكثر منه عمليا (٢٤) .

ومن المحتمل ان تكون الحجج العسكرية قد احتلت مركزا مبالغا في أهميته بالنسبة لتوجيه السياسة البريطانية في ذلك الحين ، مما أدى الى اهمال الموقف العربي ، ومن المحتمل ايضا ان الحكومة البريطانية كانت شديدة الحساسية بقوة سياسة الحياد واغرائها ، وهي السياسة التي كانت تبشر بالحياد منذ عام سابق ، ولم يشر ايدن في روايته عن اجتماعه بعبد الناصر إلى أن هذا قد واجهه بكثير من المعارضة الهائجة ، وليس فيه ما يوحي بان الدول الاسيوية الافريقية غير المنحازة كانت تنهمك في تحضير لقائها الاول في باندونغ ، او ان كلا من نهرو وتيتو تشاورا مع عبد الناصر ودعما سياسته علناً قبل أيام من وصول ايدن الى القاهرة ، غير ان هذه الملامح كانت تبدو أقل أهمية في ذلك الوقت من الحاجة الى تأكيد قوة الموقف البريطاني في العراق .

ان الاهمية المتزايدة لزيت الخليج العربي بالنسبة لاوربا الغربية جعلت للمناقشات العسكرية وزنا كبيرا : فلا اقل من ثلاثة ارباع احتياجات اوربا الى البترول تأتي من هذا المصدر ، وتبلغ أهميته اقصى الدرجات اذا تذكرنا بان حسابات ذلك العصر نصت على ان الشرق الاوسط يحوى ثلثي احتياطي بترول العالم الثابت . فاذا رجعنا بذاكرتنا الى المثال الايراني ، لتنبهنا الى حد كبير الى مدى احتمال وجود التأثيرات الهدامة في نفوذ الدعوات القومية والشيوعية ، وفي الحقيقة فان العراق ومنطقة الخليج العربي بأكملها وخطوط البترول بين الخليج العربي والبحر المتوسط قد غدت منطقة استراتيجية حيوية للحلف الغربي ، وقد كانت أهمية المصالح الاقتصادية المرتبطة بالزيت بالغة الخطورة الى حد ان بريطانيا كانت مستعدة لمخاطرات سياسية عديدة لتدافع عنها .

غير ان بريطانيا بعد انضمامها الى حلف بغداد وجدت نفسها تجاه لعبة شد الحبل العربية حول سورية ، ففي أقل من عام تخلت عن حيادها السابق تجاه

---

(٢٣) ارسلان همبراشي ، اتهام الشرق الاوسط (١٩٥٨) صفحة ١٨٩

(٢٤) التقرير السنوي للمعهد الملكي للشؤون الدولية ، ١٩٥٥ — ١٩٥٦ صفحة ٢٨

مشروع اتحاد الهلال الخصيب ، وشاركت العراق مؤامراته لتستعيد زمام المبادرة في سورية . ولم يشر الى هذه الفكرة بهذه العبارات طبعا ، وانما اشير اليها تحت اسم تقوية حلف بغداد بتأمين عضوية سورية فيه ، او باسم انقاذ سورية من النفوذ المصري او التدخل الشيوعي ، ولكن في عقل ولي عهد العراق ، مثلا ، لم يكن ذلك يعني سوى حلقة جديدة في مسعى مستمر ، وقد انخرطت بريطانيا في هذه الخطط بسهولة بالغة وكأنما لم يكن عليها ان تراعي شكوك الخصوم الرئيسيين لاتحاد الهلال الخصيب ، فانتهى بذلك جيل من الصداقة التقليدية بين بريطانيا والعربية السعودية بتولي الملك سعود السلطة وبنشوب نزاع على واحة البريمي قرب حدود غير محددة المعالم في جنوب شرقي الجزيرة العربية ، وحين عارضت فرنسا حلف بغداد اضعفت في نظر بريطانيا دعواها في امتيازات خاصة في سورية ، كما ان مكاسب المصريين السريعة في ذلك القطر اسقطت تلك الدعاوي وحولتها إلى هراء ، وفي أثناء ذلك تحول هياج عبد الناصر الى عداء صريح عبر ضجيج اذاعة القاهرة التي لا تكل ليس ضد حلف بغداد فحسب ، بل ضد جميع بقايا النفوذ البريطاني في الشرق الاوسط وافريقيا (٢٥). ويضارع هذه العوامل أهمية في استثارة اهتمامات الغرب بسورية الدليل المتزايد على نجاح السوفيت فيها .

المكاسب السوفيتية :

كان حلف جنوب شرقي آسيا وحلف بغداد اقل نجاحا في لجم القوى الشيوعية منهما في دفعها الى القيام بهجوم معاكس ، ومثلما أكد تأسيس حلف جنوب شرقي آسيا للصين شكوكها بالغرب ، وأزال القليل من الثقة المكتسبة بعد وقف اطلاق النار في الهند الصينية ، كذلك فان خطط الغرب الدفاعية في الشرق الاوسط أيقظت اهتمام السوفييت بالمنطقة ، وفي أواسط اربعينيات

(٢٥) ان بث اذاعة القاهرة باللغة السواحيلية ابتداء من تموز ١٩٥٤ ليؤخذ أكثر من أي عامل آخر ، دليلا على شك عبد الناصر المبكر وارتيابه بها .

هذا القرن ، أي بين ١٩٤٤ و ١٩٤٧ ، غير انه اجبر على التراجع عن المضايق ، وعن شرقي البحر المتوسط ، ثم عن الخليج العربي ، بفضل اجراءات حازمة اتخذتها بريطانيا اولا والولايات المتحدة ثانيا (٢٦) .

وقد صحب الحملة السوفيتية تشجيع الاحزاب الشيوعية المحلية ، وتغطية دعاوية غير موجهة فقط الى الوجود البريطاني بل الى الجامعة العربية والزعماء الوطنيين غير الماركسيين في المنطقة ، وقد استغل الدين في محاولات رص الجاليات الارثوذكسية والارمنية في الشرق وراء القضية الروسية ، غير ان هذه السياسة لم تنجح : فقد كانت نتيجتها دخول الولايات المتحدة الى المنطقة بالقوة ، واثارة عداء الحكومات العربية ومخاوف البورجوازية العربية ذات الاتجاه القومي ، وتحويل قوة اجهزة الامن بكاملها ضد الاحزاب الشيوعية الناضجة سواء في العراق او ايران او مصر .

وكان واضحاً ان التفكير السوفييتي في المنطقة بحاجة الى تقييم عام ، لكن ذلك تأخر الى أوائل الخمسينيات ، فقد تلاشى التقسيم القديم الذي قسمت الحرب الباردة العالم بموجبه الى معسكرين متناقضين « اشتراكي » و « رأسمالي » ، وقد خططت الهند ودول آسيوية عديدة سياستها نحو طريق ثالث بين المعسكرين المتحاربين ، في حين بدأ الاتحاد السوفيتي وحلفاؤه يخرجون من عزلتهم الدولية ويقومون بجس نبض الدول التي لم تشترك في الحرب الباردة .

وقد مهد النظريون الروس طريق هذا التقارب بتفحص دور البورجوازية الوطنية في آسيا والشرق الاوسط وافريقيا بشكل أكثر تسامحاً ، ولتأريخ هذا التقييم يشير الخبراء احيانا إلى تقرير قديم للبروفسور أ . أبوتخين عام ١٩٤٩ ذكر فيه :

« ان البورجوازية الوطنية والمثقفين القوميين هم الذين يقومون بالدور القيادي في حركات التحرير الوطنية في معظم أقطار افريقيا الجنوبية الاستوائية (٢٧) . وقد لعب هذا النهج من التفكير دورا متزايدا خلال المؤتمر التاسع عشر

(٢٦) راجع مقال فرنسوا لوران « الاتحاد السوفيتي والشرق الاوسط » في صحيفة الاوريان ٢ نيسان ١٩٥٧

(٢٧) مقتبسة من كتاب الاتحاد السوفيتي وافريقيا ، بقلم دافيد موريسون (لندن ١٩٦٤) صفحة ٣

للحزب الشيوعي السوفيتي في ايلول ١٩٥٢ ، حين اعلن مالينكوف حق الشعوب في اختيار ايديولوجيتها الخاصة ، ووجه نداء للتعاطف مع الحكومات التي « تتبع سياسة سلمية مستقلة » .

وعلى كل فان الحوادث قد توالت لمصلحة روسيا ، فالبلاد التي استقلت حديثا في آسيا والشرق الاوسط كانت شديدة الثقة بنفسها ، ولذلك اصطدمت بمستشاريها الغربيين السابقين ، وكان هاماً لموسكو أن تتفق وتنسجم مع هذه العاطفة الجديدة الحيوية المعادية للاستعمار حتى و لو كانت غير شيوعية .

وفي الشرق الاوسط خاصة مكاسب كبرى يمكن ان يستحوذ عليها من اندفع في استثمار اخطاء الغرب ، ففي العشر سنوات السابقة جعل الغرب نفسه حليفا لا يستسيغه العرب وقد غدا غير مقبول حتى كحليف ضد التهديد العسكري السوفيتي ، ولم تكن هناك أية تسوية ممكنة مع جيل ما بعد الحرب من العرب القوميين الراديكاليين : فقد كانوا يتهمون الدول الغربية بخلق اسرائيل والاستمرار في مساعدتها وبعدم الرغبة في الوصول الى حل يرضي العرب او بالعجز عن ايجاد هذا الحل وباستمرار وجودها العسكري والسياسي في اجزاء عديدة من العالم العربي وبالاستمرار في مساندة الانظمة الرجعية في أوطانهم ، وهكذا بدا للعديد من العرب ان الغرب هو العقبة الرئيسية ضد استقلالهم ووحدتهم واصلاح مجتمعهم ، لذلك رأوا ان حلفا دفاعيا ضد روسيا مباشرة ، حسب اصرار الغرب في تصريحاته المتتابعة ، سوف يبعدهم عن معركتهم ضد اسرائيل ويعيد اليهم من جديد الاستعمار مقنعا ، وتحت ضغط الغرب عليهم بالانضمام للحلف ، تراجعوا الى فكرة الحياد .

وعندما شجب الغرب الحياد كعمل « غير اخلاقي » رحبت روسيا به على انه دلالة صداقة ، ولقد رأى القادة السوفييت بوضوح ان حياد العرب كان كافيا لاحباط الخطط الدفاعية الغربية ، ما دام الغرب يتطلع الى مشاركة فعالة من العرب ، ولم يكن السوفييت بحاجة الا الى خطوة صغيرة من جانبهم كي يرفعوا قادة البورجوازية الوطنية العربية الى مركز حلفاء مرموقين في معسكر النضال ضد الامبريالية ، ولكي تتشجع الاحزاب الشيوعية العربية

المحلية عام ١٩٥٤ للتعاون مع اولئك القادة في تأليف « جبهات وطنية » ، ويعكس ترحيب روسيا ، الأهمية التي يعلقها السوفييت على هذا الحلف بين الشيوعيين والوطنيين في نضالهم المشترك ضد الغرب . انعقاد مؤتمر باندونغ في نيسان ١٩٥٥

وهكذا كان الطريق ممهداً لتقارب العرب والروس ، وقد عجل بـــه حلف بغداد والمناقشات الدفاعية التي سبقته ، اذ اضطر الروس الى انتهاج خطة هجومية معاكسة بسبب التهديد العسكري القائم على حدودهم الجنوبية ، في حين ان الحلف قسم الصف العربي حين اجبر العرب على ان يختاروا اختيارا حاسما بين ان يكونوا مع الغرب او ضده ، لذلك فضلوا روسيا مع حلفـــاء طبيعيين من بين الذين كانوا يرغبون في عدم الانحياز . وقد مهدت روسيـــا لذلك بحملات اعلامية ، وامدادات دفاعية ودعم سياسي ومساعدات اقتصادية .

كانت مصر في طليعة تلك الدول التي استفادت منها ، فقد أرست صفقة الاسلحة التشيكية في خريف ١٩٥٥ أسس الصداقة التي أصبحت نموذجا تحتذيه روسيا في علاقاتها مع الدول الاسيوية والافريقية ، وبعد صفقة الاسلحة فقط بدأت روسيا تدعم الوحدة العربية التي شجبتها منذ عام ١٩٤٧ على انها اداة بيد السياسة الاستعمارية والكاتب السوفييتي ل . كاتولينا الذي كان يتحدث عن الجامعة العربية بتحفظ ، أعاد لها اعتبارها بمقالة مدهشة في عام ١٩٥٥ بعنوان « نمو الوعي الوطني عند الشعب العربي » (٢٨) . واعترف السوفييت اخيرا بالقومية العربية كحركة وطنية أصيلة صادرة عن الشعب ، وقد منحت هذه التطورات تصديقاً نظرياً في المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي السوفياتي عام ١٩٥٦ ، وكما ذكر داقيد موريسون ، فان المؤتمر « اعترف اعترافا حزبيا بالحقيقة التي انجزتها الدبلوماسية السوفياتية في عامين » (٢٩). وقد نشر الحزب الشيوعي السوري عام ١٩٥٦ بيانا ، كان برهانا على الخط الجديد ، وصف فيه الوحدة العربية كحركة تاريخية

---

(٢٨) ا . ر . س . بولتون : دراسات الشرق الاوسط السوفيتية (المعهد الملكي للشؤون الدولية ، ١٩٥٩) صفحة ٢ الفصل الثالث .

(٢٩) موريسون ، صفحة ٨ .

وتقدمية ، وانها نتاج شروط موضوعية وليست نتيجة حزب او فرد (٣٠) .

واسترعت سورية اهتمام السوفييت منذ سقوط الشيشكلي في اوائل ١٩٥٤ ، وكان الهدف الرئيسي للاذاعات السوفيتية آنئذ ان تمنع أي تحرك نحو تجمعات الدفاع التي يرعاها الغرب (٣١) . وقد اتخذ سقوط الشيشكلي ونتائج الانتخابات النيابية برهانا على العداء القوي المتزايد الواسع الانتشار ضد أي حلف من هذه الاحلاف ، فقد قيل ان الانتخابات قد بينت رفض الشعب غير المشروط للمعاهدات الاستعمارية ، وقد رأى راديو موسكو الوضع الدولي في سورية على انه صراع بين مؤيدي الارتباط العسكري بالغرب ومعارضيهم ، وأعطيت شعبية خاصة لانتخاب الزعيم الشيوعي خالد بكداش عضوا في مجلس النواب ، في حين أنهم رأوا في نجاح خالد العظم وأكرم الحوراني ، جزءا من النجاح الذي تلاقيه « الجبهة الوطنية التقدمية الواسعة » .

وقد تحدت سورية احتكار الغرب للسلاح في الشرق الاوسط ، حتى قبل ان تفعل ذلك مصر ، بتوقيع اتفاقية صغيرة مع الشرق عام ١٩٥٤ ، فقد روى اللواء شوكت شقير رئيس الاركان السوري ذلك الوقت انه (٣٢) كان ينتظر عددا من الدبابات الالمانية (مارك ٤) وقال في رسالة الى المؤلف :

« اشترينا احدى عشرة دبابة من طراز (مارك ٤) من فرنسا وأردت ان أرفعها الى اربعين ، وقد علمت ان بعضها ارسل الى براغ من المانيا لتستعملها القوات التشيكية وبأنها لا تزال في صناديقها، تفاوضنا مع التشيك وأشتريناها بمبلغ زهيد ، وأستأجرنا سفينة ايطالية لنستلم الصناديق الضخمة في ميناء بيروت ، وفي آخر عملية استلام شكت الحكومة اللبنانية بمحتويات الصناديق فدبرت عملية اسقطت فيها بعض الصناديق من الشحنة الاخيرة ، ليبرز جانب من الدبابة الضخمة ، وحين اشترينا الدبابات الروسية ت ٥٤ من الشرق في

---

(٣٠) وجد البحث في هذه الفقرة هجوما خفيا على ادعائه ، لكنه اعترف بان هذا الموقف تقدم محسوس يختلف عن المواقف السابقة للحزب الشيوعي .

(٣١) راجع تحليل اذعات موسكو عن سورية، هيئة الاذاعة البريطانية رقم ١١،٥٣٣ ك ٢ ٩٥٥ .

(٣٢) شوكت شقير للمؤلف . بيروت ١٨ كانون الاول ١٩٦٠ .

١٩٥٥ دبرنا أمر استلامها من ميناثنا في اللاذقية ، وتدحرجت الاسلحة الضخمة عبر القرى السورية خلال تصفيق الفلاحين وابتهاجهم (٣٣) » .

غير ان الاتحاد السوفيتي لم ينل ما يمكن اعتباره نصره الاول العظيم على الصعيد الدبلوماسي في العالم العربي الا حين أعلنت روسيا حمايتها لسورية فنالت بذلك شعبية عظيمة ايام تولي خالد العظم وزارة الخارجية السورية خلال الازمة حول حلف بغداد في شباط عام ١٩٥٥ ، وكان رد فعل تركيا والعراق حول انباء الحلف المصري – السوري – السعودي مذكرات تضمنت تهديدات وسباباً وجهتهما الدولتان الى سورية، وحشدتا في ٢٠ اذار قوات ودبابات على حدود سورية، وفي ٢٢ آذار احتجت الحكومة السورية على «مذكرتين قاسيتين» من تركيا « لا تأخذان بعين الاعتبار حقوق سورية الطبيعية وسيادتها على أراضيها ، بحيث تتبع السياسة التي تمليها عليها مصلحتها القومية » . آنئذ تدخل الاتحاد السوفيتي ، ففي ٢٣ آذار أعلم مولوتوف وزير الخارجية السوفيتي ، سفير سورية في موسكو الدكتور فريد الخاني « ان الاتحاد السوفيتي يؤيد موقف سورية ويرغب في تقديم جميع انواع المساعدات اليها بهدف حماية استقلالها وسيادتها (٣٤) . ونشرت ضمانات مولوتوف في الصحف بعناوين بارزة ، وأعلنتها اذاعة صوت العرب بصخب وعنف (٣٥) واذاع راديو القاهرة في ٢٩ آذار «لقد وجد العرب أخيرا حاميا ونصيرا ، فاذا كانت تركيا تعتقد ان القوة ستسوى الوضع في سورية ، فان على تركيا ان تتذكر ان لها جيرانا اقوى منها بكثير » ، وفي ٣١ آذار استقبل رئيس الوزراء صبري العسلي السفير السوفيتي في دمشق، الذي كرر التأكيدات السوفيتية،– هذا الاتجاه كررته مصر بعد ان عرضته لشعبها عرضا دراماتيكيا اثناء صفقة الاسلحة التشيكية – : بأن الدول

(٣٣) هذا الحادث كان من الاسباب التي جعلت السوريين يبنون مرفأ اللاذقية لتخليص تجارتهم من الاعتماد على مرفأ بيروت ومن اشراف اللبنانيين ومجموعة اخرى من المنتفعين ، وقد أشير الى شراء سورية دبابات مارك ٤ كل من همبراشي ، ص ٢٠١ ، و ج . س . لاكوتور في كتابهما تحرك مصر ١٩٥٦ صفحة ٢١٣ .

(٣٤) هيئة الاذاعة البريطانية رقم ٥٥٦ ، ١ نيسان ١٩٥٥

(٣٥) انظر همبراشي ص ٢٠٢ ، ٢٠٣

الغربية لم تعد الحكم الوحيد في الشرق الاوسط ، وان الدول العربية قد نالت حرية جديدة في العمل .

وتعاقدت سورية حالا مع الاتحاد السوفيتي على صفقات جديدة من الاسلحة الأساسية ، وقد دفعها الى هذا الاتجاه الغارات الاسرائيلية الواسعة على الحدود العربية ، والتهديدات التركية ، واحجام بريطانيا والولايات المتحدة عن تزويدها بالاسلحة وهي خارج نطاق الحلف الدفاعي ، ورفض فرنسا — مزود سورية التقليدي بالاسلحة — تسليح العرب بعد ثورة الجزائر ، ويعتقد ان الاتصالات الاولية بين وفدي سورية والسوفييت بدأت في اروقة الامم المتحـــدة في صيف ١٩٥٥ ووقعت الاتفاقية في الخريف ، ثم تبعتها اتفاقيات اخـــرى ، وتقـــدر مشتريات سورية من الاسلحة السوفياتية بين ١٩٥٤ — ١٩٥٧ بمائـــة مليون جنيه استرليني .

والخوف نفسه من اسرائيل مع الرغبة في كسر احتكار السلاح الذي أعلنه التصريح الثلاثي عام ١٩٥٠ هما السببان الرئيسيان اللذان دفعا مصر الى صفقة الاسلحة الاولى ، وقد ذكر صلاح سالم الى المؤلف مستعيداً تعاقب الاحداث مـــا يلي : (٣٦)

« كنت في دمشق حين قامت اسرائيل بالهجوم على غزة ليلة ٢٨ شباط ١٩٥٥ ، ولا تستطيع ان تتخيل لهجة الحديث عن وضعنا العسكري في القاهرة حين عدت اليها في اوائل آذار ، وسأكون معك جد صريح : كان ضعفنا بالغا حد اليأس وقواتنا المسلحة ينقصها كل شيء ، فأثناء العدوان على غزة لم يكن لدى مصر سوى ست طائرات صالحة للاستعمال ، وحوالي ثلاثين اخرى في الارض ينقصها قطع الغيار : فقد اوقفت بريطانيا شحناتها ، وقدرنا ان ذخيرة دباباتنا لا تصمد لاكثر من ساعة في المعركة ، وهنالك ستون من دباباتنا بحاجة الى تصليح أساسي ، كما ان مدفعيتنا في نفس الوضع المؤسف ، لقد كنا في حـــاجة حتى الى الاسلحة الخفيفة ، حاولنا شراء السلاح من بريطانيا واميركا ولكن عبثا .

---

(٣٦) صلاح سالم للمؤلف ، لندن ١٣ نيسان ١٩٦٠

« وفي ذلك الحين ذهبنا الى باندونغ واجتمعنا بشو آن لاي ، كنت مع عبد الناصر حين اجتمعنا به ، وأذكر انه سألنا عن الموقف في الشرق الاوسط ، فشرحنا له الوضع كما رأيناه ، وذكرنا له التهديد الاسرائيلي والنقص الهائل في تسلحنا .

« ووجهة نظرنا ان الغرب يستخدم اسرائيل كتحد دائم لقيادتنا ، وهو يعلم انه اذا ما واجهنا بالخيار بين الهزيمة امام اسرائيل وبين الرضوخ له ، فسوف نختار الثاني ، هـذه هي المساومة التي فرضت علينا ، وشعرنا بان الطريقة الوحيدة أمامنا لنستعيد حريتنا في العمل هي في ان نبني جيشا قويا قادراً على مجابهة اسرائيل مجابهة الند للند .

« وفي باندونغ سأل عبد الناصر شو آن لاي فيما اذا كان مستعدا لان يبيعنا أسلحة ، وقد أجاب شو آن لاي بأنه من الصعب عليه ان يزودنا بأسلحة ثقيلة لأنه يعتمد على روسيا في استيرادها ، ولكنه وعد بأن يفكر في الأمر .

« وبعد يومين قابلته ثانية ودخلنا في حديث طويل ، سألني في نهايته ان كنا نرضى بأن نأخذ الاسلحة من الاتحاد السوفيتي مباشرة ، فأجبته بأنني شخصيـا أوافق على العرض ، لكن علي ان استشير الرئيس عبد الناصر . فقال لي عندئذ إن الاجابة الى طلبنا ستصلنا عن طريق السفارة السوفيتية في القاهرة ، ثم عدنا الى الوطن ..

وفي ٦ أيار ١٩٥٥ خابرني السفير الروسي دانيال سولود الى وزارة الارشاد القومي ، ونقل إلي أنه استلم اجابة من حكومته حول طلب الاسلحة الذي سألنا الصين عنه ، وكانت اجابته شفهية وتتألف من نقطتين : الاولى بان حكومته مستعدة لان تمدنا بأي نوع من الاسلحة بما فيها الدبابات والطائرات من أحدث الانواع ، مقابل ارز مصر وقطنها . والثانية : ان حكومته مستعدة لمساعدتنا في مشاريعنا الصناعية ، بما فيها السد العالي في اسوان .

وكانت هذه المرة الأولى التي تعبر بها الحكومة السوفيتية عن اهتمامها بهذا المشروع ، ومن الطبيعي ان أكون قد امتلأت فرحا وأسرعت الى الرئيس عبد الناصر الذي دعا فورا الى عقد اجتماع ، لمجلس قيادة الثورة ، وقد يهمك ان

تعلم ان المجلس حين بحث العرض الروسي الحاسم ، قرر ان يقوم بآخر مبادرة لاستيراد الاسلحة من الغرب ، ففي حزيران ١٩٥٥ استدعى عبد الناصر سفيري بريطانيا وامريكا وأخبرهما بصراحة بأنهما اذا رفضا مده بالاسلحة فسوف يحاول الحصول عليها من روسيا ، لكن الحكومتين — حسب معلوماتنا — ظنتا أنه يخادعهما .

وبعد اسبوعين أجتمع عبد الناصر ببايرود سفير الولايات المتحدة وأعاد طلبه ولكن دون جدوى ، عندئذ — وعندئذ فقط — وافق مجلس قيادة الثورة على بدء المفاوضات مع روسيا ، وبدأنا المباحثات مع رجال السفارة الذين سرعان ما انضم اليهم فنيون من السوفييت .

وفي نهاية حزيران تقدم الي سولود بطلب خاص ، فسألني ان ادعو شبيلوف ، رئيس تحرير البرافدا ، إلى احتفالات عيد استقلالنا في تموز ، واخبرني صراحة ان لشبيلوف دورا كبيرا في تخطيط السياسة الخارجية السوفيتية وانه سوف يغدو عن قريب وزيراً للخارجية ، فوجهت إلى شبيلوف دعوة رسمية باسم حكومتي .

فوصل القاهرة في ٢٢ تموز وسرعان ما اتم معنا تفاصيل صفقة الاسلحة .

وفي تموز ارتفعت اول طائرة مصرية تحمل فنيين مصريين إلى براغ ليتفحصوا اول شحنة من طائرات الميغ ١٥ ، وبدأت شحنات الاسلحة تصل رغم ان عبد الناصر لم يعلن عن الصفقة الا في أيلول . »

رحب العالم العربي ترحيبا حارا بسياسة عبد الناصر ومثلت باندونغ وصفقة الاسلحة في عيون العرب انتصار قوى الخير على قوى الشر التي مثلها حلف بغـــداد والغارات على غزة ، وشحنات الاسلحة الفرنسية إلى اسرائيل ولكن في الوقت نفسه ، وربما بتأثير الاتصال بالصين ، حصل حياد مصر على بعد جديد : فلم يعد عدم الانحياز يفهم على أنه ضمان للسيادة كما قال بـــه نهرو ، وانما غدا أداة ايجابية في « متابعة » النضال ضد الامبريالية . ان الاسس الجذرية للدعاية الصينية ، كانت وما تزال ، تنص على ان النضال ضد الامبريالية

لما ينته بعد ، وان التحرر من الحكم الاستعماري ليس نهاية النضال بل هو كسب مرحلي بسيط فقط .

وفي سورية كانت صفقة الاسلحة التشيكية نقطة تحول في صلات البعث بعبد الناصر ، فقد وجد كلا الجانبين نفسه مع الاخر ضد الغرب الذي يمد اسرائيل بالاسلحة -كما يريان- ويفرض الشروط على توريد الاسلحة للعرب ، وهكذا لم يعد « الحياد الايجابي » يعني انشاء العلاقات مع المعسكرين على نفس الاسس المنصفة العادلة ، وانما غدا يعني البحث عن المعونة حيث توجد ، مع الاستمرار في محاربة الامبريالية الغربية .

وبدت المعونة السوفيتية ، بدون ارتباطات مرئية ، هي بالضبط ما كان يطلبه العرب ، كما ان شحنات الاسلحة السوفيتية سببت اندفاعا في التقارب بين البعث والشيوعيين ، في حين لم يكن من السهل هزيمة البعث ، فقد كان واعياً لأن السياسة الشيوعية تمليها مصالح روسيا الوطنية لاالمصلحة السورية فقط(٣٧) ، وان حلفا بينه وبين الشيوعيين قد يضر بنمو حزب البعث ، فكان شعار البعث « قد نلتقي مع الشيوعيين في خندق واحد ولكننا لن ننضم اليهم » .

(٣٧) ذكرت هذه في كتيب عن علاقة البعث والشيوعية بقلم ميشيل عفلق والدكتور جمال الاتاسي . طبع في كانون الثاني ١٩٥٦ .

١٨

الجيش و «قضية المالكي»

ان حلف بغداد « دوّل » الصراع على القوة في الشرق الاوسط : فقد طرح قضايا وشعارات جديدة ، كما أدخل تنافسات الحرب الباردة إلى مسرح الخصوم العرب المحليين ، وبهـذا المعنى فان سنة ١٩٥٤ — ١٩٥٥ ، وهي السنة التي شهدت المناقشات الدفاعية العظيمة التي سبقت توقيع حلف بغداد ، هي أهم سنة في تاريخ العرب بعد الحرب ، ففيها حدثت تغيرات واسعة في في قوة المتخاصمين الرئيسيين واستراتيجيتهم ، وبعبارة قاسية فان قرار بريطانيا بالجلاء عن قاعدة السويس ، بعد سبعين سنة من الاحتلال سمحت لمصر ان تبرز كدولة رئيسية في الشرق الاوسط ، فبنت دعواها بقيادة العرب على اساس سياستها الخارجية المستقلة . عندئـذ قام العراق — بتأييد من بريطانيا — بمحاولة هجومية للسيطرة على المنطقة من خلال حلف بغداد ، لكنه غدا مجبرا عـلى الدفاع حين نجحت مصر في جر سورية إلى التحالف معها ، وهذا الانقسام في صفوف العرب اتاح لروسيا فرصة اعادة الدخول إلى المنطقة من مؤخرة خط الدفاع عن الحلف ، مما أثار بدوره اهتمام الولايات المتحدة .

لكنّ النمط المحليّ للعلاقـات بين الدول العربية لم يتغير رغم توسع منطقة الصراع ، بل ظل جامـداً وتراكمت فوقه العلاقات الجديدة ، انه المستوى الذي تتقرر عنده أكثر الامور أهمية ، وفي مركز الاحداث وقفت سورية ، وهي في آن واحد شاهد على التفوق المصري المجد ، وهدفه آمال

العراق الحائبة ، والحقل المختار للنفوذ السوفياتي كما والرد الغربي المضاد ، انها المورد الايديولوجي للوحدة العربية حسبما يبشر به البعث ، لذا بقيت سورية الميدان الذي تتجالد فيه الدول الكبرى ، وبدت انتفاضاتها السياسية وكأنها نهاية حلقة وبداية حلقة أخرى ، ولم يعقب النضال ضد حلف بغداد أية هدنة ، اذ دخلت سورية بدلا من الصراع ، طورا جديدا بدأ بجريمة سياسية في دمشق العاصمة المتوترة الاعصاب، فاضحت في حالة زعر وهياج ، مما دعى الوفد السوري للعودة مسرعاً تاركاً مفاجآت باندونج المثيرة .

الجريمة :

العقيد عدنان المالكي ، البالغ من العمر ٣٧ عاماً ، نائب رئيس اركان الجيش السوري اغتيل رمياً بالرصاص في مباراة كرة قدم في ٢٢ نيسان ١٩٥٥، كما أن قاتله الرقيب يوسف عبد الرحيم انتحر بدوره ، وانتهت المباراة بهياج وشغب ، وقد كشف التحقيق في الجريمة عن دوافع عديدة ، بعضها شخصي تافه ، والآخر والاهم ناتج عن مضمون الصراع الدولي المركز على سورية .

ففي الظروف السياسية السائدة آنذاك ، كان المالكي شخصية هامة : والجيش هو القوة الوحيدة المؤثرة في السياسة السورية ، وربما كان هو أقوى ضباطه ، فشوكت شقير رئيس الاركان عسكري كفؤ ، لـكنه يعاني من نقطة ضعف مصدرهـا أن أصله من دروز لبنان ، انه يعتبر غريبا إلى حد ما ، كما أنه – بعكس المالكي – فشل في أن يعكس القومية المتأججة في صدور صغار الضباط السوريين حينذاك ، وهذا الاقتناع الصلب بأن رسالة الجيش هي انقاذ البلد والسير بها في طريق المجد ، كان مصدر قوة المالكي المثال الرائد لجيل ما بعد الحرب الذي كان يرى في نكبة الحرب الفلسطينية ، وانهيار الحكومة المدنية رمزين لانحلال مجتمعهم السياسي .

كان المالكي طويلا ، براق العينين ، شديد الشبه في مظهره بالاوربيين كما كان شاباً متحمسا ذا شعبية هائلة بين أخوانه الضباط ، وكان صوتــه

وضحكته المتفجرة يسيطران على أي تجمع ، يعتبر قائدا طبيعيا اذ حدث خلاف او اختل توازن ، لقد سرحه الشيشكلي من الجيش لتزعمه ثورة فاشلة ، فأعيد بعد سقوط الديكتاتور بكثير من التعظيم والاكرام ، وسرعان ما غدا الحليف العسكري « للحياديين » الداعين إلى الوحدة العربية ، وزمرة « التقدميين » في المجلس النيابي ، المعارضين لخطط الدفاع الغربي والاتحاد مع العراق ، وقبول المساعدات الغربية اذا كانت مصحوبة باية شروط ، وفي الشهور التي تلت انتخابات أيلول ١٩٥٤ أعاد المالكي الجيش تدريجيا إلى السياسة ، ملقيا بثقله إلى جانب ثلاثي العظم — العسلي — الحوراني في محاولاته اسقاط حكومة فارس الخوري ، وهكذا ساعد في « انقاذ » سورية من حلف بغداد ومهد الطريق لاتفاقية الدفاع المشترك مع مصر في آذار ١٩٥٥ ،أي قبل مصرعه بشهر ، وانتشرت شائعات بان فارس الخوري لو لم يستقل لحاول المالكي الاطاحة به عن طريق انقلاب عسكري يسانده حزب البعث .

لقد كان موقف البعث من الجيش غامضا : فهو لم يكن ليرغب النظم العسكرية « وقد رأى الحوراني بعضها عن كثب » ، كما انه لم يشجع الجيش في الدور الذي خطه هذا لنفسه كحلم للامة ومصيرها ، وبكل تأكيد لن يقبل قادة البعث أن يتلقوا الاوامر من الضباط ، او ان يسمحوا لهم بان يصبحوا القوة السياسية الرئيسية في القطر ، لكنهم لم يرغبوا في ان يتركوا الجيش يسقط بين أيدي أعدائهم « الرجعيين » ، فقد ارادوا أن يكسبوه إلى جانب أفكارهم ليجعلوه يعمل كأداة للاصلاح الاجتماعي والسياسي ، وليتأكدوا من ان غيرهم لن يستخدمه ضدهم . وبدا المالكي للبعث الحليف الذي يحتاجونه تماما : فهو يسيطر على اخوانه الضباط ، وهو وطني متحمس باستطاعته أن يجعل الجيش يقف باكمله رمزا بليغا للفكرة العربية ، زد على ذلك ان شقيقه رياض المالكي كان عضواً قيادياً في حزب البعث ، بمثل هذا الرجل الذي يسيطر على الجيش ، يغدوا كل اصلاح ممكنا (١) .

---

(١) كانت هذه على الاقل النظرة السائدة خارج حلقة اصدقائه الاقربين ، ولم يكن معروفا على وجه العموم ان حماسته للبعث قد فترت منذ هزيمة أخيه في انتخابات ١٩٥٤ : اذ اعتبر ان الحزب لم يمنح أخاه رياضاً الدعم الكامل ، وبالمقابل فقد عين المالكي في هيئة الاركان العامة ضابطين مناهضين للبعث ، هما امين النفوري واحمد عبد الكريم .

وبهذا جاء اغتيال المالكي صدمة كبرى ، فالرقيب الذي اغتاله تبين أنه عضو في جماعة متحمسة لسورية ، عسكرية التنظيم معادية للشيوعية وللقومية العربية ، وهي الحزب القومي السوري ، الحزب الذي كان منذ شهور قبل مقتل المالكي يسابق حزب البعث للسيطرة على الجيش أمام معارضة المالكي الشديدة . وفي الحقيقة فان المالكي ، كما جاء في التقارير ، قد ألف قبل مقتله بقليل « مجلس ثورة » على الطراز المصري ليستأصل العناصر العسكرية الموالية للحزب القومي السوري وينسف خلاياه الحزبية ، وفي سلوكه عداء شخصي ضد الضابط الذي يساند اتجاه الحزب القومي ، وهو المقدم غسان جديد ، كذلك كان معادياً لرئيس الحزب في سورية جورج عبد المسيح ، وقد سرح جديد من الجيش قبل مقتل المالكي باسبوعين ، في حين هدد عبد المسيح بتسليمه للحكومة اللبنانية التي حكمت عليه بالاعدام ، وربما كان حافز الرجلين هو الانتقام .

غير ان الجريمة يجب ان توضع ضمن قرينة أوسع ، ويظن أن الحزب القومي اعتقد بأن ابعاد المالكي واستبداله بضابط قومي سوري يمكن أن يقربه من السلطة (٢) .

وكانت قوتهم في الجيش تقدر آنذاك بثلاثين ضابط ومائة ضابط صف (٣) وعلى ذلك فالصورة العامة وراء مقتل المالكي كانت عبارة عن صراع من أجل السيطرة على الجيش وهو العامل الحاسم في السياسة السورية ، ويمكن ان يرى الامر أيضا على أنه محاولة لشل العناصر والفئات التي آمنت بالحياد ، والعروبة كحركة نضالية ، وبالتحرر من الاحلاف العسكرية الاجنبية ، وبالتالي القضاء على التيار المعادي للغرب في سورية .

وفي التاسع والعشرين من حزيران نشر قرار الاتهام الموجه إلى حوالي ١٤٠ عضواً من أعضاء الحزب اعتبروا مسؤولين عن ارتكاب جنح وجنايات

---

(٢) ادعى الحزب القومي ان القرار باغتيال المالكي اتخذه جورج عبد المسيح وحده دون استشارة الحزب (عبد الله سعاده للمؤلف بيروت ١ كانون الاول ١٩٦٠) .

(٣) عبد الحميد السراج (وكان آنذ مديرا للمخابرات) للمؤلف ، القاهرة ٢٧ كانون الثاني ١٩٦١

تتعلق بمقتل المالكي (٤) . وقد اتهم البيان ثلاثين منهم بجرائم عقوبتها الاعدام ، ومن هذه الجرائم القتل ، والاتصال بدولة أجنبية ، وتعريض سورية لاعمال عدوانية وتعكير صفو علاقاتها بدولة أجنبية ، وحض افراد الجيش على العصيان . وكان في طليعة المتهمين جورج عبد المسيح رئيس الحزب ، وجولييت المير ارملة أنطون سعادة ، وعصام المحايري الامين العام للحزب ، وغسان جديد ، والدكتور سامي الخوري ، واعتبر قرار الاتهام الحزب القومي السوري جمعية سرية خرقت الدستور والنظام ، كما اعتبر أن هدف الحزب هو الاستيلاء على السلطة بواسطة التسلل إلى الجيش ، واتهم أيضاً باجراء عدد من الاتصالات بالحكومة العراقية ، وبعرض خدماتهم لتنفيذ السياسة العراقية في سورية ، وبمحاولتهم الاتصال بالسلطات المصرية بواسطة نائب وصحفي لبنانيين و ذلك تمهيدا لعرض خدمات الحزب عليها (دون ملاحظة التناقض بين سياسة مصر والعراق) ، وباجراء اتصالات مع الحكومة الاميركية بغرض القيام بانقلاب في سورية وفرض سياسة ترضى الولايات المتحدة عنها ، وبهذا الخصوص ، اتهمت اللجنة التنفيذية للحزب بانها اصدرت قرارا بارسال عصام المحايري الى اميركا لاجراء اتصالات على مستويات عليا ، وبالاتصال بموظفين رسميين في سفارة الولايات المتحدة في دمشق .

واعلن قرار الاتهام أيضا ان شبكة للتجسس قد جرى كشف النقاب عنها وهي تتألف من أعضاء الحزب العاملين في الجيش ، وان الوثائق التي صودرت قد كشفت عن ان الحزب قد جرى على تزويد مكتب المعلومات الاميركي في دمشق بتقارير عن نشاطات الاخوان المسلمين في سورية والحزب الشيوعي في سورية ولبنان منذ بداية عام ١٩٥٥ ، وكان من جملة المستمسكات التي عرضت في المحكمة ، رسالة ارسلت إلى أمين الحزب من قبل هشام شرابي وهو عضو في الحزب يقيم في الولايات المتحدة ، طلب فيها التعاون مع الولايات المتحدة (٥) ، ومهما تكن صحة هذه الاتهامات المفصلة ، فان

---

(٤) هيئة الاذاعة البريطانية ، رقم ٥٨٣ ، ١٥ تموز ١٩٥٥

(٥) هيئة الاذاعة البريطانية ، رقم ٦٦٠١ ، ٦ ايلول ١٩٥٥

من الجلي أن معاداة الحزب القومي السوري للشيوعية قد لاقت قبولا وترحيبا لدى الدول الغربية .

تبعات الاغتيال وذيوله :

مهما تكن دوافع الجريمة ، فان التبعات المترتبة عليها كانت بعيدة المدى ، فقد أتاحت للشيوعيين الذين تظاهروا بالوطنية والقومية الدعوة إلى الانتقام للمالكي ، ومنحت لهم فرصة التعبير عن آراء البعث السياسية بالاشارة إلى الايدي الاجنبية وراء الحزب القومي السوري ، واضعين نصب أعينهم فكرة كون النفوذ الغربي ناشطا يعمل في كل مكان في سورية ، وربما كان هذا من أكثر نتائج القضية أهمية ، فالمحاكمة التي أعقبت مقتل المالكي كانت من وحي حزب البعث والهامه ، ان التحقيقات القضائية في اغتيالات سياسية مبكرة في سورية ، كتلك المتعلق منها باغتيال الزعيم الوطني عبد الرحمن الشهبندر في عام ١٩٤٠ ، قد حصرت في الحدود المحلية ، فالاتهامات قد وجهت لاعداء الضحية المحليين ، على الرغم من التلميح في خارج المحكمة بان هؤلاء الاعداء لم يكونوا سوى ادوات للمصالح الاجنبية ، أما في محاكمة قتلة المالكي فقد وضعت الجريمة منذ البداية ضمن دائرة أوسع ودور الدول الغربية ، ولا سيما دور امريكا ، كشف النقاب عنه في المحكمة علانية ، وبدا ان جريمة القتل ما هي الا انذار للرأى العام السوري بأن الحزب القومي السوري وحلفاءه العراقيين والغربيين كانوا على أهبة الاستعداد للقيام بقلب التيار السائد في سورية واستعادة مراكزهم ، وقد حرص الشيوعيون حرصاً عظيما على ان يكون الدرس قد حفظ جيدا .

وعلى ذلك فقد قرر الشيوعيون والبعثيون أن القيام بعمل سريع ضد الحـــزب القومي السوري اصبح لازما ، وبالنسبة للشيوعيين فهذه فرصة مناسبة جداً للتخلص من أعدائهم الايديولوجيين ، واضعاف مركز الغرب في سورية ، وتمهيد الطريق لاقامة علاقات أوثق مع الاتحاد السوفيتي ، كما ان

تدمير الحزب القومي السوري بالنسبة للبعث كان يعني خطوة أقرب باتجاه الحياد واسكات صوت القومية السورية التي تتصارع مع مبادئه القومية العربية ، وقد أشاع الحزبان كلاهما أنه اذا ما بدت العدالة متمردة او بطيئة فان العناصر الديمقراطية في الجيش وبين صفوف المدنيين سوف تعمل على تثبيط عزائمها، في الوقت الذي يحتمل أن يتجرأ فيه الحزب القومي واصدقاؤه على محاولة القيام بانقلاب ، وبهذه الافكار صرخ الشيوعيون والبعثيون طالبين الانتقام : فاعتبر الحزب القومي السوري حزباً غير مشروع ، ثم أعتقل عدد كبير من أعضائه ، واغلقت مكاتب الحزب بالشمع الاحمر ، واحرقت جماعة من الشعب مطبعته .. وسرح انصاره من الجيش والدولة ، كما شكلت محاكم مؤقتة تتمتع بسلطات خاصة لمحاكمة المتهمين . واستمع خمسون الف شخص في حفل تأبين المالكي إلى اللواء شوكت شقير وهو يأخذ على نفسه عهدا بان دم الشهيد سوف يثأر له ، كما اتهمت الصحافة والمحاكم والرئيس نفسه ، الحزب القومي السوري بالتآمر مع دولة أجنبية للاطاحة بالحكومة .

وهكذا استؤصل الحزب القومي السوري من الحياة العامة في سورية ، وحكم على ارملة انطون سعادة بالسجن مدة أثني وعشرين عاما ، بينما صدر الحكم غيابيا على جورج عبد المسيح وغسان جديد اللذين فرا إلى لبنان بالاضافة إلى بعض الاشخاص الثانويين الذين اخفقوا في الفرار ، غير ان الحركة وقد اضطهدت في سورية اعادت رص الصفوف والتجمع في لبنان ونذر الضباط السابقون والمتهورون والشباب المتعصبون ، والكوادر الملتزمة الذين آمنوا بآراء الحزب وبأوثان انطون سعادة ، نذروا أنفسهم لمهمة الاطاحة بالحكم في دمشق. وباعتبارهم أنفسهم ضحايا التآمر الشيوعي، أخذوا يبحثون حولهم عن حلفاء فوجدوهم في السفارات الغربية ، وكان من الطبيعي ان يقوموا بتضخيم خطر الشيوعية في سورية ، وتلوين أحكام الغربيين على هذا البلد ، والمساعدة على تحويل بيروت إلى مركز موثوق به للنظر إلى المسرح السياسي السوري . وبذلك اثيرت بشكل مصطنع مخاوف الغرب من قيام تغلغل سوفيتي في سورية ، وأدى هذا بالتدريج إلى قيام اجراءات معاكسة

ساعدت بدورها على أن تخلق التهديد نفسه الذي قصد محاربته ، والواقع فربما كانت من المساوىء التي الحقها الحزب القومي السوري بالغرب تدعيمه للتحالف البعثي الشيوعي وجعل الفوارق الاساسية بين الطرفين غامضة .

وفي دمشق أصبح المالكي فجأة شهيد الاستقلال السوري بسبب الافكار التقدمية والمؤيدة للحياد والمصريين ، التي نادى بها في حياته ، وعلى الرغم من أنه لم يكن شخصية فذة بشكل خاص الا أنه اصبح لدى مصرعه رمزا عظيما لفكرة القومية العربية ، التي قد هوجمت من قبل اعدائها من جميع الجوانب ، وزاد مصرعه في أشعال نيران القومية المتطرفة الهائجة فغدت السياسة السورية تتألف من مجموعة من ردود الفعل المذعورة على التهديدات الخارجية والداخلية. واليوم يطل تمثاله وضريحه على الابنية الفخمة في حي أبي رمانة الواقع في دمشق الجديدة ، ويمكن مشاهدة سترته الملطخة بالدماء في غرفة اقيمت خصيصا لذكراه في المتحف الحربي .

وقع الاغتيال على الجيش :

لم يكن الجيش الوطني في سوريا والذي تشكل عقب رحيل الفرنسيين عن البلاد عام ١٩٤٦ والذي توسع بالتدريج خلال حكم الزعيم والشيشكلي، يعتمد على تقليد عسكري ، كما لم توجد طبقة عسكرية حقيقية ، واكثر من أي بلد عربي آخر وقع الضباط السوريون تحت نفوذ اصدقائهم وعائلاتهم من غير العسكريين ... ولم يكونوا بمنجاة من التأثر بالتيارات السياسية المدنية ، وقد أدى اغتيال المالكي إلى ازاحة القائد الذي كان باستطاعته ان يفرض رأيه على طبقة الضباط ، ولم يبق ثمة من شخصية مسيطرة في الميدان ، وبدلا من وجود زعيم واحد ، أصبح هنالك أكثر من عشرين ، كل منهم يتوقع أن تجري استشارته قبل اتخاذ أي قرار ، ولم تلبث وحدة الجيش ان تصدعت عندما أندفعت الاحزاب السياسية والدول المجاورة تبحث عن حلفاء عسكريين وتدفقت المساعدات السرية إلى البلاد من العراق ومصر والعربية السعودية

والاردن والدول الكبرى وأرسل الضباط الشبان إلى الخارج في بعثات لشراء العتاد والسلاح ، وكان من الصعوبة بمكان الحصول على بيانات بالمصاريف لوجود مؤسسات الامن المتزايدة العدد ، ووجد الكثيرون من الضباط أنفسهم يتصرفون بكميات كبيرة من المال ، فجرت حوادث اختلاس ووجد بعض الضباط طريقهم إلى الثراء ، وبهذه الطريقة ضاعت الاموال التي كان يمكن صرفها على مشاريع التنمية الاقتصادية ، وأصبح الجيش الذي جرى اخضاعه للسياسة ، بموازنته وتمويله السريين غابة تمهاك فيها الدسائس ، يماثل في بعض الاحيان التفتت والتشيع الموجودين على الصعيد المدني ، وفي أحيان أخرى تحكمه خلافاته الخاصة به .

ومنذ اغتيال المالكي وحتى الوحدة مع مصر بعد ثلاث سنوات ، كان من الصعب العثور على من يحكم سورية فعلا . فكحراس على ضمير الامة ، تمتع الضباط بتفوق معنوي على السياسيين كما كانت لديهم القوة المادية : كانوا يستطيعون التهديد بتنفيذ انقلاب بالقوة متى شاؤوا ذلك ، ومع ذلك لم يكن السياسيون مجرد دمى يحركها الجيش من وراء ستار الحياة البرلمانية ، كما لم يكن المسرح السياسي عبارة عن نزاع مباشر بين المدنيين والعسكريين . لقد أصبح الجيش مفتتا ومنغمسا في العمل السياسي إلى حد تلاشت معه الحدود بين المدنيين والعسكرين في حمأة الصراع المعقد المتشابك الذي شهدته سنوات ما قبل الوحدة .

ومهما يكن من أمر فقد برز عدد من الضباط على المسرح السياسي بشكل تدريجي وتسلموا مراكز سياسية معينة ، وكان معظم هؤلاء الضباط ينتمون إلى جيل ما بعد الحرب الذي تخرج من كلية حمص العسكرية في عام ١٩٤٧-١٩٤٨والذي كانت حرب فلسطين وسلسلة الانقلابات التي نتجت عنها عناصر التجربة التي كونت هذا الجيل، وقد يميز بعض هؤلاء الشبان بمميزات كثيرة على الضباط الاخرين الذين يكبرونهم في السن ، الا انه تنقصهم التجربة وادارة الحكم ولم تكن لهم سوى جذور قليلة في الشعب، وكما هو الامر بالنسبة لمن يتمنطقون بالسلاح ، فانهم يجدون حلولا مبسترة لمعظم المشكلات ..

وكثير من هؤلاء كانوا من المفضلين لدى الشيشكلي وارسلوا إلى فرنسا في فترة الخمسينيات بهدف التدريب .

وقد جرى على هذا النسق عبد الحميد السراج الذي كان عضوا قياديا في حاشية الشيشكلي ، وهو من مواليد حماه عام ١٩٢٥ عرف الزعيم الاشتراكي أكرم الحوراني منذ الطفولة وكان هادىء الطبع ، صامتا ، منعزلا ، ولديه ميل مبكر للقيام بالعمل البوليسي ، ولدى جلاء الفرنسيين ترك سلك الدرك وانخرط في الجيش الوطني المؤسس حديثا ، وأصبح ضابطاً ، ليلتحق مباشرة في كانون الثاني ١٩٤٨ بكتيبة من الجيش العربي غير النظامي التي قامت بالهجوم على المستعمرات اليهودية ، وعاد إلى سورية بعد مضي عام على ذلك تقريبا ولدى انتهاء حرب فلسطين كي يشهد تصدع حكم القوتلي ويأخذ دورا في انقلاب حسني الزعيم ، وفي عام ١٩٥٢ ارسله الشيشكلي إلى فرنسا لكي يقوم ببعض التدريبات قبل ان يجرى تعيينه مديرا للمخابرات العسكرية ، وعندما نحي الدكتاتور عن الحكم أصرت الحكومة الجديدة على ابعاد عدد من الضباط الذين كانوا وثيقي الصلة به ، وعلى ذلك أرسل السراج إلى باريس لعدة شهور كمساعد للملحق العسكري ، ولم يلبث أن عاد إلى دمشق بسرعة ، فقد كان الزعيم شقير رئيس الاركان العامة يخصه باحترام كبير . وفي شهر آذار من عام ١٩٥٥ عين رئيساً للمكتب الثاني (أو المخابرات العسكرية). وذلك قبل شهر من اغتيال المالكي ، ويعود سبب ترقيه السلطة إلى حسن ادارته للتحقيقات . وعمله الرئيسي الذي تلا ذلك في غضون الثلاث سنوات التي أعقبت الاغتيال ينحصر في التصدي للمؤامرات العديدة التي قام بها العراق ، والحزب القومي السوري ، والفئات المدعومة من الغرب ضد الحكم في سورية ، وكان السراج صديقا للبعث ويشاركه قوميته الجياشة وارتيابه في التدخل الاجنبي ، لكنه يحتفظ ببعض الشخصية عنه . لقد كان حليفا لزعماء الحزب وليس معتمدا عليهم ، والحقيقة ان قوته التي تجلت في السنوات التي سبقت قيام الوحدة تكمن في حرصه على عدم الانحياز إلى أي جماعة ، الامر الذي قاده إلى السلطة ، وباختصار

فقد تمتع السراج كرئيس للمخابرات ، بمركزي القوة والاستقلال الكبرين.
وان كان السراج أقرب إلى ان يكون ذئبا منفرداً ، فان الضباط الاخرين كانوا أقرب منه الى الفئات السياسية ، فللبعث بشكل خاص مؤيـدون يتعاطفون في الجيش من أمثال مصطفى حمدون وعبد الغني قنوت وبشير صادق وحسن حده وجمال الصوفي ، وربما كان هؤلاء من ابرز المؤيدين ويذكر ان حمدون كان اول ناطق باسم ثورة حلب التي قامت ضد الشيشكلي في شباط عام ١٩٥٤ وقد جـاء أيضا من حماه ، ويمت بالقرابـة إلى الحوراني ، وهي قرابة جاءت عن طريق الزواج ويعتبر تلميذا له بشكل عام ، وكوزير للاصلاح الزراعي بعد وحدة عام ١٩٥٨ كان حمدون مسؤولا عن وضع التشريع الخاص بتوزيع الاراضي والذي انطوى على شيء من روح الحقد والانتقام وانعكس عليه صراع الحوراني مع ملاك الاراضي في منطقة حماه .

ومقابـل جناح البعث هنالك جماعة الضباط المستقلين تحت قيادة أمين النفوري ، وهو من الذين سبق ان كانت لهم علاقتهم بالشيشكلي ، كانت هـذه الجماعة تعرف باسم جماعة التحريريين نسبة لحركة التحرير العربي التي أنشأها الشيشكلي ، وضمت كلا من جادو عز الدين ، واحمد عبد الكريم ، وحسين حدة (شقيق حسن حدة) . وطالب هؤلاء دون ان يكون لديهم رأى سياسي او انتماء حزبي بحصتهم من السلطة ، بنفس الطريقة التي تصرف بها زملاؤهم الاعضاء المدنيون المستقلون في المجلس النيابي ، وكانوا يميلون بشكل عام إلى تأييد خالد العظم ، وعلى الرغم من أنهم جاؤوا من نفس الوسط الذي جاء منه السراج فقد كانوا أميل إلى الشعور بالغيرة من تعقله وامـكانياته المتفوقة . وكان حزب البعث يعتبرهم انتهازيين بـلا مبادىء ، وبين هاتين الجماعتين « البعث » و« النفوري » تتراوح جماعة ثالثة ضمت طعمة العودة الله واحد الحنيدي ، وقد شغل هذان مناصب وزارية في الوزارة التنفيذية في عهد الوحدة ، وترأس زميل معاصر للسراج في كلية حمص العسكرية وهو أكرم الديري جماعة تدعى « بجماعة دمشق ».

واخيراً وفي عام ١٩٥٧ برز ذئب فريد آخر ، هو عفيف البزري كرئيس للاركان العامة وتعاطف مع الشيوعيين ، وكضابط ذكي له تاريخ جيد في حرب فلسطين توصل إلى مركز القيادة والسيطرة على الجيش السوري ، غير انه لم يكن له أتباع شخصيون ومركزه يعود بصورة رئيسية إلى كونه مرشحاً مقبولا من جميع الاطراف المتنازعة ، هؤلاء اذن هم الرجال الذين سيطروا على الجيش السوري في السنوات التي سبقت الوحدة ، لقد كان ولاؤهم متبدلا ، ورؤيتهم السياسية محدودة بالنضال الاصغر للوصول إلى السلطة بشكل عام ، وهو ينحصر في وضع معسكر ضد آخر ، او رتل من الدبابات ضد رتل ثان ، وقد أدت منازعاتهم إلى وضع الجيش على شفير الانحلال حتى أصبح عبد الناصر الشخص الوحيد الذي يمكنه ان يجمع شملهم ويقضي على خلافاتهم .

❀ ❀ ❀

١٩

طريق سوريا الى السويس

الهجوم السوفييتي - المصري

الوضع :

بتأميم شركة قناة السويس في تموز ١٩٥٦ ، لسع عبد الناصر اعداءه الى حد جعلهم يقومون بعمل مباشر ضده ، فالاستيلاء على الشركة لم يكن السبب الوحيد أو الرئيسي لحرب السويس ، ذلك ان العمل في حد ذاته قد كشف وذكر بعدد من الصراعات الخفية ، ولذا يجب البحث عن دوافع الهجوم على مصر في الماضي الذي يعود الى ما قبل التأميم .

فالرأي الفرنسي الرسمي يعتقد ، ان الاطاحة بعبد الناصر سوف يقضي على الحركة الوطنية في شمالي افريقيا حيث ان : فرنسا ليست بغافلة عن العون المباشر الذي تقـــدمه القاهرة للثوار الجزائريين على شكل اسلحة ، وتدريب لقادة جيش التحرير ، وملجأ لزعماء جبهة التحرير الجزائرية ، على الرغم من وعود الرئيس عبد الناصر الرسمية للمسيو بينو لدى زيارة الاخير للقاهرة في الربيع (١) .

غير أن الفرنسيين اهملوا الجذور العميقة للثورة ضد حكمهم في شمال

---

(١) السنة السياسية ، ١٩٥٦ ، صفحة ٣٣٥

افريقيا وبالغوا في تقدير علاقة عبد الناصر بها ، فالوطنيون الجزائريون لم ينظروا الى القاهرة على انها مركز القيادة دائماً ، كما ان حركتهم لم تكن مصممة على طراز الحركة العربية الوطنية في آسيا العربية .

وقد اعتبرت اسرائيل مصر عدوها الرئيسي منذ عام ١٩٥٤ عندما حاول عبد الناصر الوصول الى قيادة العالم العربي على اساس انتهاج سياسة خارجية مستقلة ومتحررة من سيطرة الدول الكبرى ، كما بشر عبد الناصر بالتضامن العربي الشامل(أي جبهة عربية بتوجيه مصري)، وطالب باعتباره المنقذ الاول للحقوق العربية في فلسطين ، وبناء على هذين الاعتبارين شكل خطراً وتهديداً كبيرين لاسرائيل ، لذلك فقد سعت السياسة الاسرائيلية إلى أن تحبط حرية العمل لديه باذلاله في ميادين الحرب ؛ والكشف من ثم عن زيف ادعاءاته بالقيادة والاستقلال، فكل نجاح دبلوماسي مصري على هذا الاساس ، كانت تتبعه حملة عسكرية صغيرة من جانب اسرائيل .

فما ان ضمنت مصر موافقة بريطانيا على الجلاء من قاعدة السويس ووقفت ضد حلف بغداد حتى شنت اسرائيل غارة على غزة في شباط ١٩٥٥ لكي تكشف للرأي العام العربي والدولي ضعف مصر ، وحملة سيناء عام ١٩٥٦ بالمقابل كانت محاولة للحط من قيمة المكاسب التي احرزها عبد الناصر في العالم العربي بشرائه الاسلحة الروسية ، ولا بد أن هذا هو هدف اسرائيل الاول اذا ما كانت اهدافها الحربية الاخرى تنطوي على رغبة في القضاء على حملات الفدائيين داخل حدودها ، لكي تشل أي هجوم مصري متوقع ولكي تستولي – كما ذكر بعضهم (٢) – على شبه جزيرة سيناء بحيث توسع حدودها الغربية الى قناة السويس .

غير ان دوافع بريطانيا في الهجوم على مصر ربما كانت من اشد الدوافع تعقيداً وعمقاً بالمقارنة مع شريكتيها فرنسا واسرائيل ، وليس هذا مكان مراجعة تاريخ العلاقات الانكلو مصرية الطويلة او مناقشة اصول حرب السويس بالتفصيل : لقد فعل كتاب آخرون ذلك ، ان هدفي هنا هو الادلاء

---

(٢) ارسكين تشايلدرز : الطريق الى السويس (١٩٦٢) ص ١٧٥

بحجج تصل بين ازمة السويس وبين نمط الصراع الذي ساد سورية والذي مر على ذكره هذا الكتاب في الصفحات السابقة ، والكشف عن ان الهجوم البريطاني على مصر يظل غامض الدوافع ما لم يربط بالصراع على السلطة بين بريطانيا ومصر في آسيا العربية في غضون السنوات العشر الماضية ، والواقع ان مصر كانت البلد العربي الوحيد الذي جابه بريطانيا وتحدى سيادتها على الشرق الاوسط منذ نهاية الحرب العالمية الثانية .

في المرحلة الاولى من مراحل الصراع الانكلو ـ مصري من عام ١٩٤٥ حتى عام ١٩٥٤ كان دور مصر المقاومة السلبية : من عرقلة خطوات بريطانيا وعدم التعاون معها ورفض المساومة ، والوسيلة الاولى التي مارست بواسطتها النفوذ هي الجامعة العربية التي ضمنت زعامتها منذ السنوات الاولى لتأسيسها ، وقد كانت الجامعة الاداة الطيعة التي أتاحت لها الضغط على الدول العربية الاخرى لتأييد نضالها الوطني ضد بريطانيا ولاحتواء (اي تجميد) الدول العميلة لبريطانيا ، (العراق والاردن) ضمن حدودها ، ومنع النفوذ الهاشمي من الامتداد خارج آسيا العربية .

ولقد كانت عرقلة مصر للمشاريع الغربية الخاصة بالدفاع عن الشرق الاوسط والتي اعلن عنها في اوائل الخمسينيات هي السبب الرئيسي لفشل هذه المشاريع : فالوفد رفض اول اقتراحات رسمية للدفاع في عام ١٩٥٠ـ١٩٥١ ثم هناك مواقف عبد الناصر اللاحقة، تبعها قرار بريطانيا بالانسحاب من قاعدة منطقة القناة عام ١٩٥٤ ، دون ان تضمن المعاهدة المصرية انضمام مصر الى الدفاع الجماعي عن المنطقة، فأضافت هذه المرحلة الثنائية الانكلو ـ مصرية، تأكيداً على استقلال مصر واعلانا دولياً على تدهور النفوذ البريطاني .

وحتى ذلك الوقت فان قيمة مصر في تدهور مستمر رغم عظمتها، لكنها اخذت تعمل جاهدة في سبيل تحررها الوطني ، ولم يكن ممكناً القول بعد انها تشكل تهديداً للمصالح البريطانية الاقتصادية والاستراتيجية في العراق ، والاردن او الخليج العربي ، والواقع انه بعد التوقيع على المعاهدة الانكلو ـ مصرية كان الطرفان قادرين على التحدث عن عهد جديد من العلاقات

الودية، غير أن مصر لم تلبث ان انتقلت عندئذ الى مركز الهجوم عندما فتحت صفحة اخرى اشد عنفاً في تاريخ العلاقات الانكلو – مصرية وذلك في الفترة الواقعة بين ١٩٥٤ – ١٩٥٦، وسواء أشنت هي الهجوم اولاً أم استفزها حلف بغداد ، فان هذا الموضوع لا علاقة له بالمناقشة هذه ، فالصدام مع بريطانيا اصبح لا مناص منه عندما بلورت مصر سياستها العربية الجديدة القائمة على عدم الانحياز في اوائل عام ١٩٥٤ – أي قبل عام من التوقيع على الحلف ، وقد طالبت مصر بالتضامن العربي لدعم سياسة الاستقلال الكامل عن الدول الكبرى في وقت كانت فيه بريطانيا ما تزال الدولة الكبرى المسيطرة في المنطقة .

لقد رأينا أن مصر ربحت الجولة الاولى في معركة حلف بغداد بضمان السيطرة على سياسة سورية الخارجية بعد اسقاط حكومة فارس الخوري في شباط عام ١٩٥٥ ، وكنتيجة لذلك ، وقع اصدقاء بريطانيا في المنطقة – في العراق والاردن والخليج – تحت ضغط مصري مباشر ووضعت بريطانيا نفسها في موضع الدفاع ، ان هذه الاحداث لترسم مبدأ مضمراً في السياسة العربية : فالسيطرة على سورية كانت مفتاح الصراع من اجل السيادة في المنطقة

وعلى ذلك تكمن بذور السويس في عقد زمني من العداء الانكلو –مصري الذي وصل الى ذروته أيام حلف بغداد ، وكانت هذه هي نقطة الانعطاف التي جعلت ميزان القوى يميل لصالح القاهرة ، وأدت الى اعتبار عبد الناصر في نظر « الوايت هول » ممثلا لخطر حقيقي على المصالح البريطانية . وقد برزت الحاجة الى معارضة في الشهور الاخيرة من عام ١٩٥٥ عندما احكم قبضته على سورية تدريجياً وسلط اجهزة الدعاية لديه ضد كل بقايا السيطرة البريطانية في العالم العربي (وشرق إفريقيا) (٣) ، وفي اوائل عام ١٩٥٦ عندما بدت لاردن ، « واجهة العراق » (٤) ، في خطر الوقوع تحت سيطرة المصريين لم

(٣) راجع مثلا هيئة الاذاعة البريطانية ، رقم ٥٧٠ تاريخ ٢٠ أيار و ٥٧١ تاريخ ٢٤ ايار ١٩٥٥ حول تأييد اذاعة القاهرة لحركة الماوماو كحركة وطنية لتحرير كينيا من الامبريالية .

(٤) مذكرات ايدن ، القسم الثالث ص ٣٤٩

بعد ممكناً التريث لاكثر من ذلك باتخاذ قرار مناسب ، اذ يجب ايقاف عبد الناصر عند حده .

ان هذا الصراع المكشوف على السلطة في آسيا العربية يقدم خلفية ضرورية لفهم العمل البريطاني في السويس ، فبريطانيا لم تهاجم مصر لان عبد الناصر قد أمم شركة قناة السويس فقط — إذ كانت القناة تحت سيطرته الكاملة منذ الجلاء البريطاني عن المنطقة — ولكن لانّ مدّ نفوذه في آسيا العربية هدد بابتلاع الاردن والعراق والخليج ، كما هدد معاهدات بريطانيا ومراكزها القوية ومصالحها البترولية ، وهذا هو السبب الذي جعل بريطانيا قبل استيلاء عبد الناصر على شركة القناة بوقت طويل، (ذلك الاستيلاء الذي زود بريطانيا بمناسبة لضربه في عقر داره) جعلها تخطط هي وحليفتها العراق لتبديل نظام الحكم في سورية — محور قوة مصر في آسيا العربية ، والحقيقة ان الاحداث في سورية وما حولها في عام ١٩٥٥ — ١٩٥٦ لتعطي دليلا أشد وثوقاً فيما يتعلق بالصراع بين بريطانيا ومصر من احداث القناة نفسها .

ولكن قبل التعرض في الفصل التالي للمؤامرة على سورية — التي اشتركت فيها الولايات المتحدة أيضاً لكي تجابه النفوذ السوفياتي النامي هناك — يجب الانتباه اولا الى تيار الاحداث الذي أثار القلق لدى تلك الدول داخل ذلك القطر .

الهجوم السوفييتي المصري :

لقد اختار الاتحاد السوفياتي ومصر سورية ، لتكون الهدف الرئيسي لهجماتهما المتوازية في الشرق الاوسط في عام ١٩٥٥ ، فقد رأينا مصر التي وجه اليها التحدي بواسطة حلف بغداد وهددت بالعزلة ، تعود الى دمشق ضامنة تبدل الحكومة لصالحها ، وبعد مضي شهر ، أي في آذار ، قامت روسيا بعملية التدخل الاولى لها في شؤون الشرق الاوسط ، باعلانها علناً عن عزمها على الوقوف بجانب سورية في وجه التهديدات التركية والعراقية . ان هاتين

المناورتين البالغتي النجاح تشيران الى ان القاهرة وموسكو قد قامتا بنفس عملية التقدير للموقف : فقد اختارتا كلتاهما مركز سورية الهام في السياسة العربية ، كما ان كلا من الطرفين سعى الى دعم تيار الحياد القوي لدى الرأي العام العربي ، هذا التيار الذي انبجس نتيجة للسيطرة الغربية الطويلة الأمد ودور الغرب في خلق اسرائيل والاستمرار في مساعدتها ، وقد رغب الطرفان أيضاً في تدمير حلف بغداد والاطاحة بالحكومات التي لها علاقة به .

إن اغتيال المالكي في نيسان ١٩٥٥ ، بالاضافة لاضعافه لمركز الغرب أكثر من ذي قبل ، فقد ساعد مصر والاتحاد السوفياتي على تثبيت مكاسبهما ، وفتحت الجريمة بصيرة الشعب السوري على اهمية وشراسة الصراع الدولي الذي كانت سورية مخلباً فيه ، بزرعها لعنصر الهستيريا في جسد الحياة العامة في سورية ، وتشجيعها لها بالمسارعة للبحث عن الطمأنينة في سلاح الحماة الجدد . وقد فتح شراء مصر للاسلحة الروسية في صيف ١٩٥٥ صفحة جديدة من تاريخ التقارب الحثيث بين الدولتين ، إذ انهما احرزتا كسباً من عقد الصفقة ، واقتربتا شيئاً فشيئاً كرجلي اعمال شريكين وناجحين :فقد اكدت روسيا وبحزم صداقتها للعرب ، بينما اعلنت مصر عن تحررها من السيطرة الغربية ، حائزة في الوقت نفسه على شيء من عبير السيطرة السوفييتية .

وعلى الرغم من ان القوات البريطانية والفرنسية قد رحلت عن سورية في عام ١٩٤٦ فان ولاء سورية ظل قائماً للغرب في معظم حقبة السنوات العشر التي تلت ، فدكتاتوراها العسكريان : الزعيم والشيشكلي احتفظا بعلاقات وثيقة بفرنسا ، واول تحطيم حقيقي لهذا التقليد حدث حين دار الحوار حول الدفاع عن الشرق الاوسط عام ١٩٥٤ ـ ١٩٥٥ عندما خطت سورية متحررة من خيوط التوجيه الغربي لكي تنضم رسمياً الى موقف مصر المؤيد للحياد . ولما كانت روابط سورية اشد وثوقاً بفرنسا من روابطها ببريطانيا وكانت فرنسا نفسها ضد حلف بغداد ، فان هذا الاختيار اصبح اشد سهولة ، والواقع انه من الممكن ان يكون الفرنسيون قد اعتبروا التفاهم والصداقة بين سورية ومصر أقل شراً وخطورة من الصداقة بين سورية والعراق ، غير ان الخطوة كانت

مع ذلك تشكل مرحلة جديدة في تاريخ السياسة السورية الخارجية ، وتغييراً كاملا في السياسة العالمية ، وتحققت على ايدي رجال كخالد العظم واكرم الحوراني ، وقد فتح باب فيض المداهنات السوفيتية والاوربية الشرقية، السلاح والتجارة ، والقروض ، والزيارات المتبادلة والمختلفة الانواع وبخاصة تزايد ونمو النفوذ المصري في شؤون سورية والعالم العربي .

انتخاب القوتلي :

عندما لحظ العراق انصراف سورية عن سياسته حاول ايقاف هذا التيار منذ البدء، ففي آب ١٩٥٥ طلب من زعيم حزب الشعب ، رشدي الكيخيا ، أن يقف ضد خالد العظم في انتخابات رئاسة الجمهورية ،(كان هاشم الاتاسي الذي طلب اليه ان يعود الى رئاسة الجمهورية لدى الاطاحة بالشيشكلي في عام ١٩٥٤ على وشك التقاعد في شهر أيلول) غير ان الكيخيا رفض ان يرشح نفسه على رغم التأييد العراقي له . والكيخيا من أعيان حلب ، اللامعين والحذرين ، وكان أميناً حائزاً على قدر كبير من الاحترام ، الا انه يفتقر الى الجرأة السياسية ، كان تيار الاحداث منذ الانقلاب الاول في عام ١٩٤٩ كريهاً بالنسبة له باستمرار . فقد شهد سقوط حزبه ، وضربات الجيش التي كالها له ، وانتصار الافـكار السياسية والسياسيين الذين يكن لهم الاحتقار . مما لم يدع لديه العزم على النزال مرة أخرى ، فانتهت بالنتيجة زعامة العناصر المعتدلة والمؤيدة للعراق في السياسة السورية ودخلت مرحلة حرجة . وكـان العظم مرشح التيار الجديد ، رجل الساعة ، الشخصية المسيطرة في حكومة العسلي الائتلافية ومهندس التحالف السوري المصري في آذار ١٩٥٥ .

وعندما جرى البحث عن مرشح معارض له ، وقع الاختيار اخيراً على الرئيس السابق شكري القوتلي الذي قطع عليه حسني الزعيم فترة رئاسته بشكل مشين ، ولم يكن القوتلي مرشحاً قوياً ، كما لم يكن سجل خـدمته الاولى ١٩٤٣ ــ ١٩٤٨ لامعاً ، اذ لم يقدم للبلاد احساساً بالاتجاه وجهة معينة في السنوات الأولى من استقلالها ، كما لم يكن محبوباً من الجيش، وقد ازداد الفساد والمحسوبية والتحيز للأقارب خلال فترة حكمه،غير أن سنوات نضاله الطويل ضد الأتراك والفرنسيين قد اكسبته حباً خالصاً من الجماهير ، بينما بـدا

للتقليديين والمحافظين – وللرئيس الأتاسي نفسه الموشك على التقاعد – أقل خطراً من الانتهازي خالد العظم ، وقد تمتع القوتلي بميزة مؤقتة اخرى ، فقد كان الاميركيون يعارضون ترشيح العظم ، مما دعا شوكت شقير رئيس الاركان العامة أن يفضل في هذه المرحلة التخفيف من ازعاجهم ، لذلك فقد تغلب على البعث وسحب تأييد الجيش للعظم . ان من الصعب تقدير مدى تأثير ذلك على النتيجة النهائية ، فمجلس النواب هو الهيئة التي ستختار الرئيس ، غير ان موقف الجيش كان له بلا ريب ثقله الملحوظ بين النواب .

وعلى ذلك فقد انتخب القوتلي رئيساً للجمهورية في الثامن عشر من شهر آب ١٩٥٥ في اقتراع ثان، بعد ان فشل في الحصول على اغلبية الثلثين اللازمة عند الاقتراع الاول (٥) . وتسلم منصبه في الخامس من أيلول ، غير ان النتيجة لم تكن سارة : فقد كانت سورية في سنوات ما قبل الوحدة التي تتسم بالتأزم محاصرة بين نيران المنازعات العربية ومناورات الشرق والغرب، وكانت تحتاج الى رئيس قدير لا الى مجرد زعامة ، فقد كان القوتلي منذ البداية ضعيفاً وغير فعال ، كما كان غير قادر على توحيد الامة، اذ يقف على طرفي نقيض مع حزب البعث الذي حاول الحصول على تأييده ولكن دون جدوى ، كما ان الجيش اعتبره مسؤولا عن كارثة فلسطين . لقد كان من الخطأ اسناد الرئاسة الى رجل ماضيه ومزاجه معاً يجعلانه غير قادر على التلاؤم مع أشد العناصر ديناميكية في الشؤون السورية ، ناهيك عن موضوع السيطرة عليها .

اتفاقية الدفاع السورية – المصرية :

بعد هزيمة العظم انسحب حزب البعث من ائتلاف العسلي ، واصيب العظم

(٥) في التصويت الاول : حصل القوتلي على ٨٩ صوتا والعظم على ٤٢ صوتاً ، وكانت هناك ست ورقات بيضاء ، وورقتان لاغيتان (احداهما ورقة اقتراع تضمنت اسم عبد العزيز بن زيد السفير السعودي بدمشق) .
أما التصويت الثاني فقد حصل فيه القوتلي على ٩١ صوتا ، والعظم على ٤١ صوتا وخمس اوراق بيضاء وورقتان لاغيتان (احداهما كتب عليها اسم نوري السعيد رئيس وزراء العراق) .

نفسه بنوبة قلبية ، واضطر العسلي الى اعلان استقالة الحكومة في السادس من ايلول ، ولم يلبث رئيس الجمهورية الجديد ان دعا جميع الكتل البرلمانية الى الانضمام في اتحـــاد وطني ، وطلب من سعيد الغزي المحامي الذي لا ينتمي الى أي حزب والذي أدى عدم تحيزه الى ضمان حرية الانتخابات في عام ١٩٥٤ ــ ان يقوم بتشكيل حكومة ، وكانت حصيلة ذلك انعطافة تصحيحية صغيرة في رقاص الساعة جاءت وزارة الغزي لتقيمها (٦) . لكن رغم ان حزب الشعب شغل اربعة مقاعد في الحكومة بما في ذلك وزارة الدفاع والاقتصاد فان الغزي لم يقم بمحاولة لنقض السياسة الخارجية التي كان سلفه يتبعها .. ان ايقاف التيار الحيادي الموالي لمصر يتطلب رجلا يتمتع بقدرات تفوق البشر ، وفي بيانه الوزاري الذي القاه في العشرين من ايلول ، اعلن الغزي انه لم ير ثمة فائدة من الانضمام الى الحلف التركي ــ العراقي ، وانه بدلا مـــن ذلك سيتابع المفاوضات التي بدأتها الحكومة السابقة لانشاء حلف ثلاثي مع مصر والعربية السعودية .

وبعد مضي شهر واحد وتحت تأثير الموجة العارمة من البهجة التي سادت عقب اعلان مصر عن صفقة الاسلحة التشيكية وقعت سوريا عقد حلف عسكري مع مصر (٧) .

---

(٦) رئيس الوزراء ووزير الخارجية سعيد الغزي (مستقل) ، الداخلية : عبد الحسيب وسلان (مستقل) وزير الدولة (الخط الحجازي) الأمير حسن الاطرش (مستقل) ، وزير الدولة (اوقاف) اسعد هارون (مستقل) ، التربية مأمون الكزبري (مستقل) . الاقتصاد : علي بوظو (حزب الشعب) الدفاع : رشاد برمدا (حزب الشعب) ، المالية : رزق الله انطاكي (حزب الشعب) ، الزراعة : عبد الوهاب حومد (حزب الشعب) ، وزير الدولة (الاذاعة والاعلام) محمد سليمان الاحمد (الكتلة الدستورية) الأشغال العامة : عبد الباقي نظام الدين (الكتلة الديمقراطية) ، الصحة : بدري عبود (الكتلة الديمقراطية) . وفي ١٤ ايلول جرى تعديل في الحقائب الوزارية فنقل علي بوظو للداخلية ، انطاكي للاقتصاد ، حومد المالية ، ودخل الوزارة مصطفى ميرزا (الكتلة الدستورية) وعين للزراعة .

(٧) وقع في دمشق بتاريخ العشرين من تشرين الاول ١٩٥٥ ، وقد تبودلت وثائق التصديق عليه في القاهرة بتاريخ الثامن من تشرين الثاني ، والنص في صحيفة الشرق الاوسط ، العدد العاشر ١٩٥٦ ، ص ٧٧ .

دفع الحلف بين مصر وسورية عملية تثبيت الوحدة التي بدأها صلاح سالم في شهر شباط، دفعها مرحلة الى الامام : واخذت سورية تقترب بشكل محتم من منطقة النفوذ المصري، واعلن عبد الناصر في حفل التصديق على الاتفاقية :

« ان هذه الاتفاقية هي فاتحة مستقبل جديد ، فالتاريخ يرينا انه اذا مـــا اتحدت سورية ومصر فانهما ستحميان العالم الشرقي من جميع الاخطار التي يمكن أن تهدده ، وهذا هو ما حدث بالضبط في ايام الصليبيين ، فعندما تحالفت سورية مع مصر استطاعتا ان تقوما معاً بحماية العالم الاسلامي مـــن الاخطار التي كان يخشاها ، اما اليوم فستحمي سورية ومصر العالم العربي من الصهيونية » (٨) .

وقد أنشئت بموجب المعاهدة لجنة عليا ، وهيئة لشؤون الدفاع ، وقيادة مشتركة بقيادة اللواء المصري عبد الحكيم عامر ، غير ان معظم نصوص المعاهدة المتعلقة بالتعاون العسكري بقيت دون تطبيق .

ونقل عن عبد الناصر انه كان متردداً حتى في الموافقة على ادنى حد من التعاون اللازم لتجميع قوات عاملة على الجبهة الفلسطينية تحت امرة قيادة واحدة وذلك بسبب حذره وتخوفه من الانقسام والعصبية الحزبية في سورية ، غير انه اذا لم يكن الحلف فعالا من الناحية العسكرية فقد كانت له نتائج سياسية هامة : فحتى المتطلبات الاساسية للتخطيط الدفاعي تحتم وجود تنسيق وتعاون في السياسة الخارجية ، وهذا هو الهدف الذي كان عبد الناصر يسعى الى تحقيقه ، فقد أراد السيطرة على سياسة سورية الخارجية دون ان يتحمل عبء المسؤوليات الداخلية فيها .

ومنذ ذلك التاريخ أخذ السفير المصري محمود رياض ، وسيلة عبد الناصر وظله في دمشق ، يحتل مكاناً هامـــاً في الشؤون السورية ، وفي الاشهر التي سبقت « السويس » واعقبتها كان مد الاحداث يجري لصالح مصر ، واستطاع محمود رياض ان يشغل مركزاً في قلب الحياة السياسية في سورية ، لا يضارعه في ذلك اي مبعوث اجنبي ، فقد كان على علاقة وثيقة بالرئيس القوتلي واتصال مستمر بالزعماء السياسيين ، كما ان نفوذه في اوساط زمرة الضباط الوطنيين

(٨) صحيفة الاهرام ، ٩ تشرين الثاني ١٩٥٥

التقدميين كان عظيماً ايضاً ، وبالفعل بدأت علاقات الصداقة بين الجيشين السوري والمصري تشتد لتتوثق عراها فيما بعد .. ولدى تبدل الحكومات السورية كان محمود رياض يلعب دوراً حاسماً في جعل سورية تنتهج سياسة خارجية تتفق وتلك التي تنتهجها مصر ، وقد أصبح في حقيقة الامر أكثر من مجرد سفير لدولة اجنبية ، بالنسبة لمختلف آراء الشعب ورمـــزاً للعلاقات الخاصة التي تربط بين سورية المحاصرة ، المهددة ، بمصر شقيقتها الكبرى والعظيمة . وكانت علاقته بحزب البعث علاقة صميمية بشكل خاص ، فالبعث هو القوة الكبرى المؤيدة لمصر في السياسة السورية، وطليعة حركة الوحدة مع مصر ، ولذلك فقد كان من الطبيعي ان تكافئه مصر بوضع ثقلها الدبلوماسي كله في صالحه وتدعيماً له .

وأضيف الى التوجيه السياسي المصري ، الذهب السعودي ، وذلك على صورة قروض رسمية — جرى التوصل الى اتفاقية لتقديم قرض الى سورية قدره عشرة ملايين دولار في تشرين الثاني ١٩٥٥ — وسيل من الرشاوى التي استهدفت تدمير مركز العراق في سورية وتدعيم مركزي مصر والعربية السعودية

وقامت اسرائيل برد فعل على اتفاقية الدفاع السورية المصرية بطريقة فذة : فقد ارادت أن تظهر ان هذه الاتفاقية غير فعالة ، وعلى ذلك قامت القوات الاسرائيلية في منتصف كانون الاول بهجوم واسع النطاق على المراكز السورية في منطقة بحيرة طبريا ، وعلقت صحيفة « الجيروزاليم بوست » على ذلك الهجوم بقولها : اننا نأمل ان تكون الغارة الاسرائيلية قد اقنعت كثيراً من السوريين بأن الاتفاقية العسكرية مع مصر قد زادت الاخطار التي تتعرض لها سورية بدلا من أن تضمن الدفاع عنها ، غير ان الكثير من السوريين قد اصروا على الاستنتاج بان سلامة مستقبلهم تكمن في الاعتماد اعتماداً كلياً على مصر والاتحاد السوفيتي ، وانتظمت الجماهير في شوارع دمشق بأرتال طويلة كي تسهم في التبرع لاسبوع التسليح ، كما تبودلت رسائل التضامن مع مصر ، وازداد التهافت على شراء الاسلحة من الاتحـــاد السوفياتي ، واجتاحت البلاد موجة من العداء للغرب ، الممول المادي لاسرائيل ومصدر تسلحها .

والحق ان الهجوم على طبريا قد عزز اهمية درس الهجوم على غزة قبل عشرة أشهر : « لقد حدث ما كان يخشى من حدوثه اولئك الذين تابعوا تطور المشكلة الفلسطينية عن كثب ، انها اصبحت مشكلة عالمية تتدخل في كل علاقة سياسية في الشرق الاوسط وتجعلها اشد صعوبة » (٩) . ولم يقتصر الامر على ازدياد النزاع العربي الاسرائيلي شراسة وخطراً ، وانما امتد النزاع الى جميع وجوه السياسة الاخرى في الشرق الاوسط ، فوجدت البلدان العربية ، حتى في علاقاتها مع الغرب ، نفسها مرة اخرى وجهاً لوجه امام اسرائيل .

وعلى ذلك فقد سارعت مصر ، مجازفة بخطر الاشتباك مع اسرائيل والغرب ، سارعت الى تمهيد الطريق للسيطرة التامة على سورية في الشهور التي سبقت أحداث السويس ، وتطوع التلاميذ وطلبة الجامعة السوريون بالالاف للتدريب على استعمال السلاح ، كما ظهرت وحدات مصرية مع القوات السورية التي اشتركت في العرض العسكري التقليدي الذي جرى يوم السابع عشر من نيسان ١٩٥٦ — وهو الذكرى العاشرة لجلاء الجيوش الاجنبية — وقام حزب البعث اثناء تدشين المناسبة بدعوته للحكومتين السورية والمصرية لاعلان الوحدة الكاملة بين البلدين ، لقد اصبحت سورية اشد الحلفاء العرب حماسة لعبد الناصر .

مكاسب سوفيتية :

وسلك الهجوم السوفياتي الخط ذاته في سرعة الاتساع ، فقد ألحق السوفييت تعهداتهم بدعم سورية التي قطعوها على انفسهم في ربيع عام ١٩٥٥ لمجابهة ضغط حلف بغداد ، بعروض للمساعدة الاقتصادية والفنية وبزيارات لموسكو قام بها النواب السوريون وانصار السلم ، وفي شهر آب وافقت الحكومة السورية على تعيين ملحق عسكري سوفييتي في دمشق ، وفي تشرين الثاني رفعت درجة التمثيل الدبلوماسي الى درجة سفارة « من اجل تعزيز وتطوير العلاقات الودية القائمة بين البلدين » ، كما تم في الشهر نفسه التوقيع على معاهدات

(٩) حوراني : رؤية للتاريخ ، صفحة ١٣٧

تجارية مع روسيا والصين ، ولدى حلول ربيع عام ١٩٥٦ كانت الاتصالات بين سورية والكتلة الشيوعية قد أصبحت على مسا يرام ، وبدأت العلاقات التجارية تتوثق مع جميع دول اوربا الشرقية ، وانهالت الدعوات من موسكو على المحافظين والنقابيين والمحامين ولاعبي كرة القدم والطلبة والعلمـــاء الدينيين ، وعرضت تشيكوسلوفاكيا بناء مصفاة للنفط ، واصبح كل يوم يشهد اخباراً عن زيارة فرقة شيوعية للرقص او عرض مقاعد مجانية في جامعات اوربا الشرقية على الشباب السوري ، كما ان الشيخ السوري محمد الاشمر منح جائزة ستالين للسلام .

غير ان شحنات السلاح هي التي مكنت عرى الصداقة السورية السوفيتية ، ففي فترة رئاسة سعيد الغزي للوزارة بين ايلول ١٩٥٥ وحزيران ١٩٥٦ بدأ السلاح السوفيتي بالتدفق الى سورية بكميات كبيرة ، واخـــذ الضباط السوريون يتجهون الى بلدان الستار الحديدي للدراسة والتدريب ، ولم يدع الشيوعيون المحليون أي جهد في تلك الشهور ، فعلى الرغم من ان الحزب الشيوعي كان ممنوعاً شرعاً فقد كانت هناك اربع صحف دمشقية تعكس آراء وافكار الشيوعيين ، والمنشورات الشيوعية تملؤ المكتبات ، وخالد بكداش من اقوى اعضاء المجلس النيابي واشدهم نفوذاً .

وفي عام ١٩٥٦ اخذت مقاومة البعث لدعوة الشيوعيين لاقامة جبهة شعبية تضعف ، فقد جمعتهم معارضة حلف بغداد والشعور بوحدة خطـــر مشترك في عام ١٩٥٥ ، حتى وجدوا انفسهم يحاربون نفس الاعداء ، ويستنفرون الرأي العام من أجل نفس القضية ، والحادثة الاولى التي تدل على تعاون فعال بين الطرفين تجلت في الانتخابات التكميلية التي جرت عام ١٩٥٥ في حمص ، حيث وافق حزب البعث والحزب الشيوعي على دعم مرشح غير حزبي هو احمد الحاج يونس ضد مرشح حزب الشعب ، وانتخب الحاج يونس مزوداً الشيوعيين بحجة اخرى في صالح اقامة جبهة مشتركة ، ولم تلبث العلاقات ان توثقت اكثر عندما قامت وفود برلمانية سوفيتية وسورية بتبادل الزيارات وعندما بدأ الحكام السوفيت يعترفون علناً بشرعية حركة الوحـــدة العربية

– وهذا الاتجاه قد تعزز بالخط الشيوعي الجديد من حركة القومية العربية الذي تبناه المؤتمر العشرون للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفيتي – .

غير ان حزب البعث كان حذراً منذ البداية ، وكما قال ميشيل عفلق : لم تكن هنالك من اهداف ايجابية تجمعنا ، فلم نكن – على سبيل المثال – بتعاون في حملة لتحسين اوضاع الطبقة العاملة ، ولم يكن الشيوعيون قد حصلوا اطلاقاً على حقوق المواطنة لكي تسنح الفرصة لمثل هذا التعاون الدخول الى حيز التنفيذ : لقد كان لهم رجالهم في نقابات العمال وغيرها ، غير أنهم كانوا هنالك كمحترفين ليس من أجل الدفاع عن حقوق العمال وانما لاستخدامهم لاسباب تتعلق بسياسة اجنبية ، لقد كان الحزب الشيوعي السوري منظمة غايتها استعمال الطبقة العاملة، والبورجوازية،والطلبة، لتعزيز اهداف السياسة السوفيتية الخارجية ضد الاحلاف ، والمعاهدات ، والارتباطات مع الغرب ، ولم يستطع هذا الحزب ان يعكس التطلعات او الآمال الشعبية في سورية ، وذلك على العكس من العراق حيث نجحوا فعلا في ان يصبحوا حركة شعبية اصيلة (١٠) .

لقد اختار جوزيف آلسوب ، الصحفي الاميركي الذكي الذي امضى حوالي اسبوعين في سورية خلال شهر أيار ١٩٥٦ ، الضابط الشاب عبد الحميد السراج ديكتاتوراً عسكرياً جديداً لسورية ، وجاء هذا التنبؤ في مقال كتبه آلسوب قال فيه « ان السلطة الحقيقية تكمن في ذلك المزيج الغريب التنسيق والعظيم الاثر ، بين الزعامة السياسية المصرية ، واموال الرشاوى السعودية والموهبة الشيوعية في التنظيم » (١١) .

وقد ناشد الرئيس القوتلي ، الذي كان يحس بهذا الغليان والتعاسة تملأ قلبه ، جميع الفئات لتتناسى الخلافات والانضواء في جبهة وطنية ، فشكلت لجنة تضم جميع الاحزاب بهدف وضع ميثاق وطني يتضمن مبادىء مقبولة بشكل عام ويكون بمثابة مرشد للحكومات فيما يتعلق بسياستها في المستقبل ،

---

(١٠) ميشيل عفلق للمؤلف ، بيروت ، ٧ كانون الثاني ١٩٦١

(١١) نيويورك هيرالد تريبيون ، ٢٥ أيار ١٩٥٦

وقد طالب اليمين بأن يحتوي الميثاق بنداً يعتبر الشيوعية عدواً على صعيد الجبهة الداخلية ، واعترض اليسار على ذلك بقوله ان الامبريالية والصهيونية همـــا العدوان الوحيدان للعرب ، ومع ذلك اتفق الطرفان على ان سورية ، يجب ان تحذو حذو مصر في الاستفادة من النزاع بين الشرق والغرب للحصول على اسلحة من الجانبين ، ولم يلبث القوتلي الذي انهكه الجدال ان ذهب للنقاهة في اسوان في شباط ١٩٥٦ معرباً عن الامل في أن يجري اتمام الميثاق لدى عودته من هنـــاك .

وفي شهر آذار جرى التوصل الى اتفاق حول مشروع ميثاق روعي في انشائه عدم اثارة أي اعتراض . وقد وقعت جميع الاحزاب الرئيسية على المشروع ، غير ملزمة نفسها بأكثر من اصلاحات ديمقراطية وسياسة محايدة ، ولكن لم يشعر أي طرف من الاطراف بان لديه من القوة ما يكفي لاثارة ازمة ، وبقيت حكومة الغزي تترنح حتى الثالث من حزيران ، ولم يلبث طلبة الجامعة السورية ان اطاحوا بها(بعد ان انهكتها الاستقالات)(١٣) عندما هاجموا وزارة الاقتصاد الوطني احتجاجاً على اعادة النظر في أمر بمنع شحن الحبوب الى فرنسا والجزائر ، ولم ينسحب الطلبة حتى تم عقـــد اجتماع طارىء للحكومة تقرر فيه اعادة امر المنع ، وقدم الغزي استقالته بعد ساعات قليلة من هذا الحادث .

البعث يدخل الحكومة :

حان الوقت لحدوث تقارب بين التيارين المصري والسوفيتي في سورية ، وبعد اثني عشر يوماً بقيت البلاد فيها بلا وزارة واثبت اليمين خلالها عجزه عن الحصول على الاغلبية (١٣) استطاع صبري العسلي الذي يتميز بالنشاط

---

(١٢) استقال منير العجلاني (وزير العدل) وأسعد هارون (وزير الدولة) يوم ٢٤ أيار ١٩٥٥

(١٣) طلب من رشدي الكيخيا في الرابع من حزيران ان يترأس حكومة وطنية ولكنه رفض ، وفي السادس من حزيران طلب القوتلي من لطفي الحفار تشكيل الحكومة الا ان حزب البعث =

ان يشكل حكومة وحدة وطنية في الرابع عشر من حزيران (١٤) ، ضمت الحزب الوطني وحزبي الشعب والبعث وكتلة خالد العظم الديمقراطية ، وكتلة منير العجلاني الدستورية ، بالرغم من أن معظم ممثلي هذه الاتجاهات لا يتحدث بعضهم الى الآخر ، وقد نال حزب الشعب وزارة الداخلية ، وضمن البعث لنفسه وزارتين هامتين هما الخارجية والاقتصاد ، ولقد قطع البعث شوطاً طويلاً في الشهور الخمس عشرة الاخيرة ، فبعد ان حشر حشراً في وزارة الصحة بحكومة صبري العسلي السابقة التي كانت قائمة في شباط ١٩٥٥ اصبح يشغل منصبين رئيسيين في الوزارة .

ونتيجة لذلك بات موضوع الوحدة مع مصر قضية أساسية وهامة ، وفي الواقع اصر البعث كشرط لاشتراكه في الحكم ان تأخذ الحكومة على نفسها تعهداً ببدء محادثات مع القاهرة تستهدف اقامة وحدة بين البلدين ، واعلن العسلي بناء على ذلك ، في المجلس النيابي يوم السابع والعشرين من حزيران « وسنشرع في توثيق علاقاتنا مع مصر من خلال محادثات فورية نأمل في أن تؤدي الى سياسة مشتركة بين البلدين ، ندعو الدول العربية المتحررة الى اتباعها كيما يصبح بالامكان تحقيق وحدة عربية شاملة » (١٥) .

وفي اليوم التالي تجلت الدعوة لاقامة الاتحاد بين مصر وسورية في عريضة وقعها ثلاثة آلاف طالب جامعة سوري ، ورفعت الى مجلس النواب ، وفي

= رفض التعاون معه واضطر للتوقف عن مساعيه بعد مضي ثلاثة أيام ، ولم يلبث صبري العسلي الذي نجح في التقريب بين حزبي البعث والوطني في شباط ١٩٥٥ وذلك على حساب التسبب في انشقاق حزبه ، لم يلبث ان تقدم للقيام بالمهمة مرة أخرى .

(١٤) صبري العسلي للرئاسة (الحزب الوطني) ، مجد الدين الجابري (الحزب الوطني) لوزارة الأشغال العامة ، احمد قنبر (حزب الشعب) وزارة الداخلية ، عبد الوهاب حومد (حزب الشعب) وزارة التربية ، رشاد جبري (حزب الشعب) وزارة الزراعة ، صلاح الدين البيطار (حزب البعث) وزارة الخارجية خليل الكلاس (حزب البعث) وزارة الاقتصاد، محمد العايش (الكتلة الديمقراطية) وزير بلا وزارة ، عبد الباقي نظام الدين (الكتلة الديمقراطية) وزارة الصحة ، مصطفى الزرقا (الكتلة الدستورية) وزارة العدل ، عبد الحسيب رسلان (الكتلة الدستورية) وزارة الدفاع .

(١٥) صحيفة « البعث » (دمشق) ، ٢٨ حزيران ١٩٥٦

الخامس من تموز ١٩٥٦ وبعد اجراء مباحثات مع عبد الناصر في القاهرة ، اعلن صبري العسلي عن تشكيل لجنة وزارية من ثلاثة اعضاء مهمتها القيام بمفاوضات مع مصر ، وقد ضمت اللجنة العسلي نفسه ، ووزير الخارجية البعثي صلاح البيطار ، ووزير الداخلية الممثل لحزب الشعب احمد قنبر ، وفي اليوم نفسه أبرم المجلس قراراً ينص على ما يلي :

ان مجلس النواب التزاماً منه بالفقرة الثالثة من المادة الاولى من الدستور التي نصت على ان الشعب السوري جزء من الامة العربية يؤيد قرار الحكومة الذي أعلنه رئيس الوزراء في هذا الاجتماع ويرجو للحكومة النجاح في اتباع هذا الطريق المقدس الذي يقربنا في المستقبل القريب من الهدف الذي انتظره الشعب العربي في كافة اقطاره (١٦) .

ولم يعكر صفو البعث بهذا القرار سوى فكرة عزو نجاحه في الوزارة الى عدم أخذ خصومه قضية التصويت بجدية .

وخلال هذا الزحف السوري المتطلع نحو مصر ، اقيم لوزير الخارجية السوفييتي ديمتري شبيلوف الذي يعتبر مهندس صفقة الاسلحة المصرية ، استقبال شعبي عظيم في دمشق عندما وصل اليها في الثاني والعشرين من حزيران بعد مضي أقل من اسبوع على تسلم العسلي لمنصبه ، موصلا التغلغل السوفييتي في البلاد الى ذروته الظافرة . وقد حاول شبيلوف ما وسعته المحاولة اقناع السوريين بان الاتحاد السوفييتي « صديق مخلص حميم وليست له مطامع او مخططات خاصة او أي رغبة في اغتصاب ثروات الآخرين » . وعرض تقديم قروض تنمية طويلة الامد وبفوائد منخفضة ، ممهداً الطريق للاتفاقية الاقتصادية الكبرى التي عقدت في شهر آب من عام ١٩٥٧ ، كما اقترح قيام تبادل ثقافي على نطاق واسع وتحقق ذلك كله في اتفاقية جرى التوقيع عليها بعد مضي شهرين على زيارته ، ومن جهة اخرى وعد شبيلوف مد سورية بجميع الاسلحة التي تحتاجها وفق شروط مرنة الى حد انها فاقت في تساهلها شروط توريد السلاح الى مصر كما جاء في تقارير موثوق بها ، وقد اخذت الدبابات والطائرات

(١٦) هيئة الاذاعة البريطانية ، رقم ٦٨٨ ، ١٠ تموز ١٩٥٦

والسيارات المصفحة تتدفق على اللاذقية أثناء زيارته ، وفي الثالث من تموز ، وبعد مضي اسبوع فقط على مغادرته البلاد ، اعترفت سورية بالصين الشيوعية، وبـدا للكثير من المراقبين الغربيين ان سورية في لحظة خطر التحول الى دولة شيوعية تابعـة .

وازدادت هذه المخاوف حدة باستقالة شوكت شقير رئيس الاركان العامة من منصبه، وهي استقالة تمت في ظروف مفاجئة وغامضة في السابع من تموز ، اذ يكن شقير أداة طيعة في يد اليمين او اليسار ، فرأى الطرفان فيه عقبـة كأداء في طريق مطامحهم في فترة النزاع الشرس التي بدأت حينذاك ، فلطالما بقي رئيساً للاركان العامة ، فلـن يستطيع البعثيون والشيوعيون ضمان دعم الجيش في أية أزمة ، كما أن حزب الشعب فقد يشعر بكراهيته للاسباب نفسها، فعلى رغم الاعتراف بعدائه لتدخل العسكريين في السياسة اراد ضمان وجود هيئة أركان عامة بمقـدوره الاعتماد عليها ، وكان شقير قومياً مستقل التفكير ، لعب دوراً هامـاً خلال الاسابيع القلقـة التي اعقبت سقوط الشيشكلي ، وقد أعاد السلطة آنئذ الى خصوم الشيشكلي المدنيين ، ثم أخـذ ينزع الى التصرف بعد ذلك بنزق وكأنهم جميعاً مدينين له بالفضل .

وعندما اصبح العسلي رئيساً للوزارة في حزيران ١٩٥٦ وجد شقير نفسه وقد حيل بينه وبين ممـارسة السياسة ، فهو لم يشترك ، على سبيل المثال ، في المناقشات المتعلقة باقامة اتحاد فيدرالي مـع مصر ، ولم يلبث ان نحي عن منصبه بحجة انه كان درزياً من اصل لبناني ، وانه لم يكن لذلك موثوقاً تماماً ، كما قيل انه كان يعارض اعدام اعضاء الحزب القومي السوري المتهمين بقتل عدنان المالكي ، وقد اشيع ان تنحيته عن منصبه خطط لها عبد الحميد السراج تحت ضغط العناصر اليسارية ، في الوقت الذي كان السراج يشغل فيه منصب مدير المخابرات العسكرية ، ويعتبر احد الذين يتمتعون بحمايته . ولم يلبث شقير ان تقاعد وذهب الى قرية القرعون اللبنانية ، مسقط رأسه ، واستعيض عنه بعسكري آخر لا يتمتع بطموح سياسي ولا لون له ، انه توفيق نظام الدين ، شقيق وزير الصحة في وزارة العسلي .

لقد كشف ذهاب شقير تفكك الضباط وتسلل مختلف الفئات السياسية المتنازعة الى صفوفهم ، وعلى حين كان شقير قادراً على اخفاء الصدع ، فقد كشف انسحابه عن صورة صاخبة لحفنة من الضباط الشبان الذين يسيطرون على الاسلحة اللازمة للوصول الى المناصب ويعلنون عن مواقفهم السياسية على الملأ ، ويسعون للتأثير على الحكومة في كل يوم ، وقد استنكر السياسيون تدخلهم ولكنهم في الوقت نفسه حاولوا استخدامهم واحداً ضد الآخر ، واظهر حكم الشيشكلي الطويل ان سورية يمكن ان تحكم من خلال الجيش ، مما جعل كل سياسي يسعى لمنع خصومه من السيطرة عليه .

السويس :

بعد مرور ثلاثة اسابيع على سقوط شقير أمم عبد الناصر شركة قناة السويس ، وعلى الرغم من عدم وجود رابطة بين الحدثين ، فان قوة العاطفة المؤيدة لمصر في سورية لابد وانها شجعته على تحدي الدول الكبرى ، فقد استطاع عبد الناصر أن يقدم على رد الضربة للغرب الذي سحب عروض تمويل السد العالي بكونه قابض على زمام المبادرة في آسيا العربية في اواسط عام ١٩٥٦ ، وانه لأمر ينطوي على مغزى حقيقي في ان خطاب التأميم الذي ألقاه في الاسكندرية بتاريخ السادس والعشرين من تموز ١٩٥٦ قد اشتمل على نداء خاص موجه للسوريين :

« وأنا اليوم أتجه الى اخوان لنا في سورية ... سورية العزيزة ... سورية الشقيقة... لقد قرروا أن يتحدوا معكم اتحادا حراً سليما عزيزاً كريما لندعم سوياً مبادىء الكرامة ولنرسي سويا القومية العربية والوحدة العربيه .

« نرحب بكم أيها الاخوة ... وسنسير معاً أيها الاخوة متحدين بلدا واحدا ... قلباً واحداً ورجلا واحداً ... لنرسي مبادىء الكرامة الحقيقية ... استقلالا حقيقياً واستقلالا اقتصادياً حقيقياً » (١٧)

(١٧) هيئة الاذاعة البريطانية ، رقم ٥ ، ٢٨ تموز ١٩٥٦ . (من أجل النص انظر صحيفة الاورين ، رقم ١ (١٩٥٧) ص ٤٦)

وسرعان ما أبدت الحكومة السورية « تأييدها القوى المطلق لعبد الناصر » في الايام العاصفة التي اعقبت الاستيلاء على قناة السويس . وعقدت اجتماعات شعبية في ملعب دمشق البلدي ووضعت قوات المقاومة الشعبية بعد أن نظمت على أهبة الاستعداد وانخرط الشيوعيون في صفوفها ، واعلنت اذاعة القاهرة في اوائل شهر آب أنه في حال اتخاذ عمل ضد مصر فان مساعدة سورية سوف تشتمل على تخريب أنابيب النفط التي تمر في سورية : « لقد وجد الشعب السوري في جمال عبد الناصر الزعيم الذي كان ينتظره والقائد الذي يأمل قدومه ... ان الجماهير في الشوارع تعبد عبد الناصر » (١٨) . وعندما وقع الهجوم على مصر ، تصرفت سورية على النحو المتوقع : فقد طار الرئيس ومعه ثلاثة وزراء إلى موسكو في الثلاثين من تشرين الاول ونسف أقبوب البترول التابع لشركة نفط العراق في أوائل شهر تشرين الثاني .

كانت زيارة [illegible] إلى موسكو في ذروة أحتدام أزمة السويس تشير بوضوح إلى الطريق الذي سلكته سورية في الثمانية عشر شهرا السابقة ، اذ اصبحت روسيا الصديق والحامي الذي تتجه اليه في لحظة الخطر. وبالمقابل كانت سورية من بين جميع الدول العربية ، البلد الذي عقدت عليه الحكومة السوفيتية معظم آمالها ، والذي يسمح بالنشاط الشيوعي ويبدو تقدميا على نحو مبشر ، وقد خطط لزيارة القوتلي قبل عدة اسابيع بهدف عقد صفقة اسلحة جديدة ، او هذا ما أقترح في ذلك الوقت ، ذلك ان سورية كانت تجابه خطر الحرب والغزو ، وكان على الوزارة أن تقرر ما اذا كان على الرئيس ان يمتطي العاصفة في الداخل او ان تدخلا شخصيا على مستوى عال لدى موسكو قد يكون أكثر فائدة ، وقد رؤي الالتجاء إلى الحل الثاني فذهب القوتلي بناء على ذلك إلى موسكو ، للحصول على دعم سوفييتي عسكري وسياسي في حال حدوث هجوم على سورية ، وهناك حصل على تأكيدات قاطعة : فازدادت العلاقات مع الاتحاد السوفييتي وثوقا وتدفقت الاسلحة الروسية على البلاد من جديد ، مزودة قوات الميليشيا الشعبية بالانياب ، عاد بعدها القوتلي إلى سورية

(١٨) هيئة الاذاعة البريطانية ، ٧ آب ١٩٥٦ .

مؤمنـــا ــ كما قـــال المقربون اليه ــ بان التهديد السوفييتي بالهجوم على لندن بالصواريخ كان نتيجة لتدخله ..

وما ان تقدمت القوات الاسرائيلية في سيناء يوم التاسع والعشرين مــن تشرين الاول حتى تأهبت القوات السورية لدخول اسرائيل في فجر اليوم التالي ، غير ان القائد العام المصري اللواء عبد الحكيم عامر أمرها بالتوقف ، واجتمعت الوزارة السورية لكي تناقش هذه التعليمات التي وجدت انها تنطوي على بعض الغرابة حتى أنها أبرقت بأن كل شيء جاهز للبدء بهجوم ، ولم يلبث عامر ان ارسل رسالة ثانية يؤكد فيها أمره بعدم الهجوم . وفي اليوم التالي علم السوريون بخبر الانسحاب المصري بسبب التدخل الانكلو ــ فرنسي ، فلو ان القوات السورية والاردنية دخلت اسرائيل كما كان متفقاً عليه مــن قبل ــ وقع على حلف عسكري مصري سوري اردني في الثالث والعشرين من تشرين الاول ــ لكانت هي القوات الوحيدة التي تحارب اليهود ، وكما اوضح محمود رياض فان عبد الناصر اعتبر انه لو قامت سورية بهجوم على اسرائيل ، لبرز احتمال قيام بريطانيا وفرنسا بغزوها . وقد تقاطر الضباط السوريون على السفير المصري في دمشق طالبين منه السماح لهم بالقتال من أجل مصر . وكان ذلك بمثابة مشهد مؤثر جدا ، كما ذكر رياض للمؤلف .

هذا ولم يجر نسف أنبوب البترول ومحطة الضخ في أوائل تشرين الثاني بناء على اوامر الحكومة السورية او مدير المخابرات العسكرية عبد الحميـــد السراج ، وانما كان هذا العمل مستقلا قام به نفر من الشباب الوطني في الجيش وحزب البعث ، وعمال البترول ، ولم تكن ثمة حاجة لاصدار تعليمات محددة في جو من القومية المتأججة كان سائداً آنذاك ، والواقع أنه كان من السذاجة بمكان أن تفترض بريطانيا وفرنسا ان سورية ستسمح للنفط العراقي بالتدفق عبر اراضيها في حال تعرض مصر للعدوان .

وبمضي أقل من عامين بين كانون الثاني ١٩٥٥ وتشرين الاول ١٩٥٦ تحولت شكوك سورية تجاه مصر ، ونفورها من الفئة العسكرية الحاكمة هناك ، إلى تمجيد حار بعبد الناصر وبجميع المبادىء التي يدعو اليها ، وقد قدم تحالف

سورية مع مصر دليلا واضحاً على وضعه الدولي كزعيم عربي .. وكانت سورية القاعـــدة التي يمكنه أن يهاجم منها مراكز بريطانيا والعراق في آسيا العربية ، وتجلى الخطر الفوري على هاتين الدولتين في عام ١٩٥٦ في تبعية سورية لمصر أكثر مما تجلى في تبعيتها للسوفييت .. وكان تآمرهما على النظام السوري للاطاحة به هو ردهما على هذا الخطر .

❀ ❀ ❀

٢٠

٢ ـ طريق سورية الى السويس

الهجوم الغربي ـ العراقي المضاد

قوبلت المسيرة المنتصرة لرفـــاق الطريق من الزمر المشايعة لمصر في سورية قبل السويس بعام ، بمعارضة شديــدة داخل البلد وخارجه ، ولكن كلما احكمت هذه الزمر قبضتها على جهاز الحكومة وعلى مرتكزات السلطة في انحاء البلد كلما دفع اعداءها إلى التفكير بان الثورة المسلحة فقط هي التي تستطيع ازاحتها ووضع سورية في طريق مختلف ، فبينما كان التقدم السوفييتي ـ المصري الموضوع السائــد في تاريــخ سورية في عام ١٩٥٦ كـــانت الاستعدادات التي تقوم بها فئات المعارضة في سورية والمنفيين خارج البلد باتفاق مع العراق والولايات المتحدة قائمة على قدم وساق .

ولم تكن هذه المؤامرة على سورية ومع انها اقترنت بمأساة السويس ، لتؤدي الى تحسين العلاقات بين الشرق الادنى والدول الكبرى ، بـــل قادت بالتوترات المتراكمة لعدة سنوا ت مضت إلى أوجها فقد تميز عجز الدول الغربية في منتصف الخمسينيات عن أقامة علاقة فعالة مع الجيل الجديد من القادة القوميين بظهور الحاجة إلى اللجوء إلى مثل هذه الطرق اليائسة ، اذ لم يقابل التقييم السوفييتي الجديد للقومية العربية في ١٩٥٤–١٩٥٦ باى جهد فكري وخيالي مماثل في

الغرب ، ومن الناحية العقلية كانت المهمة الروسية أكثر يسراً وسهولة لأن مفكريهم لم يكونوا مثقلين بعادات وتقاليد وضع التفوق المحلي المكتسب ، إذ ان لهم مصالح محلية قليلة ليدافعوا عنها وكان أمامهم الكثير ليكسبوه ولهم صعوباتهم البالغة أيضا ، لقد فشل ستالين في تقدير الاهمية السياسية لحركة تحرر المستعمرات فهو قد حصر تفكيره وحتى النهاية بقضية « معسكرين عالميين » لا مكان لقوة ثالثة بينهما (١) .

وكان على خلفائه ان يخرجوا من هذا القالب ويقوموا بكثير من التفكير الجديد الطلق قبل اعترافهم بأن في الحركات الوطنية المحلية حلفاء مفيدين في النضال ضد المواقع الغربية الحصينة ،وفي زمن تال ، وعندما كان الروس يلائمون أنفسهم بنشاط مع المشهد السياسي المتغير ، كانت السياسة الانكليزية لا تزال تقوم على فرض أن الاحتفاظ بالتفوق السياسي والعسكري في المنطقة وبموقف صلب لا يلين من الوطنية المحلية هو السبيل الأمثل للدفاع عن مصالحها في الشرق الأوسط ، وهكذا فقد وضعت بريطانيا نفسها ضد تيار الشعور الشعبي ، لتدفع القوميين المتطرفين كالبعث إلى التحالف مع الشيوعيين .

وعلى أحد المستويات يمكن النظر الى التآمر على سورية على أنه رد فعل دفاعي لانهيار حلم نوري – ايدن في رؤية عالم عربي تحت زعامة عراقية مرتبط ببريطانيا من خلال حلف بغداد ، وكان نجاح هذا المخطط الكبير يعتمد السيطرة على سورية وعزل مركز المعارضة في مصر ، ولكن عبد الناصر اعلن عداءه لحلف بغداد وأمّن لنفسه رعاية سورية باقامته لقاعدة قوية هناك ، وكان الهدف الغربي – العراقي في ١٩٥٦ هو إبعاده عنها ودحر النفوذ المصري من آسيا العربية كلها ، لقد أدركت بريطانيا واصدقاؤها العراقيون بأن عليهم استعادة زمام المبادهة في سورية اذا ما أرادوا كبح جماح عبد الناصر والدفاع عن مواقع القوة القديمة في العراق والاردن والخليج ،

---

(١) انظر كورث غاستيجر «الاتحاد السوفيتي وعالم التكتلات» في التقرير السنوي للمعهد الملكي للشؤون الدولية رقم ٤٣ آب ١٩٦٢ ص ١٢ .

ودّعم هذه الفكرة اتجاه الاردن بعد طرد الجنرال كلوب من الفرقة العربية نحو المعسكر السوري المصري في ربيع عام ١٩٥٦ .

ولكن وعلى مستوى آخر فان التآمر بدا وكأنه جولة أخيرة في مداعبة الهاشميين لسورية والتي لم تلق لديها أي صدى : انها سعي أخير لتوحيد الهلال الخصيب في ظل تاج عام . فبينما عارض نوري السعيد والبريطانيون هذه المطامح الوراثية في الاربعينيات واوائل الخمسينيات بدوا الآن أقل معارضة لها على ضوء الصراع المرير على القوة مع عبد الناصر ، بينما منعت العداوة الافرنسية والسعودية والمصرية بريطانيا من تحقيق وحدة في الهلال الخصيب في أوائل فترة ما بعد الحرب ، فان هذه العوامل لم تعد ذات اهمية في منتصف الخمسينيات ، فقد ساءت العلاقات الانكلو — سعودية بسبب النزاع حول البريمي ، بينما فقد الحاح فرنسا على الحصول على « حقوق خاصة » في سورية كل واقعيته عندما لم تعد بريطانيا هي منافستها الوحيدة هناك ، وفي ربيع ١٩٥٦ أقنعت بريطانيا بأن تقدم دعمها للعراق في سبيل اخراج سورية من النفوذ المصري ، وبالتالي لاستلام زمام المبادهة في آسيا العربية .

أما بالنسبة للسياسة الاميركية ، فهي لم تكن لتهتم باحلام الهاشميين أو بمصالح البريطانيين ، فبتجاهلها للقضايا المحلية كان شاغلها الاول هو اقامتها على سطح الكرة الارضية طوقا من النقاط القوية والتحالفات العسكرية حول المنطقة التي يسيطر عليها السوفييت وكانت المكتسبات الشيوعية في سورية هي التي أدت إلى توريط الولايات المتحــدة في التآمر وليس النفوذ المصري هناك .

« تكتيك » العراق وسياسته :

لم توضع خطة الحملة على سورية عام١٩٥٦على شكل انقلاب ليلي تعده حفنة من ضباط يرقدون في الثكنات ، ليعلن عند الفجر على جمهور من العوام لا يدركون حقيقة الامر ، لقد كان بدلا من ذلك دسيسة مشوشة ممرغة سيئة

التدبير اتخذت شكلها الاخير فيما بين آذار وتشرين الاول من عام ١٩٥٦ وجمعت شركاءها ودعاتها لتنتهي بشكل مهين في احدى قاعات المحكمة في دمشق ، ولقد أكدت مجموعة من المحاكمات السياسية التي اقامتها حكومة اللواء قاسم الثورية في بغداد بعد ثمانية عشر شهرا وبشكل جازم تفاصيل المؤامرة كما كشفتها المحكمة في دمشق ، وهكذا فان كلا الجانبين السوري والعراقي صاحبي العلاقة قاما بسرد التفاصيل الكاملة (٢) .

واتخذ التدخل العراقي في سورية طريقه كمثيله من تدخل منافسيه — العربية السعودية و مصر — شكل دفع اعانات مالية إلى الصحف والساسة السوريين وتقديم هبات مالية إلى مجموعات صغيرة من المنفيين السوريين في لبنان اوأي مكان آخر ، وكانت هذه الاشكال من الرعاية تقدم في اوائل الخمسينيات عن طريق الملحق العسكري العراقي في دمشق الزعيم عبد المطلب الامين الذي أصبح مركز تجمع العواطف الموالية للعراق ، تماما كما اصبح السفير السعودي مركزا للمجموعة المنافسة .

وبحق فان تدخل المبعوثين الاجانب كان ظاهرة واضحة في مسرح السياسة السورية وعاملا له وزنه في أي تقييم سياسي ، وكان نائب رئيس اركان الجيش العراقي السابق اللواء غازي الداغستاني واحدا من اشهر من خدموا

---

(٢) بالنسبة لمحاكمات دمشق انظر :

آ — المستند ٢٣٩ : لائحة الادعاء في التآمر ضد أمن الدولة ٢٢ كانون الاول ٩٥٦ ١ (نشرة مكتب الوثائق العربية في دمشق كمستند تحت رقم ٢٣٩) .

ب — المستند ٢٤٣ تقرير عبد الحميد السراج عن التآمر ، والذي أصبح فيما بعد رئيس المخابرات العسكرية ، وكذلك المحاكمات في ٨ حزيران و ٢٦ شباط من عام ١٩٥٧ (المستند رقم ٢٤٣ مكتب الوثائق العربية) .

جـ — هيئة الاذاعة البريطانية ، ١٨٥ ، ١٨٦ في ١ و ٢ آذار ١٩٥٧ الملحق من أجل الاحكام التي اصدرتها المحكمة العسكرية . وبالنسبة لمحاكمات بغداد انظر (محكمة الشعب ، المحاكمات الرسمية للمحكمة العسكرية الخاصة ١٩٥٨) المجلد الاول (أشير اليها فيما بعد كمحاكمات رسمية) .

راجع الكاتب المستمسكات الاصلية لكل هذه المحاكمات في محادثات أجراها مع بعض المدعى عليهم الرئيسيين .

الحكم السابق وحاكمته الحكومة الثورية في بغداد في آب من عام ١٩٥٨ بتهمة التآمر على سورية ، وقد افتتح دفاعه بالتبرير التالي : « سيدي الرئيس ، سادتي أعضاء المحكمة العسكرية العليا ، لقد جعلت معظم الحكومات العراقية من التدخل في الشؤون الداخلية لسورية مبدأ معمولا به منذ أيام حسني الزعيم ان لم يكن من قبل ذلك (٣) .

ان هدف السياسة العراقية منذ عام ١٩٤٩ وما بعد ، وحتى بعد أن تحول التيار ضدها في سوريا ، هو الاخذ بيد اصدقائها في دمشق للوصول بهم الى الحكم ، على أمل اعلانهم الوحدة مع العراق فيما بعد . فقد عملت المساعدة العراقية مثلا على الاطاحة بالزعيم في آب من عام ١٩٤٩ كما والشيشكلي في شباط من عام ١٩٥٤ ، ولكنّ هذين العملين لم يكونا إلا نوراً مشعاً ساطعاً في مسعى دائب ، وبحق فقد بقيت شخصيات سورية معروفة تعيش على ما يدفعه لها العراق لعدة سنوات ، ويجدر هنا ملاحظة ان العراق قد ترك تخطيط وتنفيذ الانقلابات العديدة للسوريين انفسهم مزودا اياهم بالمال والمشورة التكتيكية التي يمكن للملحق العسكري نفسه تقديمها ، وثانيا بأن نجاحها كان محدودا ، اذ أنه ما من حكومة ساعدها العراق في استلام السلطة اتجهت لان تقوم بخطوات فعالة لاقامة وحدة سورية — عراقية ، فحالما كان السياسيون السوريون يستلمون السلطة كانوا يفقدون كل تشوق فوري للوحدة مع ان جشعهم لم يكن ليتأثر بذلك .

لقد نوقشت فيما مرّ ، بعض أسباب اخفاق اقامة وحدة عراقية سورية في العقد الزمني الذي تلا الحرب . فالافرنسيون والسعوديون والمصريون كانوا جميعا معارضين لها ، ولقد فهمت بريطانيا مشاعرهم جميعا وكانت في كل مرة مترددة في أن تقوم بما قد يؤدي إلى اقلاق وضعها السائد في العراق ، ولم تشجع الولايات المتحدة قيام أي دمج بين العراق وسورية ، مراعاة منها لابن سعود في البدء ومن ثم لعبد الناصر بعد ١٩٥٤ ، وانقسم زعماء العراق السياسيون حول هذه القضية إلى قسمين : فبينما مال رجال

(٣) المحاكات الرسمية ص ، ٢٧١ .

أمثال فاضل الجمالي ، وتوفيق السويدي وصالح جبر نحو تفضيل الوحدة ، كان احمد مختار بابان معارضا كليا للقيام بمجازفة في سورية ، وساد شعور بأن نوري السعيد نفسه قد فترت همته ، إذ قدر أن كلا من العراق وسورية كانا بلدين يصعب حكمهما فاذا ما اتحدا فان المشقة ستكون اعظم، وعرف أيضا أنه في حال قيام الوحدة سيسيطر السوريون على الحياة الاقتصادية في العراق، فقد كانوا أكثر ثقافة ومهارة ومغالطة .

وعلاوة على ذلك وبعيدا عن المطامح الوراثية فان مصالح العراق الحقيقية في سورية لم تكن واسعة جدا ، اذ ليس لديه فائض من الفلاحين يود توطينهم ، ولم يكن يطمع بثروة سورية ، لقد كان يريد وبالدرجة الاولى ان يؤمن سلامة أنابيب نفطه عبر سورية وبالدرجة الثانية أن يكسب مدخلا إلى البحر الابيض المتوسط وبهذا يحرر تجارته من الاعتماد على البصرة ، وقد اهتم أيضا في أن يمنع سورية من الوقوع تحت سيطرة دولة معادية يمكن ان تهدد امنه وتكبح نفوذه في منطقة الهلال الخصيب ، ولكن وبما أنه يمكن الدفاع كليا عن هذه المصالح بشيء غير الوحدة السياسية للبلدين فان العراق جرى وراء مثل الوحدة الأعلى بعزيمة فاترة .

إن موارد العراق كانت في الحقيقة موزعة على عدد من المشاريع المختلفة والمتنافسة في أحيان كثيرة ، وكان هنالك القليل من تناسق الجهود ، وقد قام الملحق العسكري العراقي عبد المطلب الامين وخليفته في دمشق ، صالح مهدي السامرائي وكان آنئذ في بيروت ، برعاية صنائعهما المحليين بينما شجع الوصي عبد الاله المقربين اليه من السوريين المعروفين ، ولقد ارسل العراق مبعوثين من مستوى سيء وعلى الغالب ذوي ماض غير ملائم لكي يجسوا نبض الرأي العام السوري ، ويروي السوريون بمتعة وسخرية بانه قد وصل إلى دمشق مبعوث عراقي في لباس البدو وأقام في بهو فندق اوريان بالاس حيث توقع ان يأتي السوريون الذين يعانون بازدياد من نفوذ المعارضين الشباب ، ليتحادثوا معه بشأن الوحدة . إن نجاح السفراء العراقيين في دمشق منذ عام ١٩٥٥ وما بعد لم يكن ليضارع نجاح المبعوث المصري الحاذق محمود رياض ، الذي بقي

في منصبه اربع سنوات وحتى بعد قيام الوحدة السورية — المصرية ، وعلى أية حال فسرعان ما وجد السوريون سواء أكانوا جمهوريين أم حياديين أو معادين في غالبيتهم العظمى للهاشميين في عبد الناصر محط آمالهم الوحدوية.

وقد أدت خيبة الآمال المتكررة إلى خلافات بين العراقيين وعملائهم من «السياسيين في سورية» وإلى قدر معين من المهاترة المتبادلة ، فانتقد السوريون العراقيين بانهم لم يعملوا بما فيه الكفاية من أجلهم ، بينما أملت بغداد وانتظرت دون جدوى دمشق كيما تقوم بحركة عفوية لصالحها .

بدأ عبد الاله ونوري وبعض السوريين أنفسهم في الخمسينيات يقتنعون بفكرة ان غزوا مسلحا لسورية من العراق هو الكفيل بضمان النجاح ، وفي اوائل ١٩٥٣ وضعت خطة مفصلة لهجوم عراقي من ثلاث جهات يوجه ضربته في حلب وحمص ودمشق ، وقد اعترف اللواء داغستاني في محاكمته بأنه قد تلقى مثل هذه الخطة — وأشار اليها في المحكمة على انها العملية س — من راسمها عبد المطلب الامين عام ١٩٥٤ ، ولكنه لم يكن هنالك اي تهديد حقيقي بتنفيذها ، فقد كان كلاهما الداغستاني ورئيس الاركان رفيق عارف يعارضان استعمال القوة ضد سورية ، فرأيهما بأن أي صدام بين الجيشين العراقي والسوري سيكون كارثة للبلدين لا تخدم الا اسرائيل ، وستكون أية وحدة يمكن ان تنتج عن ذلك ارتباطا ضعيفا ، وعلى هذا وعندما طالب السياسيون بالقيام بعمل احجم القادة العسكريون عن ذلك مشيرين في بعض الاحيان الى نقصان المواصلات وفي أحيان أخرى الى قلة عدد الطائرات أو الى الحاجة الى تدريب الطيارين واقامة قواعد جوية ، وكنتيجة لذلك لم تعط فكرة التدخل المسلح أية اولوية مطلقا ، وعادت الحكومة العراقية من جديد الى استراتيجيتها القديمة في تشجيع السوريين أنفسهم على القيام بانقلاب .

ولكن وفي عام ١٩٥٦ ومرة اخرى اتخذت الخطط الموضوعة لتغيير نظام الحكم في سورية شكل ضرورة ملحة ، فقد أصبح صراع نوري— عبد الناصر الذي قام حول حلف بغداد والذي شنه الطرفان بدون كلل او ملل بواسطة محطات الاذاعات السرية والعلنية، أصبح هذا الصراع حربا حتى الموت ، وبدا

التلاحم السوري بالاتحاد السوفييتي اكثر جدة يوما بعد يوم ، بينما بدأت مناداة البعث بوحدة سورية - مصرية تسبب الهلع في بغداد ، وكان من الواضح انه ستكون هنالك حاجة الى شيء أكثر من التكتيكات القديمة للتخريب البسيط اذا ما أريد ازاحة قبضة عبد الناصر عن سورية وكبح جماح التسلل الشيوعي .

وهكذا لم يكن هنالك بد من اقحام الجيش العراقي في التآمر ، ففي الدرجة الاولى وصلت الى بغداد شائعات تقول بان الروس كانوا يقيمون قواعد جوية شرقي حلب وفي منطقة تدمر ، ولا ريب في ان السياسيين السوريين الذين كانوا يتشوقون للحصول على دعم العراق قد بالغوا في هذه الأنباء ولكنهم كانوا محقين فقط الى حد أن الضباط الروس والتشيكوسلوفاكيين قد قاموا باستطلاع في الصحراء السورية بين سورية والعراق بينما كان مدخل بقاع واسعة من هذه المنطقة لا يزال مجهولا للجماهير ، وقد طرد العملاء الذين ارسلهم العراق للاستقصاء .

وهنالك سبب آخر لتوريط الجيش هو الخوف من ان تنتهز اسرائيل الفرصة أثناء قيام أي اضطراب في سورية لتقوم بالهجوم ، وقد احتج رئيس الاركان العامة العراقي بأنه بامكان قوى اسرائيل ان تصل دمشق بفترة ٦ ساعات ، وبعد ذلك تجابه العرب بالامر الواقع لتنسحب فقط عندما يوافق العرب على اجراء محادثات سلام معها والاعتراف بدولتها ، وليس هنالك أي دليل على أن هذا التقييم كان ذا صلة بخطط اسرائيل في ذلك الوقت ولكن تلك هي الخطوط العريضة لتفكير العراقيين وقتئذ ، ومع ذلك فهنالك توجس آخر فاذا لم يقم العراق بدعمه لقلب نظام الحكم السوري فان الفئات المعارضة سوف تتجه الى طلب المساعدة من فرنسا ، وقد سادت فكرة بأن الديكتاتور السوري السابق اديب الشيشكلي الذي استقر في فرنسا وكانت له علاقات وطيدة بذلك البلد كان يخطط للعودة الى السلطة في دمشق بمساعدة افرنسية ، وعلى هذا كان العراق في ربيع عام ١٩٥٦ اكثر تصميما على الامساك بزمام المبادهة في سورية واقامة حكومة من انصاره في دمشق فعلى من يستطيع أن يتكل ؟

المنفيون السوريون :

كانت عمليات التطهير التي تلت التقلبات السياسية في سورية منذ عام ١٩٤٩ وحتى عام ١٩٥٥ كثيرة ، بحيث بلغ القول احيانا بأن الضباط خارج الجيش السوري أكثر منهم داخله ، فقد عمل كل انقلاب على تضخيم جموع المنفيين في لبنان وعبر الجبال ، ولابد أن مؤامرة ١٩٥٦ قد بدت لعدد منهم على انها فرصة لتسوية الحزازات القديمة والعودة بهم منتصرين الى الوطن ، وهكذا تجمعت لهدف واحد عدة فئات تضم تيارات مختلفة متنافرة لتقيم تحالفا مؤقتا بين رجال غالبا ما تنافسوا على السلطة ، ولكنهم أقصوا عنها وعن الحياة العامة في فترات مختلفة بسبب ظهور الاتجاه اليساري المسيطر والداعي الى التقارب مع مصر .

ومن كل هؤلاء المنفيين غير المنسجمين يشكل الحزب القومي السوري أشد المجموعات العسكرية تلاحما ، وكان عدد من زعمائه امثال العقيد غسان جديد قد هربوا الى بيروت بعد أن طاردتهم سورية بعد مقتل المالكي حيث تابعوا من هناك أخبار المحاكمة ومراحل مصرع حزبهم في دمشق وهناك وضعوا الخطط لانتقامهم ، وقد جعل منهم نظامهم الصارم وتقاليدهم شبه العسكرية وأمانتهم لمبدأ الحزب ما يشكل تهديداً خطيراً لنظام الحكم السوري ، وتعلق بأهداب حركتهم ضابط منفي آخر هو النقيب صلاح الشيشكلي ، كان ذا نفوذ واسع من قبل كوسيط مع أخيه الديكتاتور السابق أديب الشيشكلي ، و له أيضا ارتباطاته العائلية في حماه ، حيث يمكن الاعتماد عليه لجمع عدد من الرجال المسلحين عند الضرورة ، وهنالك منفي هام آخر هو العقيد محمد صفا الذي شكل « حكومة سورية الحرة » في العراق بين عامي ١٩٥٣ — ١٩٥٤ لمعارضة حكم الشيشكلي ولم ينله شيء من الغنيمة بعد سقوط الديكتاتور ، وقد أدى انقلاب فاشل بعدئذ الى هربه من سورية ، وكانت خطته الرئيسية بعد ان شعر بالمرارة والخيبة ، العودة ليكسب من جديد مكانة في الجيش السوري ، وهنالك ايضا ضابط سابق آخر هو المقدم محمد معروف الذي كان يعمل كرئيس للشرطة العسكرية خلال حكم الحناوي القصير والمتعاطف مع العراق في عام ١٩٤٩ .

هؤلاء الرجال الاربعة غسان جديد وصلاح الشيشكلي ومحمد صفا ، ومحمد معروف واتباعهم هم العناصر الرئيسية في لبنان الصالحة للقيام بحملة سرّية على سورية في عام ١٩٥٦ ، وكل على حده على صلة بالملحق العسكري العراقي في بيروت الزعيم مهدي السامرائي .

والحزب القومي السوري اول من أمسك بزمام المبادهة ، فقد عقد اعضاؤه سلسلة من الاجتماعات في بيروت في شتاء عام ١٩٥٥ – ١٩٥٦ حضره زعماؤه غسان جديد وجورج عبد المسيح واسكندر شاوي وسعيد تقي الدين ، والثلاثة الاول محكومون بالموت في بلدهم سورية – ليضعوا بياناً يتضمن الأهداف التي يمكن أن توحد قوى المعارضة في سورية ، وقد جرّوا صلاح الشيشكلي ومحمد معروف الى جلساتهم وظهر أيضاً من نص البيان أن بعضاً من السياسيين كانوا يتعاطفون مع قضيتهم أمثال عدنان الاتاسي ، ابن رئيس الجمهورية السابق هاشم الاتاسي ، وقد دعا نص البيان الذي اتفقوا عليه في النهاية ، الى ثورة شعبية تطيح بالدستور السوري وتحل البرلمان وتقيم حكما جمهوريا رئاسياً ، ثم تشكل حكومة جديدة من موقعي البيان وتلغى الاحكام التي صدرت في قضية المالكي وتتخذ الخطوات لاقامة وحدة الهلال الخصيب ، وقد دعا البيان ايضا الى تشكيل لجنة عسكرية وسياسية لربط الجنود والمدنيين في الحركة ورسم خطط مفصلة للانقلاب .

كان الحزب القومي السوري على صلات وثيقة مع أديب الشيشكلي في السنوات الاولى لحكمه في دمشق ، ولذ قرر الآن وهو يتطلع حوله بحثاً عن حلفاء، أن يحاول الاستفادة منه في التماسه الجديد للسلطة ، فأرسل صلاح الشيشكلي ومحمد معروف في نيسان من عام ١٩٥٦ في مهمة الى الدكتاتور السابق في باريس ، الذي شجعهم لكنه نصحهم بان يعرضوا ذلك على العراق في البدء .

واقترح بان يطلب من الحكومة العراقية ارسال احد كبار الرسميين لمقابلته في جنيف، ومناقشة الدور الذي قد يرغب العراق القيام به في المؤامرة .

الطور الاول : نيسان – تموز ١٩٥٦ .

وقد ورد قسم مما حدث بعدئذ في بغداد في دفاع اللواء داغستاني في المحكمـــة :

« في حوالي هذا الوقت (ربيع عام ١٩٥٦)» كما اعتقد عقد اجتماع في القصر لمناقشة الوضع السوري بشكل عام ، وقد حضره فيصل وعبد الاله والوزراء اذكر منهم نوري – أحمد مختار بابان ، برهان باش أعيان وعبد الله بكر ، وقد دعيت أنا وزميلي عارف (رئيس الاركان) الى الحضور كممثلين عن الجيش .

وقد أبلغنا أثناء هذا الاجتماع بأن اديب الشيشكلي قد طلب ارسال شخص ما ليقابله في سويسرا وقد ارتؤي للوهلة الأولى ارسال باش أعيان (وزيـــر الخارجية) ولكن وبعد مناقشات اوسع تقرر ارسال أحد الضباط لأن الشيشكلي كان عسكرياً وسيكون من الاسهل بالنسبة له ان يتفاهم مع ضابط .

وأمرت بعدئذ ان أذهب ، ففعلت وقابلته في سويسرا ، وقد ابلغني بأنه يبغي القيام بانقلاب في سورية ويريد من العراق ان يعترف بحكومته ، وهـــو بالمقابل سيبدل سياسته السابقة نحو العراق وسيتبنى موقفاً مخلصاً له ، كما طلب مساعدة مالية فأوضح أنه يريد ٣٠,٠٠٠ دينار كدفعة اولى تسلم اليه في بيروت ، عدت بعد ذلك وابلغت الحكومة بما حدث في اجتماع آخر في القصر ، وقد تقرر الاستجابة لطلبه واقترح بأن اقابله في بيروت واسلمـــه المبلغ » (٤) .

وصل أديب الشيشكلي سراً إلى بيروت في تموز عام ١٩٥٦ وزوده الحزب القومي السوري بسيارة وحرس ودبروا له قضاء الليل في أماكن مختلفة كي لا يكتشف أمره ، وكانت خطوته الاولى استدعاء زميلين سابقين من دمشق ، وهما برهان ادهم وحمدي صالح تدارس معهما الموقف السياسي في سورية ووضع الجيش (ولم يكن موفقاً في اختياره للنصحاء حيث أصبح كلاهمـــا

(٤) المحاكمات الرسمية ص ٧٢ .

مخبرين في البوليس وافشيا سر المؤامرة للسلطات السورية) .

وترأس الشيشكلي عدداً من الاجتماعات التي حضرها اقطاب المؤامرة أمثال أخيه صلاح ومحمد معروف وزعماء الحزب القومي السوري وبرهان ادهم عرض فيها غسان جديد خططهم للانقلاب ، كما اوضح جديد أن الحزب القومي السوري يعتقد بانه لا يمكن تأمين النجاح دون اغتيال اكرم الحوراني وخالد بكداش وعبد الحميد السراج وعدد من صغار الضباط ، واعدت لتنفيذ المهمة فرق اغتيال .

لكن هذه الخطط كانت دموية جداً بالنسبة للشيشكلي الذي لربما خاف من أن يثأر من عائلته في حماه ، وعلاوة على ذلك فقد كان يرتاب في تأكيدات جديد الواثقة حول وجود دعم قوي في الجيش السوري ، وقد بدا له بأن الفروق هائلة وان موارد المتآمرين تدعو للسخرية ، لقد كان انقلابياً محنكاً واذكى من ان يجازف بنفسه في مثل هذا المشروع المتهور ، وعلى ذلك فقد رحل بعد ان انتظر المدة التي تكفيه لكي يجمع من العراقيين المبالغ التي يستطيع جمعها ، وكما يذكر الداغستاني في دفاعه :

« ذهبت الى بيروت ، بعد أن اجتمعت بالشيشكلي فلم اسلمه كامل المبلغ بل زودته بمبلغ ١٠,٠٠٠ دينار فقط على مسؤوليتي لانني شككت في نواياه ، واودعت البقية الباقية من النقود عند الملحق العسكري في بيروت حيث ادرج في الحسابات ، وفي اليوم التالي سمعت بأن الشيشكلي قد غادر بيروت سراً ، رغم انني على موعد معه كي يطلعني على خططه ومقاصده .

وعدت فأعلمت الحكومة بما حدث في اجتماع آخر في القصر حضره كما اذكر نفس الوزراء .. وآمل ان يتذكروا ذلك ، اذ يبدو ان معظمهم قد نسوا او يدعون بانهم قد نسوا بأنهم هم انفسهم قد وافقوا على عدم اعطائي المبلغ الكامل له نظراً لما حدث بعد ذلك ... »

وباختفاء الشخصية الرئيسية تهاوى الطور الاول من المؤامرة دون أي خسارة تذكر عدا خسارة المساعدات العراقية واضمحلال نفوذ صلاح الشيشكلي الذي حاول دون جدوى منع رحيل أخيه السريع .

الطور الثاني : تموز – تشرين الثاني ١٩٥٦

كانت بريطانيا والولايات المتحدة في هذا الوقت على اطلاع تام على كل ما يحدث ، ويعتقد بان المتآمرين اتصلوا بالممثلين البريطانيين في بيروت وطلبوا منهم المساعدة في اوائل آذار من عام ١٩٥٦ ، وقد صعّد طرد الجنرال كلوب في ذلك الشهر إثر الفشل الذريع لبعثة تمبلر الى الاردن (٥) ، عداء الانكليز لعبد الناصر الى الذروة ، فقد نسبت اليه كل هذه النكسات ، كما باتت كل من لندن وواشنطن مهتمة أيضاً بالخطى السريعة التي يخطوها النفوذ السوفييتي في سورية ومصر منذ اعلان مصر عن صفقة الاسلحة التشيكية ، ولكي «يتم ايقاف العفن » فلا بد من بدء المعركة في سورية ، وعلى هذا فان الباب لم يوصد في وجوه المتآمرين .

وفي منتصف الصيف ألفت لجنة انجليزية – أميركية – عراقية في بيروت لتبادل المعلومات ومناقشة الوجوه الدولية للمؤامرة وتفحص الخطط والمقترحات التي وضعها لها السوريون المتعاونون ، لكن العراقيين كانوا متشوقين لان يعملوا وحدهم فقط وسطاء بين هذه الهيئة المشرفة والسوريين ، ويوضح الداغستاني في دفاعه أنه قد تم ادخال بريطانيا والولايات المتحدة لكي تمدا ايديهما فيما لو اتخذت الامور ابعاداً دولية ، وقال إن دورهما الرئيسي يتلخص في منع أي تدخل اسرائيلي – فرنسي او تركي في حالة حدوث انقلاب ممالىء للعراق ، كما أوضح أنهما قد قامتا بتوزيع المال والسلاح أيضاً .

وقد سبب جموح الشيشكلي وهربه ، فزعاً موقتاً للمتآمرين ، اذ عزموا على الاستمرار بدونه ، فضم العقيد محمد صفا الذي لعب دوراً صغيراً او انه لم يلعب اي دور في الطور الاول من التآمر ويعود ذلك بالدرجة الاولى الى نزاعه القديم مع الشيشكلي ، رغم انه لم يكن على وفاق مع زعيم القوميين

(٥) نتيجة الاستيضاحات الرسمية الأردنية حول حلف بغداد ذهب الجنرال سير جيرالد تمبلر رئيس هيئة الاركان البريطانية العامة الى الاردن في كانون الاول ١٩٥٥ لاجراء مباحثات ولكن الزيارة تسببت في نشوب مظاهرات عنيفة ضد الحلف الذي لم تنضم اليه الاردن .

السوريين غسان جديد ، فجمع بينهما ضابط مبعد آخر ، هو المقدم حسن الحكيم بتوسطه على التفاوض بينهما وعقد اتفاق عمل وتوحيد زمرتيهما الخاصتين بهما في وجه العدو المشترك .

وعند رحيل الشيشكلي في تموز من عام ١٩٥٦ رأس اللواء الداغستاني اجتماعاً كاملا لتدارس الوضع مع المتآمرين ، حضره الأشخاص الرئيسيون كلهم وهم جديد وصفا وصلاح الشيشكلي ومحمد معروف وتقي الدين والملحق العسكري العراقي الزعيم صالح مهدي السامرائي ، وقد قرر فيه متابعة الاستعدادات شبه العسكرية وتجنيد السياسيين ليكونوا جاهزين لاستلام السلطة بعد الانقلاب ، وكلف العقيد صفا بوضع ميثاق جديد بأهداف المتآمرين وقعوا عليه جميعاً ، كما اقسموا على الولاء في اجتماع سري آخر عقدوه في قرية لبنانية تدعى شملان في الحادي عشر من شهر آب ، وكان القوميون السوريون آنئذ منهمكين في تدريب قوة هجومية ، تتألف من حوالي ٣٠٠ رجل تمركزت في بيت مري في الجبال اللبنانية من أجل دورة تدريبية على القتال .

وبقي السؤال الحاسم حول مدى اسهام العراق – وهو موضوع كان للمبعدين فيه وجهات نظر كثيرة – ، وقد روى الداغستاني في دفاعه انهم قد طلبوا لا أقل من ٢٠,٠٠٠ قطعة سلاح ومليون دينار ، كما طلبوا أيضاً تسهيلات لتدريب المتطوعين السوريين في معسكرات عسكرية في العراق وضمان الدعم العسكري العراقي في حال وصول أية مساعدة الى معارضيهم من الدول العربية المجاورة ، وعلى أية حال فان العراق لم يرفض فقط طلبهم تسهيلات التدريب ، بل اوضح أيضاً أن جنوده لن يستعملوا لدعم الانقلاب الا في حال هجوم اسرائيلي او تدخل شيوعي من الانيا عن طريق البحر او الجو فوق تركيا ، أما بالنسبة للسلاح والمال فقد خفضت طلبات المنفيين إلى ٢٠٠٠ قطعة سلاح فقط و ١٠٠,٠٠٠ دينار (٦) ، وكشف الداغستاني أن الولايات المتحدة قدمت

(٦) المحاكمات الرسمية ، الصفحتان ٢٧٣ – ٢٧٤ ، يقدم رئيس المخابرات السوري عبد الحميد السراج في تقريره ارقاما وهي ٥٠٠٠ قطعة سلاح و ٧٥٠٠٠٠ ليرة لبنانية (المستند =

قسماً من الاسلحة بينما تم شراء القسم الاخر من ايطاليا باعتمادات من ميزانية وزارة الخارجية العراقية .

ولتقتير العراق وشحه اسباب عدة ، ففي المكان الاول كان للحكومة العراقية ميزانية – على نقيض منافستها السعودية التي كانت مصاريفها المعاكسة على « العلاقات العامة » في سورية اكبر بكثير – ولا ريب في أن من مصلحة العراق الانفاق ١٠ ملايين جنيه لتأمين سلامة انابيب النفط وتأمين منفذ الى البحر الابيض المتوسط ، ولكن الحكومة لم تكن لتستطيع ان تتصرف بنصف مليون جنيه دون ان تواجه قضايا صعبة ، وعلاوة على ذلك فقد كان للعراقيين أسباب وجيهة للحذر من جشع السياسيين السوريين ، إلا انهم اعتقدوا مخلصين بأنهم ليسوا في حاجة الى رشوة الرجل العادي في سورية ، لأن الروابط الطبيعية والاخوية أقوى بكثير . ويلقي أحد التفاصيل المأخوذة عفواً من محاكمات دمشق ضوءاً على درجة التدخلات : لقد أرسل المتآمرون ٥٠ جنيهاً الى صاحب مقهى في حماه ليستطيع ان يقدم مشروبات بدون مقابل وليجند شباباً في الحركة .

ولكن ما من شرح موجز يستطيع ان يصف بدقة النشاط السري المحموم في الاشهر التي سبقت السويس في بيروت ، فقد شب نزاع بين الاطراف المختلفة وتم اصلاحه بجهد شاق ، وحددت تواريخ للانقلاب ، ثم أجلت ، لقد صرفت طاقة كبيرة على تغيير العهود وصياغة المواثيق ، وبدا التدافع للوصول الى الجدول الرئيسي لمال الرشوة الاجنبي بدلا من التخطيط الهادىء لقلب نظام الحكم في دمشق ، كما وتنافس العقيدان ، صفا وجديد اللذان لم تسوى خلافاتهما نهائياً ، على الحظوة بثقة العراقيين الخاصة ، مع أن الاثنين كانا عضوين باللجنة العسكرية التي شكلت وهما قلب المؤامرة النابض ، وهنالك ايضاً دليل يقول : إن بريطانيا والولايات المتحدة وهما تجلسان معاً في اللجنة التنظيمية لم تقوما ابداً بتنسيق جهودهما ، فقد كان لكل دولة اصحابها المفضلون في سورية وبين المنفيين في بيروت فقدمت لكل منهم دعماً خاصاً ، وكان الحزب

رقم ٢٤٣ ص ٥) وتقدر المصادر الموثوقة بان ما قدمه العراق من المساعدات للمتآمرين في بيروت بحوالي ٢٠٠ ٠٠٠ دينار ولا يتضمن هذا المبلغ الدفعات التي قدمها الوصي الى اصدقائه السوريين . ولا ريب في أن الارقام الصحيحة لن تعرف قط .

القومي السوري نفسه يعاني من خلافات داخلية ، وفشلت محاولة قام بها رئيس الحزب أسد الاشقر لتقديم جورج عبد المسيح الى محكمة حزبيةنظراًلمسؤوليته الواضحة والثابتة في اغتيال المالكي ، حين رفض عبد المسيح المثول ، وكنتيجة لذلك عزل عن أي نشاط حزبي وبالتالي فصل آخذاً معه حوالي مئة عضو ، وفيما انقسم قلب « النشاطات » فان الطرف الخارجي من السياسيين الثرثارين الذين ينتمون الى المؤامرة بات أقل من أن يشكل قوة مجدية ، وانتظر هؤلاء الرجال(وقد اعياهم الصبر)ان يتحطم اعداؤهم وانتسلّمالسلطة اليهم،ولم تكن اللجنة السياسية التي جمعتهم عبارة عن هيئة تخطيطية او ظل لوزارة بل كانت مجرد قائمة رجال أمل في ان يساعدوا على تأمين التصويت الى جانب العراق في المجلس النيابي السوري عندمـــا يكون الانقلاب قد مهد الطريق أمـــام انتخابات جديـــدة .

ولربما كان زعيم الحزب الوطني ذلك الحلبي المعروف ميخائيل اليان أكبر شخصية معروفة من اولئك، والذي صرف في السنوات السابقة جزءاً كبيراً من ثروته الشخصية في العمل على ترويج فكرة الوحدة مع العراق (ويشير منافسوه الى انه قد عوض كل ما صرفه عن طريق المساعدات العراقية) لقد كان صديقاً حميماً للأمير عبد الاله بحيث أن ارتباطه بالتآمر كانعلى أعلى مستوى، كما قام بتسوية النزاعات الطفيفة التي حدثت في بيروت ، وبحق فان العراق كان يرغب في أن يراه رئيساً لوزراء سورية ، وبالرغم من كونه مقداماً ويتمتع بطاقة كبيرة فانه يعاني من ذلك العجز الاشوه من حيث كونه مسيحياً: فهو لا يؤمن في مدينته الا دعم اقلية قليلة، وعلى هذا فقد كان امرأ غير صائب في ان يعهد اليه بدور الزعيم الوطني السوري .

وشملت الشخصيات الاخرى المعروفة التي جرّت الى الحركة، عدنان الاتاسي وهو سفير سابق في باريس وعضو بارز في حزب الشعب ، وابن عمه فيضي الاتاسي وزير الخارجية السابق ، ومنير العجلاني وهو استاذ حقوق في جامعة دمشق معروف بتعاطفه مع الهاشميين ، وسامي كبارة وهو وزير عدل سابق خلال حكم الحناوي وصاحب صحيفة النضال والشيخ هايل سرور

وهو شيخ قبيلة (٧) والوجيه الدرزي الامير حسن الاطرش ، وكما هي الحال في اللجنة العسكرية فان هؤلاء السياسيين قد صرفوا في الوصول الى اتفاق فيما بينهم طاقة اكبر من التي صرفوها في التخطيط لقهر العدو ، فقد عرف مثلاً أن لدى القوميين السوريين خططاً لاستغلال الوضع الذي سيخلفه الانقلاب لتشكيل حكومة منهم والبدء بتنفيذ مبادئهم القومية السورية ، فتم الوصول الى اقناعهم بقبول نصيب أكثر تواضعاً من ثمار النصر المنتظرة ، بالاتفاق على انه في حال نجاح الانقلاب فانه سيسمح لهم بالعمل من جديد بشكل شرعي كحزب سياسي ، ولكنه رفض اعطاؤهم مقاعد في الوزارة القادمة على أساس ان وجودهم يمكن ان يعطي للحكومة اسماً سيئاً .

لقد ترك شكل النظام الجديد مبهماً ، وعرف العراقيون وحلفاؤهم من الدول الكبرى بانه كانت تسود المتآمرين خلافات حزبية وشخصية ، وكان املهم الوحيد هو في أن يبقوا على هذا التحالف بشكل متماسك حتى لحظة الانقلاب ، - متوقعين تماماً تفككه بعد ذلك ، - ريثما تم الاطاحة بالحكومة اليسارية الداعية الى التقارب مع مصر ، وحين تعدوا هذه النقطة ، رأوا - حال تسلمهم السلطة تشكيل حكومة انتقالية من صفوف اللجنة السياسية ، وتطهير صفوف الجيش وقوى الأمن من الاشتراكيين والشيوعيين ، واجراء انتخابات يستثنى منها اعضاء هذه الاحزاب واخيراً اجراء تصويت في المجلس النيابي الجديد على الوحدة مع العراق .

وقد ضاعف المتآمرون في بيروت نشاطهم في أواخر صيف ١٩٥٦ مجندين أعضاءاً جدداً في اللجنتين العسكرية والسياسية (٨) ومتصلين بالدروز والعلويين والعشائر ينفقون الأموال على الدعاية على أمل كسب الدعم الشعبي لقضيتهم ، وتدفقت الاسلحة والذخيرة من العراق لتغص بها مستودعات الحزب القومي السوري في لبنان لتهرب من ثم الى سورية .

---

(٧) من قرية ام الجمال على الحدود الاردنية السورية .

(٨) شكلت عضوية اللجنة السياسية أخيرا على الشكل التالي : ميخائيل اليان - عدنان الاتاسي ، منير العجلاني ، جلال السيد ، حسن الاطرش ، سعيد تقي الدين ، محمد الفاضل (أنظر المستند رقم ٢٤٣ ، ص ٨٦) .

واتفق المتآمرون على ان يؤمن الحزب القومي السوري فرق الهجوم ، وكان على تنظيمات الشباب شبه العسكرية ان تتسلل الى سورية عبر الحدود لتسيطر على المراكز الهامة في دمشق بعد أن يتنكر افرادها على هيئة شرطة عسكرية وينفذوا الاغتيالات كما تم تخطيطها ، وفي نفس الوقت كان على غسان جديد ان يحتل حمص على رأس قوة اخرى من القوميين السوريين بينما يستولي صلاح الشيشكلي على حماه بمساعدة رجاله هناك ، وعلى الدروز في الجنوب والعلويين في الغرب ان يثوروا في الوقت نفسه لاستدراج جنود الحكومـــة .

وفي تشرين الاول من عام ١٩٥٦ حشد العراق جنوده على الحدود الاردنية كدعم للانقلاب السوري المخطط ودرء لأي تدخل اسرائيلي في الاردن ، لكن هذه الحشود كانت بقوة لواء فقط ، ولم تجر أية استعدادات لغزو عراقي واسع لسورية ، فقد ارادت الاركان العامة العراقية ان تتجنب بأي ثمن حدوث صدام بين الجيشين العراقي والسوري ، وعلى أية حال لم يكن يتوقع اللواء الداغستاني فرصاً كبرى للنجاح .

فقد ذكر أمام محكمة بغداد : « وبعد أن رأيت الوضع في بيروت ورأيت فتور همة وشكوك الفئات المختلفة التي تسهم في العمل كنت واثقاً بأن المؤامرة ستفشل لعلمي بصلة بعضهم بالمكتب الثاني السوري » (٩) .

وكان الداغستاني على حق ، ففي صيف واوائل خريف عام ١٩٥٦ تابع المقدم عبد الحميد السراج رئيس المخابرات السورية بصبر وأناة خطوط المؤامرة بعدما وصلته الى دمشق تقارير رجاله ، وكان التآمر قد قطع شوطاً بعيداً بحيث لم يكن بامكانه ان يتأكد من كشفه كله ، لقد علم أن هجوماً يجري تخطيطه ولكنه لم يكن متأكداً متى وأين سيبدأ ، وهل كانت الدسائس التي كان المنفيون يدبرونها في بيروت مجرد جزء من خطة تتضمن تدخلا غربياً مسلحاً في سورية ؟ كان من الواضح عندما حشدت الاسلحة ضـــد مصر في الاسابيع التي سبقت السويس ان سورية حليفة عبد الناصر الوثيقة مهددة أيضاً ، وعندمـــا

(٩) المحاكمات الرسمية ص ٢٧٩ .

هوجمت مصر أخيراً استعدت سورية لدرء الغزو .

وفي تلك الفترة ، أي في الايام الاخيرة من تشرين الاول عام ١٩٥٦ ، علمت السلطات السورية أن عدة مئات من البنادق قد هربت من العراق.

وكان حسن الاطرش ناشطاً في الجناح السياسي للحركة ، لقد عمل هو وزملاؤه على ان يقض مضجع الحكومة السورية ويطيح بها عن طريق تنظيم جبهة برلمانية تسندها صحف صديقة (١٠) ، ولكن حسن يدعي بأنه لم تكن لديه معرفة مباشرة بتهرب الاسلحة او بوجوه العنف في المؤامرة ، وبحق فقد كان على خلاف مع الحزب القومي السوري بسبب تأييدهم لاديب الشيشكلي في عام ١٩٥٣ – ١٩٥٤ ، وهكذا لم تكن له صلات مباشرة بهم ، ومن استراتيجية الحـزب القومي السوري ان يورطوا حسن الاطرش بأن يجر إلى شباكه بعض صنائع آل الاطرش من الدروز كالضباط السابقين شكيب وهاب وفضل الله أبو منصور (اللذين ورد دورهما في انقلاب ١٩٤٩) ، ونائب درزي مسن هو فضل الله جربوع الذي يدين بمقعده بالدرجة الاولى لنفوذ حسن وأتباع آخرون .

ويذكر حسن الأطرش الشرح التالي لحادثة تهريب السلاح :

« نصح شكيب وهـاب القوميين السوريين بأن يطلبوا من العراق ارسال اسلحة باسمي انا حيث يمكن ان يقوي ذلك احتمالات النجاح ، وتم الوصول الى اتفاق باستلام ٨٠٠ بندقية على الحدود العراقية ٥٠٠ منها للدروز و ٣٠٠ لبدو المساعيد الذين يتزعمهم هايـل السرور ، كلف شكيب بعدها ضابطاً سابقاً هو فارس دوير ليقود شحنة الاسلحة عبر الصحراء ، وجمع فارس الاسلحة يرافقه بعض البدو على الحدود واتجه فوراً الى جبل الدروز لكـن شاحنته قد تحطمت وقام حوالي ٣٠٠ من البدو والقرويين الدروز المحليين بنهب الاسلحة متفرقين سريعاً بالغنيمة ، وبدل أن يختفي فارس دوير عاد بهدوء الى قريته وكان شيئاً لم يحدث .

---

(١٠) اشترى سكرتير حسن الاطرش ويده اليمنى سلمان حمزه الصحيفة الدمشقية ألف باء في منتصف عام ١٩٥٦ وأدارها حتى كانون الثاني من عام ١٩٥٧ .

وعلمت السلطات فوراً بتوزيع هذا العدد الكبير من الاسلحة، فاعتقلت بعض القرويين الذين اعطوا في الحـــال اسم فارس دوير ، الذي قبض عليه واستجوب فاعترف باسماء كل اصدقائه والعاملين معه والذين كانت لهم علاقة بالتآمر ، وقد أتى هايل سرور يخبرني بأمر الاسلحة فقط ، عندما كانت في طريقها الى الجبل .

« وفي هذا الوقت بدأ الهجوم الانجليزي – الافرنسي على مصر وكنت اتميز غيظاً من توريطي في مثل هذه المؤامرة الدنيئة ، وهل كان المتآمرون في بيروت يعتقدون بأنني كنت استطيـــع قهر الجيش السوري كله بـ ٥٠٠ بندقيـــة (١١) » .

وهكذا وفي اوائل تشرين الثاني من عام ١٩٥٦ كان الجبل قد جرد من السلاح وشعرت الحكومة بالامان من أي هجوم من هذه المنطقة ، أثناء ذلك كان الهجوم الثلاثي على مصر قد وقع في مصاعب، وبدأت مخاوف سورية من الغزو تخف ، وفي ٢٣ تشرين الثاني شعر السراج بثقة كافية لاعلانه اكتشاف مؤامرة من راديو دمشق (١٢) :

في الوقت الذي كانت فيه قوى الأثم والعدوان ، البريطانية والفرنسيـــة واليهودية تنقض بوحشية لم يشهد لها تاريخ الانسانية مثيلاً على الشقيقة الباسلة مصر ، وفي اللحظات الرهيبة التي كانت فيها جميع وحدات الجيش الســوري تتحرك متأهبة للاسهام في دورها القومي في خوض المعركة ، معركة البقاء والشرف جنباً الى جنب مع وحدات الجيش المصري والاردني ، الامر الذي تحتمه أدنى أواصر الاخوة وتلزمه وحـــدة القضية والمصير المشترك ، في هذا الوقت بالذات وفي هذه اللحظات الرهيبة وضعت السلطات العسكريـة ، يدها على شحنات كبيرة من الاسلحة الحربية الخطيرة أثناء محاولة نقلها من بلد عربي مجاور الى سورية ، فوضعت اليد عليها وباشرت فورا بالتحقيق ومطاردة الجناة الذين كانوا يعدون العدة لطعن امتهم ووطنهم وجيشهم من الخلـــف

(١١) حسن الاطرش للمؤلف ، بيروت ، ٢٤ تشرين الاول ١٩٦٠ .
(١٢) الأوزرين العدد ٢ ، نيسان ١٩٥٧ ، ص ١٧٠ .

عندما تكون الامة والوطن والجيش في خضم المعركة، وان التحقيقات الاولى كشفت الستار عن الجهة التي يتعامل معها هؤلاء الجناة والتي نقول والالم يحز في نفوسنا ويدمي قلوبنا بأنها حكومة كنا نعتقد الى أمد قريب بأنها مهما خلت الطريق ومهما غررت بها سياسة الاحلاف والمستعمرين فانها لا بد الا وان تكون الى جانبنا في الصف يوم المعركة .

وانا نؤكد تأكيداً جازماً لجميع المواطنين من ابناء هذا الشعب العربي في سورية بان المسؤولين من ابنائه الذين يضعون أيديهم على التحقيق سوف يعملون بكل همة وعزيمة ومضاء ليضعوا اليد على كل من اشترك وساهم لاحالته الى القضاء ولمحاكمته على جنايته القذرة لينال جزاءه الحق العادل على ما سولت له نفسه المجرمة بحق امته ووطنه وشعبه وجيشه . اما تلك الحكومة حكومة نوري السعيد في العراق التي تدفع اؤلئك الجناة للتآمر علينا لحساب العدو واسرائيل فلا ريب انها ملاقية حسابها على يد شعبها العربي الابي الباسل الذي ما لانت له قناة ولا فترت منه عزيمة والذي كان ابداً سليل البطولات والامجاد من عهد الوليد والرشيد .. حتى يوم المعركة القومية الرهيبة المعركة التي آذن يومها وبدت طلائعها .

وفي ٢٢ كانون الاول من عام ١٩٥٦ نشرت قائمة الاتهام ، وتضمنت اسماء ٤٧ متهما ، منهم الدكتاتور السابق اديب الشيشكلي وزعماء التآمر الفعالين : محمد صفا وغسان جديد ومحمد معروف وصلاح الشيشكلي وسعيد تقي الدين ، وحسن الاطرش والرئيس القبلي هايل سرور وأعضاء بارزون من اللجنة السياسية امثال ميخائيل اليان وعدنان الاتاسي ومنير العجلاني وسامي كبارة ، وافتتحت الجلسة في الثامن من كانون الثاني عام ١٩٥٧ على مدرج جامعة دمشق وكان العقيد عفيف البزري رئيسا لهذه المحكمة العسكرية . وانتهت الافادات بعد خمسة اسابيع وصدرت الاحكام في ٢٧ شباط . وهنالك ثمانية عشرة من المتهمين بما فيهم عدد من الشخصيات الرئيسية خارج البلاد حكم عليهم ، (وعلى الكثير منهم بالموت) غيابيا ، وقبل ذلك باسبوع

او أقل قتل غسان جديد في احد شوارع بيروت (١٣) .

هل كانت المؤامرة على سورية مؤقتة مع الهجوم على مصر ؟ وهل كانت العمليتان جزءا من مخطط كبير للاطاحة بعبد الناصر وحلفائه السوريين ، واقامة نظام جديد في الشرق الاوسط ؟ ان بعض المتآمرين يؤمنون بهذا الرأي . فقد قال الدكتور عبد الله سعادة فيما بعد (وهو رئيس مقبل للحزب القومي السوري تورط في انقلاب فاشل في لبنان في ٣١ كانون الاول من عام ١٩٦١) . :

« أصبح من الواضح بعد فشل الحركة أن مساندينا من الدول الكبرى وبريطانيا بشكل خاص قد وقتوا المؤامرة لتتفق مع هجومهم على السويس ، لقد تلقى غسان جديد تعليمات من العراقيين تطلب منه ان ينفذ الانقلاب في يوم محدد في نهاية تشرين الاول من عام١٩٥٦ ، ولكنه شعر في الحال وباعتباره الرئيس العسكري بان تحديد اليوم الاكثر ملاءمة لنشر قواته يعود اليه ، ورفض ان يتقيد بالموعد الذي طلبه العراقيون . ولقد اصرّوا ولكنه صمد في وجههم ، وحدث بعد ذلك ان شن الهجوم على مصر في نفس اليوم الذي كان يصر عليه العراقيون . ان العراقيين كانوا ، في رأيي ، يتخبطون في الظلام كما كنا نتخبط ، لقد كانوا فقط ينقلون التعليمات التي يتلقونها من البريطانيين (١٤) » .

ولم تؤيد الشهادات التي أدلى بها أثناء المحاكمات او تنفي هذه الفرضية ، فقد قال احد الشهود بأن الثامن والعشرين من تشرين الاول قد حدد ليكون يوم الانقلاب (١٥) و قد اوردت مصادر اخرى بان الموعد قد اجل في اللحظة الاخيرة الى الثالث من تشرين الثاني ، ولم يتضح فيما اذا كانت هذه التواريخ

---

(١٣) أطلق الرصاص عليه في شارع رئيسي في التاسع عشر من شباط احد السوريين وهو المدعو عزت شعث الذي قتل بدوره بعد تبادل اطلاق النار مع البوليس ، ويقال بأن الرصاصة التي قضت على القاتل قد أطلقها سوري آخر هو عزيز زيوب الذي جرح واعتقل .

(١٤) الدكتور عبد الله سعاده للمؤلف ، بيروت ، ١ كانون الثاني ١٩٦٠ .

(١٥) قال صحفي مصري يعمل في صحيفة الجمهورية (محمود سعدني) ظهر كشاهد بان الزعيم القومي السوري سعيد تقي الدين هو الذي أعطاه هذا التاريخ في مقابلة أجراها معه في ١١ كانون الثاني من عام ١٩٥٧ (أنظر المستند رقم ٢٤٣ ص ٣٨) .

قد اختيرت لتوافق موعد عملية السويس او انها تحددت بعوامل سورية محلية محضة ، وربما كان المتآمرون قد حددوا موعد تنفيذ الانقلاب قبل سفر الرئيس القوتلي الى موسكو في الثلاثين من تشرين الاول وعادوا فيما بعد فرأوا أن من الافضل ان يعملوا في غيابه . ويميل عبد الحميد السراج الى الاخذ باستراتيجية اوسع فقد قال فيما بعد : « ان مؤامرة ١٩٥٦ على سورية كانت تستهدف على التحديد منعنا من التدخل في حرب السويس والقاء سورية في فلك حلف بغداد اثناء الاضطراب الذي سيتبع الهجوم على مصر (١٦) » .

ويبدو من غير المحتمل ، حين موازنة الأمور ، ان يكون التآمر على سورية والحملة على مصر منسقتين في آن واحد ، لقد كان الامريكيون شركاء في الاولى في حين شجبوا الثانية ، كما ذهل العراقيون وهم ايضا شركاء في الحماة من وقع التواطؤ الانكليزي — الافرنسي مع اسرائيل ، وكان الافرنسيون على علاقة بالحملة على مصر ولكنهم لم يسهموا في التآمر على سورية (١٧) ، إن لبريطانيا وحدها يد في العمليتين ، لكن كثيرا من الجهات الرسمية البريطانية في دائرة الخارجية ودوائر الحكومة الاخرى بقيت على جهل بما كان يخطط ، ولربما لم تكن العمليتان نتاج مدبر عبقري واحد ولكنهما اشتركتا في هدف واحد هو : الاطاحة بعبد الناصر وكبح النفوذ المصري والسوفييتي في آسيا العربية ، فهما والى هذا الحد على الاقل جزء من استراتيجية واحدة . وبحق فانه يمكن فهم عملية السويس والعواطف الجائشة التي عكستها بطريقة افضل اذا ما ربطت بالنضال ضد الناصرية في منطقة آسيا العربية والتي لربما كان التآمر الفاشل على سورية افضل مثال عليها .

ولكن وكما خرج عبد الناصر من حملة السويس اكثر قوة فان فشل التآمر قد قوّى الفئات السورية المتطرفة الداعية للتقارب مع مصر بازاحة اشد معارضيهم خطرا عن المسرح واستلم زمام الحكم الزعماء الثلاثة اكرم الحوراني ، وخالد العظم ،

(١٦) عبد الحميد السراج للمؤلف ، القاهرة ، ٢٧ كانون الثاني عام ١٩٦١ .

(١٧) لقد كان المتآمرون في بيروت مدفوعين في الواقع الى العمل في تشرين الاول من عام ١٩٥٦ بعد ان وصلتهم تقارير تفيد بان الافرنسيين كانوا ، يسلحون جماعة معينة ولم يكن العراقيون وحلفاؤهم يرغبون في أن تستولي على السلطة فئة تتعاطف مع فرنسا .

وخالد بكداش يسندهم رئيس المكتب الثاني الكفوء الصامت عبد الحميد السراج الذي كان المنتصر الحقيقي الوحيد في الصراع ، وبحق فقد جلب له تسلمه التحقيق في قضية اغتيال المالكي انتباه الجماهير . والان اكد باكتشافه المؤامرة العراقية كونه الحارس اليقظ لهذا البلد والذي لا تنام له عين ، لقد أصبح هذا الرجل الهادىء بفكه المربع وحاجبيه المعقودين دائما ، عيون سورية المحاصرة وآذانها ، حتى قال الناس بأنه ما من نملة تتحرك الا بعلمه .

إن اتهاماته قضت بدون أية رحمة على عقدة رعوية العائلات الكبيرة او الولاءات المحلية التي كانت تشكل قسطا كبيراً من بنيان السياسة السورية ، فقد حمل عدة رجال من الذين قدمهم للمحاكمة اسماء جليلة : الاتاسي والبات والعجلاني والاطرش وهم أيضا اعضاء في المجلس النيابي أسقطت عنهم حصانتهم النيابية بسبب حالة الطوارىء ، انهم متهمون بتعاطفهم مع العراق ، واتجاههم نحو الغرب وتمسكهم بالتقاليد ونفورهم من الوطنية المتطرفة ، ولهذا فهم جميعا في نظر السراج خونة .

لقد قال لأحد الصحفيين المصريين (١٨) : « إن المحاكمة تثبت تماما نظرة الرئيس عبد الناصر النيرة إلى الاقطاعيين والسياسيين المحترفين ، فقد قام رئيسكم بتصفية عملاء الاستعمار هؤلاء ، قبل ان يقوم بأي اجراء ضد اعداء مصر الرئيسيين ... وبذلك استطاع ان يستدير وبثقة تامة ليقف في وجه الذين استعمروا بلده دون ان يجازف بتحمل المصير السيء الذي لقيه مصدق حين طعنه رجالات بلده في ظهره . »

كما كتب ميشيل عفلق في صحيفة حزبه حول الموضوع ملقيا مسؤولية التآمر الكاملة على « طبقة اجتماعية اندفعت للخيانة دفاعا عن مصالحها (١٩) » وفي الوقت الذي ظهرت فيه هذه البيانات كان تطهير « الخونة » قائما على قدم وساق .

وخلال بضعة أيام من كشف المؤامرة نادى البعث باقامة جبهة وطنية

---

(١٨) وردده صحيفة لوموند ، ٢ آذار ١٩٥٧

(١٩) البعث دمشق ١٨ حزيران ١٩٥٧ .

برلمانية لتقف في وجه الدسائس الامبريالية وبحكومة جديدة أكثر ملائمة للدفاع عن سيادة الامة ، في حين هلل الشيوعيون بتلك الخطوة وأعلنوا موافقتهم السريعة المتلهفة .

وفي ٣١ كانون الاول من عام ١٩٥٦ شكل صبري العسلي وزارته(٢٠) مقصياً حزب الشعب وجبهة منير العجلاني الدستورية حيث تورط كلاهما في التآمر ، واحتفظ البعث بمراكز القيادة في وزارات الاقتصاد والشؤون الخارجية ، بينما دخل خالد العظم الوزارة وزيراً للدفاع .

ووصلت كل التيارات والعواطف التي اجتاحت الرأي العام السوري في السنتين اللتين تلتا توقيع حلف بغداد الى أوج شدتها الان ، وهي تتمثل في التضامن مع مصر وكراهية نوري السعيد والشك ببريطانيا والخوف من تركيا ، والاعجاب بالاتحاد السوفييتي ، وتعهد العسلي ببدء مفاوضات فورية مع مصر لاقامة وحدة فيدرالية بين البلدين ، وجرت محاولات لاخراج الاردن من المعاهدة البريطانية بتعويضه عن المساعدات البريطانية التي يتلقاها بأموال عربية (٢١) . وأصبح نوري هدفا لهجوم اوسع من ذي قبل : فهو « حليف اليهود » و « خادم الاستعمار » « وخائن وطاغية لم يعرف الشرق له من قبل مثيلا » .. كما أصبح للشيوعيين آنئذ في سورية اليد الطولى ، وعليه فان انهيار الهجوم الغربي العراقي المضاد قد غير من توازن القوى في البلد تاركا سورية أكثر تعرضا لهبات العنف التي حدثت في عام ١٩٥٧ وجالبا انتباه الدول الكبرى للشعب المثير .

---

(٢٠) صبري العسلي رئيسا للوزراء ووزيرا للداخلية (الحزب الوطني) الشؤون الخارجية صلاح البيطار (البعث) الاقتصاد : خليل كلاس (البعث) الدفاع : خالد العظم (الجبهة الديمقراطية) الزراعة : حامد الخوجا (الجبهة الديمقراطية) وزير الدولة صالح عقيل (الجبهة الديمقراطية) الاشغال العامة : فاخر الكيالي الحزب الوطني الصحة العامة : اسعد هارون (الحزب الوطني) التربية هاني السباعي (مستقل) المالية اسعد محاسن (مستقل) العدل : مأمون الكزبري (حركة التحرير العربي) .

(٢١) في ١٨ كانون الثاني من عام ١٩٥٧ وقعت اتفاقية في القاهرة تعهدت كل من العربية السعودية ومصر وسورية بموجبها ان تدفع الى الحكومة الاردنية مبلغا سنويا قدره ١٢ مليون جنيه مصري . (اثنا عشر) مليون جنيه مصري .

٢١

امريكا منفردة

الأفول :

« ان العمل البريطاني ضد مصر ، سواء أكان المسؤولين على علم بـذلك أم لا ، كان محاولة أخيرة لاعادة اعتبار بريطانيا كعامل نهائي وحاسم في سياسة الشرق الادنى ، فاذا ما تصادمت المصالح او الافكار السياسية في المنطقة ، فعلى المصالح او التيارات البريطانية في السياسة ان تكون هي المسيطرة ، ان هذا الحلم ممكن التحقيق لو ان الدول الكبرى رغبت في السماح للشرق الادنى بأن يكون على أقل تقدير وقفا على بريطانيا ، واذا مـا كانت هذه الدول مستعدة لان تكف عن استعمال قوتها ، او استعمالها في تأييد ودعم بريطانيا فقط ، فبصرف النظر تماما عن الاشمئزاز والنفور الاخلاقي اللذين اثارهما اسلوب العمل البريطاني ، فهو يشكل تحديا للمصالح الحيوية لروسيا والولايات المتحدة أيضا ، فقد عنى أن بريطانيا ، وليس الولايات المتحدة ، هي التي يجب أن تتخذ القرارات النهائية فيما يتعلق بالقضايا التي تؤثر على شبكة العلاقات الاميركية كلها مع جميع أنحاء العالم ، وهذا ما قاد الى التدخل الحتمي للدولتين الكبيرين (١) . »

وبعد السويس ، وجدت روسيا والولايات المتحدة نفسيهما وجها لوجه

---

(١) الحوراني ، رؤية التاريخ . ص ١٤ .

في منطقة الشرق الاوسط ، وكوريثة لبريطانيـا دعت اميركا قبل سنوات الى وقوف كل من اليونان وتركيا في وجه الضغط السوفييتي ، ووجدت نفسها في عام ١٩٥٧ تقوم بدور الحامي الوحيد للمصالح الغربية في معظم انحاء العالم العربي ، أما روسيا فقد وجدت طريقها الى المنطقة في غضون العامين الفائتين باعترافها بالقومية العربية وفرض اعتبارها حليفا عنيداً ضد الغرب — بصفقات الاسلحة والتجارة والمعونات— ، وحاولت الدولتان الان وبأسلوب مكشوفه ، دعم مواقفهما الجديدة ، مواقع القوة ، واضفاء صفة الشرعية عليها .

فالاستراتيجية السوفيتية كانت تستهدف القيام باتصال مباشر مـــع الجماهير العربية ، لكي ترسخ مواقف كاملة لروسيا عن طريق اعتراف العرب بالجميل لها والاعجاب بدورها في السويس ، ولكي تضاعف من كميـــات عروضها بالمساعدة والصداقة والاسلحة ، ولكي تنشد الاعتراف بها وبحقها في أن يكون لها صوت في مشاكل الشرق الاوسط ، دعت باستمرار الدول الكبرى ، اعلان رفضها لاستخدام القوة في المنطقة .

وكان الرد الاميركي مبدأ ايزنهاور الذي أعلن للعالم أجمع ان الولايات المتحدة قد أخذت على عاتقها القيام بمسؤوليات جديدة في الشرق الاوسط ، ولكن اذا ما اعتبر مبدأ الشيوعية الدولية (كان دالس يلفظ الكلمتين مشدداً متطيراً) العدو الوحيد . فان دبلوماسية الولايات المتحدة كانت تجد صعوبة في تمييز هذا الحيوان في غابة السياسة العربية . لقد ذهبت بعض الطلقات خرقـــاء طائشة .. فالواقع ان المجابهة السوفيتية — الاميركية لم تبق طويلا على أساس المجابهة بين دولتين ، ذلك انها لم تلبث ان تشعبت الى قضايـــا محلية حددت المركز الذي تمخض منه المعارك ، وربما كان سعي مصر لزعامة العرب العامل الاشد أهمية بين هذه العوامل المحلية .

وكما سبق ان رأينا فان عبد الناصر قد كافح منذ عام ١٩٥٤ لكي يفرض آراءه السياسية على الدول العربية الاخرى ، كما دعا العرب الى الاتحاد تحـــت قيادته ، واتباع سياسة خارجية موحدة، وتحرير المنطقة من جميع آثار ووصاية الدول الكبرى ، وان تتخذ اجراءات دفاعها عن نفسها بجهودها الخاصة ،

وتدعيما لمطالبته بالقيادة ، حاول ان يركز على تيارين عظيمي الاهمية يتعلقان بالهوس السياسي الذي كان يفعل فعله في الرأي العام العربي : إنهما الرغبة في الوحدة العربية والخوف من اسرائيل والشعور بكراهيتها . لقد كانت هاتان العاطفتان شائعتين غير ان محاولات عبد الناصر لاستخدامهما من اجل غاياته السياسية قد لاقت المعارضة ، فكان عليه ان يجابه تحديا من العراق وبريطانيا بشكل خاص، (خصم مصر الرئيسي في فترة ما بعد الحرب)، ومع ذلك انتصر عبد الناصر في نزاعاته المبكرة وكان ثوابه وجزاؤه ان يرى نفوذه يسيطر على آسيا العربية ، ان حجر الاساس في نجاحه كان تحالفه مع سورية ، ذلك التحالف الذي صيغ خلال المعركة ضد حلف بغداد ، وازداد قوة مع نشوب كل ازمة ، ولم يكن عبد الناصر ليخشى من أي تحالف محلي ضده بوجود سورية الى جانبه، كما بامكانه ان يهدد خصومه العرب في عقر دارهم من قاعدته الوسطى في آسيا العربية ، كما بامكانه الضغط على ما تبقى من مراكز بريطانيا ومناطق نفوذها في المنطقة .

وما ان قلب عبد الناصر الهزيمة الى نصر في معركة السويس ، حتى تاق كما هو الامر بالنسبة للاتحاد السوفييتي الى استغلال مكاسب هامة من عواطف الشعب عبر الوطن العربي ، ولم يكن يستطيع الموافقة على حشد الدول العربية ضد دولة كانت مصدر تأييده الرئيسي منذ صفقة الاسلحة في عام ١٩٥٥ ولم يرض بوجود سيطرة امريكية كتلك التي تضمنها مبدأ ايزنهاور ، كما لم يحتمل الضغط الاميركي على سورية ، الامر الذي قد يضعف من قبضته على ذلك البلد ويحول ميزان القوى ضده في المنطقة ، ولو ان سورية تخلصت من قبضته ،لأصبحت السويس بالنسبة اليه هزيمة حقا .

وعلى ذلك كانت سورية في عام ١٩٥٧ بؤرة للنزاع بين الدول الكبرى وفي ذات الوقت مركز نضال مصر من اجل الزعامة المحلية ، وقبل تفحص الازمة السورية في عام ١٩٥٧ — التي كانت تأخذ قسما كبيرا جدا من وقت دالس لدى حلول منتصف الصيف (٢) — من الضروري النظر باختصار الى المشاغل المتعلقة بنوايا السوفييت التي بلورت السياسة الاميركية آنئذ .

---

(٢) صحيفة نيويورك تايمز ، ٢١ آب ١٩٥٧ .

مبدأ ايزنهاور :

لقد ابتكر مبدأ ايزنهاور للتصدي لما ظن أنه تهديد سوفييتي صريح للشرق الاوسط في الفترة القلقة التي أعقبت ازمة السويس ، وقد اعتقد المستر دالس بان الروس قد يغتنمون الفرصة التي خلقتها الظروف الصعبة التي وجدت بريطانيا وفرنسا نفسيهما تعانيان منها لكي تحاول السيطرة على المنطقة اما بقوة السلاح او بواسطة التخريب الداخلي، في وقت كانت فيه القوى السوفييتية البحرية والجوية متمركزة على أهبة الاستعداد على حدود الشرق الاوسط : في بلغاريا ومنطقة البحر الاسود واوكرانيا والقوقاز وآسيا الوسطى ، كما ان الفشل الانجليزي- الفرنسي في السويس قد خلق فراغا في النفوذ ، والغى وجود أي رادع حقيقي تجاه التغلغل الشيوعي .

وأخيرا ابدى الاتحاد السوفييتي في سلوكه بالمجر استعداده لاستعمال القوة الوحشية ، وما فعله في اوربا قد يحاول فعله في العالم العربي ، حين قال المستر دالس ان ثمة ثلاثة أشياء واضحة : القدرة السوفييتية ، والاغراء ، والنقص في وجود كوابح اخلاقية (٣) .

وأضيف الى هذا الخطر العسكري الخارجي الخوف من التخريب الداخلي : فقد مهد الطريق بتسلل الشيوعيين ودعايتهم ، كما وأخطار حدوث ازمة مالية في الدول التي خسرت عائدات النفط ، بسبب اغلاق قناة السويس وتفجير انبوب النفط الذي ينقل البترول العراقي عبر سورية . لذا حذر المستر دالس قائلا : « أستطيع ان أؤكد لكم ان زعماء الشيوعية الدولية سوف يخوضون كل المخاطر ، للفوز بالشرق الاوسط » في اليوم الذي يجرؤون فيه على ذلك (٤) .

(٣) راجع بيان وزير الخارجية دالس في جلسة مشتركة للجنتي العلاقات الخارجية والخدمات العسكرية في مجلس الشيوخ في الرابع عشر من حزيران ١٩٥٧ في كتاب – وزارة الخارجية الاميركية : (سياسة الولايات المتحدة الاميركية في الشرق الاوسط – ايلول ١٩٥٦ – حزيران ١٩٥٧) ص ٣١ . وهذا الكتاب يشتمل على عدد من الوثائق الاميركية الرئيسية تتضمن بيانات الرئيس ايزنهاور في مؤتمره الصحفي في الرابع عشر من تشرين الثاني ١٩٥٦ ، ورسالته الى الكونغرس في الخامس من كانون الثاني ١٩٥٧ – والقرار المشترك الذي قدم الى الكونغرس في اليوم نفسه ، وتصريحات دالس في الأسابيع التي تلت .

(٤) المصدر السابق ، صفحة ٣٨ .

لقد بدت هذه الاخطار حقيقية وماثلة جدا للحكومة الاميركية التي فكرت في اتخاذ اجراءات عاجلة رأت انها ضرورية لمواجهتها ، ففي الخامس من كانون الثاني ١٩٥٧ سعى الرئيس ايزنهاور للحصول على سلطات من الكونغرس تتيح له استخدام القوات المسلحة للولايات المتحدة لحماية أية دولة شرق اوسطية تطلب المساعدة للوقوف « ضد العدوان المسلح من قبل اية دولة تسيطر عليها الشيوعية الدولية » ، ولعرض مساعدة تصل الى ٢٠٠ مليون دولار لتقوية الامن الداخلي ودعم وتشجيع الحكومات المحافظة على النظام ، وتقرر ان تسحب هذه المساعدات من قروض موجودة بموجب قانون الامن المتبادل لكي تستعمل في الشهور المتبقية من السنة المالية لعام ١٩٥٧ التي تنتهي في الثلاثين من شهر حزيران (٥) .

هذه التدابير وافق عليها الكونغرس في قرار مشترك لمجلس الشيوخ والنواب في التاسع من آذار ١٩٥٧ ، وبعد مضي ثلاثة أيام أي في الثاني عشر من آذار ، أرسل الرئيس ايزنهاور جيمس ريتشاردز ، مساعده الخاص لشؤون الشرق الاوسط .. المعينّ حديثا في هذا المنصب والمدير السابق للجنة الشؤون الخارجية التابعة لمجلس النواب ، في جولة في اقطار الشرق الاوسط لكي يقوم بشرح اهداف القرار واعلامه عن أفضل الطرق لتحقيقه (٦) ، وبعد عشرة أيام ، أي في الثالث والعشرين من آذار ، انضمت الولايات المتحدة الى اللجنة العسكرية لحلف بغداد .

وهذا النشاط عكس قلق امريكا لانها وجدت نفسها وحيدة في الميدان تجاه قوى الشيوعية الدولية في منطقة هامة « للعالم الحر » هي منطقة الشرق الاوسط وكان لا بد من كشف هذا الخطر بوضوح ومن أن الأميركيين سيستنفرون أنفسهم لمكافحته ، ذلك هو الحصاد النهائي لمبدأ تبين انه يستهدف تقوية عزيمة اميركا اكثر مما يستهدف طمأنة الدول التي اخذت على عاتقها امر حمايتها ، لقد كان المبدأ تعبيرا عن الطريقة التي رأت فيها اميركا العالم ، وبخاصة الكيفية

---

(٥) المصدر السابق ، صفحة ٢٠ .

(٦) كان اختيار المستر رتشاردز ، وهو ديمقراطي ، يقصد منه ايضا زيادة مساندة الرئيس في الكونغرس .

التي رأت حكومة ايزنهاور فيها النضال ضد المعسكر الشيوعي ، فلم يكن ثمة مكان للحلول الوسط ، كما لم يؤخذ بعين الاعتبار المدى الذي ستصل اليه شعارات الحرب الباردة في المنازعات العربية المحلية، التي قد تثير قضايا قد يرى الامير كيون انها واضحة شفافة كالزجاج ، فلتأييد المبدأ ، على سبيل المثال ، كان على أي دولة عربية تؤمن به، الاعلان عن موقفها المعادي ليس ضد روسيا فقط وانما ضد الدول العربية المجاورة ايضاً ، كما ان المبدأ قد أغلق بمطالبته بالانحياز ضدالشرق، الباب أمام احتمال قيام تعامل عربي مع الغرب دون روابط سياسية ، تلك هي بعض نقاط الضعف التي انطوت عليها السياسة التي تجلت في نظرة مطلقة الى القضايا الدولية وارتبطت باسم المستر دالس ، ولكن هل كانت مخاوف وزارة الخارجية من قيام سيطرة شيوعية لها ما يبررها ؟

لقد كان من الواضح ان تأييد روسيا الصارخ لمصر في ازمة السويس قد خلف أثراً كبيراً على العقل العربي ، فالتيار المؤيد للسوفييت والذي أطلقته صفقة الاسلحة التشيكية عام ١٩٥٥ قد تحول الآن الى موجة عارمة ، والدليل على التأييد والاحترام اللذين كانت روسيا تلاقيهما كانا قائمين في كل مكان : في الصحف والاذاعات والبيانات المختلفة والمظاهرات والاجتماعات العامة ، وبالطريقة المتهللة الشجاعة التي اشتهر بها الشيوعيون المحليون في سورية ، غير ان ذلك الصخب عكس القليل من القناعة الايديولوجية العميقة ، وقام الرجال في مصر وسورية حيث يمكن التعبير عن مثل هذه المشاعر بحرية ، بالهتاف للاتحاد السوفييتي وتحيته ، ليس لأنهم كانوا شيوعيين وانما لأنهم وطنيين قوميين ، ولاول مرة منذ ميلاد حركتهم القومية ، لم يعد العرب تحت رحمة الدول الغربية ، لقد وجدوا حامياً قوياً الآن .

ولم يلبث هذا التحالف بين القوميين والشيوعيين ان تدعم بسبب فشل الغرب في التمييز بين الجانبين ،وقد أدى وجود الجبهة البعثية الشيوعية في سورية كما وجود دلائل على زدياة اعتماد عبد الناصر على الاتحاد السوفييتي ، الى ميل الدبلوماسيين الغربيين للتغاضي عن سجل حزب البعث الحافل بعداء الشيوعية

وكذلك عن معاملة عبد الناصر للشيوعيين المحليين ، والحقيقة ان الشيوعيين والقوميين كانوا على معرفة تامة ببعضهم البعض ، وكانوا متحدين فقط في مصاداة الضغوط الغربية ، لقد كان خطأ تكتيكياً كبيرا دفع الطرفين الى الارتماء في أحضان بعضهم بعضا ، غير ان كلا من البعث وعبد الناصر كانا مكرسين لمهمة تدمير جميع آثار النفوذ الغربي في العالم العربي ، وعلى ذلك فان هنالك شيء من المعنى في اعتبارهم خطرين كالشيوعيين على الاقل ، والواقع انه لم يكن بالامكان التعايش والانسجام مع القوميين طالما ان السياسة الغربية كانت تقضي الاستمرار في الاحتفاظ بمراكز سابقة في المنطقة وحسب الشروط القديمة .

وهناك سبب آخر لاهتمام الغرب وقلقه ، وهو مصير اصدقائه في سورية بعدان انهارت المؤامرة العراقية في تشرين الثاني ١٩٥٦ ، إذ بدا ذلك بمثابة تدمير للتوازن السياسي وفتح الطريق امام الشيوعيين للاستيلاء على السلطة ، كما عززت هذه المخاوف التقارير التي تشير الى القوة المتزايدة والتمرد لدى قوى المقاومة الشعبية — وهي منظمة شبه عسكرية مزودة باسلحة صغيرة من الكتلة الشرقية — والاشاعات عن وجود متطوعين سوفييت ينتظرون لحظة القفز للدفاع عن العرب المحاصرين ، كما وتصريح الرئيس القوتلي بنفسه لدى عودته من الاتحاد السوفييتي في تشرين الثاني ١٩٥٦ ان آلاف المسلمين السوفييت قد أعلنوا عن استعدادهم للمجيء الى الشرق الاوسط لكي يخلصوا الارض المقدسة من المعتدين والمستعمرين .

كما رافقت زيارة القوتلي الى موسكو لدى احتدام ازمة السويس ، موجة من الذعر في الصحافة الغربية ، جاءت كتتويج لتقليد طويل في كتابة الاخبار عن الشؤون السورية وعن تبعيتها الى الاتحاد السوفييتي ، عززه تبدل نظام الحكم لمستمر فيها ، وسمعة سورية بأنها بلد يحب العزلة ، وشدة تصميم المحاولات السوفيتية على اكتساب ودها ودقة تسديد هذه المحاولات ، وهناك عامل آخر جرى التعرض له في فصل سابق ، وهو الاثر الذي يمارسه بعض المنفيين السوريين من اعضاء الحزب القومي السوري على الرأي العام العربي في الدول المجاورة والمراسلين الاجانب في بيروت .

وأخذت صحف في عدد كبير من الدول ـ وبخاصة بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة وتركيا واسرائيل ـ تنشر مقالات مطولة حول شحنات كبيرة من الطائرات والدبابات السوفيتية الى سورية، ووصول دفعات من الضباط والفنيين السوفييت، وانشاء قواعد عسكرية سرية في الصحراء، ان الدلائل على صحة هذه التقارير كانت بادية الضآلة، غير انها ساعدت على تشكيل جو من الرأي الذي سبب مبدأ أيزنهاور، ولم يصغ للآراء الصادقة كرسالة مراسل النيويورك تايمز في دمشق بتاريخ التاسع من كانون الاول والقائلة بأنه لم يجد هناك أي تأكيد لوصول كميات كبرى من الأسلحة السوفييتية، كما لم يصغ الى تأكيدات الرئيس السوري المستمرة التي قدمها، وتأكيدات رئيس الوزراء وزعماء آخرون من ان سورية لم تتحول الى دولة شيوعية قد لاقت الاهمال ايضا، وقد قال الزعيم البعثي أكرم الحوراني في شباط ١٩٥٧ انه ليس ثمة من دليل واحد على وجود تسلل شيوعي الى سورية. وأضاف: «ان ما يوجد فعلا هو ارادة الشعب السوري في قتال الاستعمار حتى النهاية» (٧).

وتتوضح الفكرة ببساطة في ان القوميين العرب الذين تعبوا من الوصاية الغربية، رأوا في تكالب اميركا البالغ خطراً أعظم على حريتهم من مراوغات الاتحاد السوفيتي، فالاعتراف بوجود فراغ للقوة في الشرق الاوسط حسب الشروط الاميركية كان معناه التخلي عن محاولتهم تسيير شؤونهم الخاصة بأنفسهم والاقرار بوجود ناصح جديد في المسرح المحلي اشد هولا حتى من بريطانيا (٨). ولكن بقدر ما ازداد صمود دمشق بقدر ما ازداد المستر دالس اقتناعا بأنه يستطيع ان يميز هناك مخططات السوفييت، ومع مرور عام ١٩٥٧ قادت الحملة ضد الشيوعية وزارة الخارجية الاميركية الى نضال لا هوادة فيه ضد السوريين اسهم بدفعهم والى حد كبير نحو الوحدة مع مصر.

---

(٧) جريدة الشعب (دمشق) ١٠ شباط ١٩٥٧.

(٨) لم تجعل نظرية الفراغ العرب غاضبين فقط وانما أثارت ضحكهم وسخريتهم، كما صورتها حادثة في رواية «انا أحيا» لليل بعلبكي حيث تجلس بطلة الرواية في مقهى تراقب شابا يقرأ صحيفة سياسية فتتساءل ما اذا كان الحزب يملأ الفراغ في حياته، ثم تضحك: لقد كانت كلمة فراغ كافية لتذكرها بالخطة الاميركية التي تثير تعليقات شرسة في كل مكان، راجع ترجمة ميشيل باربو للرواية الفرنسية (١٩٦١) ص ٦٥.

أزمة صيف ١٩٥٧ :

وصل الخصام السوري الاميركي الى ذروته في منتصف صيف عام ١٩٥٧ غير ان طلقات البداية جرى تبادلها قبل عدة شهور ، فقد كانت سورية أول دولة في الشرق الاوسط تهاجم الاسس التي بنيت عليها السياسة الاميركية ، ففي العاشر من كانون الثاني ، أي بعد مضي أقل من اسبوع على رسالة الرئيس ايزنهاور الى الكونغرس ، أصدرت الحكومة السورية بيانا تعارض فيه نظرية الفراغ وتعارض فكرة أن المصالح الاقتصادية تعطي أية دولة حق التدخل في المنطقة ، وتنكر ان الشيوعية تشكل أي خطر مباشر على العالم العربي . فالامبريالية والصهيونية هما الخطران الرئيسيان اللذان يظل العرب عرضة لهما .

لقد كان من الواضح لمصر وحليفتها سورية ان التدخل الاميركي في الشؤون العربية تحت اسم معاداة الشيوعية قد سلبهما المبادرة المحلية التي ناضلا من أجلها منذ عام ١٩٥٥ ، وقد تزايد استنكارهما للوصاية الاميركية الى العداء السافر في ربيع عام ١٩٥٧ عندما أصبح من الواضح ان جولة المستر ريتشاردز قد أدت الى اعادة تشكيل احلاف في الشرق الاوسط معادية لهما . وعندما سارعت الولايات المتحدة الى تأييد الملك حسين خلال ازمة نيسان في الاردن بلغ الغضب والاستياء بسورية ومصر درجة لا تعرف الحدود ، اذ بوجود المعونة الاميركية نجح الملك حسين في اقصاء الزعماء السياسيين الذين يماثلون في آرائهم العقائدية ، العناصر الراديكالية والثورية التي تشكل دعامة انظمة الحكم في مصر وسورية ، واستبدل حسين هؤلاء الزعماء السياسيين حكما قوياً حازماً خاصاً به ، يعتمد على العناصر الاكثر تقليدية في جيشه والمنظمات العشائرية القديمة في شرقي الاردن ، وبالطبع كانت هذه التغيرات اول نكسة للناصرية في آسيا العربية.

وقد تلقى الملك حسين دعم الملك سعود الحازم في عمله هذا ، فقضي بذلك على التحالف الرباعي بين مصر وسورية والعربية السعودية والاردن ، وهو التحالف الذي رمز اليه اجتماع رؤساء الدول في القاهرة في شهر شباط ، وفي الوقت نفسه اتبع حسين انقلابه بالطلب الى القوات السورية بالانسحاب من الاردن . وقد كانت هذه القوات متمركزة هناك منذ ازمة السويس – وقوبل

طلب حسين من قبل السوريين « بالغم والغضب الشديد » ، ورأوا فيه علاقة اخرى بسلسلة طويلة من المؤامرات المعادية للعرب (٩) .

ولكن اذا ما قوبل ريتشاردز باللامبالاة من قبل السوريين فقد تلقى ترحيبا حارا في لبنان ، حيث التزم الرئيس شمعون ووزير خارجيته شارل مالك بسياسة التعاون الوثيق مع الدول الغربية ، على أساس ان لبنان لا مستقبل له اذا ما قطع علاقاته مع الغرب ، وقد تسلّم شارل مالك وزارة الخارجية في تشرين الثاني ١٩٥٦ وعلى ذلك جرى الحفاظ على العلاقات مع بريطانيا وفرنسا خلال حوادث السويس ، وهذا ما أدى الى تعريض الزعماء اللبنانيين الى هجوم حاد من القاهرة والكتلة السوفيتية حتّى باتوا عام ١٩٥٧ يبحثون بجدية عن وسائل لتدعيم مراكزهم تحسبا لليوم الذي كانوا يعلمون انه لا بد آت ، وقد رأى شمعون ومالك نفسيهما مهددين بالقوتين التوأمين: الناصرية والشيوعية .

من هنا وجدت سياستهما القائمة على صداقة وثيقة مع الولايات المتحدة وقبولهما بمبدأ ايزنهاور في السادس عشر من آذار ، وفي اوائل الصيف أخذت اذاعة القاهرة تهاجم حكومات الاردن (قطعت العلاقات الدبلوماسية بين الطرفين في التاسع من حزيران) ولبنان والعراق والعربية السعودية ، والولايات المتحدة ايضا بتهمة قيام الاستعمار الاميركي بشن حرب سافرة ضد العرب .

وفي الوقت نفسه كانت الاحداث في سورية تزيد من قلق اميركا ، ففي منتصف آذار أعطيت شركة تكنو اكسبورت التشيكية عقد اقامة مصفاة للبترول بعد جدال شرس بين العناصر اليسارية واليمينية ، وفي الشهر نفسه فشلت محاولات الرئيس القوتلي ورئيس الاركان المعتدل نظام الدين في استبدال شخص آخر بالراديكالي عبد الحميد السراج مدير المخابرات العسكرية لمعارضة البعث وخالد العظم الشديدة ، وفي الانتخابات التكميلية في ايار فازت الحكومة

(٩) راجع المؤتمر الصحفي لوزير خارجية سورية صلاح البيطار تاريخ ٣١ ايار ١٩٥٧ (في نشرة هيئة الاذاعة البريطانية رقم ٢٦٢ ، ٣ حزيران ١٩٥٧) .

ومؤيدوها فدعمت بذلك مركزها الداخلي (١٠) .

وفي مناقشة عاصفة في المجلس جرت في اول حزيران اضطر رشدي الكيخيا زعيم حزب الشعب الى التهديد باستقالة مؤيديه في المجلس بشكل جماعي ولم يلبث خالد بكداش ان ألقى خطبة مثيرة دافع فيها عن الاتحاد السوفييتي وهاجم حزب الشعب متهما اعضاءه بالتبعية وبكونهم عملاء للامبريالية ، فاندفع الكيخيا على الفور واتهم بكداش بأنه يستهدف هز الثقة العامة وبزرع الفوضى والفساد في البلاد ، واتهم الحكومة بالتغاضي عن تصريح بكداش باتباعها اسلوب الصمت ، وفي غمرة الضوضاء جمع أوراقه وغادر المجلس . وقدأدى ذلك الى قيام زعيم آخر لحزب الشعب ، احمد قنبر ، مكيلا التهم لخالد بكداش وبأنه يستعمل المنبر النيابيللدعاية الشيوعية ، ثم اتهم الاغلبية البرلمانية بأنها أصبحتمتعجرفة ومستبدة وقال : « ان حكم ارهاب كبير يهيمن على المجلس ، انني أقف هنا معارضا لهذا الارهاب وللحكومة أيضاً واتحداهما » .

وقد رأى بعض المراقبين في دمشق ان هذه الخطوة هي محاولة غير ناجحة لاسقاط حكومة العسلي : اذ كانت المعارضة تواقة إلى أن تنكر على الحكومة فضل اربعة أشهر من الحكم المستقر الذي لم تعكر صفوه شائبة خلال عطلة الصيف ، ولما كان اليسار في سورية قويا في الداخل رغم انه محاط بجير ان

(١٠) جرت انتخابات تكميلية في دمشق وحمص والسويداء وجبل العرب اثر محاكمة أربعة نواب هم منير العجلاني وعدنان الاتاسي وفضل الله جربوع وهايل سرور وادانتهم لاشتراكهم في المؤامرة العراقية عام ١٩٥٦ ضد الدولة ، لقد احتل ثلاثة يساريون مقاعد الثلاثة الاوائل أما المقعد الرابع فكان لمنطقة عشائرية حيث تنعدم الارتباطات الحزبية . وقد جرى أكبر اختبار للقوة في دمشق حيث فاز رياض المالكي من حزب البعث ، على الشيخ مصطفى السباعي زعيم الاخوان المسلمين بأغلبية ضئيلة ، لقد حاز السباعي على ٤٧ ٪ من مجموع الاصوات وهذا يدل على ان الاسلام لم يكن قد انتهى كقوة من على مسرح السياسة السورية ، هذا على رغم ان منافسه قد تلقى دعم البعثيين والشيوعيين وجميع « التقدميين » وحزب الشعب والحزب الوطني ، كما افاد من كونه أخا عدنان المالكي ، لقد قيل ان السفارة السوفيتية قد تدخلت لضمان انسحاب المرشحين الشيوعيين في دمشق وحمص لصالح مرشح يساري أكثر قبولا من عامة الناس .

(راجع من اجل هذه النقطة الأخيرة هـ . ا . ر . فيلبي ، أوبزيرفو نورين نيوز سيرفس ، رقم ١٢٢٣٨ تاريخ ٣٠ نيسان ١٩٥٧) .

معادين ، فقد خشي ان يحاول الان السيطرة على الحكم مباشرة . وكانت هذه بعض الاصوات المنذرة بقرب حلول الازمة .

وجاءت ثلاثة احداث متتابعة تسبق الازمة ، ففي السادس من آب وقع وزير الدفاع السوري خالد العظم ، معاهدة اقتصادية وفنية واسعة المدى مع الاتحاد السوفييتي في مدينة موسكو ، وبعد اسبوع جرى ابعاد ثلاثة دبلوماسيين اميركيين اتهموا بالتآمر على قلب نظام الحكم ، واتبع ذلك مباشرة تقاعد نظام الدين رئيس الاركان العامة ، وتعيين عفيف البزري المعروف بتعاطفه مع السوفييت بدلا منه ، وفي الوقت نفسه جرى تطهير الجيش من عشرات الضباط .

فأثارت هذه الاحداث الرعب في واشنطن ، وكانت الاعصاب قد أنهكتها شهور من الحذر واليقظة ، وشبح يلوح دائماً حول هجوم شيوعي على الشرق الاوسط . إنه وضع يمكن القول فيه ان الولايات المتحدة قد نومت نفسها مغناطيسيا بواسطة وحش من صنعها هي ، فقد جرى الحديث علنا عن السيطرة السوفيتية ، وعنيت الموارد الهامة ووزعت كي يمكن حمايتها والدفاع عنها من هجوم مفاجيء ، وبدا الآن وكأن العدو قد وجه ضربته ، وأصبح لا مناص من اتخاذ إجراء ما : وأعلنت صحيفة نيويورك تايمز في الثامن عشر من آب :

« السؤال الكبير الذي سيواجه المستر دالس وزعماء آخرين للدبلوماسية الغربية في هذا الاسبوع هو ما اذا كانت الولايات المتحدة ، وجيران سورية الموالون للغرب سيحتملون وجود دولة تابعة للسوفييت ، او ما يشبه ذلك ، في قلب منطقة الشرق الاوسط . »

ولكن هل كانت هذه التطورات في سورية ذات طابع يستدعي التدخل الاميركي وفق بنود مبدأ ايزنهاور؟ وكيف يمكن ان يقال ان سورية أصبحت ضحية عدوان « من دولة تسيطر عليها الشيوعية الدولية » ؟ ألم يكن المبدأ بتحديده الحذر لشروط قيام اميركا بالتدخل ، معيقاً للعمل أكثر مما كان يشكل رادعا ؟ ، وعلى حين انهمك المستر دالس (بتأثير وخزات الديمقراطيين في مجلس الشيوخ) بالتفكير في هذه المشكلات ، ربما كان بالامكان الاستنتاج أن الولايات المتحدة

بتحويلها الصراعات في سورية والعالم العربي الى نزاعات مباشرة بين الغرب والشيوعية قد افقدت دبلوماسيتها قدرا كبيرا من المرونة .

واذا ما نظرنا عن قرب الى أحداث مطلع شهر آب بادئين ببعثة خالد العظم الى موسكو ،اتضح ان هنالك أسباب عديدة سياسية واقتصادية وشخصية ايضاً دعته آنئذ للذهاب ، فالاتفاقية التي فاوض بشأنها كانت في المقام الأول وذروة طبيعية لنمو العلاقات السورية السوفيتية في غضون السنتين الماضيتين ، لقد كان الروس على غاية من الود والمساعدة وأسهمت اهتماماتهم المستمرة والحارة في مساعدة السوريين على الصمود في وجه الضغط الغربي الملح ، وكانوا غزيري شحنات الاسلحة وتأكيدات الدعم والتأييد العلنية ، وفي أوقات القلق والاضطراب الشديدين التي سادت خلال معركة حلف بغداد في عام ١٩٥٥ على سبيل المثال ، او حرب السويس في عام ١٩٥٦ ، منح الروس الشعب السوري ثقة جديدة بأنه في حال حدوث هجوم مسلح على بلاده فلن يكون وحده . وكان خالد العظم أحد المهندسين الرئيسيين لهذه العلاقة ، وقد شعر الان ، دون ريب ، بأنه يستطيع ان يؤمن بأن سورية قد ضمنت استقلالها المستمر وأنه ضمن السيطرة لنفسه ، ولكن ما ان جاء منتصف عام ١٩٥٧ حتى بدا ان ثمة ضرورة لتعزيز العلاقات مع روسيا من جديد للصمود في وجه نوايا اميركا وشد أزر العظم في الصراع السياسي الداخلي الذي كان يعلم أنه قريب الوقوع ومن هنا جاءت زيارته الظافرة الى موسكو . كما كانت هناك صفقة هامة يجب ان تعقد ايضا ، فقد جرت الترتيبات لدفع اثمان الاسلحة التي قدمها الروس بسخاء ، بما تمتلكه سورية من فائض كبير من القمح تسعى للتخلص منه ، وأهم من هذا كله كانت هناك حاجة لوجود ممولين اجانب على نطاق واسع ومعونة فنية من أجل المرحلة التالية من النمو الاقتصادي بعد كساد سوق الاستثمار الفردي الذي ازدهر في فترة الاربعينيات والخمسينيات . وكما كان خالد العظم احد اوائل الاداريين السوريين الذين شعروا بالحاجة الى انهاء الاتحاد الجمركي مع لبنان، وبناء ميناء على المتوسط خاص بسورية، فقد أدرك ايضا الحاجة الى السدود وأعمال الري لانقاذ اقتصادها الزراعي من مشكلة الامطار

الفصلية ، واقامة شبكة مواصلات حديثة لنقل المحصول، الى البحر من الأراضي الجديدة في منطقة الشمال الغربي ، كما انشاء معامل للسماد لتحسين الانتاج ، ودراسة الثروة البترولية والمعدنية بشكل أدق .. كل ذلك تضمنته الاتفاقية مع الاتحاد السوفييتي ضمن شروط سخية . وعلى ذلك فالاتفاقية كانت مبررة كليا من الناحية القومية ولو بدت في عيون الغربيين وكأنها تشير إلى تبعية الاقتصاد السوري للسيطرة السوفيتية على المدى البعيد .

غير ان الامر المثير للقلق أكثر من ذلك كان اعلان الحكومة السورية في الثاني عشر من آب عن كشف مؤامرة اميركية لقلب نظام الحكم، وفي اليوم التالي اعلن ان ثلاثة دبلوماسيين اميريكيين هم الملحق العسكري روبرت مالوي، والسكرتير الثاني هوارد ستون ، ونائب القنصل فرانسيس جيتون — أشخاص غير مرغوب فيهم ، وكان هؤلاء اول دبلوماسيين اميركيين منذ الحرب العالمية الثانية توجه اليهم تهمة التآمر للاطاحة بحكومة عربية ، وردت واشنطن على ذلك بطرد السفير السوري فريد زين الدين ، واحد موظفي سفارته .

هل الاتهامات السورية قائمة على أساس صحيح ؟ لدى فحص الوقائع وعلى الرغم من تشابكها وتشوشها وعدم الترتيب فيها فان من الصعب استبعادها واعتبارها ملفقة (١١) ، فالولايات المتحدة ، مدفوعة بقناعتها بان سورية « تتحول الى الشيوعية » ، أخذت تحاول العثور على وسائل تعكس التيار ، وقام ممثلوها باجراء اتصالات سرية مع أفراد في الجيش السوري على امل تنظيم الاطاحة بالحكومة ، هذا على الاقل ما يتوضح من الوقائع . وكما هو الامر بالنسبة للمؤامرة « العراقية » في عام ١٩٥٦ — وهي المحاولة الفاشلة التي

(١١) راجع آ — بيان وزارة الخارجية السورية لدى اكتشاف مؤامرة اميركية ضد امن الدولة ١٩ آب ١٩٥٧ (الوثيقة ٢٨٤ أصدرها مكتب الوثائق العربية في دمشق) .
ب — قرار الاتهام السوري في قضية المؤامرة الاميركية : تصريح للمدعي العام العسكري — ٢٨ ايلول ١٩٥٧ الوثيقة رقم ٣١١ .
جـ — وقائع المحكمة العسكرية ، ١١ كانون الاول ١٩٥٧ — ١٢ شباط ١٩٥٨ (الوثيقة رقم ٣١٨) .

كتبت عنها في الفصل السابق – فان هذه المحاولة لمجابهة التغلغل السوفييتي كانت عبارة عن مسرحية متعرجة للقاءات سرية وعملاء مزدوجين يلعبون على الحبلين واتصالات خفية باعضاء الحزب القومي السوري المتطرفين في لبنان . وقد سارع ستة من الضباط السوريين الذين اتصلت بهم السفارة الاميركية لاخبار السلطات ، الامر الذي أدى الى فشل المؤامرة منذ البدء .

وفي مجرى هذه المكيدة ظهر لفترة قصيرة شخصان مألوفان متنكران هما الدكتاتور السابق أديب الشيشكلي ورئيس شرطته العقيد ابراهيم الحسيني الذي كان يعيش في روما كملحق عسكري سوري منذ سقوط الشيشكلي في عام ١٩٥٤ وقد قام كل من الرجلين بزيارة سرية الى دمشق في صيف عام ١٩٥٧ بمعونة الاميركيين لكي يشجع المتآمرين ويدعم الحركة ، وتوضح فيما بعد ان هدفهما الرئيسي لم يكن شبح الشيوعية الدولية ، او سياسيين مدنيين كبكداش والحوراني ، بل المجموعة الصغيرة من الضباط الذين يؤلفون عصب الحكم في سورية وهم السراج ، وحمدون والبزري وعودة الله والنفوري وزملاؤهم ، والامر كما هو بالنسبة للحسيني ان معظم هؤلاء الرجال مدينون بمناصبهم القيادية الهامة الى الشيشكلي ، وكانوا – وهو واحد منهم – أعضاء متنافسين في فريق الشبان المحيطين بالدكتاتور في اوائل فترة الخمسينيات ، في الوقت الذي سيطر بعضهم بعد سقوطه ، كالسراج ، الذي شغل مناصب قيادية هامة ، واضطر آخرون كالحسيني ، الى مواجهة النفي والنسيان .

والجانب العربي لما سمي بالمؤامرة الاميركية ، كان عبارة عن نزاع بين جماعات متنافسة من الضباط ، أكثر مما هو صراع بين الشيوعيين خصومهم ، فالواقع انه من الصعوبة بمكان العثور على مؤيد للشيوعيين في الجيش في ذلك الوقت ، باستثناء الفريق البزري الذي كان بعيدا عن ان يكون أشد أعضاء الجماعة نفوذا وتأثيرا ، ولقد شكل دعم الولايات المتحدة للحسيني شعورا حادا بالعداء للولايات المتحدة لدى السراج بلا ريب ، وهو شعور ظل ملازما له طيلة سنوات سلطته ، لكن ذلك لم يجعله شيوعيا ، والخطيئة الاميركية المتكررة – والسبب الجذري للكثير من القلق والحذر غير الضروريين – هي

رؤية صراع محلي على السلطة من خلال شروط الحرب الباردة . وعلى أية حال لم تصل المؤامرة الى أبعد من مرحلة المحاولات التجريبية الاستطلاعية ، وقد قتلت في المهد وابعد الاميركيون الذين كان « ستون » على رأسهم .

وبعد يوم واحد استقال نظام الدين من منصبه كرئيس للاركان العامة وحل محله عفيف البزري الذي وصفته صحيفة النيويورك تايمز في السابع عشر من آب بأنه شيوعي منظم وضابط مؤيد للسوفييت علنا ، لذلك فقد فسر التغيير بالضرورة على أنه استيلاء شيوعي على القيادة السورية العليا ، ولكن هل كانت وجهة النظر هذه صحيحة ، لقد قدم العقيد السراج ، الذي ربما كان اشد الضباط نفوذا في ذلك الوقت ، تفسيرا مختلفا :

« ان تعيين البزري لا علاقة له بما يفترض عن ميوله الشيوعية (التي لم تبرز الا فيما بعد على اية حال) او بزيارة خالد العظم الى موسكو ، لقد كان الامر ببساطة اننا طلبنا من نظام الدين اقصاء عدد من الضباط الكبار الذين لهم علاقة بمحاولة ابراهيم الحسيني الانقلابية ، لكن نظام الدين رفض ، فقمنا عندئذ بتدبير أمر اقصائه هو واستبداله بالبزري ، وبدا هذا شخصية غير جدلية ولم يكن لديه اتباع شخصيون في الجيش ، كما لم تكن له علاقة بأي جناح من الاجنحة المتنازعة داخل الأركان العامة ، وعلى ذلك كان تعيينه مقبولا من الجميع » (١٢) .

هذه التفصيلات تقدم هنا لكي يبين المدى الذي وصلت اليه واشنطن من سوء المشورة حينما نظرت الى الحالة بفزع ، وقد جاء في الاخبار ان المستر دالس اجرى محادثات عاجلة حول الازمة مع الرئيس ايزنهاور والسفير البريطاني السير هارولد كاسيا.. على ظن أن دولة جديدة تابعة للاتحاد السوفييتي قد برزت في الشرق الاوسط ، ولكن سرعان ما اتضح انه حتى لو ان سورية وقعت فعلاً تحت السيطرة السوفييتية فان الولايات المتحدة لم تكن بنفسها تستطيع ان تفعل الا القليل لأحداث تبديل ما دامت لن تتدخل عسكريا .

وقد حرك مبدأ ايزنهاور عندئذ بحيث أصبح تقدير الموقف وتقرير السياسة

(١٢) عبد الحميد السراج للمؤلف ، القاهرة ، ٢٧ كانون الثاني ١٩٦١ .

أمرا منوطا بجيران سورية ، وذهب اتجاه التفكير لدى خبراء الشرق الاوسط الاميركيين يتجه آنئذ نحو فـكرة وضع سورية في « محجر صحي » لعزل الجرثوم ، وقد قالت صحيفة النيويورك تايمز في مقال افتتاحي لها في الثاني والعشرين من آب « انها لدبلوماسية مشروعة للولايات المتحدة ان تشجع جميع الدول المعادية للشيوعية في الشرق الاوسط لكي تستخدم كل ما في وسعها من الضغط والتأثير لكبح جماح سورية » .

وقد سببت هذه الصرخة مرارة واضحة ، وقليلا من توتر الاعصاب في دمشق ، وأعلن خالد العظم ان سياسة سورية ، على رغم الاستفزازات الاميركية ، ستظل مستندة الى مبدأ « الحياد الايجابي » لكنه تابع قائلا : « اننا على حافة تلك السياسة فلا تجبروننا على الذهاب الى أبعد منها » ، ولم تستمع واشنطن الى هذا التحذير ، بل سارعت فضغطت بجهودها لاستنفار جيران سورية ضد التهديد الذي يتمركز بينهم .

بعثة لوي هندرسون :

لقد بدا الاسلوب الذي اختارته واشنطن — وهو ارسال مندوب اميركي على مستوى عال في جولة سريعة بالشرق الاوسط — قمينا بأن يسبب اقصى موجات العداء والتضحية بالمزايا المحتملة لاتباع اسلوب دبلوماسي سري وعدم الحصول على معلومات غير منحرفة حول الوضع داخل سورية ، وفي الرابع والعشرين من آب غادر المستر لوى هندرسون ، نائب وكيل وزارة الخارجية الاميركية واحد خبراء الشرق الاوسط الرئيسيين في الحكومة الاميركية ، واشنطن قاصدا تركيا (كان نشيطاً في الدور الذي لعبه في صياغة مبدأ ترومان في عام ١٩٤٧ ، المتعلق باليونان وتركيا وايجاد حل في النزاع على النفط الايراني في عام ١٩٥٣) ، وفي أنقرة أجتمع هندرسون برئيس الوزراء مندريس ، وبملكي الاردن والعراق اللذين لحقا به إلى هناك ، ثم طار إلى لبنان للاجتماع بالرئيس شمعون قبل العودة إلى تركيا للقيام بمحادثات أخرى مع مندريس

والامير عبد الاله الوصي على عرش العراق ، ورئيس الاركان العراقي ، غير أنه لم يذهب إلى سورية لاجراء محادثات مع السلطات السورية .

وأثارت تحركات هندرسون عاصفة كبرى من التعليقات الغاضبة ، فقد أتهمت موسكو الولايات المتحدة بانها تمهد الطريق للقيام بتدخل مباشر ، واتهمت القاهرة هندرسون — الخبير في الانقلابات — بانه يخطط لعزل سورية وحصارها (وهو أمر لا يزيد على ما توقعت الصحافة الاميركية منه) ، ولما يئست اميركا من خطط تخريب سورية من الداخل ، حاولت استثارة جيرانها ضدها ، وكانت الخطة كما قالت القاهرة في اتهامها تقضي باثارة صدام يبرر تطبيق مبدأ أيزنهاور .

وبناء على بيان رسمي ألقي على المراسلين الصحفيين في الخامس من أيلول ، ذكر المستر هندرسون أن الوضع خطير جداً ، وأعلن في تقريره الذي رفعه لدالس كما جاء في بيان وزارة الخارجية عن اهتمامه العميق بمصير سورية وان تصبح ضحية للشيوعية الدولية ، كما ان تكون قاعدة لتهديدات أبعد مدى لاستقلال وحدود الاقليم (١٣) ، ومرة أخرى أرسلت معلومات مغايرة عن الموقف كتلك التي أبرق بها مراسل النيويورك تايمز في دمشق ، أوزغود كاروثرز :

« ليس هناك ما يشير ، في سورية أو في مصر على حد سواء ، إلى أن الاتحاد السوفييتي ، ببعثاته الفنية والاقتصادية والعسكرية والثقافية ، يحاول أن يجعل هاتين الدولتين العربيتين سوفيتيتين أو ان يثير الماركسية الكلاسيكية ، ان ما وجده الاتحاد السوفييتي هو دولتان عربيتان ودودتان راغبتان في المساعدة على صد الجهود الغربية ... وحسب ما هو معلوم أنه ليس هناك شيوعيون منظمون يحملون بطاقة عضوية الحزب في صفوف القوات المسلحة السورية » .

ولكن هذه لم تكن وجهة نظر المستر هندرسون ، فقد أدت عودته إلى زيادة مباشرة في تصلب الموقف الاميركي ، وجرى اعتقاد بضرورة اتخاذ عمل

---

(١٣) وزارة خارجية الولايات المتحدة : السياسة الخارجية الاميركية ، وثائق معاصرة (١٩٥٧) ص ١٠٣٧ .

حاسم ... بتقديم تحذير إلى سورية من أن تقوم بمغامرة خارج حدودها وبتقوية خطوط دفاع جيرانها المؤيــدين للغرب ، وعلى ذلك فقد أعلن عن خطط في الخامس من أيلول لشحن اسلحة اميركية إلى الاردن فوراً وبواسطة الجو ، واسلحة أخرى إلى العراق ولبنان، وكان رد الفعل في دمشق غاضباً وذاهلاً ، وقال ناطق رسمي ان واشنطن قد ضللت تضليلا خطيرا فيما يتعلق بحقيقة الوضع ، اذ أن سورية لا تنوي الهجوم على أحــد ، وسياستها في المجال العسكري دفاعية محضة ، غير أنها لن تحتمل أي تهديد لأمنها .

وكان وجود الوصي على العرش العراقي عبد الاله ورئيس الاركان العراقي رفيق عارف في محادثات هندرسون بانقرة مذكراً بانشغال العراق المستمر بسورية على الرغم من انهيار محاولاتها الرئيسية الرامية إلى اسقاط الحكومة السورية في عام ١٩٥٦ ، ولعدة شهور أعقبت هذه النكسة كان نوري السعيد وعبد الاله يغذيان آمالهما الخائبة ويرعيانها لكنهما لم يتخــذا أية خطوات مباشرة لخدمة أهدافهما في سورية ، وكانت هذه فترة تصفية حسابات قاسية ، اذ انشغل نوري بانقاذ عرش فيصل من مد مياه امواج السويس ، ودرء تهمة تواطؤه مع بريطانيا واسرائيل ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، ولم يجر بعث الاهتمام المباشر بسورية مجددا من قبل العراق إلا بعد الاعلان عن مبدأ أيزنهاور

وللحصول على ادلة مفصلة يجب العودة مجددا إلى محاكمة اللواء غــازي الداغستاني نائب رئيس الاركان العراقي ، أمام المحكمة العسكرية الخاصة التي أقيمت في بغداد بعد ثورة تموز ١٩٥٨ لمحاكمة خدم العهد البائد ، لقد اظهر اللواء داغستاني في دفاعة (١٤) ان نوري استدعاه لوزارة الدفاع بعد مضي خمسة اشهر على ازمة السويس – أي في ربيع عام ١٩٥٧ واطلعه على خطة للقيام بانقلاب في سورية مدعوم بهجوم للجيش العراقي على حلب وحمص ودمشق ، وقال الداغستاني : « لقد قال لي ان قيادة الجيش العامة يجب ان تتخذ الخطوات اللازمة لتهيئة الجيش للقيام بمهمة » .

وقد اعطيت الحركة الانقلابية الداخلية في سورية اسم عملية نصر ،

(١٤) المحاكمات الرسمية ، ٢١٧ ف .

بينما اعطى التدخل العسكري اسم عملية سيف العرب ، واعطي مخائيل اليان الزعيم الحلبي دوراً رئيسياً في عملية نصر ، وكانت مهمته تأسيس منظمة وطنية للاجئين السوريين يقوم العراق بالاعتراف بها على انها الحكومة الشرعية في سورية في حال نجاح الانقلاب ، وقال الداغستاني انه نقل الخطة ووعد بانجازها باسرع وقت ممكن ، لكنه لم يلبث أن وضع الاوراق جانبا ولم يقم بأي عمل ، ويتابع الداغستاني قائلا :

«ثم استقالت حكومة نوري السعيد وبقيت القضية سرية فأخذت المصنف معي عندما عينت قائداً للواء الثالث في خزانتي هناك ... ان دراسة خطة نوري السعيد توضح انها لم تكن أكثر من قصة تريد التنبوء باحداث معينة وتقديم اقتراحات لها ، ولتحويل هذه إلى خطة عسكرية يمكن ان تمارس عمليا — يجب تقدير الموقف ، واصدار الاوامر بتحركات القوات والدولة — أمر يتطلب مجهودات كبيرة من قبل القيادة العامة بأكملها ، غير ان القيادة والموظفين الاداريين لم يفعلوا شيئا من هذا القبيل عندما كنت نائب رئيس الأركان العامة »

ولم يرسم أي عمل جدي من قبل العراقيين في ذلك الوقت ، وقد حرصوا على دوام الاتصالات مع عدد من السياسيين السوريين — بواسطة الملحق العسكري العراقي في بيروت على الاغلب — ودرست بعض الاقتراحات التي قدموها ، ولكن لم يحدث شيء بشأنها ، لقد فقد العراقيون أعصابهم في عام ١٩٥٦ ، واظهرت لي تحرياتي انه لم تكن ثمة علاقة بين العراق وبين ماسمي بالمؤامرة الاميركية في آب ١٩٥٧ .

ان ما حدث بين لوى هندرسون والقادة الاتراك والعراقيين والاردنيين في أنقرة على وجه الدقة يظل امرا متروكا للتخمينات ، وفي محاكمة احمد مختار بابان أحد الوزراء في حكومة نوري السعيد ، امر رئيس المحكمة العسكرية بقراءة ملاحظات قيل انها كتبت بالعربية من قبل رئيس الاركان رفيق عارف عندما كان هندرسون يترأس الاجتماع ، والمقاطع التالية من

هذه الملاحظات أذيعت مباشرة على الهواء من قاعة المحكمة . وقد أدعى بان هندرسون قال :

« لقد تحدثت مع دالس وايزنهاور وكل منهما يعتبر الوضع خطيرا ... وفي مطلع هذا الاسبوع ، استلم البيت الابيض ووزارة الخارجية عددا من البرقيات التي تعرب عن اهتمامها وقلقها ازاء التطورات في سورية ...

لقد حللنا الوضع ونحن نعتقد ان الحالة الراهنة في سورية اقرب إلى أن تؤدي لتسليم البلاد إلى روسيا بالتدريج باسم الوطنية العربية والتقدمية والحياد.

ونحن نعتقد بأن اسلحة كثيرة سترسل وخبراء من المعسكر الروسي سيصلون إلى سورية ، في غضون اشهر قليلة من هذا الحياد (المزعوم) ، وأن سورية سوف تصبح (كلمة غير واضحة) معسكرا روسيا ، وستتبع ذلك معاهدات بين سورية وروسيا تجعل التدخل في سورية أمرا يورط روسيا بالحرب ، اننا نشعر أن سورية ستصبح (جهـــاز ارسال) للنفوذ السياسي في الشرق الاوسط ...

ان قدومي إلى هنا لمناقشة الموضوع معكم مباشرة هو الطريق الافضل لمواجهة مسائل كهذه ، لم آت إلى هنا لكي أصر على تركيا او أية دولة أخرى لتتبنى موقفاً او خطة ، ولكن لأنقل لكم وجهات نظرنا وطلب مساعدتكم في العمل ، وانه لأمر متروك لكم ان تقرروا ، واذا ما قررتم القيام بعمل ، دعونا على علم بذلك (كلمات غير واضحة) ..

اذا ما اتخذ عمل عسكري يجب ان تنتحل له اسباب لكي يصبح من الممكن الدفاع عنه في الامم المتحدة والتخلص من المشكلة ، ويجب ان توضع القضية بطريقة يمكن معها طمأنة الدول العربية الاخرى بأن هذه ليست حرباً ضد سورية وانما هي اجراء ضـــد حالة (شاذة) .. وان الشيوعية تعارض الاسلام والمسيحية على حد سواء .

ان العربية السعودية تشك في نوايا العراق من سورية لكن الحالة قد تحسنت الان . ويجب الا يسعى للتوصل إلى اتحاد بين العراق وسورية في الوقت الراهن . وهذا لا يعني أنه يجب الا يحدث في المستقبل ، ولكن يجب ان يصبح

واضحا انه ليس هدفا مباشرا ...

اني أؤكد على ضرورة ان يكون العمل ناجحاً مائة بالمائة عندما تقررون القيام به ، ان اعتقادنا انه اذا ما كان سيجري عمل ما يجب ان يكون متقنا . ويمكن دعوة تركيا للمساعدة اذا ما حدث شيء يعيق النجاح .. (١٥) »

وجوابا على سؤال حول احتمال تدخل المصريين ، قيل ان هندرسون أجاب : « ان الاسطول الان يمخر عباب شرقي البحر المتوسط ، اننا نعتقد ان هذا سيجعل مصر تتردد » .

لقد استطاعت رحلة هندرسون إلى تركيا أن توضح إلى أى مدى اصبحت تلك الدولة بيد السياسة الاميركية في الشرق الاوسط ، وتمنت الولايات المتحدة طويلا أن تقدم تركيا عنصرا من التماسك في تنظيم المنطقة للدفاع ، وكان دور تركيا في نظر الاميركيين هو سد الثغرة بين الجهاز الرئيسي لحلف شمالي الاطلسي (الناتو) والترتيبات الدفاعية الاقليمية الأقل أهمية الخاصة بالشرق الاوسط ، ولكن هذه الخطط لم تنضج النضج الكافي اطلاقا تبعا للمعارضة العربية النهجية . وباستثناء العراق كان رد الفعل العربي سلبيا تماما ، وقد انعكس استياء تركيا فقامت بمناورات حربية على حدود سورية الشمالية ، الامر الذي على ما يبدولم يفلح في التخفيف من عدائها لخطط الدفاع الغربي ، بل اسهم في تهديد استقرارها ودفعها للبحث عن حماة آخرين .

فقد ثار غضب سورية بسبب النشاط التركي والتهديد العسكري المباشر بقدر ما استمر في تاريخ العداء العربي التركي الطويل ، فالحركة القومية العربية انطلقت من ثورة ضد الحكم التركي ، بينما اسهمت سلسلة من الاحداث القريبة كاغتصاب الاسكندرون، ومخططات تركيا المريبة حول الموصل ، واعترافها باسرائيل ، وانضمامها إلى نظام الدفاع الغربي ، كل ذلك اسهم في ابعاد العرب عن الاتراك ، واصبحت تركيا بمثابة حصان طروادة بالنسبة للمحايدين العرب والدعائيين السوفييت على حد سواء ...

---

(١٥) هيئة الاذاعة البريطانية ، رقم ٦٨٢ ، ١٧ تشرين الاول ١٩٥٨ .

أو لنقل بعبارة شائعة أنها اصبحت (جندرمة) الامبريالية الاميركية في الشرق الاوسط .

ومنذ منتصف الخمسينيات اصبحت المناورات التركية اسلوبا معروفا في الضغط على دمشق ، وفي مناسبات عديدة المحت تركيا إلى أنها قد تتحرك إلى سورية اذا ما سيطرت عليها حكومة شيوعية او حكومة يسيطر عليها السوفييت ، وقد جرى اطلاق هذه التلميحات المقنعة في الصحافة التركية ابان ازمة السويس عندما بدت سورية الهدف الاقرب لأرسال متطوعين من الروس الذين كانوا يتحدثون عن ارسالهم إلى الشرق الاوسط ، وقد تكررت هذه التلميحات في نيسان وايار ١٩٥٧ عندما بدا ان الجيش السوري قد يتحرك لمساعدة المعارضة لحكم الملك حسين في الاردن ، وفي كل مناسبة كانت تركيا تدعم كلامها بتحركات تعلن عنها لفرقتين عسكريتين اوثلاث على الحدود ، وكانت هذه هي الحالة في خريف عام ١٩٥٧ .

والواقع ان الموقف التركي كان مثيرا للاستفزاز إلى حد أنه ابتداء من منتصف أيلول اصبح الصدام السوري الاميركي أكثر جدية، غير أنه استبدل به صدام سوري تركي ، تقف وراءه روسيا والولايات المتحدة ، وفي ١٣ أيلول اتهم رئيس الوزراء السوفييتي بولغانين ، اتهم تركيا بانها وضعت قوات على الحدود السورية بهدف القيام بهجوم مخطط له من قبل الولايات المتحدة ، وحذر بولغانين من ان النزاع المسلح على سورية « لن يقتصر على تلك المنطقة فقط (١٦) » ، ورد دالس في الجمعية العامة للامم المتحدة في التاسع عشر من ايلول ، متهما أن تركيا هي التي كانت في خطر — باعتبارها مهددة من قبل الجيش السوفييتي شمالا ، والتعزيز السوفييتي العسكري في سوريا جنوبا (١٧). وفي اليوم التالي أجاب عليه الفريق البزري في دمشق (أسمى خطاب دالس دعوة شرسة للحرب) وقال المستر غروميكو وزير الخارجية السوفيتي في الجمعية العامة ، « ان بلاده لا يمكن ان تظل مكتوفة الايدي وترقب عن بعد

(١٦) النيويورك تايمز ، ١٤ ايلول ١٩٥٧ .

(١٧) سجلات الجمعية العامة الرسمية — الجلسة الثانية عشرة . ص ٢١

المحاولات التي تبذل لتحويل الشرقين الادنى والاوسط إلى مسرح للنزاع المسلح (١٨) » ، وفي اليوم التالي ٢١ أيلول ، وما ان وصل صلاح الدين البيطار وزير الخارجية السوري إلى نيويورك لعرض قضية بلاده ضد تركيا ، على الجمعية العامة ، حتى قامت سفينتان حربيتان سوفييتيتان هما الطرادجدانوف ومدمره مرافقة بزيارة مرفأ اللاذقية وسط تهليل واستحسان الصحافة السورية .

ومن المفيد عند هذه النقطة تدارس تصرف واشنطن ازاء المشكلة ، فمن الواجب ان نتذكر انه لم يجر اي اتصال مباشر مع السوريين للوقوف على وضعهم الحقيقي اولا بأول ، او لاكتشاف ما اذا كانت الميول المعادية للغرب يمكن ان تعدل بطريقة ما ، وكان يبدو ان لدى المستر هندرسون أقل من عقل مفتوح : فقد نشد تأكيد شيوعية سورية ، أكثر مما نشد تقصي الحقائق ، وعلى ذلك نجحت السياسة الاميركية في تحقيق عكس ما أرادته تماماً ، فقد مارست ضغطاً على سورية ، وسلحت جيرانها ووصمتها بانها تهدد السلام مما أدى إلى تقوية الرجال الذين يحكمونها أكثر مما أدى إلى اضعافهم ، وجعل من الصعوبة بمكان الاستماع للاصوات المؤيدة للغرب في سورية ، كما منع الحكومة السورية من ايجاد أي اتصال سلمي مع الغرب دون ان تفقد ماء الوجه وتتعرض للهزيمة في الداخل ، ودفع السوريين للبحث عن الطمأنينة والمساعدة في المعسكر السوفييتي .

كما أدت الخصومة الأميركية إلى منح الروس فرصا عظيمة فسارعوا ، إلى الدفاع عن سورية واستعادة صوتهم في شؤون الشرق الاوسط واستنكار حمى التدخل التي تتسم بها الامبريالية ، وفي الثالث من أيلول — عشية عودة هندرسون إلى واشنطن — اقترح الاتحاد السوفييتي للمرة الثالثة ، في مذكرة بعث بها إلى الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا ، اعلان تصريح رباعي يستنكر استعمال القوة في المنطقة ، هذا وقدمت اقتراحات مماثلة في رسائل ارسلت بتاريخ الحادي عشر من شباط والتاسع عشر من نيسان ، وقد رفضت هذه الاقتراحات كلها بنزق .

---

(١٨) المصدر السابق ، ٢٠ ايلول ، صفحة ٣٦ .

ولعل المقال الذي نشر في صحيفة الجيش السوفييتي (النجم الاحمر) في العاشر من أيلول تعليقا على الموقف يشكل مثالا مناسبا للاساليب السوفيتية ، فقد ادعى انه يـكشف النقاب عن « مؤامرة اميركية شيطانية لغزو سورية » ، واكدت الصحيفة ان المؤامرة كانت تنطوي على خطة ذات خمس مراحل في الوقت الذي تهيأ فيه الاميركيون لمعارضة العدوان الانجلو -فرنسي على مصر :

اولا — تقوم اسرائيل بتحركات عسكرية استفزازية ، على حدودها مع سورية .

ثانيا — تسارع تركيا عند ذلك إلى تجميع قواتها على الحدود السورية الشمالية مثيرة احتمال حدوث صدام سوري اسرائيلي .

ثالثا — تقوم العراق بدورها بحشد قواتها بحجة أنها تستهدف مساعدة سورية.

رابعا — تقوم الطائرات العراقية والتركية بغارات على بعض المراكز على الحدود مدعية ان سورية قد خرقت حدودها .

خامسا — تسارع هاتان الدولتان بالزحف على سورية وهما تناشدان في الوقت نفسه الولايات المتحدة لتقديم معونتها لصد العدوان السوري .

غير ان سورية ، كما استنتجت الصحيفة السوفييتية — كان هذا الاسلوب السائد في معظم التعليقات السوفييتية في تلك الفترة — لها حلفاء أقوياء وتتمتع بدعم جميع الشعوب المحبة للحرية ، ودعم هذا المنطق في ما بعد بالاعلان عن نجاح أول تجربة لاطلاق صاروخ سوفييتي عابر للقارات في السادس والعشرين من آب .

وساطة الملك سعود :

لقد طغى هذا النزاع بين الدول الكبرى ، وامتداده السوري التركي على نزاع آخر كان عربياً محضاً ولم يلق عناية وكالات الانباء الاجنبية ، ففي اواخر صيف عام ١٩٥٧ كانت الدول العربية التي أيدت مبدأ ايزنهاور

علانية ، وهي لبنان والاردن والعراق والعربية السعودية ، تجد من الصعوبة بمكان التوفيق بين سياستها وبين السياسة الاميركية، وفي فترة ما بعد السويس شعرت هذه الدول بضعفها أمام الشعارات القومية ، وكاد ان يفقد الملك حسين عرشه في نيسان ، واستطاع فيصل ملك العراق ان يجتاز ازمة السويس بسلام بفضل دعم نوري السعيد ، في حين كان سعود غير عازم على المخاطرة بقطيعة معلنة مع عبد الناصر ، بينما شعر شمعون ومالك في لبنان بعنف الزحف (الناصري) المنذر بالسوء .

ولتهدئة الرأي العام ، دلت الغرائز الفطرية لهؤلاء القادة ، على محاولة لبلورة وتقديم المبدأ على أنه ليس فقط ضد الشيوعية الدولية بل ضد الاستعمار بأشكاله المحلية المختلفة : كالاستعمار الفرنسي في الجزائر ، والبريطاني في جنوب افريقيا ، والاسرائيلي في فلسطين ، غير ان هذه المناورة لم تحمل سوى قدر جد قليل من الاقناع ، ووضعت الولايات المتحدة وجها لوجه أمام معضلات غير سارة في علاقاتها مع اسرائيل بالاضافة إلى وضعها موضع العداء لبريطانيا وفرنسا اللتين لم تقابلا المبدأ بأي حماس لانه تضمن استبعادهما عن المسرح العربي .

وقد أضاف كشف المؤامرة الأميركية متاعب كثيرة إلى حلفاء أميركا العرب ، فهم في موضع لا يستطيعون فيه الكشف عن حقيقتهم ، ولا البقاء فيه في صف اعداء سورية ،لا سيما وكابوس السويس لا يزال ماثلا وفيما كان القلق على مصيرهم شغل وزارة الخارجية الأميركية الشاغل ، كانت مشاعر الشعب الملتهبة ونظراته المتقدة ترمقهم بغيظ وحـــذر ، فالنقل الجوي القائم للسلاح الأميركي إلى عمان مثلاً ، قد عمل فقط على دمغ الحسين بالخيانة للعرب لسماحه باستخدام بلاده كقاعدة للعمليات ضد سورية. وقد نزعت واشنطن مرة أخرى ، وانظارها تشخص إلى العـــداء الروسي ومثبتة عليه ، إلى تخفيف التوترات على هذه البقعة المحدودة ، وهي التي سبق ان وجهت ضدها أعظم الخصومات .

وربما كان الملك سعود الزعيم العربي الاول الذي سعى لانقاذ نفسه من هذا الوضع غير المريح ، فقد رأى ان الضغط على سورية لم يخدم المصالح

الاميركية كما لم يخدم مصالحه هو ، وعلى ذلك فقد حاول توجيه جهوده الدبلوماسية نحو تلك الحكومات العربية الشديدةالعداء لسوريةلتبتعد عن واشنطن وتتخذ الاعتدال طابعاً لوجهات نظرها ، وبدأ حملته بزيارة قام بها الى بيروت في السابع من ايلول في محاولة لرأب الصدع بين سورية ولبنان ، ولم يلبث الاردن ان اقترب من هذا الاسلوب في التفكير ، فقد أعطى وزير خارجيته سمير الرفاعي ، تأكيدات كثيرة في العاشر من ايلول مفادها أن دولته لا تعتزم التدخل في سورية ، وصرح بقوله ان سورية بلد مستقل ولديها الحق في أن تتصرف بمصالحها الخاصة بها ما تشاء، وفي الثاني عشر من الشهر نفسه جاء في الانباء ان الملك سعود ارسل رسالة الى الرئيس ايزنهاور يحثه فيها على سلوك مسلك الاعتدال تجاه سورية .

وقد اغتنم السعوديون كل مناسبة ممكنة للمضي في استراتيجيتهم ، ففي الحادي والعشرين من ايلول ، صرح وكيل وزارة الخارجية السعودية في القاهرة بقوله ان حكومته لا تؤمن بان سورية تشكل تهديدا لأى من جاراتها العربيات أو لتركيا، وقد اعاد وجهة النظر هذه مرة أخرى فيصل ولي العهد لدى زيارته إلى واشنطن في الثالث والعشرين من الشهر نفسه للاجتماع بالرئيس ايزنهاور ووزير الخارجية دالاس ، وفي الخامس والعشرين من الشهر ، وصل الملك سعود بذاته إلى دمشق حيث استنكر كل محاولة للعدوان على سورية واكد أهمية تضامن الشعب العربي ، ولم يلبث ان لحق به في اليوم التالي الرئيس العراقي علي جودت الايوبي الذي أعلن بعد اجراء مباحثات مع الرئيس القوتلي ان سورية والعراق قد وصلتا إلى حالة « تفاهم تام » .

وكانت قمة اتصالات الملك سعود تعهداً علنيا قطعه على نفسه حين غادر سورية في السابع والعشرين من أيلول : « أرغب في ان أعلن دون لبس او غموض، وبالصدق والاخلاص اللذين عرفهما عني اشقائي السوريين ، والعرب قاطبة ، انني استنكر كل اعتداء على سورية وعلى أي بلد عربي آخر مهما كان مصدره ، وانني سوف أقاوم مع اشقائي السوريين والعرب أى اعتداء

يقع عليهم وعلى استقلالهم بصرف النظر عن مصدره » (١٩) .

وقد طرح هذه الآراء نفسها طرحاً منسقاً محكماً ، وأمام جمهور دولي ، السيد أحمد الشقيري ، مندوب العربية السعودية في الامم المتحدة ، في الثاني من تشرين الاول فقال :

« ان من يحكم سورية ومن لا يحكمها يهم سورية وحدها ، ونحن لسنا هنا لنناقش تبدل الحكومات ، إذ من الواجب أن يظل هذا المجال العائلي للشؤون الداخلية يتمتع بالحصانة ، ذلك ان الميثاق قد أعلن عن ذلك . أما بالنسبة لصفقة الاسلحة مع روسيا ، فاننا لا نجد أي تبرير مقبول للتدخل . . . ان العربية السعودية ستقف إلى جانب سورية دفاعاً عن سيادتها واستقلالها » (٢٠)

وفي مطلع تشرين الاول ، برز الملك سعود زعيما لحركة التضامن العربي ضد جميع المغريات الخارجية ، وقد قيل انه يحاول في ممارسته للدور المفاوض غير المنحاز ، أن يحقق اجتماعاً لرؤساء الدول العربية لتفحص الخلافات العربية وتبديد جو سوء الفهم مع الولايات المتحدة . وبدأت واشنطن نفسها بالتساؤل عن مدى الحكمة التي انطوى عليها فزعها المبكر ، وبرزت احاديث حول اجتماع وزير الخارجية السورية بوزير الخارجية الأميركية في نيويورك . واقر الرئيس ايزنهاور في الثالث من تشرين الاول ان الوضع السوري يبدو آخذا بالتوطد والاستقرار بعض الشيء ، واضاف « ان الشعور بالخطر الاصلي الذي احست به دول كلبنان والاردن والعراق والعربية السعودية بدأ يخف إلى حد ما حسب المعلومات الجديدة عن الموقف (٢١) » .

واستقبل اطلاق القمر الصناعي الروسي (سبوتنيك) في الرابع من تشرين الاول بحماسة عظيمة في الصحافة العربية. وربما لم يزدد صراخ الانتصار ارتفاعاً في أي مكان عما كان في سورية ، فالصاروخ سوف « يحطم اسطورة القوة العسكرية للولايات المتحدة » ، وانه قادر « حين الضرورة على تدمير الاسطول

---

(١٩) جريدة الشعب (دمشق) ، ٢٨ ايلول ١٩٥٧ .

(٢٠) سجلات الجمعية العامة ، الجلسة رقم ١٢ ، صفحة ٢٣١

(٢١) النيويورك تايمز ، ٤ تشرين الاول ١٩٥٧

السادس في غضون أيام »، ولكن رغم أن الحماسة قد ازدادت في سورية ، الا ان الازمة بدت وكأنما تجاوزت ذروتها ، واستقبل الملك سعود الذي كان يقوم بزيارة رسمية إلى لبنان في العاشر من تشرين الاول من قبل الصحافة اللبنانية بالترحيب واطلق عليه «أسد الجزيرة العربية»و«رمز القومية العربية ».

لقد بدا ان نجاح دبلوماسية الملك سعود كان كاملا ، فبالالتفاف حول سورية والابتعاد عن واشنطن – وصل به الحد إلى انكار دعوته إلى مبدأ أيزنهاور – بدت اهدافه ذات اتجاهين : اعادة اعتبار حكومته والحكومات العربية المؤيدة للغرب في نظر الرأى العام الوطني ، واسكات هجمات القاهرة . وكانت مناوراته في الواقع تستهدف الاستيلاء على زمام المبادهة من عبد الناصر وعزله ، وفي خلال الاسابيع التي قام فيها بالوساطة بين سورية ولبنان والاردن والعراق وواشنطن ، لم تجر استشارة مصر ولم يكن لها اي دور في الامر .

ولم يكن هـذا بالوضع الذي يقبله عبد الناصر بسهولة ، فطلبه الزعامة العربية تطلب منه مجابهة كل تحد لمركزه والقضاء عليه فوراً سواء أتى من دولة كبرى أم من أي دولة عربية ، ولم يفارقه احساسه بالتوقيت ، ففي الثالث عشر من تشرين الاول ، وبينما كان سعود لا يزال يستمتع بثمار ترحيب الصحافة اللبنانية ، نزلت القوات المصرية دون سابق انذار في اللاذقية لكي تأخذ مواقع هجومية في شمالي-سورية جنبا إلى جنب مع الأخوة السوريين. وهنا برزت أزمة أخرى ، فبحركته الخاطفة استطاع عبد الناصر أن يحطم اغلال العزلة التي هدده بها سعود ، وأعلن أنه لا يمكن التوصل إلى تسوية في الشرق الاوسط بدونه ، وعاد مرة أخرى بطلا للحقوق العربية بلا منازع ، وبدت محاولات سعود للتوسط ضعيفة وعديمة القيمة بالمقارنة مع التزام عبد الناصر الكامل بمعركة سورية ، واصبح تقلص نجاحات سعود المبكرة واضحا الان، وبدا في بيروت بطوله وعظمته غاضبا حانقاً بسبب تدخل مصر المفاجىء وتجلى سوء تقديره في الآمـال التي عقدها على ربحه سورية في غضون شهر وابعادها عن مصر حليفتها الاولى ، ذلك الحلف الذي مضى عليه عامان ونصف العام.

والواقع ان التقارب السوري – المصري كان يتقدم باطراد ، فقد آكد زعماء البلدين استمرار الحاجة للتوصل إلى اتحاد سياسي وهو الهدف القومي المرغوب فيه والذي رحب به الرئيس ناصر بنفسه بحرارة في خطبة القاها أمام مجلس الامة المصري في الثاني والعشرين من تموز ، وقد قام الرئيس القوتلي بزيارة القاهرة في نيسان وحزيران وآب معلنا بعد المناسبة الاخيرة « ان أعز أماني سورية هي تحقيق اتحاد مع مصر يمكن ان يكون نواة لوحدة عربية شاملة » ، وجرت في هذه الاثناء احاديث حول انشاء لجنة لدراسة مشروع اتحاد فيدرالي بينما شكلت لجنة في مطلع أيلول لتمهيد الطريق للدمج الاقتصادي بين البلدين.

غير ان خطب واماني السياسيين لم تستطع اللحاق بالمثال الذي ضربته القيادة العليا في كل من سورية ومصر في تعاونهما الوثيق والذي رعاه السفير المصري محمود رياض في دمشق . ومرت آنذاك ، أي خلال بذل الملك سعود جهوده للوساطة ، حادثة دون ان تسترعي الاهتمام وهي زيارة الفريق البزري والعقيد السراج في الحادي عشر من أيلول للقاهرة ، وقد أجرى الضابطان السوريان محادثات مع القائد المصري العام عبد الحكيم عامر ، ومع حافظ اسماعيل رئيس أركان القيادة المصرية السورية المشتركة ، كما تناولوا طعام الغداء مع الرئيس عبد الناصر فيما بعد . وحينذاك ، تم التوصل ، كما تكشف فيما بعد ، إلى الخطط القاضية بتدخل مصر العسكري في سورية في شهر تشرين الأول .

ولم تلبث حدة الازمة السورية ان خفت بعد مضي وقت قصير على الانزال المصري ، فقد تبودلت بعض الطلقات ، واصدرت روسيا تحذيرات جديدة ردت عليها الولايات المتحدة بأسلوبها المعهود ، غير ان النزاع كان قد فقد معظم حرارته ، وفي الثامن عشر من تشرين الاول قررت الجمعية العامة مناقشة شكوى سورية التي تتهم تركيا بتعريض السلم العالمي للخطر ، وحاول الملك سعود عندئذ القيام بالتوسط مجددا بين الفريقين ، بينما ذكّرت الولايات المتحدة سورية ان تركيا قد انكرت وجود أية نوايا عدوانية لديها ، وانه ليس هناك من سبب يدعوها لعدم تصديق ذلك . وفي الثاني والعشرين من تشرين الاول تأجلت مناقشة الامم المتحدة حتى اليوم التالي بانتظار حصيلة

جهود سعود ، ثم استمرت الجلسات حتى اول تشرين الثاني بعد ان رفض السوريون وساطته .

وبرز اقتراحان ، الاول قدمته سورية ويدعمه الاتحاد السوفييتي ، وهو ينادي بانشاء لجنة تقص للحقائق للنظر في الحالة على الحدود السورية التركية وابلاغ المجلس بنتيجة تحقيقاتها في غضون اسبوعين ، والاقتراح الثاني ، وقدمته سبع دول (٢٢) وتؤيده الولايات المتحدة ، وقد ترك للسكرتير العام أمر القيام بمناقشات مع ممثلي سورية وتركيا والسعي لايجاد حل بهذه الطريقة غير ان الاقتراحين جرى سحبهما قبل ان يعرضا على التصويت .

وباختصار ، فان حصيلة تأثير تدخل اميركا الفظ في الشؤون العربية في عام ١٩٥٧ أدى الى ترسيخ موقف الاتحاد السوفييتي ومصر كحاميين توأمين لسورية في تصديها لعداء الغرب ، وكان هذا دورهما منذ معركة حلف بغداد في عام ١٩٥٥ ، غير انهما استطاعتا في العام الذي أعقب حرب السويس ان تضمنا لنفسيهما شيئا أشبه بالوضع الرسمي في الحياة السورية العامة ، أما كيف اقدمت سورية بتطرفها على اختيار مصر وليس الاتحاد السوفييتي حليفا لها فهو موضوع الفصل المقبل .

(٢٢) كندا ، الدانمارك ، اليابان ، النرويج ، باراغواي ، بيرو ، اسبانيا .

الى الاتحاد مباشرة

٢٢

في أواخر صيف عام ١٩٥٧ أصبحت سورية على شفا الانحلال كمجتمع سياسي منظم، ولم يقتصر الامر على عدم وجود اتفاق حول القواعد التي تحدد السلوك السياسي ولكن — وهذا الأسوأ — فقد الكثيرون من السوريين الثقة بمستقبل بلادهم ككيان مستقل. لقد حدثت اخطاء في جهاز الامن، ذلك الجهاز الذي يقوم في معظم المجتمعات بضمان عدم وصول الانشقاقات الداخلية الى مرحلة تدمير الدولة نفسها بحيث لا تبقى ثمة اخطار يجري النزاع حولها .

لقد كانت هناك أسباب معقدة لانهيار التقاليد السياسية .. فقد كانت سورية في فترة ثورية مسرحاً لصراع حقيقي بين مصالح الفئات الاجتماعية ، كما أنها كانت محوراً لسلسلة احقاد وعمليات انتقام عربية وداخلية متزايدة الشراسة والوحشية ، زادتها سوءاً الصراعات بين الدول الكبرى التي لم تمكنها من التمتع بفترة أمن واستقرار منذ الحرب الفلسطينية . كما حازت على اهتمام الهاشميين المتزايد بها، ومحاولاتهم اقامة اتحاد عراقي — سوري، خلال المناقشات التي جرت في فترة الخمسينيات حول الدفاع عن الشرق الاوسط ضد روسيا ، ووصل الامر الى ذروته خلال ازمة حلف بغداد وقضية المالكي ، تبع ذلك تغلغل مصري وسوفييتي وإثارات حرب السويس ، والمؤامرة العراقية عام ١٩٥٦ وأخيراً التدخل الاميركي في ١٩٥٧ . وكانت اموال

الرشاوى والضغوط الخارجية المختلفة الانواع قد قضت في فترة سنوات على كل اساس اخلاقي يمكن ان تمتلكه الحياة السياسية السورية، في الوقت الذي تعرض فيه الشعب لحملات دعاوية مختلفة من محطات الاذاعة المتنازعة، مما جعله في حالة تشبه الهستيريا بأخبار المؤامرات والانقلابات والتهديدات بالغزو. ولم تكن هـــذه بالشروط المثالية لازدهار الفضائل المتمدنة، أو لحسن سير المؤسسات الديمقراطية المنتخبة.

وهناك عامل آخر داخل الجيش، عامل محدد أدى الى انهيار الحكومة المنظمة، فالتبرير الاخلاقي الذي استند اليه الجيش في انقلابـــه الاول عام ١٩٤٩ كان في نقص الاستعدادات التي قام بها المدنيون في حرب فلسطين، والضعف والتخازل اللذين كشفت عنهما تجربة الحرب، ولكن في عام ١٩٥٧ وبعد عشر سنوات تقريباً، بدأ ادعاء الجيش بأنه يمثل ضمير الشعب يتلاشى. فقد اثبتت سنوات الحكم العسكري غير المكترث أن الضباط قد فقدوا تذوقهم للاصلاح ولم يفقدوا شهيتهم للسلطة، ولعب التدخل العسكري المستمر في السلطة — أو فلنقل التهديد بالتدخل — دوراً معرقلا الى حد كبير، فكان الجيش، سواء أكان يسيطر بشكل مفضوح امأنه يعود الى ثكناته بشكل مؤقت، أشد القوى المنفردة بأساً في السياسة السورية — هذا اشارة فقط الى انه لا يمكن لأي حكومة او خط سياسي ان يصمد أمام عدائه.

وفيما كان الجيش منضوياً تحت قيادة واحدة، فان تدخله يخدم في اعطاء سياسة الدولة الخارجية تماسكاً معيناً على الاقل: لقد كانت مقاومـــة سورية لمحاولات العراق عائدة — في التحليل الاخير — الى استمرار ضغط الجيش على مر السنين، كما ان هذا الضغط أدى الى توجه سورية بشكل حاسم الى مصر في منتصف فترة الخمسينيات. ولكن وعندما لم يستطع أي قائد السيطرة على بقية الضباط — كما في السنة او السنتين الاخيرتين اللتين سبقتا الوحدة السورية المصرية — قدمت انقسامات الجيش على المسرح السياسي عاملا من العنف لا يمكن تصوره.. ، وأدت بذلك الى زيادة حدة التصدع في سياسة المدنيين، وهذا عين ما حدث في خريف عام ١٩٥٧.

وجاء تهديد آخر لنظام سورية الجمهوري الليبرالي بتأثير حدوث تبدل راديكالي في محتوى واتجاه التفكير القومي الذي أخذ مكانه منذ الحرب العالمية الثانية . ويمكن ان يصور ذلك في الخلاف في العضوية والتنظيم والاهداف السياسية وأنماط العمل والتصرف بين « الكتلة الوطنية » في فترة الحرب وبين حزب البعث في فترة ما بعد الحرب . وقد افسحت العلاقة غير الثابتة بين الاعيان المحافظين الذين وجهوا اهتمامهم الى ضمان وحدة سورية الداخلية واستقلالها باجراء مفاوضات للتوصل الى معاهدات مع سلطات الانتداب ، أفسحت الطريق لحزب من مثقفي الطبقة الوسطى ، تربطه الفكرة أكثر مما يربطه مجرد التحالف ، مكرس للوحدة والاصلاح الاجتماعي للعالم العربي بأكمله ويطالب بالحرية الكاملة من الاستغلال الاوربي . لقد توضح الطريق وبدت الحدود السياسية واشكال الحكم والوجود الغربي المستمر الذي كان الوطنيون قد اعتادوه من خلال حوارهم الطويل مع الانتداب ، بدا كل ذلك لخلفائهم اشبه شيء بعدد من العقبات التي يتحتم ازالتها كي يتم تحقيق أطماحهم ذات المدى الاوسع . ان الولاء لسورية ككيان اقليمي والايمان ببقائها السياسي لا يمكن ان يضرب جذوراً له عندما يجابه بدعوة الوطن العربي الأكبر .

لقد كان السوريون دائماً يستجيبون الى هذه الدعوة ، وليس ثمة من اندفاع نحو الوحدة يماثل في قوته الاندفاع في سورية ، او التأكيد على أنها هي معقل العروبة ، وهذا الاتجاه الذي انبثق من حدود الجمهورية السورية يستمد مصادره من العواطف والذكريات التاريخية ، والآمال الاقتصادية ، لقد كانت دمشق مركز اول خلافه ، ومركزاً للسيطرة الاسلامية الاقليمية لفترة قرون ، كما أن سورية في اواخر القرن الماضي ، كانت مركز انبثاق فكرة المعارضة العربية القومية للاتراك ، كما انها عانت ايضاً أكثر من بقية الدول العربية الاخرى من السياسة الشوفينية التي اتبعها « الاتراك الشبان » . ان حلم الاستقلال العربي الذي كان ينمو مع الثورة العربية يشكل زاوية عربية عظيمة مفتوحة على

البحر المتوسط وتضم سورية الطبيعية والعراق معاً ، غير ان التسوية السلمية قـد جزأت تلك المنطقة وفصلت دمشق عن منفذها في الجنوب ، وحلب عن الاراضي الداخلية الواقعة الى الجنوب من الحدود التركية ، وبهذا أدى عدم الرضى بهذه الحدود الى زيادة الشعور بان الجمهورية السورية كانت وحدة سياسية مصطنعة لا يمكن ان تعيش طويلا .

وقد سدد بزوغ نجم عبد الناصر كزعيم عربي في منتصف فترة الخمسينيات والذي توافق مع ظهور حركة البعث المؤمنة بالقومية العربية ، ضربة أخرى للطريقة المتناغمة التي كانت تسير المؤسسات السورية وفقها . وبما ان قطاعاً كبيراً من الرأي العام العربي قد استيقظ على الوعي السياسي واصبحت الجماهير تخاطب من وراء الحكومات المستقرة ، أخذت الشعارات والتعابير المتداولة تحل محل كل محاولة للحوار المنطقي ، كما غزت الدعاية الصحافة والاذاعة العربيتين ، وأدت الزعامة كتلك التي قدمها عبد الناصر دوراً كبيراً في زيادة حدة اول ديناميكية مصرية ثم عربية واثارة الوعي والثقة بالنفس ، غير أن وجه العملة الثاني قد تجلى في محاربة المسؤولية الفردية وعقم عبادة الفرد، وهنالك دافـع صغير بين صفوف الجيل الطالع في كل بلد عربي للاهتمام بمشاكل التنظيم الدستوري والاصلاح المحلي التي كانت تفتقر الى السحر . ولما تجلى بأن عبد الناصر أوشك على أن يوحد العرب بنفسه ، وان يهزم اعداءهم، وان يقودهم الى مستقبل مجيد ، اصبح وكل شيء يجب ان يترك بأمان للرئيس.

عبد الناصر والبعث :

بحلول عام ١٩٥٧ اصبح البعث وعبد الناصر أشد قوتين ديناميكيتين في السياسة السورية ، لقد كانا يعرفان ما يريدان ولا نعني بذلك انهما أرادا الاشياء نفسها ، والواقع ان الخلافات التي لم يجر استيعابها تماماً في ذلك الوقت قد أدت الى الكثير من المرارة وتصاعد حالة الوهم فيما بعد. وكان البعث مكرساً لاتباع طريق الوحدة العربية وأمـل انشاء دولة عربية متحدة ، ولهذه الرؤية أكثر

من هدف ايديولوجي ... كما أن الدفاع عنها يستند الى فكرة المصلحة . فقد اعتبر البعث الوحدة متصلة في سيرها بالاهداف الاخرى الرامية الى انشاء نظام اجتماعي تقدمي، وتحرير جميع اجزاء الوطن العربي من النفوذ الاجنبي، وآمن بان الوحدة والاشتراكية والحرية شعارات متصلة ويعتمد كل منها على الآخر وانها يمكن ان تؤدي الى ميلاد العرب من جديد .

ولكن كيف يمكن أن يتحقق هذا البرنامج؟ لقد اصبح واضحاً انه حتى في سورية ، قاعدة البعثيين، ليس لديهم أمل في الفوز بالسلطة في الانتخابات، ففي قمة نجاحهم الانتخابي في عام ١٩٥٥ سيطر البعث على عشرين مقعد من اصل ١٤٢ مقعدا في المجلس النيابي ، ولم يكن اكثر من جماعة من النخبة تمارس ضغطاً يمكن أن تجرفه القوى التقليدية في أي صراع حر، وليس من المستغرب القول . بان البعث لم يكن لديه اتصال بالمؤسسات السياسية القائمة، ورأى في عبد الناصر أداة وعدة في طريق تحقيق اهدافه ، كما رأى البعثيون ان الوحدة العربية لا يمكن ان تتحقق اذا ما سمح للاحداث ان تأخذ مجراها السلمي .. وان قيام عمل جريء كان ضرورياً ضد المصالح التقليدية وضد المدافعين عن الامر الواقع والعواطف الاقليمية الخاصة في كل بلد عربي . وكانت ضد الامبريالية في برنامج البعث على حساب المشكلات الاجتماعية الداخلية والسياسية ، وقد وجدوا انهم يتفقون معه في جميع المشكلات الرئيسية . والواقع انهم ظنوه وقد اصبح بعثياً مؤمناً بمبادئهم الى حد كبير في طريقة تعامله مع الدول الكبرى وفي وجهة نظره الخاصة بالاستقلال الوطني التي لا تقبل المساومة .

وكان أمراً هاماً وثميناً للبعث أن عبد الناصر ، بالاضافة الى سيابته ومواهبه الشخصية ، كان حاكماً لمصر ، لقد علمت البعث تجاربه ان الاتحاد العربي يجب أن يبدأ بمصر ، كما أوضح ذلك ميشيل عفلق :

« لقد كانت لدينا القناعة بانه لا يمكن ان تكون هناك وحدة عربية بدون وجود مصر ، ولا يعود هذا الى ايماننا بان مصر مؤهلة لتكون بروسيا العالم العربي لتوحده بقوة السلاح او إلى ظننا انه لا يمكن لاي بلد عربي أن يكون

مركزاً للتجمع . وانما لاننا رأينا قوى مصر المانعة وهي تعمل ، فقد كانت قادرة على أن تعارض بنجاح أية خطوة نحو الوحدة العربية تستبعدها من المشروع – كما في قصة الهلال الخصيب التي تثبت ذلك حتماً (١) . »

ويتميز عفلق عن خصومه السياسيين بهذا الوضوح ، وكان يبشر بمبادئه الوحدوية قبل قيام الثورة المصرية بعشر سنوات ولعب دوره في فترة الاربعينيات والخمسينيات في رفض جميع الخطط الداعية الى الاتحاد بين سورية والعراق باعتبار انها تستهدف مد النفوذ البريطاني الى سورية واشباع مطامح عبد الاله الوصي على عرش العراق ، وقد استخلص الآن الدرس الرئيسي من سنوات ما بعد الحرب التي استعرضها هذا الكتاب ، فكان من الواجب اجتذاب مصر الى مجموعة الدول العربية . وعلى ذلك قام الاتحاد بين البعث والقاهرة .. واصبح البعث اول جماعة سياسية خارج مصر تمنح عبد الناصر ثقتها ، كما وتتغلب على الشكوك وعدم الثقة في الفئة العسكرية الحاكمة في مصر والتي انتشرت انتشاراً واسعاً في العالم العربي عامي ١٩٥٤–١٩٥٥ ، واستطاع أيضاً بالصبر اغراء المصريين الانعزاليين بقبول الارتباطات والالتزامات في آسيا العربية ، والتي لا تمليها مصلحة مصر الخاصة وانما الوجدان العربي القومي . وكما قال صلاح الدين البيطار : « استيقظ عقل عبد الناصر على فكرة العروبة عام ١٩٥٣ أو ١٩٥٤ ، وكانت هذه المرة الاولى التي بدأ فيها حاكم مصري التفكير بالعالم العربي حسب شروط قومية مستبعداً الرغبة الخالصة بالسيطرة ، غير ان الفكرة العربية لم تتغلغل في مصر عميقاً ، والمصري العادي لم يشعر بعد بأنه عربي . لقد آمنا نحن في حزب البعث بأن اتحاداً مع مصر سوف يغذي فيها نفس العواطف القومية التي الهبتنا » (٢) .

ونشأت بين عبد الناصر والحزب علاقة خاصة حتى أصبح البعث في عام ١٩٥٦ من أشد الداعين له حماسة ، متمتعاً بالمقابل بقوة وثقل الدعم السياسي المصري ، وفي بداية عام ١٩٥٧ اصابت حملة الحزب للاتحاد بين سورية

(١) ميشيل عفلق للمؤلف ، بيروت ، ١٣ كانون الثاني ١٩٦١ .
(٢) صلاح الدين البيطار للمؤلف ، دمشق ، ٢٣ ايلول ١٩٦٠ .

ومصر حداً من النجاح جعلها تدخل في برنامج حكومة صبري العسلي الائتلافية التي شكلت بعد حرب السويس مباشرة .

غير أن الحماسة التي تميزت بها احلام واعمال البعث في سبيل الاتحاد لم تكن تقابل بحماسة مقابلة من المصريين ، فسياسة مصر العربية توضحت منذ اوائل فترة الاربعينيات ، كما اعيد اخراجها على يد عبد الناصر ورفاقه خلال معركة حلف بغداد ، انها لم تترك مكاناً لدولة عربية متحدة ، بل على العكس من ذلك فان جذور هذه السياسة تكمن في ميثاق الجامعة العربية لعام ١٩٤٥ حيث ركزت مصر جهودها على الدفاع عن الحدود التي تفصل بين دول آسيا العربية ضد أية محاولة للوحدة ، لقد كان يظن ان ضمان زعامتها وأمنها يكمن في الابقاء على النموذج الراهن للعالم العربي المؤلف من دول مختلفة ، والعمل على اقامة تكتلات بين هذه الدول تحت زعامتها ، وليس في تحويل وحدات عربية آسيوية صغيرة الى وحدات اكبر . تلك هي المبادىء التي قامت عليها الجامعة العربية ، التي كانت عرضة للقول بأن الجامعة كانت نصراً للدبلوماسية المصرية ضد المشروعات الهاشمية المنافسة والداعية الى انشاء سورية الكبرى او الاتحاد بين دول الهلال الخصيب ، والواقع ان الجامعة وضعت نموذجاً للعلاقات الداخلية بين الدول العربية في فترة ما بعد الحرب ، يعتبر في صالح مصر ، وأتبع ذلك بحلف الضمان الجماعي العربي في عام ١٩٥٠ . ومنذ نحو عشر سنوات أي بين عام ١٩٤٨ حتى ١٩٥٨ كثيراً ما بدت الجامعة وليست أكبر بكثير من مجرد قسم للدعاية تابع لوزارة الخارجية المصرية ، في الوقت الذي استغل حلف الضمان من قبل مصر وتحت شعار الوحدة العربية لاحتواء العراق وتكبيله وتأكيد تفوق مصر وسيادتها . وعلى ذلك فالجامعة والحلف ، بنصهما على سيادة مصر على أي دول عربية اصغر واقل قوة وتقدماً ، ظلا يكوّنان جزءاً هاماً من سياسة مصر العربية حتى قيام الاتحاد مع سورية .

كما انهما [illegible] عبد الناصر فيهما الحياة ، وقد أدت الحرب الفلسطينية والنزاع مع بريطانيا حول منطقة القناة وحلف بغداد و[illegible] بالسويس أدت بعبد الناصر الى اعادة تفسير فكرة التضامن العربي بالحاح أكبر ،

وعنت الوحدة العربية بالنسبة له – فوق كل شيء – وحدة النضال العربي ، كما عنت الوقوف صفاً واحداً في وجه الامبريالية . وعندما بشر بالوحدة العربية قبل الاتحاد مع سورية كان يعني التضامن العربي في السياسة الخارجية وفق التوجيهات المصرية وليس الوحدة بأي معنى وحدوي او دستوري ، وكان يرغب في السيطرة على السياسة الخارجية للدول العربية المجاورة – بتنحية الحكومات المعادية والاطاحة بها اذا ما دعت الضرورة الى ذلك – وليس بالحاقها او بالاتحاد معها . ويمكن العثور على تقرير رسمي لسياسة مصر العربية في ذلك الوقت في كتاب انور السادات (قصة الوحدة العربية) (٣) الذي نشر في كانون الاول عام ١٩٥٧ اي قبل شهرين من الاتحاد مع سورية ، وميثاق الضمان الجماعي العربي بدعوته الى عدم الانحياز في السياسة الخارجية – مذكور في الصفحة الثانية من الكتاب ومعظم الصفحات التالية من الفصل الاول ، وموضوع الكتاب صرخة قوية للعرب للوقوف وراء مصر ووضع الميثاق في حيز التنفيذ – الامل الوحيد للعرب – والقضاء على جميع أشكال السيطرة الاجنبية ، وليس في الكتاب ثمة اشارة الى مطامح تستهدف اقامة اتحاد جغرافي او سياسي من النوع الذي كان دائماً يلهب الوطنيين في سورية والعراق والذي كان البعث يدعو له .

غير أن السيطرة على سورية كانت ضرورية اذا ما أريد لمفهومات مصر في السياسة الخارجية الانتصار في المنطقة ، وكما اثارت تنحية حكومة فارس الخوري في دمشق (شباط ١٩٥٥) ، واستبدال حكم موالٍ للمصريين ، نقطة التحول في نضال مصر ضد حلف بغداد كذلك قضى نُزول القوات المصرية في سورية في تشرين الاول ١٩٥٧ – بموجب الحلف – على محاولات سعود لاختطاف زمام المبادرة من عبد الناصر ، وهكذا فان سياسة مصر في التضامن العربي اصبح لها مغزى خاص جداً بالنسبة لسورية ، فولاء سورية أصبح من المحتم ضمانه باعتبار أن الاشتباكات الحاسمة كانت تجري هناك. وعلى ذلك اعتنقت مصر فكرة القومية العربية بروح هادئة وعملية من غير أن يملي سياستها ايمان عميق الجذور بالوحدة السياسية كما هو الامر بالنسبة لسورية ، وانما

(٣) انور السادات : قصة الوحدة العربية ١٩٥٧ .

أملتها الاخطار الناتجة عن استمرار مجابهة اسرائيل والاعتراف بوحدة النضال بين الدول العربية في قضية الاستقلال الكلي عن الدول الكبرى ، وكانت علاقة مصر بسورية – بالتالي – تمليها مستلزمات الصراع العربي الداخلي على السلطة ، فبالسيطرة على سورية فقط تستطيع مصر أن تكون على يقين من زعامتها المحليـــة .

وقد شحنت حرب السويس هذا الاتزان ببعض الحرارة ، إذ دهشت مصر وتأثرت بفعل الموجة الكبرى المؤيدة لها في العالم العربي من طنجة الى الخليج ، وقد سبق قيام عمل مشترك وحاسم من قبل اتحادات نقابات العمال في عام ١٩٥٦ (٤) وفي ذلك الوقت اكتشف الصحفيون المصريون ورجال الاعلام والرسميون – كل اولئك الذين يبدون اهتماماً في اكتشاف وتحديد الاسس الثقافية والتاريخية لسياسة مصر العربية الجديدة – أعمال الكتاب والقوميين العرب ، بما فيهم ميشيل عفلق والبعث . وكانت التقارير التي يقدمها محمود رياض السفير المصري في دمشق ، تشير الى ازدياد الانسجام مع الحزب ، قد وجدت صدى في القاهرة وفي مكاتب الصحف بشكل خاص كروزاليوسف وصباح الخير والجمهورية التي كانت تنقل لقرائها علاقة مصر بهذه الافكار العربيـــة .

لكن العالم العربي لم يكن المنطقة الوحيدة التي أبـــدت مصر اهتماماً متزايداً بها فشعورها بالقرابة مع آسيا وافريقيا قد اتخذ نفس قوة الشد بينما أدى حلف بغداد في اوائل عام ١٩٥٥ الى أن تحدد مصر سياستها العربية ، وقد قدم (باندونغ) اليها في نفس الوقت تقريباً بلداناً أخرى مثلها تبحث عن ملجأ يحميها من الفقر وبراثن الدول الكبرى . وشعور الاخوة مع الفرد الافرو – آسيوي المضطهد يشكل عنصراً في تركيب عبد الناصر العاطفي لا يقل أهمية عن تأثره واحاسيسه بضرورة اثبات هويته الى جانب أشقائه العرب ، فقد شعر عبد الناصر بأن الحقل الذي تعمل فيه مصر لا يمكن ان يحصر نطاقه في الدائرة العربية ، ولكن

(٤) راجع كتاب انور عبد الملك : مصر مجتمع عسكري (١٩٦٢) ص ٢٤٩ – ٢٥٠ وقد ترجم الى العربية تحت عنوان : مصر مجتمع جديد يبنيه العسكريون وصدر عن دار الطليعة في بيروت.

ولتحقيق هذه المطامح يجب ان يتم ضمان القاعدة العربية في الداخل، ومن هنا تتبدى مرة اخرى اهمية السيطرة على سورية .

تلك السيطرة التي جاءت حصيلة سفارة محمود رياض في دمشق منذ اوائل ربيع عام ١٩٥٥ وحتى الاتحاد السوري المصري بعد مضي ثلاث سنوات، ومنذ ذلك التاريخ أكد عبد الناصر والزعماء المصريون الاخرون على عدم رغبتهم في ذلك الاتحاد وانه – بطريقة ما – فرض عليهم بسبب ضغط الاحداث في سورية . وكما قال محمود رياض نفسه :

« لم نطلب الوحدة مع سورية مطلقا، بل أوضحنا دائما بان الفكرة سابقة لاوانها . وقلنا لكل جماعة مارست الضغط من أجل الوحدة اننا نرفض اقامة اتحاد بقوة السلاح فنحن نعتقد ان الوحـــدة لا يمكن ان تستمر اذا ما حققت بواسطة الجيش .

لقد أدعى جميع زعماء الاحزاب السورية بانهم مؤيدون للوحدة لكن حزب البعث كان الوحيد الذي خطط للامر فعلا وطالب بخطوات عملية لتحقيقها . لقد كانت سياستنا في الواقع هي تجنب الوحدة ، إذ كنا نعلم انها ستثير كل القوى ضدنا واننا سنتهم بضم سورية وهـــذا ما حدث بالفعل (٥) »

كل ذلك كان صحيحا : فالاتحاد لم يكن حصيلة منطقية لسياسة مصر العربية ، فقد زعزع الامر الواقع الذي كانت مصر تحاول بشتى الطرق الدفاع عنه ، ولم يكن الرأى العام المصري مهيئاً لقيام علاقة عضوية مـــع دولة عربية أخرى ، بل ان عبد الناصر نفسه لم يكن قد استفاق تماماً من حرب السويس ، لكن هذه الامور يجب أن تدعم بتذكير مفاده انه اذا لم يسع محمود رياض للوحدة كما قال، فان معظم نشاطه يحتمل هذا التفسير ، فقد كان عمله ينحصر في رص سياسة سورية إلى جانب مصر ، وبمعنى آخر الفوز برضى الحكومة والجيش والشعب في سورية، لقد كان مبعوثا ناجحا جدا، والواقع أنه نشد وحاز على نفوذ عظيم جداً في الشؤون السورية مما قد يغفر لحلفاء مصر المحليين وللبعث بشكل خاص ، تسليمهم بأن الدمج هو النتيجة الطبيعيه .

---

(٥) محمود رياض للمؤلف ، القاهرة ، كانون الثاني ١٩٦١ .

قوى اليسار :

وبنفس الطريقة السطحية التي عالجت فيها مصر موضوع الوحدة قبل عام ١٩٥٧ ، فان من المشكوك فيه جدا ان يكون الاتحاد السوفييتي كان يأمل حقا - ذلك الوقت - في تأسيس ديمقراطية شعبية في سورية ، فابتداء من عام ١٩٥٥ أخذ الروس بعض المسؤوليات على عاتقهم فقدموا السلاح وعرضوا تقديم ضمانات عامة للدعم والتأييد في مواجهة الاخطار والتهديدات الغربية ، غير انهم ولا ريب ، قد اخذوا يدركون انه سيكون من الصعب الدفاع عن سوريا كجيب تقدمي في شرق اوسط معاد للشيوعية .

ولا بد انهم قد اخذوا بعين الاعتبار ايضاً ان تأييداً سوفيتيا كاملا لاستيلاء الشيوعيين على الحكم في دمشق يمكن ان ينبه ويثير غضب عبد الناصر والقادة البورجوازيين الوطنيين الذين عهد الاستراتيجيون السياسيون السوفييت اليهم بدور هام في النضال ضد الغرب . وعلى ذلك بدت السياسة السوفييتية تستهدف قيام ثورة شعبية ولكن على اساس هدف معتدل يقضي باقامة حكم بورجوازي صديق للاتحاد السوفييتي يدار من قبل الحزب الشيوعي من خلف ستار ، ذلك كان دور خالد العظم ، وربما كان السبب الرئيسي لنجاحه في السياسة السورية في ذلك الوقت يكمن في حقيقة كون اطماحه متناسبة مع اهداف السياسة السوفييتية. وكما رأينا فان العظم لا يمكنه ان يعتمد الا على دعم بسيط من اليمين ، فليس لديه ماض وطني ، كما لم يلعب أي دور في النضال ضد الفرنسيين - التجربة المركزية التي بنيت عليها السمعة السياسية لمعظم السياسيين السوريين من الجيل القديم - ويضاف إلى ذلك أن العظم ليس له حزب سياسي شخصي أو منظمة يعتمد عليها ، وربما كانت هذه الاسباب التي جعلته يلتفت نحو اليسار باحثا عن التأييد .

وكان سند العظم الرئيسي خالد بكداش زعيم الحزب الشيوعي ، وعلى رغم أنه لم يكن يشغل منصبا حكوميا الا انه كان احد اقوى الرجالات في البلاد ، وتكمن قوته في المساعدة السخية التي كان الاتحاد السوفييتي يقدمها

لسورية ، كما كان بكداش أيضا في مركز يتيح له توجيه تعليمات لعفيف البزري رئيس الاركان العامة على الرغم من انه لم يكن فعالاً كما يبدو نظرا لان قوته كانت ناشئة عن النزاع بين أهم كتلتين للضباط وهما كتلة المستقلين والبعثيين — الذين كانوا تحت قيادته بشكل اسمي ، وأحدى هاتين الجماعتين وهي جماعة النفوري المستقلة ، كانت على اتصال بسيط بالعظم .

ومن خلف ظهر الحكومة كانت سورية تحكم من قبل جبهة تقدمية منذ عام ١٩٥٦ ومن قادتها الرئيسيين خالـد العظم وزميله الشيوعي خالد بكداش وزعماء البعث الاخرون أكرم الحوراني وصلاح الدين البيطار الذي شغل مركز الرئيس المستقل وصبري العسلي الذي أخذ مركزه من استغلاله الماهر للخلافات الاخرين ، وكان هؤلاء الاشخاص الخمسة يجتمعون في منزل العظم مرارا للمناقشة والتنسيق السياسي ، وقد تقاسموا هم — بدورهم — السلطة مع حلفائهم العسكريين : عبد الحميد السراج مدير المخابرات العسكرية الذي ألقى بثقله في جانب مصر وحزب البعث ، والبزري الذي كانت علاقاته مع بكداش ، والنفوري مع العظم ، بينما كان للحوراني عدد من الاتباع في الجيش ربما كان على رأسهم كل من مصطفى حمدون وعبد الغني قنوت .

وقد خدمت هذه الجبهة الشيوعيين كثيرا بالضغط الذي مارسته مـن أجل قيام علاقات أوثق مع الاتحاد السوفييتي في فترة حرب السويس والمؤامرة الغربية على سورية ، وقد بدأ الشيوعيون في منتصف عام ١٩٥٧ يؤمنون بانه ما يزال بالامكان الحصول على المزيد من المكاسب السياسية استناداً للشعبية الكبيرة التي كانت لهم في اواسط الجماهير ، إذ كان الناس آنذاك يتوافدون على الحزب لتأييد الاتحاد السوفييتي على اعتقاد انه يمثل اتجاه المستقبل وليس بدافع الايمان العقائدي ، وفي الوقت نفسه بـدا مظهر الثقة الذي تميز به قادة الحزب ونشاط قوات المقاومة الشعبية بقيادة صلاح البزري ، شقيق رئيس الاركان العامة ، بدا انه يشير إلى ان المجال قد أصبح مفتوحا لمحاولة كلاسيكية للاستيلاء على الحكم .

وكان صيفا عكرته المؤامرة الاميركية والخوف من حدوث غزو تركي ،

غير ان تشرين الاول جاء ببعض الراحة : فقد تبع اطلاق اول قمر صناعي (سبوتنيك) انزال القوات المصرية في شمال سورية وانتخاب أكرم الحوراني لرئاسة مجلس النواب ، وربما كانت هذه آخر محاولة قامت بها الجبهة التقدمية مجتمعة . وعندما افتتح اسبوع التسلح في مطلع تشرين الثاني ، قام الرئيس القوتلي نفسه بالمساعدة في حفر خندق في الضواحي الشمالية لمدينة دمشق ، وقد كان افراد الشعب الواعون منقسمين بين اولئك الذين يعيشون في رعب من تسلم الشيوعيين الحكم وأولئك الذين كانوا يعتبرون الخطر الرئيسي كامن في قيام هجوم مسلح على سورية من قبل تركيا والغرب . وبالنسبة للبعث فإن الاحتمالين غير سائغين ، في حين أصبح الشيوعيون شركاء عدوانيين وبقي البعث يرقب تزايد قوتهم باهتمام ولم يكن هذا يعني ان البعثيين قد خافوا من ان العظم وبكداش يمكنهم ان ينجحوا في الاستيلاء على الحكم وانما كان خوفهم نابعا من انهم قد يحاولون ذلك ، وقد أدركوا ان قيام انقلاب يقوده الشيوعيون ، حتى لو أجهض ، سيبرر قيام اجراءات يمينية مضادة وتدخل غربي . تلك هي طبيعة المعضلة التي كان البعث يواجهها .

وأصبح مركز البعث مكشوفا عندما اقترح قيام انتخابات بلدية في الخامس عشر من تشرين الثاني ، وكان العظم وحلفاؤه ، بتوقعهم احراز نصر حاسم ، متشوقين إلى أجراء انتخابات كما تقرر ، غير ان البعث كان غير عازم على الاشتراك مع « العظم » في حملة يكون له فيها دور ثانوي ، كما أنه لا يستطيع نشدان التأييد في أوساط حزب الشعب المحافظ واصدقائه في بغداد والغرب ، وقد علم ان النتائج ستدرس في الخارج بعناية ، وبخاصة في اوروبا ، حيث تعتبر الانتخابات المحلية عادة دليلاً على قوة التيارات في المستوى الوطني ، اذن فالبعث ، مهدد من اليسار واليمين على حد سواء ، كما أن تجمعه يمثل اقلية ليس باستطاعتها الوقوف في الانتخابات بمفردها ، وعلى ذلك قرر مقاطعة الانتخابات فتلك الطريقة الوحيدة لايقافها .

ومن هنا ، كان ضعف البعث ، بالإضافة إلى مبادئه الوحدوية ، هو الذي أدى به إلى الضغط بالحاح خاص على انشاء اتصال رسمي مع مصر في اواخر خريف عام ١٩٥٧ ، وقد رأينا ان تحالف الحزب مع مصر قد تشكل من

خلال معركة حلف بغداد ، كما ان علاقاته بالسفير المصري محمود رياض كانت وثيقة إلى حد كبير وهناك أدلة تشير إلى أن عبد الناصر قد اصبح يعتقد ان البعث هو القوة السياسية الوحيدة التي لها شأن في سورية . وبدا للحزب ان قيام اتحاد مع مصر هو وسيلته التي يستطيع بها الانتصار على خصومه ومنافسيه ويسمح بنشر مبدأه في العالم العربي كله. ذلك كان الهدف الذي لاح مهددا بتفتت المسرح السياسي السوري ، فقد قاربت نهاية البرلمان ، واذا ما أعلن خبر اجراء انتخابات من أجل الدورة الجديدة فان الانتباه سيتحول من السعي للاتحاد إلى التحضير لحملة الانتخابات ، واكثر من ذلك فان الانقسام بين الشيوعيين والبعثيين سيسمح للاحزاب الرجعية بالتسلل والعودة الى الساحة، كما ان قيام حملة انتخابات سوف تدمر أيضا الاجماع على مسألة الاتحاد حتى ولو كانت مصطنعة، وهو الاجماع الذي علم البعث ان عبد الناصر لا يوافق على أن يتصرف دون وجوده .

وهناك اعتبار آخر يتعلق بحالة العلاقات العربية الداخلية : فعلى الرغم من ان التهديـــد المباشر بالعدوان على سورية قد انحسر ، الا ان العراق ولبنان والاردن والعربية السعودية ظلوا مرتبطين بالغرب بأشكال مختلفة ، وكانت سورية ومصر البلدين العربيين الوحيدين اللذين يشتركان في نفس السياسة والمعتقدات الاساسية ، وبدت لهما اللحظة المناسبة للوحدة . وقد ساعدت زيارة بعثة برلمانية مصرية إلى دمشق في أواخر تشرين الثاني على بلورة هـــذا الشعور .

وعلى هذا الاساس قدم البعث في كانون الاول مشروعا يقضي باقامة اتحاد فيدرالي بين البلدين . وكما شرح ميشيل عفلق فيما بعد :

« كنا نريد شيئين ربما كانا يبدوان متناقضين . فمن جهة كنا نريد دولة فيدرالية قوية مركزية تستطيع الوقوف بحزم ضد مناورات الخصوم في الداخل والدول الاجنبية في الخارج، كما كان على المؤسسات الفيدرالية ان تكون أكثر من مجرد واجهة ، كان عليها ان تكون أكثر جدية وفعالية من الجامعة العربية .

وباختصار كنا نؤمن بان الجهاز الفيدرالي يجب ان يكون أشد قوة من الادارات المحلية .

غير أن رغبتنا في حكومة مركزية قوية كان يخففها اعتبار آخر ، فقد كنا نريد اتحادا يضع اعتبارا للتاريخ السياسي المختلف لكل من القطرين ، وكنا نؤمن بأن الحساسية تجاه التقاليد المحلية لم تكن في صالح الاتحاد المقترح نفسه فقط وانما كانت جوهرية لكي تجعله جذابا للدول العربية الاخرى ، وفي مشروعنا – على سبيل المثال – دعونا إلى وجود برلمانات محلية فعالة ووجود حكومة في كل اقليم .

غير ان الاحداث تحركت بأسرع مما رسمه مشروعنا فتعذرت دراسته بعناية (٦) » .

ومنذ ازمة السويس وما بعدها ، وعندما اصبحت الدعوة إلى اتحاد سوري مصري أمرا سياسيا محضا ، أعرب الشيوعيون ايضا عن تأييدهم لفكرة اقامة الاتحاد الفيدرالي ، مؤمنين بأن وجود صيغة فيدرالية مائعة ستمنع الاتحاد من ان يصبح فعالا وتسمح لهم بأن يستمروا في نشاطاتهم الحزبية في سورية . غير أنه في نهاية عام ١٩٥٧ أدت بهم منازعاتهم مع البعث إلى اعادة النظر في « تكتيكهم »، وفي محاولة لاخذ زمام المبادهة من خصومهم ذهبوا خطوة واحدة أبعد من الدعوة إلى الاتحاد الفيدرالي مطالبين بالدمج الكامل بين سورية ومصر ، وقد كانوا واثقين من ان عبد الناصر الذي ما زال يتلكأ بالنسبة لمشروع الاتحاد الفيدرالي سوف يرفض الدمج بالتأكيد . وعقد بذلك الشيوعيون الآمال على تجميد خطط الاتحاد دفعة واحدة ، وتحطيم سمعة عبد الناصر ، وكسب شعبية لانفسهم باعتبارهم قوميين مندفعين ومن النوع الذي يضحي بنفسه ، غير أن البعث وهو غير مستعد لرؤية زعامة حركة الاتحاد تفلت منه وجد نفسه مضطرا إلى التخلي عن مشروعه الفيدرالي والمطالبة بالوحدة مع مصر ، وأصبحت جميع الاوراق – على ذلك – في يد عبد الناصر في الوقت الذي تسابق فيه المسؤولون السوريون بشوق واضح إلى تسليمه البلاد .

(٦) ميشيل عفلق للمؤلف ، ١٣ كانون الثاني ١٩٦١ .

الجيش يتدخل :

اذا كـان التنافس البعثي الشيوعي قد شكل عاملاً عجّل بالاتحاد فان الخصومات والمطامح بين صفوف الضباط السوريين قد شكلت عاملاً آخر ، فقـد تأثر كثير من الضباط تأثرا عميقا بالتيار المعادي للعراق في فترة ١٩٤٩– ١٩٥٦ ، مما جعل منهم مقاومين ومعارضين أشداء للرجعية والامبريالية في العراق، وكلهم اندفاع وتفان في ابداء حماسهم الثوري لمصر وزعيمها، فقاموا لذلك بتمتين العلاقات مـع مصر ضمن اطار القيادة المشتركة التي أسست عام١٩٥٥ على الصعيد الرسمي ،وأيضاً من خلال السفارة المصرية في دمشق التي كان احد اهدافها الرئيسية تشجيع وتقوية مثل هذه الروابط وذلك على الصعيد غير الرسمي . ولا ريب أن أي زائر لمكتب السراج في عام ١٩٥٧ لحظ على الجدار صورتي كل من جمال عبد الناصر وعدنان المالكي الذي اغتاله الحزب القومي السوري عـام ١٩٥٥ ، دون أن يرى أية صورة للرئيس السوري القوتلي، بيد أن جميع الضباط لم يكونوا من أنصار قضية الوحدة الغيورين بل انهم الحفنة من الضباط الذين شغلوا المناصب الرئيسيه في الجيش السوري–بعد ان انتصر الجيش على جميع الخصوم – كان الاتحاد مع مصر ، يبدو بنظرهم كأفضل ضمانة لاستمرار حكمهم البلاد ، وبات كثيرون منهم يؤمنون بان الاتحاد سوف يخلصهم من السياسيين المدنيين إلى الابد وان عبد الناصر سوف يشجعهم على تأسيس مجلس للثورة على النسق المصري ، وعندما قام الاتحاد كان في جانب من جوانبه حصيلة صراع طويل بين الجيش والسياسيين وهو صراع شغل السياسة السورية منذ عام ١٩٤٩ .

غير ان الضباط اضطروا إلى التوجه للقاهرة بسبب فشلهم في الاتفاق فيما بينهم ، ومنذ تنحية الشيشكلي عام ١٩٥٤ ، اصبح الجيش دون قائد يستطيع فرض نفسه على جميع الضباط ، وفي أواخر عـام ١٩٥٧ أدت المنازاعات والعداوات السياسية إلى تحويـل الجيش السوري إلى مجموعة من

---

(٥) كثيرا ما يخلط المؤلف بين معنى الوحدة والاتحاد في سياق الكتاب حين التحدث عن الوحدة بين سورية ومصر مما لا يخفى ذلك على القارىء العربي . س. ع

الاجنحة المتصارعة ، كل منها يخشى الآخر أكثر من أية قوة خارجية ، مما اضعف سلطة الجيش الرسمية إلى حد أن كل وحدة فيه كانت تتصرف كجيش مستقل . وفي اوائل كانون الثاني ١٩٥٨ جرت حادثة كان لها اثرها الفعلي : فقد تضارب ضابطان كبيران وأشهر كل منهما سلاحه على الآخر ، ولم تطلق أية طلقة او يصاب احد بأذى ، غير ان القادة العسكريين قرروا الذهاب إلى مصر طالبين تحكيم عبد الحكيم عامر القائد العام المصري للقوات المسلحة ورئيسهم الاسمي في القيادة السورية — المصرية المشتركة .

وكان للزعيم البعثي صلاح الدين البيطار يد في تشجيع الضباط على الذهاب إلى القاهرة(٧) ،كما كانت للبعث اعذاره في شكوكه باخلاص الكثير من السياسيين السوريين الذين ادعوا انهم يؤيدون مشروع الاتحاد ولكنهم كانوا يعارضونه سرا ، وعلى ذلك ساد شعور بأن قيام عمل حاسم من جانب الضباط كان ضروريا اذا ما اريد للمشروع النجاح ، وعلم البعث أيضا ان عبد الناصر لن يتحمل مسؤولية سورية ما لم تقدم له ضمانات بشأن التصدع الفاضح في الجيش السوري ، وقد اعرب عبد الناصر للبعث مرارا عن اهتمامه بهذا الامر . فأصبح البعث يؤمن بانه لن يلغى هذه المخاوف سوى قيام بعثة كبيرة من قادة الجيش السوري تعرب عن ولائها وتضع نفسها تحت امرة عبد الناصر بلا تحفظ . وفي ١٢ كانون الثاني ١٩٥٨ قام ١٤ ضابط وعلى رأسهم عفيف البزري رئيس الاركان العامة ، بالذهاب إلى القاهرة على متن طائرة (٨) .. تاركين وراءهم نائب رئيس الاركان امين النفوري ومدير المخابرات عبد الحميد السراج الذي كلف بتقديم مذكرة للحكومة تشرح رحلة الضباط المفاجئة . وقد كانت هذه المذكرة حاسمة ، اذ ذكرت

---

(٧) المصدر السابق .

(٨) يعتقد ان الوفد كان يضم عفيف البزري رئيس الاركان العامة ومصطفى حمدون رئيس الشعبة الاولى ، وأحمد عبد الكريم رئيس شعبة العمليات ، واحمد الحنيدي وطعمه العودة الله وحسين حدة وعبد الغني قنوت ومحمد النسر وياسين فرجاني وعبد الله جسومة وهم قادة الوحدات المدرعة ، وجادو عز الدين ، ومصطفى رام حمداني وهم قادة لواء المشاة ، وأكرم الديري قائد الجبهة الفلسطينية ، وجمال الصوفي قائد البحرية .

الحكومة بتعهدها الذي قطعته على نفسها لدى استلامها الحكم وهو التعهد القاضي باتخاذ الخطوات اللازمة لتحقيق الاتحاد مع مصر، واضافت ان البلاد كانت على شفا الانهيار وان الشيوعيةوحدها سوف تربح الساحة وان الضباط ذهبوا إلى مصر بحثا عن العلاج .

وقبل هذه الخطوة المفاجئة التي قام بها الضباط بوقت قصير ، ظن الشيوعيون ان من الافضل لهم تبديل تكتيكهم مرة اخرى ، وعندما أصبح واضحا لهم ان قيام نوع من الاتحاد غدا امرا لا مفر منه وان محاولاتهم الرامية إلى المزاودة مع البعث وجعل المحادثات غير مثمرة قد دفعت بخصومهم إلى زيادة التعلق بمصر، فحاولوا وبسرعة ان يرأبوا الصدع في علاقاتهم بحزب البعث . وقد نشرت صحيفة الرأي العام الدمشقية الصادرة في ٢ كانون الثاني بيانا للحزب الشيوعي حول « ضرورة التفاهم بين الشيوعيين والبعثيين الذين يشكلون معا حجرا الزاوية في الجبهة الوطنية » ، وفي الوقت نفسه ارتد الشيوعيون إلى الدعوة الى اتحاد فيدرالي غير وثيق ، وصفته احدى نشرات الحزب الصادرة في ١٣ كانون الثاني بانه قمين بأن يقيم اعتبارا للشروط الخاصة في كل من البلدين ، وقال المنشور ان هذا الشكل من الاتحاد سوف يقدم « فرصا لتعزيز الحرية والديمقراطية » . وقد كشفت هذه البيانات عن قلق خاص بشأن المستقبل .

غير أن رئيس الاركان العامة لم يتبع الشيوعيين في تبديلهم خطهم ، ومنذ لحظة وصوله إلى القاهرة تقريبا ، وإلى جانبه قادة الجيش ، أصبح واضحا انه قد اتجه إلى جانب المصريين وألقى بكل ثقله في صالح اتحاد غير مشروط مع مصر ووفق شروطها ، ولم تتضح دوافع البزري الحقيقية في ذلك ، ويعتقد البعض ان الامر مجرد انتهاز للفرص وطموح شخصي ، وربما كان البزري مترددا أيضا في معاداة تيار كان كل الجيش يؤيده ، وربما كان أكثر التفسيرات قبولا هو انه كان يتصرف بناء على تعليمات الشيوعيين : إذ ربما فضلوا لعجزهم عن ايقاف تحقيق الاتحاد ، ان يروا رجلهم في وسط الحكم بدلا من ان يروه وقد اقصي عنه لتأييده موقفهم .

الختام :

لقد سبب سفر الضباط غير المعلن الى القاهرة، الشعور بالخطر في اوساط الوزارة ، فقد كان بعيدا عن الوضوح ما كان الضباط يعتزمون القيام به ، هذا بصرف النظر عن ان خطوتهم عبرت عن تضحية يائسة بالنفس ، حين قالوا لعبد الناصر « افعل بنا ما تريد » وأضافوا : « انقذنا فقط من السياسيين ومن أنفسنا » . وفي ١٥ كانون الثاني نشرت صحيفة الجمهورية القاهرية تصريحا لعفيف البزري قال فيه بأن الجيشين السوري والمصري أصبحا منذ الآن جيشا واحدا . ولمواجهة هذا الوضع الصعب قرر مجلس الوزراء ارسال وزير الخارجية صلاح البيطار الى القاهرة ليطلع على المدى الذي وصل اليه الضباط في خطوتهم ، والواضح ان الاتحاد كان يشكل القضية الكبرى في هذه الازمة ، ولكنها كانت احدى القضايا التي لم تكن للحكومة سياسة منسجمة بشأنها نظرا للانقسامات القائمة في صفوفها ، وعندما طلب البيطار بناء على ذلك تزويده بتعليمات محددة من مجلس الوزراء حول المفاوضات التي يزمع اجراءها مع عبد الناصر رفض الرئيس القوتلي وخالد العظم وأعضاء آخرون في الحكومة ان يلزموا أنفسهم بشيء ، ونتيجة لذلك ذهب البيطار الى مصر في ١٦ كانون الثاني وهو يحمل سلطة محدودة، وقد تأثرت قدرته على المساومة بخصومة البعث مع الشيوعيين كما وبحركة الضباط المحرضة، ولم يكن باستطاعته ان يفعل أكثر من الانخراط في صفوف الضباط مستمعا لشروط عبد الناصر ، دون ان يقدم أية شروط من جانبه .

لقد كان هدف عبد الناصر منذ عام ١٩٥٥ هو السيطرة على سياسة سورية الخارجية دون ان يتحمل مسؤوليات حكمها ، وكان هدفه المعلن هو التضامن العربي أكثر من الاتحاد السياسي ، ولم يقتنع بالتفكير في الامر الثاني الا عندما تهدد الهدف الاول. وبالفعل أصبح عبد الناصر مدفوعا الى التدخل عندما تعرض تحالفه مع سورية للخطر، بفعل الفوضى في الجيش السوري وانتصاراً لاصدقائه البعثيين الذين اصبحوا عرضة لهجمات اليسار واليمين. ولكن ما أن اتخذ عبد الناصر

قراره حتى اتضح انه لم يكن مهتما بالاتحاد الذي يعطيه اقل من السيطرة الكاملة ، ولم يقبل الموافقة على الزج بنفسه في مغامرة كهذه حتى يستطيع عزل مركزي القوة في سورية : الجيش والاحزاب السياسية . وكانت شروطه ببساطة تقضي بانسحاب الجيش من السياسة وحل جميع الاحزاب، وأصر على ان تصبح أشكال الحياة السياسية في سورية على نسق مصر : وليست فوضى ضاربة الاطناب ، فسورية على سبيل ، المثال لا يمكن ان تحتفظ ببرلمانها في الوقت الذي لا يوجد فيه برلمان في مصر ، وطالب بمنحه الثقة الكاملة واطلاق يده للعمل ، فتحقق له ذلك نظرا لطبيعة الظروف .

ربما كان عبد الناصر مُحْجماً ، إلا أنه أدرك ، ولا ريب ، بعد وقت قصير مدى الدعم الذي تقدمه تضحية سورية لمطالبه بالزعامة العربية ، فهو سيصبح وفجأة وريث جميع الاحلام والآمال والأوهام الوطنية التي كانت سورية بؤرتها لفترة طويلة من الزمن ، وبعد الاقتران بهذه العروس الاشد عروبة من الجميع ،لن يكون هناك ثمة شك في ربط مصير مصر نهائيا بالعروبة . وفي العشرين من كانون الثاني نقلت صحيفة الاهرام القاهرية ان « قرارا تاريخيا » قد اتخذ في خلال اجتماع استغرق اربع ساعات بين عبد الناصر وصلاح البيطار وعفيف البزري ، وأعلنت ان الاتحاد قد دخل مرحلته العملية الراسخة ، وأعلن البيطار لدى امتطائه الطائرة المتجهة الى دمشق ، « ان الاتفاق قد تم على شكل ومحتوى الاتحاد العضوي بين مصر وسورية » .

ولكن لدى وصوله الى سورية ، لم تكن أصعب مهامه وأدقها ابلاغ الحكومة بالاجراءات الحاسمة المقترحة ، بل في الشرح لمناضلي حزبه أن نتيجة الاتحاد المباشرة ستكون ايقاف نشاطات الاحزاب جميعها . لقد كان هؤلاء الرجال مستعدين للموت من اجل الوحدة العربية ولكن لا ان يرتكبوا عملية انتحار الحزب سياسيا ، مما اضطر زعامة الحزب الى تقديم تفسيرات نظرية : فالوحدة مع مصر ، كما ابلغت كوادر الحزب ، قد صنعت في المعركة، والحزب مشغول في معارك ثورية ، وفي مثل هذه الظروف الاستثنائية تصبح الحالة بحاجة الى زعيم يجب ان يحصل على السلطة الكاملة ، وعلى ذلك دعى الى بعض التكييفات في

طبيعة نشاط الحزب وطالب بها ، ولكن اذا كان البعث سيحل، فسنولد من جديد في الاتحاد القومي – المنظمة الجديدة التي اقترحها عبد الناصر لكي تحل محل الاحزاب السياسية –.

وقد قدم عبد الناصر الى البعث تأكيدات شفوية في ذلك الوقت بان انتخابات الاتحاد القومي سوف تقام على الفور، وأتاح له أن يعتقد، بما لا يخالف المعقول: الفوز في الانتخابات لأنه –اي البعث– مهندس الاتحاد الرئيسي، لقد تخيل الاتحاد القومي أداة سياسية جديدة تضم جميع اولئك الذين يريدون بناء مجتمع اشتراكي عربي، في حين تصبح الدولة الجديدة قلعة تقدمية وقاعدة لنشر الافكار القومية عبر العالم العربي ، وفيما يطرح البعث الافكار يقدم عبد الناصر الزعامة ، وسيكون البعث ينبوعا للايديولوجية ، و عبد الناصر الزعيم والاداة العملية ، ذلك هو حلم البعث لحظة التوقيع على الاتحاد.

ومن الطبيعي أن تكون صورة هذه لأشياء كريهة لخالد العظم وحلفائه ... فقد ابدوا معارضة لفكرة الدمج الكامل وحل الاحزاب السياسية ، وفي ٢١ كانون الثاني نقلت صحافة دمشق ان العظم يتساءل عن الجدوى من قيام الاتحاد طالما أن سورية لديها ائتلاف وطني برلماني ، وفي الوقت نفسه ، و عندما أخذ الزمن يعمل ضده ، قرر البدء بمحاولة تنظيم مؤيديه وأصدقائه في حزب سياسي يتحدى فيه فكرة الاتحاد بشكل أشد فعالية . وقد حدث بناء على مبادهته وبتأييد من الرئيس القوتلي ورئيس الوزراء العسلي ، ان وضعت الوزارة خطوطا عريضة لمشروع اتحاد فيدرالي وطلبت الى البيطار ان ينقل مسودة المشروع الى القاهرة في الخامس والعشرين من كانون الثاني ، غير انه لم يلبث ان عاد الى دمشق بعد يومين: حاملا اعتراض عبد الناصر على الاقتراحات المتعلقة باقامة اتحاد فيدرالي والطلب بقيام وحدة كاملة وفق شروطه او لا شيء على الاطلاق.

ولتجاوز حالة الركود عقد السفير المصري وملحقه العسكري اجتماعا في دمشق مع زعماء الجيش السوري في الايام الاخيرة من كانون الثاني، وفيه ظهر البزري كمؤيد قوي للدمج الكامل وجذب الى جانبه الضباط ، كما أمر بتهيئة طائرة، جمع فيها اعضاء الوزارة، متوجهاً بهم الى القاهرة . وفي اليوم التالي، أي

في اليوم الاول من شباط ١٩٥٨ أعلن الاتحاد بين سورية ومصر في اجتماع عقدته الحكومتان السورية والمصرية (٩) .

كانت الوحدة بالدرجة الاولى نُصباً لعبد الناصر ، كما كانت رمز السلطته الشخصية وسمو مقامه ، فقد كان السوريون يتجهون اليه ، باعتباره الزعيم العربي الاكبر وقت الملمات ، فجاء التوحيد تتويجا لسنوات اربع من انتصاراته ضد الدول الكبرى ، استطاع خلالها البرهنة على أن تسوية ما في العالم العربي لن تم ما لم يكن طرفا فيها . إنه هو ، وليس بريطانيا او فرنسا او روسيا او امريكا ، من يقوم الآن بتشكيل النظام السياسي الجديد . وقد وصلت مصر تحت قيادته الى مركز الصدارة في المسرح العربي ، كما كانت الاتفاقية ايضا نصرا للاصرار العنيد والمهارة في المناورات لدى حزب البعث : فقد هيأ البعث الاساس بتعاليمه ، وصادق عبد الناصر قبل أية جماعة اخرى خارج مصر ، كما وقف بجانبه في كل ازمة ، وعمل على اقناعه بالسير في جانب العرب ، كما لعب في المراحل الاخيرة دورا حاسما في تسليم البضاعة : فسورية بدون البعث لم تكن لتقبل بالوحدة حسب شروط عبد الناصر .

لكن الوحدة كانت بشكل آخر ، فخاً لخداع النفس ، فقد كان البعث ساذجا اذ تصوّر ان عبد الناصر يمكن ان يسخّر لنشر فلسفة البعث ، او انه يستطيع الاحتفاظ بنفوذه وعلاقته الخاصة به عندما لم يعد بحاجة اليهما في الصراع الداخلي على السلطة ... وان يكون قد ظن ان أي حوار معه ممكن بعد ان أصبحت كل السلطات في يده ، فبالتركيز على عبد الناصر ، تجاهل البعث كليا طبيعة نظامه .

ومرة أخرى وجد الفريقان كلاهما ، اولئك السياسيون الذين ظنوا ان الوحدة ستنظم الضباط وتروضهم ، واولئك الضباط الذين ظنوا انهم سيحكمون من دون السياسيين ، وجدوا انفسهم وقد اخطؤوا الحساب ، فقد انتقل الحكم الى ايد أشد حزماً وتصميما وقد جرت مفاوضات الوحدة — اذا ما أمكن تسميتها

---

(٩) راجع دستور الجمهورية العربية المتحدة في مركز الاستعلامات العربي في نيويورك : الوثائق الاساسية لحركات التوحيد العربية (١٩٥٨) ص ٣١

بذلك – في وقت من الهياج الشعبي الكبير ، إذ كانت الوحدة العربية حلما منذ سنوات وكان الشعب السوري ملتهبا يبحث عن خطوة عملية في هذا المضمار ، ولكن اذا ما كان الشباب قد هلل للوحدة الى حد غير متحفظ فقد كانت الوحدة بالنسبة للوطنيين السوريين الاكبر سنا والشكل الذي جرت عليه تعني تدمير الاستقلال الذي ناضلوا من أجله طيلة حياتهم . وقد صرح رجل الدولة الليبرالي السوري فارس الخوري وهو على فراش الموت للمؤلف بقوله : لقد تمت في لحظة طيش، انقل الحقيقة ولو أظهرت بأنني منافق أيضا ، ذلك أنني ، رغم عدم موافقتي على قيام الوحدة ، فانني لم أعارضها علنا ، لقد ظننت في ذلك الوقت انها كانت الطريقة الوحيدة لصد زحف الشيوعية الى البلاد (١٠)

بذلك فقد الشيوعيون جولة حاسمة ، ولما كانوا ابعد نظرا من أغلب الآخرين فقد تنبأوا بالذيول المترتبة على الوحدة فورا : ففي ٤ شباط أي بعد ثلاثة أيام من اعلان الوحدة غادر خالد بكداش البلاد الى اوربا الشرقية ، بينما انقلب الحزب الى منظمة سرية ، وأعلن بكداش أن الحزب الشيوعي لم يعرف قط.. لكي يقوم بحل نفسه .

ولكن ما هو مدى ادراك الشخصية الاولى في هذه الدراما؟ لقد وافق عبد الناصر على ربط مصر بدولة لم يرها في حياته وكان ذلك بمثابة قفزة في الظلام ، وكما قال نابليون : « نلتزم ، ثم نرى » كان يعلم انها ستكون خطرة ولكنه أغري بجرأة المشروع وجاذبيته ، كما انه قد وقع في فخ دوره كبطل للحقوق العربية والتحكم في مصائر العرب ، فقد حث العرب مرارا على الاتحاد وراءه في كثير من المناسبات ، واما انه قد منح فرصة اقامة وحدة سياسية كاملة فلم يكن باستطاعته ان يتراجع ، لقد كان الوقت متأخرا جدا عندما بدأ يشرح انه كان يقصد بالوحدة التضامن فقط ، وعلى جميع الاحوال فان الانهيار المحتم للدولة السورية كان يتطلب تدخلا مباشراً أيضا .

هل أدرك عبد الناصر في هذه المرحلة مدى ابتعاده عن سياسة مصر التقليدية في المحيط العربي ؟ فقد نادى بالهجوم على الامر الواقع الاقليمي

---

(١٠) فارس الخوري في حديث له مع المؤلف . دمشق ٦ تشرين الثاني ١٩٦٠

الذي كانت مصر تقاسي الامرين للدفاع عنه في وجه الهاشميين ، وطالب بتدمير صيغة الجامعة العربية التي تكرس وجود اسرة من الدول ذات السيادة وهي الصيغة التي خدمت مصر في السابق كثيرا. وسواء أكان ذلك عن قصد أم لا فان عبدالناصر بخلقه الجمهورية العربية المتحدة التزم فجأة بفلسفة وحدوية محطمة للحدود كانت قد ترعرعت في آسيا العربية ولم تكن معروفة واقعيا في مصر ، حيث لم تكن تثير اية استجابة وعلى ذلك فقد أشغل عبد الناصر زملاءه في مغامرة اثارت شكوكهم أكثر مما أثارت حماسهم ، وربما كانت هذه هي العقبة الكبرى التي كان على الوحدة ان تتحملها نتيجة للاكتفاء الجغرافي الذي تشعر به مصر ونتيجة لنصف قرن كانت خلاله خارج الخط الذي سارت عليه حركة القومية العربية في آسيا .

غير ان الوحدة كانت تمثل تحديا لقدرات عبد الناصر كرجل دولة ، فحتى تنمو الجمهورية العربية المتحدة ولكي تؤدي ، كما حلم بذلك بعضهم ، دور النواة لوحدة عربية اشمل ولكي تدب فيها الحياة ، كانت هناك حاجة لتنظيم دستوري جديد ، فمصر وسورية معا لا يمكن ان يحكما كما تحكم مصر وحدها ، وكان على سحر شخصية عبد الناصر وجهاز الدولة في مصر ان يلتزما بمؤسسات جديدة وباشكال جديدة ايضا من التنظيم السياسي ، غير ان التقدم في هذا الاتجاه كان مخيبا للآمال ، فخلال عمر الوحدة القصير ميزت الحكومة في سورية علامات الارتجال والخطوات المؤقتة ، وكما قال ميشيل عفلق مرة ان عبد الناصر « لم يعرف كيف ينفتح على هذا الفضاء الجديد » وعلى ذلك فقد حكمت سورية في خطوط سلطة حازمة ، ولما أصبحت معزولة عن جيرانها بسبب السلطة المصرية لم تستطع ان تلعب أي دور في السياسة العربية الداخلية . وفي خلال ثلاث سنوات ونصف السنة لم تقم بأي دور قط فأصبح الشرق الادنى العربي لذلك مجمدا وفي حالة من العجز : فليس ثمة مجموعة من البلاد العربية تستطيع ان تتحدى سيطرة عبد الناصر وتفوقه ، وأقل قدر لمتطلبات سياسة مصر العربية التقليدية قد تحقق ، غير ان الدولة الجديدة لم تصبح مطلقا « المغناطيس » الذي يجذب اليه الاخرين .

لطالما قال العرب ان الشكل الذي تأخذه الوحدة لا ينطوي على أية أهمية ،

فهم يرددون «لتقم الوحدة، وسوف يأخذ الشكل ابعاده بنفسه» . لكن السبب في انهيار الوحدة كان يعود بالضبط الى عدم وجود بناء دستوري صحيح، وفي عدم وجود مؤسسات يمكن ان تنعكس عليها المصالح والامال الكبرى للدول الاعضاء، ومن اجل العثور على مثل هذه الصيغ كان العرب وعندما كنت اكتب هذه السطور . لا يزالون منهمكين في البحث عنها .

((تم الكتاب))

ثبت المراجع

مراجع في اللغة العربية

الحزب السوري القومي الاجتماعي : الى النيورجعية العربية . بيروت ١٩٤٩
العراق : مجرى الحوادث المتأتية من الانقلاب في دمشق بما يتعلق بالحكومة العراقية . بغداد ١٩٤٩
« : وزارة الدفاع . محكمة الشعب . بغداد ١٩٥٨
أحمد عيسى الفيل : سورية الجديدة في الانقلابين الاول والثاني . دمشق ١٩٤٩
عبد الرحمن الكيالي : مراحل في الانتداب الفرنسي ونضالنا الوطني . القسم الاول — الرابع . حلب ١٩٥٨ — ١٩٦٠
أنور السادات : قصة الوحدة العربية . القاهرة ١٩٥٧
شامل الرومي : الفطاير . دمشق ١٩٦٠
نضال البعث في سبيل الوحدة والحرية والاشتراكية . بيروت ١٩٦٣ — ١٩٦٤
خمسة مجلدات مجمعة تتضمن مراحل النضال منذ ١٩٤٣ الى اليوم الحاضر
الدكتور عبد الرحمن الشهبندر : القضايا الاجتماعية الكبرى في العالم العربي . القاهرة ١٩٣٦
فضل الله ابو منصور : (أعاصير دمشق) بيروت ١٩٥٩
سامي ايوب : الحزب الشيوعي في سورية ولبنان ١٩٢٢ — ١٩٥٨ بيروت ١٩٥٩
ليلى بعلبكي : أنا أحيا . بيروت ١٩٥٨ (ترجم الكتاب الى اللغة الفرنسية ميشيل باربو . باريز ١٩٦١)

زكي الارسوزي : الامة العربية : دمشق ١٩٥٨
زكي الارسوزي : مشاكلنا القومية . دمشق ١٩٥٨
جامعة الدول العربية : ميثاقها ونبذة تاريخية عنها . القاهرة ١٩٤٧
منير العجلاني : دفاع الدكتور منير العجلاني امام المحكمة العسكرية في دمشق . دمشق ١٩٥٧
صلاح الدين البيطار : السياسة العربية بين المبدأ والتطبيق . بيروت ١٩٦٠
» » » وميشيل عفلق : القومية العربية وموقفها من الشيوعية . دمشق ١٩٤٤
» » » وميشيل عفلق : البعث والحزب الشيوعي . دمشق ١٩٤٤
لطفي الحفار : ذكريات ، مجلدان ١٩٥٤
وجيه الحفار : هذه هي سورية الكبرى . دمشق .
عبد الرزاق الحسني : تاريخ الوزارات العراقية . القسم الثامن ١٩٥٥
سامي الخوري : رد على ساطع الحصري . بيروت
ساطع الحصري : آراء وأحاديث في القومية العربية . القاهرة ١٩٥١
» » : آراء وأحاديث في الوطنية والقومية . القاهرة ١٩٥٤
» » : دفاع عن العروبة . بيروت ١٩٥٦
خالد بكداش : في سبيل حرية الشعب الوطنية والديمقراطية
خطاب القي في حلب ، ٢٢ كانون الثاني ١٩٣٧
» » : في سبيل نجاح الحكم الوطني سبيل تطور بلادنا الزراعي والصناعي ننظف سورية ولبنان من العناصر الفاشستيـــه الفرنسية .
خطاب القي في دمشق ، ٢٥ نيسان ١٩٣٧
» » : العرب والحروب الاهلية في اسبانيا . دمشق ١٩٣٧
» » : الشيوعيون وتاريخ العرب . دمشق — بيروت ١٩٣٨
» » : الحزب الشيوعي في سورية ولبنان سياسته الوطنية وبرنامجه الوطني .

خطاب ألقي في بيروت ، ١ أيار ١٩٤٢

خالد بكداش : العرب والثورة الفرنسية . بغداد ١٩٤٢
محاضرة القيت في تموز في ذكرى الثورة الفرنسية

» » : شؤون التنظيم ، ١٩٤٢
القسم المنظم القاه خالد بكداش بشكل تقرير في اجتماع الحزب الشيوعي الكامل في سورية ولبنان في ايلول ١٩٤٢

» » : بعض مسائلنا الوطنية . دمشق ١٩٤٣
يشمل الكراس ثلاث خطابات

» » : عمر فاخوري ، حامل لواء الروح الجديدة في لبنان
خطاب القي في بيروت ، ١٨ آب ١٩٤٣

» » : الحزب الشيوعي في النضال لاجل الاستقلال والسيادة الوطنية . بيروت ١٩٤٤
كراس بشكل تقرير أعده بكداش قبل مؤتمر الحزب الشيوعي في سورية ولبنان ، ٣١ كانون الاول ١٩٤٣ و ١ و ٢ كانون الثاني ١٩٤٤

» » : الاتحاد الوطني في سبيل التحرر الوطني ، بيروت ١٩٤٤
ألقي في نهاية مؤتمر الحزب الشيوعي ٢ كانون الثاني ١٩٤٤

» » : الشيوعية والقومية . بيروت ٩٤٤

» » : نضالنا الوطني والاخطار الفاشستيه الخارجية والداخلية ـ
تقرير قدم الى اجتماع اللجنة المركزية ، ٢٣ تموز ١٩٤٤

» » : الشعب السوري يطلب الاستقلال والحرية وحكما ديمقراطيا شعبيا . بيروت ١٩٤٥

» » : طريقان امام سورية ولبنان . دمشق ١٩٤٥

» » : سورية بعد الجلاء . دمشق ١٩٤٦

» » : الشيوعية في سورية . دمشق ١٩٤٦

خالد بكداش : مميزات الوضع السياسي في سورية . ١٩٤٦

» » : انتفاضة الشعب العراقي وأثرها في تطور القضية العربية.١٩٤٨

» » : موقف الحزب الشيوعي السوري حول الانقلاب السوري الاخير . ايار — اوائل حزيران ١٩٤٩

» » : لاجل النضال بنجاح في سبيل السلم والاستقلال الوطني والديمقراطية يجب الاتجاه بحزم نحو العمال والفلاحين . دمشق — بيروت ١٩٥١

ظهر نفس هذا البحث في بيروت عام ١٩٥٥ تحت عنوان حزب العمال والفلاحين وبه فتح المجال وظهر أثره على البعث ومجموعات وطنية أخرى .

» » : النضال في سبيل الجبهة الوطنية وفي سبيل حكومة وطنية ديمقراطية في سورية . دمشق — بيروت ١٩٥٤

» » : حول الوضع الاقتصادي في سورية . دمشق ١٩٥٥

دور سورية التاريخي في العالم العربي . دمشق ١٩٥٥

» » : دمشق في خدمة الشعب تحت قبة البرلمان . دمشق ١٩٥٥

عبدالنعيم شميس : سنة كاملة في خدمة الشعب تحت قبة البرلمان . دمشق ١٩٥٥

نص الخطاب القاه القائد بكداش في جموع تجاوزت ٥٢٠٠٠ مواطن سوري عند نهاية العام

» » : القوميون السوريون . القاهرة ١٩٥٨

انطون سعاده : نشوء الامم . القسم الاول بيروت ١٩٣٨

» » : التعاليم السورية القومية الاجتماعية . الطبعة الرابعة . بيروت ١٩٤٧

» » : شروح في العقيدة . بيروت ١٩٥٨

موسى العلمي : عبرة فلسطين . بيروت ١٩٤٩

× ورد الاسم في النص الانكليزي عبد النعيم شميس وعلى ما اعتقد ان الاسم التبس على المؤلف ، فالاسم الصحيح هو عبد المنعم شميس الصحفي المصري ورئيس تحرير مجلة المجلات العالمية. — المترجم —

الحكم دروزه : الشيوعية المحلية في معركة العرب القومية . بيروت ١٩٦١

جمال عبد الناصر : فلسفة الثورة . القاهرة .

مذكرات الملك عبد الله : عمان ١٩٤٧

ميشيل عفلق : معركة المصير الواحد . بيروت ١٩٥٨

« » : في سبيل البعث بيروت ١٩٥٩

كلوفيس مقصود : ازمة اليسار العربي . بيروت ١٩٦٠

ناجي علوش : الثورة والجماهير . بيروت ١٩٦٢

محمد كرد علي : المذكرات . القسم الثاني . دمشق ١٩٤٨

انيس صايغ : الفكرة العربية في مصر . بيروت ١٩٥٩

الفريق محمد فوزي وحافظ محمود : دراسات في القومية العربية . القاهرة١٩٥٩

الدكتور قسطنطين زريق : معنى النكبة . بيروت ١٩٤٨

شكري القوتلي : مجموعة خطب . دمشق ١٩٥٧

قدري القلعجي : تجربة عربي في الحزب الشيوعي . بيروت

حبيب كحاله : ذكريات نائب . دمشق .

كلوفيس مقصود : نحو اشتراكية عربية . بيروت ١٩٥٧

« » : ازمة اليسار العربي بيروت ١٩٦٠

مفهومنا للتضامن العربي . : في اتحاد الشعب(بغداد) ٢٠ــ٢٤ آب ١٩٦٠

الدكتور أديب نصور . : قبل فوات الاوان . بيروت .

مراجع في لغات اخرى

انور عبد الملك : مصر مجتمع جديد يبنيه العسكريون . باريز ١٩٦٢
عبد الله بن حسين : مذكرات ملك الاردن عبد الله . ب. ب. كرافيس ، لندن ١٩٥٠
اوجين ايلي ابو شديد : ثلاثون عاما من تاريخ لبنان وسورية ١٩١٧ — ١٩٤٧ بيروت ١٩٤٨
أحمد ابو الفتح : قضية ناصر . باريز ١٩٦٢
جمال محمد أحمد : أصول فكرة القومية المصرية . لندن ١٩٦٠
خالد بكداش : (من ترجمة ه. كليدن) تقرير اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في سورية ولبنان في كانون الثاني ١٩٥١ . ميدل ايست جورنال ، العدد السابع (١٩٥٣)
« « : الميثاق القومي للحزب الشيوعي في سورية ولبنان. بيروت ١٩٤٤
مورو بيرجر : العالم العربي اليوم : نيويورك ١٩٦٢
جاك بيرك : عالم العرب السياسي، الموسوعة الفرنسية، المجلد الحادي عشر باريز ١٩٥٧
« « : العرب بين اليوم والغد . بارنر ١٩٦٠
ليونارد بندر : القومية الاصلاحية الراديكالية في سورية ومصر . العالم الاسلامي (١٩٥٩)
لورد بيردوود : نوري السعيد ، دراسة في الزعامة العربية ، لندن ١٩٥٩
جون . س . كمبل : دفاع عن الشرق الاوسط . نيويورك ١٩٦٠

الفورد كارلتون : الانقلاب السوري عام ١٩٤٩، ميدل ايست جورنال ،
العدد الرابع والاول (١٩٥٠)
ارسكين تشايلدرز : الطريق الى السويس . لندن ١٩٦٢
مارسيل كولمب : تطور مصر ١٩٢٤ — ٥٠م باريز ١٩٥١
» » : مصر وأصول القومية العربية. مجلة آسيا وافريقيا العدد١٤
(١٩٥١)
ر . كـــراو : دراسة عن القوى السياسية في سورية. بالاعتماد على
انتخابات ١٩٥٤ ، ايار ١٩٥٥ ولم ينشر بعد
ارنست دون : ظهور فكرة العروبة في سورية . ميدل ايست جورنال
العدد الثامن (١٩٦٢)
وثائق عن نشوء جامعة الدول العربية . صحيفة الاوريان العدد ١٤ (١٩٦٠)
انطوني ايدن : مذكرات السير انطوني ايدن ، ثلاث اجزاء ، لندن ١٩٦٠
وزارة خارجية مصر. وثائق ومحادثات ، ملاحظات ومذكرات متبادلة بين
حكومة المملكة المصرية وحكومة المملكة المتحدة . آذار
١٩٥٠ تشرين الثاني ١٩٥١ القاهرة ١٩٥١
نبيه امين فارس و . م . ت . الحسين : أزمة الهلال : دراسة تحليلية للعـــالم
العربي الحديث . جامعة كنساس .
باريز ١٩٥٥
سيدني فيشر : القوى الاجتماعية في الشرق الاوسط . كورنيل ١٩٥٥
ر . ن . فري : الشرق الادنى والقوى العظمى . كامبردج ١٩٥١
روني. ى. كابي : دراسة سياسية عن النزاع العربي اليهودي . جنيف ١٩٥٩
سير الكسندر وبارترز جب : التطور الاقتصادي في سورية . لندن ١٩٤٧
سيلفيا هيم : القومية العربية . المختارات . لوس انجلوس ولندن ١٩٦٢
مانفرد هلبرن : سياسة التغيير الاجتماعي في الشرق الاوسط وشمال افريقيا.
برنستون ١٩٦٢
عبد الرحمن حميده : منطقة حلب ، دراسة في الجغرافيه الريفية ، باريز ١٩٥٩

عبد الرحمن حميده : مدينة حلب ، دراسة في جغرافيه المدن . باريز ١٩٥٩
يوسف حلباوي : سورية ، دراسة تقيمية لبلاد نامية . باريز ١٩٥٦
دون هيورث : الاتجاهات السياسية والدينية في مصر الحديثة . واشنطن ١٩٥٠
فيليب حتّي : تاريخ سورية ولبنان وفلسطين . نيويورك ١٩٥١
البرت . ه . حوراني : سورية ولبنان . لندن ١٩٤٩
« « « : تدهور الغرب في الشرق الاوسط . مجلة الشؤون الدولية ، كانون الثاني ــ نيسان ١٩٥٣
« « « : رؤية للتاريخ . بيروت ١٩٦١
« « « : الفكر العربي في عصر التحرر ١٧٩٨ ــ ١٩٣٩ لندن ١٩٦٢
سيسيل حوراني : الجامعة العربية في المنظار . ميدل ايست جورنال العدد الاول والثاني (١٩٤٧)
ارسلان همبراشي : اتهام الشرق الاوسط . لندن ١٩٥٨
ج . س . هورويتز : معضلات الشرق الاوسط : خلفية سياسة الولايات المتحدة نيويورك ١٩٥٣
« « « : الدبلوماسية في الشرقين الادنى والاوسط ، تقرير وثائقي ، قسمان : ١٩١٤ ــ ١٩٥٦ برنستون ١٩٥٦
اسحق موسى الحسيني : الاخوان المسلمون . بيروت ١٩٥٦
البنك الدولي للانشاء والتعمير . التطور الاقتصادي في سورية . بالتيمور . جونز هوكنز بريس ١٩٥٥
ميشيل ايونيدس : فرق تخسر : الثورة العربية ١٩٥٥ ــ ١٩٥٨ لندن ١٩٦٠
سيمون جارجي : انحلال الحزب . صحيفة الاوريان رقم ٢ (١٩٥٩)
« : سورية . باريز ١٩٦٢
ر . ك . كرانجيا : فجر العرب . بومباي ١٩٥٨

ب . كربليه : التغلغل الاقتصادي لبلاد الكتلة السوفيتية في الشرق الاوسط. صحيفة الاوريان رقم ١٣ (١٩٦٠)

مجيد خضوري : التطورات الدستورية في سورية . ميدل ايست جورنال (١٩٥١)

« « : العراق المستقل ١٩٣٢ – ١٩٥٨ لندن ١٩٦٠

وليد الخالدي : الاتجاهات السياسية في الهلال الخصيب (١٩٥٨)

جورج كيرك : الأحداث المتعارضة في الجامعة العربية : مشروع سورية الكبرى مجلة العالم اليوم كانون الثاني ١٩٤٨

« « : موجز تاريخ الشرق الاوسط . لندن ١٩٤٨

« « : الشرق الاوسط في فترة الحرب ١٩٣٩ – ١٩٤٦. لندن ١٩٥٢

« « : الشرق الاوسط ، ١٩٤٥ – ١٩٥٠ لندن ١٩٥٤

« « : السياسة العربية المعاصرة نيويورك ١٩٦١

سير ا . كيركبريد : تقصف الأشواك . لندن ١٩٥٦

ج و س . لاكوتور : تحرك مصر باريز ١٩٥٦

ميشيل ليزي : من فكرة الوحدة العربية الى الجامعة العربية باريز ١٩٤٨

ه . لا مانس : سورية ورسالتها التاريخية . القاهرة ١٩١٥

« « « : سورية ، موجز تاريخي . بيروت ١٩٢١ مجلدان

ولتر لاكور : الشيوعية والقومية في الشرق الاوسط . لندن ١٩٥٦

« « : الشرق الاوسط في مرحلة الانتقال . لندن ١٩٥٨

« « : الاتحاد السوفيتي والشرق الاوسط . نيويورك ١٩٥٩

الاتحاد السوفيتي والشرق الاوسط . صحيفة الاوريان رقم ٢ (١٩٥٧)

نورمان لويس : حدود ايجاد تسوية فيسورية ١٨٠٠–١٩٥٠ مجلة الشؤون الدولية كانون الثاني ١٩٥٥

ليتل توم : مصر . لندن ١٩٥٨

س . ه . لونغريج : العراق ١٩٠٠ الى ١٩٥٠ : سياسيا واجتماعيا وتاريخيا واقتصاديا . لندن ١٩٥٣ .
« « « : سورية ولبنان تحت الانتداب الفرنسي . لندن ١٩٥٨
جبران مجدلاني : حركة الاشتراكية العربية.ميدل ايست ترانسيشن(١٩٥٨)
جون مارلو : القومية العربية والامبريالية البريطانية . لندن ١٩٦١
اليزابيت مونرو : فرصة بريطانيا الملائمة في الشرق الاوسط ١٩١٤—١٩٥٦ لندن ١٩٦٣
حازم زكي نسيبه : فكرة القومية العربية . ايساكا ١٩٥٦
نوري باشا السعيد : استقلال العرب والوحدة . بغداد ١٩٤٣
بانشاك اورون : تاريخ فكرة حزب البعث العربي. مجلة الشرق الادنى، العدد الرابع (١٩٥٩)
و . ر . بولك : اميركا في الشرق الاوسط : ١٩٤٧—١٩٥٨ . انطوني بابيرز العدد ١١ لندن ١٩٦١
أدمون رباط : الولايات السورية المتحدة . حلب ١٩٢٥
« « : الوحدة السورية والصيرورة العربية . باريز ١٩٣٧
ج . راستير : بحث عن الاشتراكية السورية. صحيفة الاوريان، رقم ٤ (١٩٥٧)
بيير روندو : الولايات المتحدة ازاء الشرق اليوم. صحيفة الاوريان رقم ٢ (١٩٥٧)
« « : الميول الاقليمية والوحدوية في سورية صحيفة الاوريان رقم ٢ (١٩٥٨)
« « : مصير الشرق الادنى . باريز ١٩٥٩
المعهد الملكي للشؤون الدولية . مسح للشؤون الدولية ١٩٥١ — ١٩٥٢ — ١٩٥٣ ١٩٥٤ — ١٩٥٥ — ١٩٥٦ و ١٩٥٧ — ١٩٥٨
ذي ميدل إيست : مسح سياسي واقتصادي للشرق الادنى . لندن ١٩٥٨
المصالح البريطانية في الشرق الاوسط . تقرير اعدته جماعة كاثان هاوس . لندن ١٩٥٨

نداف سفران : مصر والبحث عن مجتمع سياسي . هارفارد ١٩٦١
فايز صايــغ : الوحدة العربية : أمل وتحقيق . نيويورك ١٩٥٦
كول . و . ف . ستيرلينغ : الأمن يسود . لندن ١٩٥٣
صلاح الدين الطرزي: الخدمات العامة في لبنان وسورية . بيروت ١٩٤٦
وثائق لوزارة الخارجية الامريكية : سياسة الولايات المتحدة في الشرق الأوسط
ايلول ١٩٥٦ – الى حزيران ١٩٥٧
واشنطن (١٩٥٧) .
ب . ج فاتيكيوس : الجيش المصري يمارس السياسة . انديانا ١٩٦١
جورج فوشيه : جمال عبدالناصر ومعانوه. باريز١٩٥٩–١٩٦٠ مجلدان
دورين وارنر : الاصلاح الزراعي والتنمية في الشرق الاوسط (١٩٥٧)
جــاك فيلرس : الفلاحون في سورية والشرق الادنى . باريز ١٩٤٦
كيث ويلوك : مصر الجديدة . نيويورك ولندن ١٩٥٧
غي وينت وبيتر كالفوكوريسي : أزمة الشرق الاوسط ، لندن ١٩٥٧
ويلتون وين : عبد الناصر : البحث عن الكرامة .
زين زين : العلاقات العربية التركية ونشوء فكرة القومية العربية
بيروت ١٩٥٨
« « : الكفاح من اجل استقلال العرب . بيروت ١٩٦٠
نقولا زياده : سورية ولبنان . لندن ١٩٥٧

فهرس

هـذا الكتاب

يعالج كتاب « الصراع على سورية » فترة هامة من تاريخ القطر العربي السوري ، ويتناول مرحلة الاستقلال حتى قيام الوحدة بين القطرين السوري والمصري .

وقد كان مؤلفه من خيرة المؤرخين الغربيين موضوعية حيث قال : إن هذا الكتاب يقوم بتفسير وكشف ماضي بعض المشكلات المعاصرة ، وهو لا يحابي أية دولة ولا أي زعيم أو حزب أو مبدأ ، كما أنه لا يقف ضد أحد منهم .

ان التكتلات السياسية وطبخات الأحزاب والدسائس والمؤامرات التي تهيأ لها أن تجاري او تعارض الحكم القائم في تلك الفترة ، قد كشفها المؤلف في هذا الكتاب بكل تجرد وصدق وأمانه . كما ولج في أحيان كثيرة أبواب مواضيع وحوادث متفرقة ، قلما كان رجل الشارع السوري « بصفة خاصة » قد أطلع على حقيقة مجراها .

لذلك جاء عمل « باتريك سيل » عظيماً في هذا الكتاب الذي لاغنى عنه للقارئ العربي .

المترجم

